

1167

BOBST LIBRARY



3 1142 03153 6017



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewals:
<http://library.nyu.edu>
Circulation policies
<http://library.nyu.edu/about>

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

<p>DUE DATE OCT 31 2006 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>		

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE

9169,3
٩١ ٨٩٣

al-Rāfi 'ī, Muṣṭafā Ṣādiq

X/3 1124

/Tārīkh ādāb al-'Arab,

مصطفى صادق الرافعي

٤٦

تاريخ آداب العرب

الجزء الثالث

٤٦



أخرجه

محمد سعيد العرابي

[Faint, illegible handwriting]

[Large, faint, illegible handwriting]

PJ

7510

, R3

1953

v. 3

c. 1

[Faint, illegible handwriting]

يطلب من

للكتبة التجارية الكبرى - شارع محمد علي - مصر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٣٧٢ هـ - ١٩٥٤ م

مطبعة الامتقانة بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلت عن طريقة الرافعي في الكتابة ما وسعني أن أعرفه بنفسى حين كنت أكتب له ، فقد أملى عليّ أكثر من مائة مقالة كنتُ شاهده فيها إذ يُلقَى الوحي ، ويهذب الفكرة ، ويرتب المعاني ، ويتألف الألفاظ ، حتى تفصل عنه المقالة إلى نفس قارئها كما هي في نفسه .

وأحسب أن طريقته العاكة في كل ما كتب من المقالات هي ما وصفت عن عيان وملاحظة ، ولكن لم يتبأ لي أن أشهده حين يؤلف في موضوع من موضوعات العلم ، بما يقوم على التبع ، والاستقراء ، وتقليب الصحائف ، وبعث الدفاتن ، والارتفاق إلى السكتب ، والاستعانة بما انتهى إليه السابقون من حقائق العلم ونتائج البحث والروية ، ثم التهدّي من ذلك إلى رأى ينتهى بمقدماته إلى نتيجة .

وأنا قد قرأت الجزء الأول من كتاب تاريخ آداب العرب منذ بضع عشرة سنة ، وأملت منه بما أملت ، واهتديت به ما اهتديت ؛ ثم عدت إلى نفسى أسألتها : أين ومتى اجتمع لمؤلفه هذا القدرُ من المعارف في شتون العرب والعربية فألف بين أشتاتها في هذا الكتاب ؟

وظل هذا السؤال قائماً في نفسى زمناً وما أزال من مطالعاني في الأدب القديم أقع على شيء بعد شيء في صفحات متفرقة من كتب عدة يُنسب آخرها أولها من تباعد الزمان بينها ، وكلها مما اجتمع للرافعي في كتابه .

وكان ذلك يزيدني عجباً وحريرة .. وهممت أن أسأل الرافعي مرة ، ولكني لم أفعل ؛ وهممت أن أعرف بنفسى فلم أبلغ ؛ ثم عزوت ذلك إلى ذاكرة الرافعي وسرعة حفظه ؛ وقلت : متفرقات قد عرفها في سنين متباعدة فوعتها حافظته ، فلما همّ أن يؤلف كتابه أمدهته الذاكرة بما وعت منها ، وكان مستحيلاً عليه أن يجمعها لو لم تجتمع له من ذات نفسها ، واطمأنتت إلى هذا الاستنتاج ونسبتُ إليه عدم ذكر الرافعي للمراجع التي استعان بها في ذلك الكتاب ؛ لأنه يروى عن ذاكرته ؛ ثم قرأت له بحثه في (الرواية والرواة) ؛ فإذا هو يتحدث عن أثر الحفظ في مؤلفات العلماء ، وينادى بإحياء هذه السنة ، سنة حفظ العلم واستظهار كتبه^(١) ؛ فنأكد لي ما رأيت ، وكان وهماً من الوهم عرفت حقيقته فيما بعد ...

* * *

يعرف قراء العربية أن كل كتب المراجع في لغتنا ليس لها فهارس تعين الباحث على التماس ما يريد منها في أقصر وقت ، إلا بضع كتب من المطبوعات الحديثة ؛ فالأغانى ، والعقد الفريد ، والكامل ، والعمدة ، والخزانة ، والحيوان ، والبيان والتبيين ؛ وكتب الطبقات ، وحتى كتب الفهارس والتراجم ، ليس لها فهارس يمكن الاعتماد عليها عند البحث ؛ فمن أصاب منها غرضاً فعن طريق المصادفة والاتفاق ، أو بعد المطاولة وضياح الزمن ؛ وحسبى أن أذكر أتى ذات مرة أنفقت ليلة كاملة في البحث عن كلمة في البيان والتبيين ثم لم أعثر بها فطوبته على سأم وملالة ؛ فلما كنت بعد أيام وقد فات على الغرض الذى كنت أقصد فتحت الكتاب عرضاً ، فإذا الكلمة التى كنت أريدها أمامى ... هذه الحقيقة يعرفها كل من عانى مشقة البحث في هذه الكتب ، فهى كتب

للقراءة المجردة لا للبحث والتنقيب العلمى . عرف الرافعى ذلك فاتخذ له طريقا ...
فكان أول ما يصنع أن ينتخب كل الكتب التى يعنيه أمرها فيما يمهده
من البحث فيقرأها كلها قراءة درس ؛ أعنى يَنْفُضُهَا نَفْضًا بحيث لا يفوته
منها معنى يتصل بموضوعه . ثم يشرع بعد ذلك فى العمل ، فيكتب لكل
كتاب مما قرأ ملخصا يضم المجلدات الكثيرة فى كراسة أو كراسات يرجو
أن تغنيه عن أصولها المطولة . ثم يعود إلى هذه الملخصات فيرتب أجزاءها
ترتيباً يضم القريب إلى القريب بحيث يجد طلبته عند النظرة الأولى من غير
أن يتعب فى تقليب الأوراق . ثم تكون الخطوة الرابعة ، فيزواج بين
ملخصات الكتب المختلفة بضم الأشباه منها إلى الأشباه . ثم يكتب ...

ثم يعود إلى ذلك المكتوب فيقرؤه قراءة الباحث : يزواج بين رأى ورأى
ليُخْرِجَ منهما إلى رأى ثالث .. وتجتمع له من ذلك المقدمات التى تبلغ به النتيجة ...
ثم تانى المرحلة الأخيرة ، وهى التهذيب والصقل الفنى ، من صناعة
البيان وتحكيك الألفاظ وتجميل المعانى وتزيين الأسلوب .

سمع مراحل بين البدء والنهاية ... ثم يخرج الكتاب لقارئه ليسائل
نفسه فى عجب : ابن ومى اجتمع لمؤلفه ذلك القدر من المعارف فى شتون
العرب والعربية فألف بين أشباتها فى هذا الكتاب ؟

سؤال كنت أسأله نفسى قبل أن أرى وأعرف وأضع يدي على تلك
الأوراق التى خلفها فى درج مكتبه لأؤلف من أشباتها هذا الكتاب .

قلت : كانت المرحلة الأولى فى مؤلفات الرافعى العلمية أن يختار طائفة
من الكتب يرجو أن تعينه على البحث ... وأقول إن أول ما كان يختار
من ذلك ، كتب التراجم . وطريقته فى التحصيل من هذه الكتب ، أن يقرأ

الكتاب ما بين دفتيه ، ثم يكتب له ملخصاً يشمل أسماء أهل الفنون الأدبية وامتياز كل منهم ، مثل الشعراء ، والخطباء ، والكتاب ، والرواة ؛ ثم أسماء الكتب ، وموضوعها ، وفنون العلم ، ومعارضات العلماء بعضهم لبعض ؛ ثم الطرائف الأدبية التي تشير إلى معنى يتصل بشيء من موضوعه . وفي كتب التراجم من هذه الطرائف ما ليس في كتاب .

وأستطيع أن أقول جازماً : إن الرافعي اعتمد على كتب الطبقات والتراجم في الجمع لهذا الكتاب أكثر مما اعتمد على الكتب الخالصة للأدب ، وكان اتجاهه إلى ذلك سبباً في توفيقه إلى ما لم يوفق إليه غيره في موضوعه .

• • •

قدّمت في الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر السبب الذي حفز الرافعي للتأليف في تاريخ آداب العرب ، قلت : إنه انقطع لذلك في منتصف سنة ١٩٠٩ ثم أخرج الجزءين الأول والثاني في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ ولم يظهر له بعد ذلك شيء حتى وافاه أجله !

وكنت سمعت منه رحمه الله أنه أتم الجزء الثالث ورأيت موضعه من خزانة كتبه ، ولكني لم أقرأ منه شيئاً ولم أعرف موضوع بحثه ، ثم قرأت على غلاف بعض مؤلفاته المطبوعة إعلاناً عن الجزء الثالث وموضوعه « تاريخ الخطابة والأمثال والشعر » فأيقنت أنه كتاب تام التأليف والتصنيف .

فلما كان الشتاء الماضي وانفتحت « المكتبة التجارية » على نشر مكتبة الرافعي ، ذكرتُ فيما ذكرتُ هذا الكتاب وعرضتُ أمره ؛ فرغبت المكتبة في نشره ووكّلتُ إليّ أن أقوم بترتيب مواده وتنظيم أبوابه وتحقيق أصوله وإعداده للطبع ، وضربتُ لذلك أجلاً قريباً ، فرضيتُ ؛ كل ذلك

ولم أقرأ الكتاب ، ولم أستيقن موضوعه ، ولم أطلع عليه ، وكلُّ مبلغى من العلم به أتى أعرف موضعه من خزانة كتب مؤلفه ...
وأخذت أهبتى للعمل ، وزرت المكتبة التى خلفها صاحبها أوراقاً مركومة وكتباً تستند إلى الجدران ؛ وبحث عن الكتاب حتى عثرت به ، وكشفت عنه ، فعرفت ...

هذا كتاب مطبوع بين يدي قارئه ، لا يكاد يخطر بباله حين يراه أن يسأل نفسه : ما كان هذا الكتاب وماذا صار ؟ ولكنى محدثه بخبره ، لعله - إن عرف - يجد لي عذراً بما قد يراه فيه موضعاً للعتب أو المواقفة :
لقد كنت مخطئاً حين حسبت في أول أمرى أنى سأجد حين أجد كتاباً تام التاليف والتصنيف ليس علىّ منه إلا أن أهينه للطبع ثم أصحح تجاربه في المطبعة ؛ فإنى ماكدت أحلّ الرباط عن الأضابير التى تضخمه حتى وجدت أوراقاً بالية حائلة اللون من تقادم السنين ، وقصاصات مبعثرة على غير نظام لا يكاد يُعرف أين مكانها من موضوعات البحث ...

... ثم جهدت أن أعرف موضوعات الكتاب ، ونهجه ، وتبويبه ؛ فلم أهدى إلى شيء ، ولم أجد بين يديّ إلا ورقات قد اجتمعت على غير ترتيب ولا نظام ، في كل صفحة منها حديث عن موضوع ، ليس لها بما قبلها ولا بما بعدها سبب ...
... وحاولت أن أقرأ صحيفةً بما بين يديّ ، فأعياى ذلك إعياء أياستى من الاستمرار . . . فإن خط الرافعى كما قلت في بعض ما كتبتُ عنه : هو أردأ خط قرأتُ في العربية ؛ حتى لقد كان يعيا هو نفسه أحياناً عن قراءة بعض ما يكتبه بخطه بعد مضيّ ساعات ! ...

... وحملت على نفسى ما حملت ، ومضيت في القراءة متكلفاً ما لا قبل لي

به؛ فإذا الحديث ينقطع بعد أسطر، وإذا هو يُجمل على مراجع مختلفة يريد أن ينقل منها نصاً، أو خبراً، أو رأياً، ومنها ما لا أملك ولا يتيسر لي، وقد يذكر رقم الصفحة المنقول عنها وقد لا يذكره، وحيناً يذكر رقم الصفحة ويُغفل اسم الكتاب... وأحياناً كثيرة يقول: «ص كذا كتاب كذا إلى العلامة»، وهو يعنى علامة وضعها على الصفحة المشار إليها في نسخته الخاصة. وأين منى نسخته الخاصة وبينى وبينها من الزمان ربع قرن أو يزيد وبينى وبين خزانة كتبه ما بين القاهرة وطنطا؟

تلك صعوبات لم أكن أتوقعها حين رضيت القيام على نشر هذا الجزء، ولكنى لم أستطع أن أنكص. وحاولت أن ينسأ الناشرُ الأجل المضروب لتقديم الكتاب إلى المطبعة حتى أفرغ منه على وجه تطمئن إليه نفسى؛ ولكن ضرورات تجارية كانت تحدّده مواعيده.. فطأطأت رأسى وقلت: ذلك على أىّ أحواله خيرٌ من إهمال الكتاب حتى يأتي عليه الزمن. وأخذت في طريق...

أما ترتيب الكتاب فقد استهديت فيه بما ذكر المؤلف عن نمط الكتاب وأبوابه في الجزء الأول (ص ١٨ - ١٩) ومقتضى هذا الترتيب أن يكون أول هذا الجزء - الباب الرابع في تاريخ الخطابة والأمثال، ولكنى لم أجد فيما بين يديّ من المخطوط حديثاً عن هذا الباب، إلا فهرس وجُزوات وأرقام صفحات في مراجع مختلفة؛ فتركت هذا الباب إلى ما بعده، وجعلت أول الكتاب الباب الخامس في تاريخ الشعر ومذاهبه وفنونه؛ ثم رتب فصول هذا الباب على ما بدا لي، وكذلك فعلت في البابين السادس والسابع، ثم تجاوزت البابين الثامن والتاسع، إذ كان شأنهما شأن الباب الرابع؛ ثم أثبت في الباب العاشر فصلين كنت أحسهما مما يشملهما موضوعه، ثم بان لي

من بعدُ أنه أعدهما ليكونا تماماً للباب الخامس ؛ ولكنى كنت قد فرغت من طبع ما قبلهما فلم أستطع تدارك ما فات (انظر التعليق ص ٣٥٨) . وكان شأن الباب الثاني عشر شأن الأبواب المُغفلة مما سبق .

وقد عيّيت بقراءة خط المؤلف في كثير من المواضع مع وضوح القصد ، فالتمت في مثل هذه الحال أن أثبت في موضع الكلمات المُشككة ما أراه أليق بموضعها من الكلام ، أو ما أراه أشبه بالرسم من كلمات المؤلف ، وجعلت ذلك بين العلامتين [] تمييزاً له ؛ وقد أعيا بالقراءة ثم لا يبين لي القصد ، فأثبت مكان ذلك علامة الحذف على أن ذلك قليل .
وفي بعض فصول الكتاب كان لي تصرّف يتم به المعنى أو يتسق التأليف ويتساق الكلام ؛ فنبهت إلى مثل ذلك في هامش الكتاب عند موضعه (انظر فصل الشاعرات ص ٥٥ وغيره) وجعلت فرق ما بين التعليق الذي أكتبه والتعليق الذي يكون من عمل المؤلف أن يسبق التعليق الذي أكتبه علامة (هـ) وكلمة (قلت) .

وإذ كان خط المؤلف على ما وصفت ، وعلى ما يدل النموذج المصور مع هذه المقدمة ، فإن أشق ما عانيت كان في قراءة الأعلام ؛ ولم تنهياً لي الفرصة لمراجعة كل هذه الأعلام وتصحيحها ؛ فصححت ما صححت منها وتركت سائرهما على ما هو ؛ إذ كان في التعجيل بنشر الكتاب حفظ له من الضياع وكان تحقيق الأعلام شيئاً يمكن استدراكه . على أني أحسب أن المؤلف رحمه الله لم يكن قد فرغ من تأليف الكتاب والبلوغ به إلى المرحلة الأخيرة من مراحلها في التأليف على ما وصفت في أول هذا البحث ؛ فنقل كثيراً من الأعلام كما هي في مراجعتها ولم يفرغ من تحقيقها ، وكذلك جاءت في

هذا المطبوع . فهذه معاذيرى أقدمها لعلها تسكون شفيحاً عند الناقد المتصفح .
ولا يفوتنى وأنا أكتب هذه المقدمة ، أن أنوة بالمساعدة المشكورة التي
أسداها إلى (أحمد ممدوح دسوقي أفندى) المدرس بوزارة المعارف فقد قام
بنسخ الكتاب عن أصله المكتوب بخط المؤلف ، وهو عناء فوق ما أصف ،
احتمله راضياً لوجه العلم ووفاء بحق الراقى على أهل الأدب وتقديراً لا يادية

ولا أختم هذا الحديث قبل أن أذكر ما وقفت عليه من تاريخ تأليف هذا
الكتاب ، فقد كنت أحسب أن ذلك كان بعد سنة ١٩١٢ ، أى بعد الفراغ
من إصدار الجزء الثانى ، ولكنى رأيت إشارات فى بعض الفصول من هذا الجزء
تدل على أن تأليفها كان قبل ذلك التاريخ (انظر التعليق ص ١٣٠ ، ١٩٠ ، ٢٣٩)
ولعله بدأ به مع الجزء الأول فى منتصف سنة ١٩٠٩ ثم رتبته أجزاءً وأبواباً فشر
منه ما نشر وطوى ما طوى . وما يرجع عندى هذا الظن ، أن جزأيت مما
كتب عليها بعض مباحثه ، هى (استمارات) استعارة كتب من المكتبة الخديوية
وعليها تاريخ الاستعارة ، ولا يكون ذلك إلا أن يكون تاريخ التأليف هو
تاريخ الاستعارة . وما يلد أن أذكره هنا أن جزأة من هذه الجزآت هى
تذكرة دعوة إلى عرس عليها تاريخها ، قد اتخذ ظهرها للكتابة ...

أما بعد ، فهذا كتاب جديد قديم ... أحسب أن قراء العربية كانوا فى شوق
إليه ، فلعلهم إذ يقرءونه يجدون فيه - على قدمه - جديداً كانوا يتشوقون إليه ؛
فيذكرون مؤلفه بما بذل للعربية حياً وميتاً ؛ فيدعون له دعوة ترطب ثراه ،
وتسكون له شفاعة عند الله ؟

محمد سعيد العريان

٢٠ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٩

٢٧ من مايو سنة ١٩٤٠

الباب الخامس

في تاريخ الشعر العربي ومذاهبه

والفنون المستحدثة منه

وما يلتحق بذلك

يامعـين*

الأقوال في أولية الشعر العربي

إذا ذهبنا نتبع الشعر العربي إلى أوليته ، وأينا لدينا من أحوال الجاهلية تاريخا سقيم التركيب متفكك الأجزاء مضطرب الجهات ، لا يكشف منه التعب ولا يبلغ فيه النصب ؛ وإذا كان ما ورد في كتب اليونان والروم عن جزيرة العرب ، وما كشفوه من الآثار في هذا العهد ، مما يستأنس به في تاريخ بعض أول الجاهلية ، فليس للشعر من مثل ذلك شيء ، لأنه لا يعنى غير أهله ، وهم عرب أميون ، ولم يكن للشعر في جاهليتهم الأولى ما كان له من الشأن في جاهليتهم الأخيرة ؛ نعرف ذلك من تتبع أحوالهم الاجتماعية كما سنشير إليه .

وقد تصفحنا التواريخ العربية وراجعنا ما نقلوه عن أهل الرواية وهم مصدر آداب الجاهلية وأخبارها ، فرأينا أن ما كتبوه من ذلك إذا صلح أن ينقل فهو لا يصلح أن يعقل ، وهذا المسعودي يروي في (مروج الذهب) أشعارا عربية للقبائل البائدة : كهاد وشمود وطسم وجديس ، وهي روايات لا يقيدتها بتاريخ ولا يحدها بزمن ؛ فيمكن على ذلك أن تدخل في غمار المفتريات والأقاصيص .

ولكننا رأيناه يذكر عن كان في الفترة ، أسعد أبا كرب الحميري أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود ، قال : وكان مؤمنا ، وآمن بالنبي صلى الله عليه

(*) وجدنا هذه الكلمة في صدر ما خط المؤلف من صفحات هذا الجزء ، فأثبتناها حيث وجدناها .

وسلم قبل أن يبعث بسبعمئة سنة ، ثم استدل على ذلك بشعر نسبه إليه ، وهذا منتهى العجب (ص ٣٢ ج ١ مروج الذهب) .

ويقول الجاحظ في كتاب (البيان) عن هذه القبائل : وقد ذكرت العرب هذه الأمم البائدة والقرون السالفة ، ول بعضهم بقايا قليلة وهم أشلاء في العرب متفرقون مغمورون : مثل جرهم وجاسم ووبار وعملاق وأميم وطسم وجديس ولقمان والهس ماس وبنى الناصور ، وقيل بن عثر^(٥) وذى جدن ، ويقال في بنى الناصور أن أصلهم من الروم .

فجعل لهذه القبائل بقايا مغمورين في العرب ، ولعل ذلك كان مستفيضا بين الرواة ليرجحوا به صحة ما نقلوه ، إذ الخلف مستودع أخبار السلف ؛ ولكنهم إنما أثبتوا هذه البقايا لما جاء في القرآن عن ثمود من قوله تعالى : ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ وقوله : ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ فأخذوا من ذلك أن غير ثمود لهم بقية في العرب ، وغفلوا عما يعطيه لفظ الآية ويدل عليه السياق .

وقد بالغنا في تتبع أخبار الوقائع والأيام التي ورد فيها للعرب شعر . لأن مثل هذه الوقائع لا يسوقها الرواة نفيًا لدليل ثابت ولا إثباتا لحجة مقتضية ، فهي بعيدة بطبيعتها عن اختلاق الشعر ؛ ثم جهدنا أن نثبت تاريخ أقدم تلك الأيام ؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا بقريته الأعلام التي ترد فيها ، فرأينا في أخبار يوم الرحرحان أن زهير بن جذيمة بن رواحة سيد قيس بن عيلان تزوج إليه النعمان بن امرئ القيس ملك الحيرة ، ولزهير هذا شعر جيد ، فحسبنا شعره قيل في أوائل القرن الخامس للبلاد ، لأن النعمان بن امرئ

(٥) قلت : كذا في تاريخ الطبري ، وفي تفسير الطبري : عز

امرئ القيس توفى سنة ٤٣١ ، ولكننا رأينا في أخبار داحس والغبراء أن
عنترة بن شداد رثى مالك بن قيس المعروف بقيس الرأى . وهو ابن زهير
الذى ذكرناه ، وقالوا إنه أنشد أباه وقومه القصيدة ؛ وعنترة توفى في القرن
السابع للميلاد . فلم نظفر مع هذا الخلط بشئ .

وروى الجاحظ في كتاب الحيوان عن الهيثم وابن الكلبي وأبي عبيدة ،
أن كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب
وشكل من الأشكال ، وكانت العرب في جاهليتها تتمال في تخليدها بأن
تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وهو ديوانها . . . قال :
ثم إن العرب أحببت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمدان
وكعبة نجران الخ .

وذلك يدل على أن العرب اقتصروا في تخليد مآثرهم على الشعر أولا
ثم شاركوا العجم في تخليدها بالبناء ، ولكن الهمدان وياقوت ذكرا أن
الذى بنى غمدان هو لَيْشَرَحُ بن يَحْصَب ، وهو من ملوك حمير ، كان حوالى
تاريخ الميلاد ، وقد بقى غمدان إلى زمن عثمان بن عفان وهو الذى هدمه
(ج ١ : الحيوان) ، ووقف الهمداني على بقاياها في القرن الرابع للهجرة .
وعلى ذلك يكون الشعر العربى نخر حمير من قبل الميلاد ، ويقول
الجاحظ : إذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام
خمسین ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام ؛ وهذا
هو الذى نذهب إليه .

وقد ترجح لدينا أن سبب هذا الخلط في كلام الرواة ، غفلتهم عن تأريخ
الوقائع المعروفة ، وجهلهم بما أثبتته الفرس والروم في تورايجهم عن ملوك

العرب التابعين لهم من المناذرة والغسانين ؛ فابن قتيبة يقول في طبقاته عن زهير بن جناب : إنه جاهلي قديم ، ثم يقول : ولما قدمت الحبشة تريد هدم الكعبة بعثه ملكهم إلى أرض العراق ليدعو من هناك إلى طاعته . وإنما كانت حادثة الحبشة في القرن السادس للميلاد ، ونسب ابن قتيبة لزهير هذا البيت المشهور :

من كل ما نال الفتى قد نلته إلا التحية

وهذا البيت نسبة غيره للجم بن صعب ، وعده صاحب المزهري في قدماء الشعراء ؛ وكل ما وقفنا عليه من أقوالهم في قدم الشعر يمكننا أن نورده أمثلة على ذلك الخلط ؛ وقد بالغ بعضهم فعد آباء القبائل في الشعراء ، كربيعة ومضر ، وكنبه - أبي باهلة - وغنى ، والطفافة ، وغيرهم من الأسماء التي لا دليل عليها من خبر أو زمان وكل ما فيها تسلسل النسب وقدم العهد .

تحقيق هذه الأولية

والذي عندنا أن أولية الشعر العربي لا ترتفع عن مائتي سنة قبل الهجرة ، ولا يذهب عنك أننا لا نزيد بالشعر التصورات والمعاني ، فهذه فطرية في الإنسان ، ولا بد أن تكون قد استقلت طريقتهما في العرب من أقدم أزمانهم إلى ما وراء ألفي سنة قبل الميلاد ، وكذلك لا نزيد بالشعر مطلق ما اصطالحوا على وصفه من ذلك ، فهذا قد يكون منه شيء في العدنانية قبل الميلاد أو حواليه ، ولكنه بغير اللغة المضرية طبعاً ، وإنما نزيد بالشعر هذا الموزون المقفي ، باللغة التي وصلت إلينا ، وكل بحث فيما وراء ذلك لا يتعلق بهذه اللغة نفسها .

كانت منازل العدنانيين شمالي بلاد اليمن في تهامة والحجاز ونجد
وماوراءها شمالاً إلى مشارف الشام والعراق ، ويقال إن لغتهم واللغة الحميرية
التي هي لغة عرب الجنوب في اليمن ، من أصل واحد ، على الاختلاف بينهما
في الإعراب والضمائر والاشتقاق والتصريف ، وهم ينتسبون إلى إسماعيل ،
فيكون بدء تاريخهم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد إذا صح ذلك النسب ،
وآخر ما ذكرته منهم التوراة يرجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك
زمن يختصر الذي غزا قبيلة معد ، وهي أحد فرعي العدنانية : عك ، ومعد .
ثم ظل العرب خاملين حتى نبه اسمهم قبيل الميلاد ، وذلك أن عقب عدنان
إنما هو من قبيلة معد ، وقد انقسمت إلى فرعين : نزار ، وقصص ، والسكرية
والنسل في نزار ، وهم فروع ، أشهرها خمسة : قضاة ، ومضر ، وربيعة ،
وإباد ، وأنمار ، وقد ذكر البكري أن مساكن قضاة ومراعي أنعامهم
كانت جدة من شاطئ البحر فما دونها شرقاً إلى منتهى ذات عرق ، وهي
الحد بين نجد وتهامة ، إلى حيز الحرم من السهل والجبل . وقبائل مضر
أقامت في حيز الحرم إلى السروات وما دونها من الغور وما والاها من
البلاد ، وأقامت ربيعة في مهبط الجبل من غمر ذي كندة وبطن ذات عرق
وما صاقبها من بلاد نجد إلى الغور من تهامة . وأقامت إباد وأنمار معاً
ما بين حد أرض مضر إلى حد نجران وما والاها وصاقبها ، وصار لقصص
وغيره من ولد معد أرض مكة وأوديتها وشعابها وجبالها وما صاقبها من
البلاد (ص ١٧٠ : تاريخ العرب) .

فاستقرت هذه القبائل في منازلها حتى وقعت بينهم الفتن وفرقتهم

الحروب ، فتباينت مساكنهم ، وكانت قضاة أول من نزع منهم حوالى تاريخ الميلاد ، فنزلت بطونها فى مساكن مختلفة ، ثم نزحت أنمار ، ثم إباد ثم ربيعة ، ثم مضر ؛ ولذلك تاريخ لا محل له هنا ، فملثوا الجزيرة وابتدأ تاريخهم الاجتماعى الحديث ، لأن بأسمهم أصبح بينهم ، فنشأت فيهم يومئذ مقتضيات الشعر ومثلت لهم أغراضه .

نشأة الشعر

ليس شعر الجاهلية مطلق الكلام الموزون ، ولكنه مع وزنه ينبغي أن يكون ممتازا في تركيبه وتأليف ألفاظه ، فإذا عارضته بالمشهور من كلامهم رجح برونق العبارة والاختصار في الدلالة واستجماع الغرض من الكلام ، حتى يصح أن يقال فيه إنه إحساس ناطق ، وهذه الأمة من أهم الفطرة ، فليس لديها من أسباب التعلم والأخذ عن الأمم الأخرى شيء ، فلا بد أن يكون شعرها كمالا في اللغة ، فلم ينطقوا به حتى هذبت وصفيت وصارت إلى المطاوعة في تصوير الإحساس وتأديته على وجه الأتم ؛ وهذا شأن لا يكون في لغة من اللغات إلا بعد أن تستقل طريقة تصريفها واشتقاقها ثم يتناولها التنقيح ، ثم يُجمَع عليها في الاستعمال ؛ وقد جرت على ذلك لغة العرب العدنانية ؛ فإنها انفصلت عن اللغة السامية التي تفرعت منها ، ثم استقلت طريقتهما بالوضع والارتجال ، ثم أخذوا في تهذيبها وتصفيتها حتى خرجت منها لغة مضر ؛ ومن هذه اللغة خرج الشعر ، ولا يتجاوز ذلك مائتي سنة قبل الهجرة على التحقيق .

اعتبر ذلك بما قاله أبو عبيدة من أن العرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى ابن زيد ، لأن ألفاظهما ليست بنجدية ، فلا بد أن يكون أساس الشعر عندهم على صميم العربية من لسان مضر ، وما عدا ذلك فهو مما تبعث عليه فطرة صاحبه ، ولكن العرب لا يبالون به ولا يروونه ، وعلى هذا مشى المتأخرون في الاحتجاج بالشعر العربي ، فالعلماء لا يرون شعر عدى بن زيد حجة

(٣٤: الطبقات*) ؛ لأنه كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف ، فنقل لسانه ؛ وهذا الاعتبار يحدد لنا منشأ الشعر ، فإن عرب الجنوب وعرب الشمال كانوا يرتضخون لكنته حميرية أو آرامية أو نبطية أو عربية مشوبة بإحداها ، وإن أكثر قبائل مضر هي التي نزلت نجداً وما حوله إلى تهامة والحجاز ، فهي صميم العربية ، وهناك منشأ الشعر على ما نرجح .

ومن الأدلة على حداثة الشعر ما رووه من أن كل قبيلة ادعت لشاعرها أنه الأول ، ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة ، لأنهم لا يسمون ذلك شعراً ، فادعت اليمانية لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلل ، وبكر لعمر بن قميثة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد (ص ٢٣٨ ج ٢: المزهري) وأقدم هؤلاء في القرن الرابع للميلاد ؛ وليس يدل ذلك على أنهم تنازعوا في أول من قال الشعر ، ولكن في أول من أطاله وتصرف فيه ، ولولا أن مبداء قريب من هؤلاء لوقع إليهم من الشعر المروي ما يحسم مادة النزاع .

ودليل آخر ، وهو أن لعبيد بن الأبرص قصيدته التي مطلعها .

* أقفر من أهله ملحوب *

وهي مما لا يستقيم على وزن معروف من أوزانهم ، ولا يطرد الموزون منها على وزنه ، وهم مع ذلك يروونها وتعدُّ من مفردات قائلها ، وقد أسقطوا غيرها كثيراً ، فلولا أن أوزان الشعر كانت يومئذ لم يمر عليها جيل بحيث لم تكن ألفتها الطبائع بعد ، لأنكروا قصيدة عبيد ، ولالتوت دونها ألسنتهم ؛ ولم يبلغنا من ذلك شيء على كثرة اهتمام الرواة بالتجريح والتعديل .

(٥) قلت : يعني الشعر والشعراء لابن قتيبة .

الباعث على اختراع الشعر

الشعر قديم في فطرة العرب كما قلنا ، ولكننا إنما نبحت في هذا الكلام المقفى الموزون ، فهو بهذا القيد لا يكون شعرا حتى يكون قد استوفى صفة اللفظ ، ولا يستوفىها حتى تكون الألفاظ قد مرت بها اللغة في أدوار كثيرة كما أشرنا إلى ذلك ، وقد بقي أن نعرف كيف فطخوا بهذا الكلام ، وما الذى نبههم إليه وأجراه على ألسنتهم ، وهو معلوم أن ذلك لا يمكن أن يكون احتذاء لشعر أمة أخرى ، فإن السريانيين والعبرانيين لا يشترطون في شعرهم التقفية ، والعبرانيون قد يشترطون القافية دون الوزن ، فيكون الشعر شبيها بالسجع عند العرب ؛ فضلا عن أن هذه الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم ؛ قال ابن رشيق في ذلك : كان الكلام كله مشورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعرافها ، وذكر آياها الصالحة ، وأوطأها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحاتها الأجواد ، لتهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض فعملوها موازين للكلام ؛ فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ؛ لأنهم قد شعروا به ، أى فطنوا له .

وهو كلام يعطيك من ظاهره ما شئت أن تتأول ولا باطن له ؛ ولكن الذى عندنا من ذلك أن الوزن نفسه مر في العرب على أدوار ، فكانوا يحدون الإبل من أقدم أزمانهم بكلام وأصوات تشبه التوقيع ؛ لأنه من المعلوم بالضرورة أنه لا ينفس من التعب ولا يبعث على النشاط غير الأصوات الموقعة على وزن ما ، وقد نقل ابن رشيق في العمدة أن أصل الحداء عندهم من النصب ، وهو غناء الركبان والفتيان ،

اشتقه رجل من كلب يقال له 'جناب بن عبد الله بن هبل ، فسمى لذلك :
الغناء الجنابي ، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض . وهو لا يريد
إلا الحداء المنظم الموزون الذي جروا عليه أخيرا صنعة لا فطرة فيها ،
وقال في موضع آخر : ويقال إن أول من أخذ في ترجيع الحداء ، مضر بن
نزار ؛ فإنه سقط عن جمل فأنكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه !
وايداه ! وكان أحسن خلق الله جرما وصوتا ، فأصغت الإبل إليه وجدت
في السير ، فجعلت العرب مثالا لقوله « هايدا هايدا » يحدون به الإبل ،
وقالوا في أصل الحداء غير ذلك (ص ٢٤١ ج ٣ . العمدة) ولكنهم لم يرجعوه
إلى ما قبل زمن مضر ، وهي أقوال لا دليل عليها ، وإنما جاءوا بها تأويلا
للفظ الحداء عند العرب .

ثم خرجوا عن هذا الوزن في الحداء إلى وزن الأصوات في الحروب
إذ كانوا في ذلك لا يجرون على نظام كنظام الأمم المتحضرة ، ومن أجل
ذلك كان طبيعيا أن تكون تلك الأصوات القوية مما تشد به القلوب على
القلوب ، وهم لا يمدحون شيئا كجهازة الصوت وسعة الجرم ، ولهم في ذلك
أخبار عريضة ذكر الجاحظ منها طرفا في كتابه « البيان » ثم إنهم كانوا
يخرجون تلك الأصوات في مواقفهم للضرب والطنن والصراع والجلاد ،
وتارة مقاطيع من الحروف تكون صيحات ، وتارة كلمات ، كقولهم مثلا
عند الطعن : خذها وأنا فلان ! ونحو ذلك ، وهو مما تبعث عليه فطرتهم
وأحوالهم من الأخلاق والاجتماع ، فلا بد أن يكون ذلك منشأ انتباههم
إلى الوزن ؛ إذ لا يبعد أن يكون قد صاح بعضهم بكلمات قدنفها القلب
غضبا وحدة ، فجاءت كما يجي . قسم بيت ، ثم خرجت على أثرها كلمات أخرى

وكانت أشد من تلك ، فانتهت بحركة مفزعة هي حركة القافية ، ثم انتبه الصائح إلى تابع هذه الحركات ، ووافق ذلك رفيف قلبه واهتزاز نفسه وتحريك الحمية والإعجاب ، فقفى على البيت بآخر ؛ وكان هذا سبب الانتباه إليه والشعور به ، ثم شاع بينهم بعد ذلك وقصدوا إليه قصدا في أغراضهم التي مثلت لهم بعد ذلك ، من المقارضة والمهانة والمقاتنة حين بعثتهم على ذلك طبيعة التفرق وأحوال الاجتماع البدوى ، بعد أن طارت بهم الفتن ومزقتهم الحروب على ما نعرفه من التاريخ ؛ فتبعوا الوزن وبنوا عليه ورتبوا فيه المحاسن التي يقع الاضطراب بوزنها وتهش النفوس إليها ، ثم خصوه بعد ذلك بما ينصرف إليه القول من وجوه التفاصيل ، فكان ذلك سببا في إطالته وإحكامه .

وأنت إذا تدبرت حركات الأبحر التي شاع فيها نظم العرب ، رأيتهما من الحركات الحماسية ؛ ولذلك بنى أكثر شعرهم على الحماسة ، خصوصا ما وقع إلينا من الشعر القديم ، فإن لم تكن تفاعيل الوزن من الحركات الحماسية كانت موسيقية مما يتحرك به العواطف ؛ من أجل ذلك قلّت في شعرهم القوافي الضعيفة إلى حد الندرة ، لأن القافية قرار المعنى ، وهي الصوت الطبيعي الذي ينزل من الشعر منزلة الإشارة التي تصحب كلام المتكلم ؛ وتلك العناية منهم بها مما يرجح عندها أن أصل الاهتمام إلى الوزن إنما كان بالقافية وما فيها من الرنين وما وافق من ذلك حمية الجاهلية كما سلفت الإشارة إليه . وعلى هذا كان لا بد في الأوزان التي نظموا بها من موافقة المعنى في حركاته النفسية ، للوزن في حركاته اللفظية ؛ حتى يكون هذا قالب ذلك ، وإذا أنت اعترضت شعر الجاهلية فإنك ترى كل بحر من البحور مخصوصا بنوع

من المعاني ، فالطويل وهو أكثر الأوزان شيوعاً بينهم ، إنما اتسع لتفرغ فيه العواطف جملة ، فهو يتناول الغزل الممزوج بالحسرة ، والحماسة التي يخالطها شيء من الإنسانية ، والرثاء الذي يتوسع فيه بقصر الأعمال مبالغة في الأسف والحزن ؛ ويتصل بذلك سائر ما يدل على التأمل المستخرج من أعماق النفس ، كالتشبيهات والأوصاف ونحوها ، وبالجملة فإن حركات هذا الوزن إنما تجرى على فغمة واحدة في سائر المعاني ، وهذه النغمة تشبه أن تكون حركة الوقار في نفس الإنسان ، بخلاف الكامل ؛ فإن كل ما يحمل من المعاني لا يدل إلا على حركة من حركات النزق في هذه النفوس ، فإن كان حماسه كان شديداً ، وإن كان غزلاً كان أدخل في باب العتاب والارتفاع إلى الشكوى ، وإن كان رثاء كان أقرب إلى التذمر والسخط ، وإن كان وصفاً كان نظراً سريعاً لا سكون فيه ولا إبطاء ؛ وقس على ذلك سائر الأوزان ، وهذه الأسرار الدقيقة هي التي امتاز بها الشعر العربي على كل ما سواه من أشعار الأمم ، وهي هي التي يتفاضل بها الشعراء على مقدار رعايتها وعلى حساب ما يلهمون منها فيما ينظمون .

أول من قصّد القصائد

قال محمد بن سلام الجمحي - في طبقات الشعراء - لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الآيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصّدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف ، وهاشم هذا هو الجد الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيكون ذلك قبل الهجرة بمائة سنة على الأكثر ، وهو العهد الذي نبغ فيه عدى بن ربيعة التغلبي الملقب بالمهلل ، خال امرئ القيس ، وقال الأصمعي : إنه أول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر . نقول : ولعل هذه الكلمة هي التي قام بها على قبر أخيه كليب ومطلعها :

• أهاج قذاة عيني الأذكار •

وإذا كان الشعر العربي طبيعيا كما أسلفنا ، فإن العوامل في نموه لا بد أن تكون طبيعية ، وعلى ذلك فنحن نرجح ما قالوه من أن عديا هذا هو أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع في شعره ؛ لأنه كان غزلا على همته ، زير نساء على شجاعته ، وكان أخوه كليب بن وائل الفارس المشهور أحد الثلاثة الذين اجتمعت عليهم معد ، وهم عامر بن الظرب ، وربيعة بن الحارث وكليب هذا (ص ٣٣٧ ج ١ : ابن الأثير) ، فلما قتل في الخبر المعروف ، وكان قتله سبب الأيام بين بكر وتغلب ، سيرّ فيه عدى قصائد عدة ، أرقّ بها الشعر وهلّله ؛ وبهذا السبب لزمه لقب المهلّل ، فكان طبيعيا بعد أن كان أخوه يعيره بأنه زير نساء ، أن يعلن همته في القيام بثأره وحميته لذلك ، وأن يشير بهذه الفجيجة ليعرف العرب منزلته من أخيه في الهمة ، ومنزلة أخيه

من نفسه في الحمية الجاهلية ؛ وسنأتى على وصف هذه المراثى في ترجمته .
فكان الشعر قبل مهلهل رجزاً وقطعاً ، فقصدته مهلهل ، ثم جاء امرئ القيس
فافتن فيه ، وظل الرجز على قصره بمقدار ما تمتع الدلاء ، أو يتنفس المنشد
في الحداء ، حتى كان الأغلب العجلى وهو على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ،
فظوله شيئاً يسيراً وجعله كالقصيد ، وجاء بعده العجاج وهو وابنه رؤبة
أشهر أهل الرجز ، ففعل به ما فعل امرؤ القيس بالشعر بعد المهلهل .

الرجز والقصيد

ومما نقله ابن رشيق أن الراجز قلما يقصد ، فإن جمعهما كان نهاية ، نحو
أبي النجم ؛ فإنه كان يقصد ، وأما غيلان - ذو الرمة - فإنه كان راجزاً ، ثم
صار إلى التقصيد ، وسئل عن ذلك فقال : رأيتني لا أقع مع هذين الرجلين
على شيء ، يعني العجاج وابنه رؤبة ؛ وكان جرير والفرزدق يرجزان ،
وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً مقصداً ، ومثله حميد الأرقط والعماني أيضاً ،
وأقاهم رجزا الفرزدق (ص ١٢٤ ج ١ : العمدة) والرجز كثير عند العرب
لسهولة الجمل عليه ، حتى سماه المتأخرون حمار الشعر ، وقد وقع إلى الرواة
من ذلك شيء كثير ، فكان الأصمعي يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة على
ما قيل ، وعندنا أن ذلك ليس بكثير إذا علمت ما نقله الجاحظ عن أبي عبيدة ،
قال : اجتمع ثلاثة من بني سعد يراجزون بني جعدة ، فقيل لشيخ من بني سعد :
ما عندك ؟ قال : أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أفصح ^(١) ؛ وقيل لآخر :
ما عندك ؟ قال : أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أنكف ^(٢) فقيل للآخر الثالث :
ما عندك ؟ قال : أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أنكش ^(٣) فلها سمعت

(١) لا أعيا .

(٢) لا أنقطع .

(٣) لا أنزف .

بنو جعدة كلامهم انصرفوا وخلوهم (ج ٢ : البيان) وكانوا يُروون صبيانهم
الارجاز ويعلمونهم المناقلات ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب ؛
لأن ذلك يفتق اللهاة ويفتح الجرم ، واللسان إذا كثرت تحريكه رق
ولان ، وإذا قلت تقلبيه وأطلت إسكاته جسأ وغلظ (ج ١ : البيان) وليس
كالرجز ما يهت الأشدق ويوطئ للشعر ويأخذ النفس بهذه الملكة
الموسيقية ، ويكاد يكون منفصلا عن الشعر من حيث الارتباط بين وزنه
ومعناه ، فهم يرسلونه كلاماً كالكلام ، ولكنه أخص ما يكون فيما يؤلف
بين حركات البدن وحركات النفس ؛ فكانوا يتراجزون على أفواه القلب ،
وفي بطون الطرق ، وعند مجائة الخصم ، وساعة المشاورة ، وفي نفس
المجادلة ونحو ذلك (ج ٢ : البيان)

الشعر في القبائل

كان الشعر إلى مائة سنة قبل الهجرة في أول عهده بالافتنان والتصرف ولم يكن تم تهذيب اللغة على نحو ما صارت إليه لعهد القرآن ، فكان طبيعيا أن لا ينصرف العرب إلى المباهاة به والمفاخرة بقائمه منهم ، ولكن لما جعل الشعراء يحتفلون ويتصرفون في اللغة ويقنأولون أعذب أفاظها ثم يأتون مكة في موسم الحج فيعرضون أشعارهم على أندية قريش ، فما استحسوه منها روى وكان نخرا لقاتله في القبائل كلها ؛ إذ يحضرون الموسم جميعا لأن كل قبيلة كان لها صنم في الكعبة تأتي لزيارته حتى زادت عدة الأصنام فيها على ثلاثمائة صنم - أصبح العرب بعد ذلك يفاخرون بشعرائهم وصار الشاعر أيضا يباهى بقبيلته ويغض من غيرها ، فذلك دينه السياسي وديونه ، حتى لا يصدق الرواة أن شاعرا يمدح قبيلة بينها وبين حيه عداوة ؛ وكان أبو عبيدة إذا أنشدوه أبيات العرندس وهو أحد بني بكر بن كلاب التي يقال إنه مدح بها بني بدر الغنويين ، ومنها البيت المشهور :

من تلق منهم تقل لا قيتُ سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها السارى

يقول ؛ هذا والله محال ، كلابي يمدح غنويا ؟ يعنى عداوة الحيين (ص ٢٩٦) :
شرح العيون) كان من ذلك أن انصرفوا إلى المنافرات وهى تزيد مادة الحرس فى الطبائع ، وتمكن غريزة الفخر فى النفوس ، فصاروا من حاجتهم للشعراء إلى حال كانوا إذا نبغ الشاعر فى قبيلة أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمازهر كما يصنعن فى الأعراس

وتبأشر الرجال والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم وذبح عن أحسابهم وتحليلد
لمآثرهم وإشادة لذكورهم ؛ وكانون لا يهتنون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ
أو فرس تنتج ؛ وسلم بشيء من أدلة ذلك في باب الهجاء .

ولا عجب بعد ما مر بك أن يكون الشعر عصبية في القبائل ، ومن ذلك
ما يقولون إن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة ، فكان منهم مهلهل
والمرقشان ، والأكبر منهما عم الأصغر ، والأصغر عم طرفة بن العبد ،
واسم الأكبر عوف بن سعد ، واسم الأصغر عمرو بن حرملة ، وقيل
ربيعة بن سفيان ؛ ثم كان منهم أيضا سعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ،
وعمر بن قنمة ، والحارث بن حلزة ، والمنلىس ، والأعشى ، وخاله المسيب
ابن علس . ثم تحول الشعر إلى قيس ، فمنهم النابختان ، وزهير بن أبي سلمى
وابنه كعب ، ولييد ، والحطيئة ، والشماخ وأخوه مُزرد ، وخدّاش بن
زهير ؛ ثم استقر الشعر في تميم ، ومنهم كان أوس بن حجر شاعر مضر في
الجاهلية ، لم يتقدمه أحد منهم حتى نشأ النابغة وزهير فأخلاه وبقي شاعر
تميم في الجاهلية غير مدافع .

وقال الأصمعي : قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح الشعراء لسانا وأعذبهم ،
أهل السروات ، وهن ثلاث - وهي الجبال المطلة على تهامة بما يلي اليمن - فأولها
هذيل ، وهي تلي السهل من تهامة ؛ ثم بجيلة السراة الوسطى وقد شركتهم ثقيف
في ناحية منها ؛ ثم سراة الأزد أزد شنوءة ، وهم بنو الحارث كعب بن الحارث
ابن نضر بن الأزد . وقوم يرون مقدمة الشعر لليمن في الجاهلية بامرئ القيس ،
وفي الإسلام بحسان بن ثابت ، وفي المولدين بالحسن بن هانئ وأصحابه : مسلم
ابن الوليد ، وأبي الشيص ، ودعبل ، وفي الطبقة التي تليهم بالطائين حبيب

والبحتري (ص ٥٥ ج ١: العمدة) على أنه ليس من الممكن أن يحاط بالشعراء المعروفين في قبائلهم وعشائرهم في الجاهلية والإسلام ، ولم يقع لأحد من العلماء أنه استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته منها شاعر إلا عرفه ، وأشهر من يعرفون أكثر شعرائهم قبائل هذيل ، فقد رووا منها لأربعين شاعراً في الجاهلية والإسلام ، وجمع بعض شعرهم في ديوان شرحه العسكري (وطبع الجزء الأول منه في أوروبا) وقد ترجم منهم ابن قتيبة في طبقاته طائفة قليلة ، وكان منهم بنو مرة ، وهم عشرة رهط كلهم دُعاة شعراء ، وهم أبو خراش وأبو جندب والأبجج والأسود وأبو الأسود وعمرو وزهير وجناد وسفيان وعروة . ومرة أبوهم هو أحد بني قرد بن معاوية بن تميم ابن سعد بن هذيل . وأمهم أم سفيان لبني وهي امرأة من بني حنيفة . وذلك لم يتفق في العرب لغير هذيل . ومن شعراء هذه القبيلة ، جنوب المشهورة أخت عمرو ذى الكلب وأختها عمرة ، وأول من عرف من شعرائها خويلد ابن وائلة بن مطحل من بني سهم بن معاوية وهو أبو معقل بن خويلد الشاعر المعدد . وكان معقل زمن أبي يكسوم ملك الحبشة صاحب الفيل - ولكن أشهرهم جميعاً وأشعرهم أبو ذؤيب الذي كان في زمن عبد الله بن الزبير وخرج معه في مغزى نحو المغرب فمات .

ومن عجيب أمر الشعر في القبائل ما ذكره الجاحظ أن عبد القيس بعد محاربة إياد ، تفرقوا فرقتين ؛ ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة في العرب ، قال : ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية ، وفي معدن الفصاحة (ج ١: البيان) ، وهذا يصح دليلاً على ما قدمناه من أن الشعر

لم ينشأ في العرب حين كانوا قبائل مجتمعين ، وإنما نشأ بعد تفرقهم وتمزيق الحروب لهم ، إذ مثلت لهم أغراضه واتفقت البواعث عليه .

وقال يونس بن حبيب الضبي : ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس ، وليس في هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو (ج ١ : البيان) وقد يظن بعضهم أنه لم تخل قبيلة من قبائل العرب بعد الإسلام أن ينبغ فيها شاعر أو شعراء ، ولكن ذلك غير مطرد ، فقد ذكر صاحب الأغاني أن قبيلة قيس لم يكن بها في الإسلام شعر قبل أشجع السُّلبي وهو من شعراء الرشيد ، وإنما كان الشعر في ربيعة واليمن ، فلما نجم أشجع وقال الشعر انتهضت به قيس وافتخرت على العرب (ص ٣٠ ج ١٧ : الأغاني) .

بيوتات الشعر

والمعرقون فيه جاهلية وإسلاما

تلك وراثه الشعر في القبائل ، وأما وراثته في البيوتات فهم أقدم
عدوا من ذلك أشياء ، لقرب بعضها من الإسلام ولظهور بعضها معه
وبعده ، ولكنهم لم يذكرها في المفاخرات كما ذكروا بيوتات المجد
الغلابة في عرب الجاهلية ، وهم بيت تميم بنو عبد الله بن دارم
ومركزه بنو زراراة ، وبيت قيس بنو فزاراة ومركزه بنو بدر ، وبيت
بكر بن وائل بنو شيبان ومركزه بنو ذى الجدين (ص ٣٥ ج ١ :
الكامل للبرد) .

ومن بيوتات الشعر في الجاهلية بيت أبي سلمى . . . الخ (ص ٢٣٥

ج ٢ : العمدة) .

سما الشعراء

لا بد لكل متميز من شكل ومنظر يلقى في الأنفس عنوان حقيقته ؛
ومرجع التميز في الأشكال من اللباس والحلية وهيئة الحالة ونحوها إنما يكون
إلى مطابقة إحساس الشخص أو موافقة إحساس المجتمع الذي هو مناط العادات
ومبنى الصفة القومية ، فليس زى الشاعر في بيته وهيئته فيما ينشد لنفسه
كزيه في يوم الحفل وبين السماطين ، ولا كهينته فيما ينشد للناس يومئذ .
وقد اصطلح أهل الأدب والمناصب العلية وغيرها من رتب الملك في
الاجتماع الإسلامي على أزياء يرون فيها أنفسهم أجزل اعتبارا وأكمل وقارا
وأفخم أقدارا ، وكذلك تحشو هذه الآلات صدور الناس من إفراط التعظيم
وتملأ قلوبهم من سكون المهابة ، وقد شاع ذلك في الحضارة الإسلامية منذ
أمر أبو جعفر المنصور رجاله سنة ١٥٣ أن يتخذوا القلائس الفارسية الطويلة
تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمام التي كانت إلى ذلك العهد من مميزات
العرب ، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم وأن يكون شعارهم السواد كما كان
البياض شعار الأمويين ؛ ثم تنوعت الأزياء ، فكان للقضاة زى ولاصحابهم
زى وللشرط زى ، وللكتاب زى ، ولكتاب الخبر زى ؛ وأصحاب السلطان
ومن دخل داره على مراتب ، فمنهم من يلبسُ المبطنة ، ومنهم من يلبس
الدراعة ، ومنهم من يلبس القباء ، وهكذا مما لا محل لاستيفائه وتفصيله هنا .
وفي علم الفراسة نوع من قيافة الآثار النفسية يمتاز به الناس ، وربما
وجدت من الشعراء مثلا من يكون منظر وجهه وحالة تركيبه أشعر عند
التأمل من شعره ، وكان العرب يعرفون هذه القيافة ولكنهم يستعملونها في

تحقيق الأنساب وتميز القبائل ، وفي الحديث : أن قوما يزعمون أنهم من قريش أتوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان قائفا ليثبتهم في قريش . فقال : اخرجوا بنا إلى البقيع ، فنظر في أكفهم ثم قال : اطرحوا العطف (جمع عطف) ثم أمرهم فأقبلوا وأدبروا ، ثم أقبل عليهم فقال : ليست بأكف قريش ولا شمائلها ، فأعطاهم فيمن هم منه (ص ١٣ ج ٢ : الكامل للبرد) ولسنا بسبيل ما يكون من هذه القيادة في الشعراء ، ولكننا نذكر ما وقفنا عليه من تمييز الهيئة دلالة السبب بعد مطاولة التعب في البحث والتنقيب .

ذكر المرتضى في أماليه في خبر وفود العامريين على النعمان بن المنذر وكانوا ثلاثين رجلا فيهم لييد بن ربيعة وهو يومئذ غلام له ذؤابة ، وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم فأرادوا تقديم لييد ليرجز بالربيع ابن زياد رجلا مؤلما بمضا ، وكان هو الذى صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم ، فحلقوا رأسه وتركوا له ذؤابتين وألبسوه حلة وغدوا به معهم فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شق رأسه وأرخصى إزاره وانتعل نعلا واحدة ، قال : وكذلك كانت الشعراء تفعل في الجاهلية إذا أرادت الهجاء (ص ١٣٥ ج ١ : أمالي المرتضى) وكانت لشعراء الأعراب هيئة في الإنشاد إلى ما بعد الإسلام ، فقد دخل العماني الراجز على الرشيد ينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة على الزى العباسى وخف ساذج ، فقال له الرشيد : إياك أن تنشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور (الطى) وخفان دُمَالِقَان فيكر عليه من الغد وقد تزيأ بزى الأعراب فأنشده ... (ج ١ : البيان) وكان الشاعر العربى ينشد فى يوم الحفل وقد أخذ المخصرة بيده أو اتكأ

على سية قوسه ؛ وإذا فاخر جأني خصمه والناس حولها ؛ وكذلك كان للخطيب زى خاص سنذكره في بحث الخطابة .

وكان زى حسان بن ثابت في خضابه ، فكان يلوث شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم (ص ٣ ج ٤ : الأغاني) ومن أزياء الجاهلية وإن كانت في غير ما نحن بسبيله ، أن فرسان العرب كانوا في أيام المواسم والجموع وأسواق العرب كعكاظ وذى المجاز وما أشبه ذلك ، يتقنعون ، وذلك زيهم ، إلا ما كان من أبي سليط طريف بن تميم أحد بني عمرو بن جندب ، فإنه كان لا يتقنع ولا يبالي أن يُثبت عينه جميع فرسان العرب ، وكانوا يكرهون أن يعرفوا ، وربما أعلم الفارس نفسه بسبيل ، كريشة نعامة أو عمامة مصبغة (ج ٢ : البيان) .

وكان من زى الكاهن أن لا يلبس المصبغ ، والعراف لا يدع تذييل قميصه وسحب رداءه ، والحكم لا يفارق الوبر (ج ٢ : البيان) .

وكان الشعراء في أوائل الدولة العباسية يلبسون الوشى والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر ، قال الجاحظ : وكان عندنا منذ نحو خمسين سنة شاعر يتزيا بزى الماضين وكان له برد أسود يلبسه في الصيف والشتاء (ج ٢ : البيان) وهذا يدل على أن ذلك الزى بطل في زمنه .

وقد اخترعوا في تلك الدولة أثواب المنادمة وهي خاصة بالشعراء والأدباء ولا تقيدها بشكل خاص إلا ما يكون من الأصباغ والخلوق ونحو ذلك مما يستعان به على زيادة التبسط والانشراح ، ولا يزال مثل ذلك في جهات العراق إلى اليوم ؛ ومن هذه الثياب رداء يسمونه رداء الشرب ، ويظهر أنه كان خاصا

بالشعراء في منادمة الملوك والأمراء ، وقد وصفه ابن الججاج من شعراء المهلبى بقوله :

أبيض الغزل فيه خط سواد مثل خط الرئيس في القرطاس
(ص ٢٣٧ جزء ٢ : القيمة)

حالة الإنشاد

أما حالة الإنشاد فإن شعراء العرب إنما كانوا يتحققون بجهارة الصوت ووضوح المخرج ونفض الكلام نفصاً ، ولا يخلون ذلك من الترنم على اللحن الذى يتسمح به الطبع ، لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً من أوزان الموسيقى الفارسية والرومية ولا الغناء الرقيق ، وليس بينهم اختلاف إذا أرادوا الترنم ومد الصوت إلى الفصل (ص ٢٣٩ جزء ٢ : العمدة)

ولما شاع الغناء بعد الإسلام ووضعت قواعده صار تلحين الشعر مقصوراً على ما يغنى به منه في بعض أبيات من الرقائق إلا ما كان في بعض شعراء الأندلسيين ، وسيأتى ذلك في موضعه .

ثم بقى الإنشاد جارياً مجراه الأول ، لا يتأثر إلا بما يكون في المنشد من الزهو واهتزاز العطف ، كما كان يفعل البحترى ، فإنه كان إذا أنشد اهتز ونظر في عطفه وطرب طرباً بيناً ، وربما أقبل على جلسائه فقال : ما لكم لا تعجبون ؟ وكان مثل هذا وأكثر منه في جملة من الشعراء ، إلا أننا لم نقف على أن الإنشاد كان تمثيلاً صحيحاً وإن خالطه الزهو والعجب الثقيل ، إلا فيما ذكره صاحب بن عباد - في كتابه المعروف بالروزنامه - في وصف إنشاد أبى الحسن على بن هرون بن المنجم ، قال يخاطب أستاذه ابن العميد :
« دعانى الأستاذ أبو محمد فحضرت وابتنا المنجم فى مجلسه وقد أعدنا قصيدتين فى

مدحه ، فمنعهما من النشيد لأحضره فأنشدا قعوداً وجوذاً بعد تشييب طويل
وحديث كثير ، فإن لأبي الحسن رسماً أخشى تكذيب سيدنا إن شرحته ،
وعتابه إن طويته . . . يبتدئ فيقول ببحه عجيبة بعد إرسال دموعه وتردد
الزفرات في حلقة واستدعائه من جوذرٍ غلامه منديلَ عبراته : والله ،
والله . . . الخ (ص ٢٨٤ ج ٢ : يقيمة الدهر)

[ولعل فعل أبي الحسن هذا على بساطته أول ما عرف من صنعة التمثيل
في الإسلام ، فإن الأصل في التمثيل على ما حققه علماء النفس هو تأدية المراكز
العصبية المحركة للوظيفة العضوية لأن الأعصاب الممتدة من ظاهر الجسد إلى
مراكز الجهاز العصبي ، وكذلك هذه المراكز نفسها والأعصاب الممتدة منها
إلى العضل ، تكون جميعها آلة واحدة علائق أجزائها بعضها ببعض عضوية
آلية ، فتي حركت من أي موضع تسرد سائر أجزاء وظيفتها الآلية سرداً .
وهم بذلك يحققون وجود ارتباط قوى بين الصور الذهنية والحركات
العضلية ، ويثبتون تفاعل الصور في الحركات والحركات في الصور .

فإذا مثلت هيئة الحزين ، أي الحركات التي تبدو بها تلك الحالة النفسية
وهي الحزن ، وحركت العضلات الخاصة بها من الإطراق والدمع ، أثرت
هذه الحركات فيك حتى لتحزن حقيقة ، وبالعكس إذا جرت في ذهنك
صورة مضحكة لا تلبث أن ترى عضلات الضحك والابتسام قد انفعلت
بهذه الصورة فتضحك أو تبسم] *

(هـ) قلت : هذه الكلمة الموضوعية بين العلامتين [] كانت مثبتة في حاشية
الصفحة الأخيرة من هذا الفصل ، وقد جاء في آخرها كلمة : (تنقح وتبسط) يذكر
المؤلف نفسه ، فأثبتناها هنا كما هي .

ألقاب الشعراء

كان العرب ربما أخذوا الكلمة يصيبونها في بيت من الشعر فيطلقونها لقباً على قائمه بحيث تغلب على اسمه وكنيته فلا يعرف إلا بها ، كشأس بن نهار العبدى ؛ وفي البيان للجاحظ : سالم ؛ لقب بالممزق لقوله :

فإن كنت ما كولا فكن خيراً كل وإلا فأدركنى ولما أمزق
والممزق هذا بالفتح ، قال الأمدى : وهو جاهلي ، وأما الممزق
الحضرمي فبكسر الزاي متأخر وابنه عباد ولقبه « الممزق » وهو القائل :

إلى الممزق أعراض الكرام كما كان الممزق أعراض اللثام أبي
وقد نقل السيوطي في المزهرة عن الوشاح لابن دريد وغيره ، وأورد
الجاحظ في الجزء الأول من البيان ، وابن رشيق في كتابه العمدة — زهاء
ستين لقباً لشعراء من الجاهلية والإسلام .

قال ابن رشيق في سبب هذه التسمية : وإنما هذا لمكان الشعر من
قلوب العرب وسرعة ولوجه في آذانهم وتعلقه بأنفسهم .

وليس ذلك بشيء وإلا لزم أن يطرد ذلك في مشاهير الشعراء ، ولم يقل
به أحد ، والذي عندنا أنه لا يصح كل ما نقلوه من ذلك ، وأن بعضه من
وضع الرواة والنقلة ، وإلا فما وجه تسمية منبه بن سعد بأعصر لقوله :

أعمير إن أباك غير لوته مرّ الليالي وأختلاف الأعصر

إلا أن تكون الكلمة قد ارتجلها منبه هذا ولم تكن معروفة قبله في
لغات العرب بحيث تستغرب منه فيكون السبب في التسمية وجه الغرابة ،
وهو ما لا سبيل إلى تحقيقه وتصديقه .

والذى تغلب عليه الصحة من ذلك ما يكون سبب التسمية به صفة يحكيها الشاعر عن نفسه ويمكن أن يكون في إطلاقها عليه نوع من الغرابة كالمرقس الذى لقب بذلك لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقس فى ظهر الأديم قلم

فهذه صفة غريبة من شاعر أمى يمكن أن ينبز بها تهكما أو مزحا ، كما يمكن أن تطلق عليه تحببا أو مدحا أو تكون الصفة المسمى بها من الصفات التى تدل على عمل يصح أن ينعت به ، كالجواب الذى سمى بذلك لقوله :

لا تسقنى بيديك إن لم تأتى رقص المطية ، إننى جواب

أو تكون الكلمة التى تطلق على الشاعر مما يصح أن تشق منه صفة ذلك سبيلها ، كجابر الكلبي المسمى المرثى لقوله :

إذا ما مشى يُتبعنه عند خطوه عيوننا مرأضا طرفهن روانيا

ولا بد من هذا القياس لأن الألقاب إنما تشعر بمدح أو ذم ، والأسماء لم توضع إلا للامتيياز فى التعريف ، فأما أن تجيء الكلمة لاهى مما يمتاز بمثله عادة ، وليست موضع مدح أو ذم ولو من طريق العتب ، ثم يقال إنها اسم أو لقب — فهذا ما لا يصدق . ولو أجزنا ذلك لاستغرق جميع الشعراء إلى اليوم ، وذلك شئ لم يكن ، وقد ذكر الجاحظ أن الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة — وكان خطيباً من وجوه قریش ورجالهم سمى القَبَاع — قال : وإنما سمى القباع لأنه أتى بمكثل لأهل المدينة فقال : إن هذا المكثل لقباع ، فسمى به . والقباع الواسع الرأس القصير (ج ١ : البيان) فهذا سبب يدل على أنهم لم يكونوا يجازفون بالتلقيب والقسمية ، ولا بد من معنى لذلك ، وهو أمر شائع فى كل زمن ؛ ومن هذا

القبيل - وإن كنا نورده استجهاما وفكاهة - مذكروه الجاحظ أيضاً في سبب تسمية علي بن إسحاق بن يحيى المجنون المسمى بمقوم الأعضاء ، أنه جلس مع بعض متعاقلي فتيان العسكر وجاءهم النخاس بجوار ، فقال : ليس نحن في تقويم الأبدان ، إنما نحن في تقويم الأعضاء ، ثمن أنف هذه خمسة وعشرون ديناراً ، وثمان أذنيها ثمانية عشر ، وثمان عينيها ستة وسبعون ، وثمان رأسيها بلا شيء من حواسها مائة دينار . فقال صاحبه المتعاقل : هاهنا باب هو أدخل في الحكمة من هذا ؛ كان ينبغي لقدم هذه أن تكون لساق تلك ، وأصابع تلك أن تكون لقدم هذه ؛ وكان ينبغي لشفتي تيك أن تكونا لقم تيك ، وأن يكون حاجبا تيك لجبين هذه . فسمى مقوم الأعضاء (ج ٢ : البيان) والشرط في التلقيب بالكلمات أن تسير الكلمة ؛ فإذا قرنت بالاسم زادته معنى ، وإذا كانت مفردة أغنت عنه ؛ وهذا ما لا يتفق إلا بمثل الأسباب التي ذكرنا ، فتنبه له .

المُقلُّون والمُكثِّرون

من الشعراء شاعرٌ نفسه الذي يقول على مؤاتاة السجية والطبع دون أن يستكره على الشعر أو يرهق بالأغراض المتنوعة ، وهذا إنما جهده أن يصيب حظ نفسه أقلّ أو أكثر ؛ ولكن منهم شاعر الناس الذي يحرث حياته الأرضية على أقيمتهم ، فهم إن تركوه أو تركهم مات ، ومثل هذا لا يصيب حظ روحه من القول إلا بعد أن يصيب حظ جسمه منه ، فهو مكثّر أبدأً من الشعر ، يقلّبه على أغراض الناس ليأخذ به مكاناً على الأفواه ينزل فيه بضاعته من سوق الكلام ، ولا يعرف المقل من المكثّر في شعراء الجاهلية إلا بهذا التقسيم ؛ لأنهم قد استووا في ضياع كثير من شعرهم وسقوطه من أيدي الرواة المصححين ، بحيث لو اعتبرت شهرة أحدهم بقيمة ما يصح له من الشعر لنبا به موضعه حيث وُضع من الشهرة والتقدم . فقد عدوا من المقلين طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة الفحل ، وعدى بن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصين بن الحمام المرى ، والمتلس ، والمسيب بن علس ؛ وهؤلاء الثلاثة فيما رووا عن أبي عبيدة أشهر المقلين في الجاهلية باتفاق ، وعدوا منهم عنتره ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن معديكرب ، والأشعر بن حمران الجعفي ، وسهيل بن أبي كاهل ، والأسود بن يعفر ؛ ومن أولئك من يعرف بالقصيدة الواحدة كطرفه ، ومنهم من يعرف بثلاث قصائد كعلقمة ، ومنهم من يعرف بالأربعة كعدى ابن زيد ، ومنهم من يعرف بالأبيات المتفرقة ولا عبرة بما ينسب إليهم عند

غير المصححين وأهل التحقيق ، فإن الحمل على شعراء الجاهلية كثير ، وهو يتفاوت في هذه الكثرة بحسب صنعة الشاعر المحمول عليه وتلاحم كلماته وامتلاء أعطافها ، ولذلك قالوا : إن عدى بن زيد لقربه من الريف وسكناه الحيرة في جيرة النعمان بن المنذر لانت أفاضه فحمل عليه كثير ، وقد ذكر ابن رشيقي بعض مطالع القصائد المشهورة في أيدي الناس التي صحت نسبتها لبعض هؤلاء المقلين (ص ٦٦ ج ١ : العمدة) .

ولا يبعد أن يشتهر الشاعر الجاهلي بالقصيدة الواحدة ، بل بالأبيات القليلة ، بل بالبيت المفرد : لأنهم يزنون الكلمة بمقدار ما تحرك من ميزانها الطبيعي الذي هو القلب ، وكانوا يسمون البيت الواحد يتيما ، فإذا بلغ البيت والثلاثة . فهي تنفة ، وإلى العشرة تسمى قطعة ، وإذا بلغ العشرين استحسنت أن يسمى قصيدا : قال ثعلب وذلك مأخوذ من المخ القصيد ، وهو المتراكم بعضه على بعض ، وهو ضد الراد ، ومثله الرئيد (ص ١١٩ : إعجاز القرآن) ؛ وهذا أصح مما ذهب إليه المتأخرون من أن أدنى حد القصيدة سبعة أبيات ، لأنه لا يلتئم مع وجه الاشتقاق الذي رواه ثعلب كما ترى ، وكانوا يستحبون الإطالة عند الإعذار والإنذار والترهيب والترغيب والإصلاح بين القبائل ، كما فعل زهير والحارث بن حلزة وغيرهما ، والقطع أطير في بعض المواضع كالمحاضرات والمنازعات والتمثيل والملح وغيرها مما ليس من المواقف المشهورات .

وكان العرب يعرفون للإكثار من الشعر صفة طبيعية ، وهي قرع روثة الأنف بطرف اللسان ، كأن اللسان إذا طال كان ذلك أدعى إلى روثته ولينه ومواتاته على التغليب فيبعث من الصغر على الارتياض للكلام والحمل في

شعابه وفنونه ، ولا نعرف أصل هذه الصفة ولا تاريخها فيهم ، ولكن ذكر الجاحظ في البيان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان بن ثابت : ما بقي من لسانك ؟ فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أنفه ، ثم قال : والله إنى لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر حللقه ، وما يسرنى به مقول من معدّ ! فهذا يدل على أن الصفة كانت معروفة فيهم ، وإلا فلا أسقط من هذا الكلام ، قال الجاحظ : وأبو الصمت مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة وأبوه وابنه في نسق واحد : يقرعون بأطراف ألسنتهم أطراف أنوفهم (ج ١ : البيان) والعجيب في أمر الإقلال والإكثار أنك تجد شعراء من المطبوعين لا يُقدّر على جمع شعرهم لكثرة (شرح العيون ص ٣٢٠) وقد عدوا من هؤلاء بشار العقيلي ، والسيد الحميري ، وأبا العتاهية ، وابن أبي عيينة ؛ وكان بشار يقول إن له اثني عشر ألف قصيدة ؛ قال الجاحظ : وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل ، وسليما الخاسر ، وخلف بن خليفة ، قال : وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء ، وبشار أطبعهم كلهم (ج ١ : البيان) .

وتجد شعراء آخرين لا يزيدون في شعرهم الجيد عن البيتين والثلاثة إلى القطع الصغيرة ، وقد يعتمدون ذلك في أغراض معلومة ، كعقيل ابن علفة الذي كان يقصر هجاءه ويقول في الاحتجاج لذلك : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق ، وأبي المهوس أيضا وكان يقول محتجا : لم أجد المثل النادر إلا بيتا واحدا ، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتا واحدا (ج ١ : البيان) .

وكان ابن الزهري يقصر أشعاره ويقول : إن القصار أوج في السامع ،

وأجول في المحافل ، ويكفيك من الشعر غرة لأتحة ، وسبة فاضحة ، وقد يكون الإقلال في بعض أولئك عاما في جميع الجيد من شعرهم كالجزاز وقال له بعض المحدثين وقد أنشده بيتين : ما تزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردت أن أنشدك مزارعة ١ وهو القائل :

أقول بيتاً واحداً أكنفي بذكره من دون أبيات

(ص ١٧٥ ج ١ : العمدة) .

وكان لنكك البصري « من شعراء القرن الرابع ، قال الثعالبي في اليتيمة : وما أشبه شعره في الملاحظة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلا بشعر كنية أبي الحسن بن فارس ، وأقدر أنه في الجبال كهو في العراق ؛ وكان يقال في منصور الفقيه : إذا ربح بزوجه قتل^(١) ، وكذلك ابن لنكك : إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع ، فأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح (١١٧ جزء ٢ : اليتيمة) واشتهر بجودة القطع من المولدين قبل هؤلاء ، بشار بن برد ، وعباس بن الأحنف ، والحسين ابن الضحاك ، وأبو نواس ، وأبو علي البصير ، وعلي بن الجهم ، وابن المدل ، وابن المعتز ، وإن كان بعضهم يحسن في الإطالة ، كبشار وأبي نواس وابن الجهم ؛ ومن الإسلاميين قبلهم الفرزدق ، حتى قال الجاحظ : إن أحببت أن تروى من قصار القصائد شعرا لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق ، فإنك لم تر شاعراً قط يجمع التجويد في القصار والطوال غيره . وقد قيل للسكيت : الناس يزعمون

(١) في العمدة : كانوا يقولون : إياكم ومنصوراً إذا ربح بالزوج ، وكان ربما هجا بالبيت الواحد . وفي بعض النسخ : إذا رمى ، وهو خطأ .

أنك لا تقدر على القصار ، قال : من قدر على الطوال فهو على القصار
أقدر . وهذا الكلام يخرج في ظاهر الرأى والظن ، ولم نجد ذلك عند
التحصيل على ما قال (ص ٣١ ج ٣ : الحيوان) .
أما المعروفون بالإطالة فهم كثير ، وأشهرهم ابن الرومى ، وهو على
إطالته محسن ، وربما تجاوز حتى يسرف .

الارتجال والبديهة والروية

قد يكون لفظ الارتجال مأخوذاً من الانصباب والسهولة ، ومنه قيل :
شَعْرٌ رَجُلٌ إِذَا كَانَ سَبْطاً مُسْتَرْسِلاً غَيْرَ جَعْدٍ ، أو من ارتجال البئر ، وذلك
أن ينزلها الرجل برجليه من غير حبل ، لأن الشعر لا يسمى مرتجلاً
إلا إذا كان انهماراً واندفاقاً لا تعمل فيه ولا تروثة ، وكانت هذه سنة
العرب في جاهليتهم ، إذ هم لم يحتدوا الشعر على مثال ، بل كان ذلك نوعاً
من كلامهم متى بُعث أحدهم عليه انبعث ، ولما كانت أسباب الطبيعة فيهم
ترجع إلى جملة النفس ، كان هذا الكلام كامناً فيها ، لا يهيجه إلا اضطرابها
فكان من أسباب ذلك ما تجدد النفس في لذة المغالبة والمدافعة ، كالمماننة
والمقارضة ونحوها ، وما يرفه عليها ويحسم عنها كالحداه وما في حكمه
مما ينشدونه على أفواه القُباب وعند الانكفاء من الغارات وأمثال ذلك ،
ومما يغمر النفس فتكون فيه طافية راسبة ؛ ومن هذا النوع شعر
العواطف ، كالغزل والثناء والاستغاثة والتحريض وما إليها ، ومن أجل
ذلك ابتدأ الشعر عند العرب بالبيتين والآيات يقولها الرجل في حاجته ،
حتى وجد فيهم من جعل تلك الأسباب همه وهو الشاعر ، فتركوا ذلك له
وصار من عدا الشعراء منهم كما كان العرب في أوليتهم : لا يكاد الرجل
يجد سبب الآيات حتى ينتزعها من نفسه وينبعث بها طبعه ، ثم فعلت
الورائة في ذلك فعلها فعظم الشعر وصار في الارتجال شيء من الصنعة
يكفي له تقليب العين وخطرة الوهم ، فيجىء الشاعر بالقصيدة فيها من
بديع التشبيه وبارع الاستعارة وكرم الديباجة وحسن الروتق ، لا يتعاون

عليها إلا طبعه ومادته من الأسباب التي قدمناها ، فإذا اعترض النفس ما يصرفها عن تلك الأسباب ، تبدل الطبع ونضبت المادة ، فربما استحالت البديهة بعد الارتجال ، وربما استحالت الروية بعد البديهة ، كما وقع لعبيد ابن الأبرص وهو من أقدم شعراء الجاهلية وأقواهم غريزة ، إذ يقول له النعمان في يوم يؤسه : أنشدني ، فقال : حال الجريض دون القريض ! قال : أنشدني قولك :

أفقر من أهله ملحوب فالقطيبيات فالذنوب !

فقال : لا ، ولكن :

أفقر من أهله عبيد فاليوم لا يبيد ولا يعيد !

فبلغت به حال الجزع إلى مثل هذا القول بعد روية ومراجعة . وقد عدوا ففراً من الشعراء في عصور مختلفة كانوا في هذه الحال كما يكونون في غيرها من أحوال الأمن والدعة ، وذلك لقدرتهم وسكون جأشهم وقوة غريزتهم ، كهديبة بن الحشرم العذري ، وطرفة بن العبد البكري ، وسرة بن محكان السعدي ، وعبد يغوث بن سلامة ، وتميم بن جميل ، وعلي بن الجهم وغيرهم . قال الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببيعير ، أو عند المقارعة والمناقلة ، أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ اثنيالا (ج ٢ : البيان والتبيين) .

واستمر ذلك شأنهم حتى نشأ الذين تكسبوا بالشعر والتسوا به الصلوات
والجوائز ، وجعلوه للسماطين وأيام الحفل ، كالنابغة وزهير والأعشى وغيرهم
فلم يجدوا من السبب ما وجد الذين قبلهم ، لأن الشاعر إذا مدح اليد وأشاد
بالصنيعة لم يكن له بدٌّ من التكلف والاستكراه ، إذ يعلم أنه لا يقبل منه
عفو الكلام ، ولأن ذلك المقام لا تجدى فيه غير المبالغة التي تكون من
استعراض الصفات وتخير المعاني والتغلغل والإغراق وأشباهاها ، فكان من
ذلك القيام على الشعر ومعاودة النظر فيه وتدبج الشاعر على نفسه حتى
يخرج شعره مستويًا في الجودة ، لأن الطبع في مثل تلك المعاني يندفع
ويتبدل ، ويضعف ويتجدد ؛ فإذا لم تحتذب الألفاظ ولم تحتلب المعاني جاء
الشعر جديداً مرقعاً أو ليساً ممزقاً ، فلا يصلح أن يكون حلة الفخر التي
لا تبلى على الدهر ؛ وقد يكون من أسباب ذلك أيضاً أن الشعر لما فشا
فيهم بعد نبوغ امرئ القيس ومن في طبقتهم ، وكان الشعراء يستعينون عليه
بالروية استجماعاً نحاسنه - خشى آخرهم أن يقصر عن أولهم إذا هو لم يجار
سنة النمو والارتقاء ، فكان يبيت المعاني يلتمس لها وجوه الصنعة ، ويدع
القصيدة تمسك عنده زمناً طويلاً يردد فيها نظره ويقلب رأيه ويرصد
أوقات نشاطه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ؛
وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكات ،
ليصير قائلها خلا خنذيذاً وشاعراً مقلقاً (ج ١ : البيان)

وأول من ذهب لذلك منهم طفيل الغنوى ؛ وكان يسمى مجرباً لحسن
شعره « العمدة » وكلا السببين قد اجتمعا في زهير ، لأنه كان يروى شعر ثلاثة
من الفحول منهم طفيل ، وكان مذهب شعره المديح كما ستراه في الكلام عنه ؛

ولذلك كان أول من اشتهر بالثابت المحكم^(١) من الشعر ، وهو الذي كان يسمى كبار قصائده الحوليات ، لأنه ينظم القصيدة منها في شهر ثم لا يزال ينقحها ويهذبها حتى يمر عليها الحول ؛ غير أن مثل زهير من أهل السيادة والورع لا يمدح لرغبة ولا يكذب في مدح ، فكان بديها أن يكون من بعض بواعثه على الروية مغالبة الأنفة ومدافعة الطبع والتماس عذر النفس الآية في صدق المدح ، وهذا كله مما لا يغني فيه الارتجال شيئا .

وما ظهرت الصنعة والتجويد في الشعر حتى اتقته العرب اتقاء شديداً لأنها رأت الشاعر في ترويته إنما يسم^ه كلماته فلا يرمى بها إلا قاتلاً ؛ ولا جرم كان ذلك أيضاً سبباً من الأسباب في ضعف الارتجال ، لأن شاعر الجاهلية الآخرة ميزان الأحساب ، لا يصلح إلا لأن يرفع ويضع ، غير أن سبيل هؤلاء [الصنعين] في غير تلك الطرائق سبيل غيرهم من أهل الطبع ، فهم يرتجلون في الحماسة والهجاء وغيرهما .

ثم جاء الإسلام فكانت أسباب الشعر في أوله على ما كانت في أولية العرب ؛ إذ كان مثل حسان ينصب له منبر في مؤخر المسجد لينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك مر المخضرمون بروق الطبع ووشى الغرزة ، حتى نبغ الخطيئة وهو من هو في الضراعة والجشع وسقوط الهمة ، وكان راوية زهير وابنه ، فاستعبده الشعر ، واستفرغ مجهوده ، وكان الأصمعي

(١) قال الجاحظ في كتابه (البيان ج ١) كنت أظن قولهم محكم ، كلمة مولدة ، حتى سمعت قول الصعب بن علي الكنتاني :

أبلغ قرارة إن الذئب آكلها وجائع سغب شر من الذئب
أدل أطلس ذو نفس محكمة قد كان طار زمانا في اليعاسيب

يسميه هو وزهيراً وأشباههما (عبيد الشعر) لذلك . ثم ضعف شأن الارتجال إلا في بعض الممانات ، وفي الأبيات القليلة من غيرها تخرج على الطبع وتنبعث بها المادة واستحال الارتجال إلى البديهة وهي الإطراق القليل التفكير غير الطويل ، وما قصر عنها فهو الروية . وامتاز بالبديهة شعراء الدولة الأموية ، وقليل من شعراء العباسيين ، وأشهر هؤلاء في ذلك أبو نواس ، فقد كان قوى البديهة والارتجال ، لا ينقطع ولا يروى إلا فلتة ، وقالوا إنه بهما غلب على مسلم بن الوليد . غير أن ذلك لم يكن منه إلا في الأبيات المعدودة ، أما الطوال كقصائد السماطين وغيرها فلم نعث على رواية في ارتجالها بعد المخضرمين إلا مارواه ابن خلدون عند ذكر استقبال عبد الرحمن الناصر من أمراء الدولة الأموية بالاندلس لرسل الملوك الوافدين عليه من رومة والقسطنطينية وغيرها ، قال بعد أن وصف من جلال مجلس الخلافة ما قال : وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ... وكان من خطباء هذا المجلس منذر بن سعيد (توفي سنة ٣٥٥) وهو فقيه شاعر كاتب خطيب جرى على ذلك كله ، وقد أورد الجلسة صاحب نفع الطيب وفصل أبهة ذلك المجلس وحالة الخطباء فراجعه هناك (ص ١٧١ ج ١ : نفع الطيب) .

ولا يبعد أن يكون في كل عصر من يرتجل مثل ذلك حتى في المتأخرين إلا أنه لا يجيء بالجيد ولا يبارى أهل الروية ، ومن عجائب ذلك في المتأخرين ما ذكره صاحب خلاصة الأثر في ترجمة أبي السماع البصير المصري المتوفى سنة ١٩٦٥ للهجرة ، أنه كان أعجوبة الزمان وأحد الأفراد في البديهة وارتجال الشعر ، قال : وكانت طريقته إذا أراد الارتجال أن يبدأ بإنشاد قصيدة من

كلام أحد الشعراء المتقدمين بصوت شجي ، وفي أثناء إنشاده يتندر على وزن تلك القصيدة في أى باب كان من أبواب الشعر مدحا كان أو غزلا أو غيرها . (ص ١٣٩ ج ١) ولم نقف على نظير لهذه الرواية إلى عصرنا ، ولكن هناك عجيبة أخرى في ارتجال الرسائل ذكرها الثعالبي في البيئمة (ص ٣١ ج ٤) .

أما البديهة فهي عند سببها في كل عصر وزمن ، وقد جمع على بن ظافر كتابا حسناً في ذلك سماه «بدائع البدائنه» وهو مشهور .
ومن البديهة سريع يقارب الارتجال ، وهو الذى تجوز المتأخرون فى تسميته بالارتجال ، وفي كتب الأدباء أشياء كثيرة منه كالنخيرة لابن بسام والقلائد وغيرهما .

* * *

[كان عمود الارتجال القافية ، وربما حدا بعضهم بالرجز حتى إذا شردت عليه القافية تركه وجمع بغيره] (*) .
[... من أسباب ضعف الارتجال ... غلبة اللحن ومعاشرة اللحنين ، حتى صار الشاعر يحتاج إلى الإطراق ونحو ذلك] (*) .

(*) قلت : هاتان العبارتان كانتا مثبتتين فى حاشية بعض الصفحات من هذا الفصل ، فرأيت إثباتهما فى الخاتمة حين لم أجد ما يعين موضع كل منهما فى سياق الكلام .

النبوغ واللقاب في الشعراء

جرى المتأخرون على أن يصفوا الشاعر المحسن إحسانا عاليا بالنبوغ والنايغة في المبالغة ، ويطلقون هذا الوصف إطلاقا عاما غير ملتفتين إلى أصل الكلمة ووجه اشتقاقها ، ولا إلى استعمال العرب لها ، وإن كان ذلك يطابق ما ذهبوا إليه بعض المطابقة ، ولكننا رأينا الاستعمال العلمي الحديث «السيكوفسيولوجيا» والاستعمال اللغوي القديم ، يضعفان هذه الكلمة في جنب القوة التي يحركونها لها كما سنبينه فيما يلي :

لم يكن النبوغ عند العرب لقبا عاما كما توهموا ، ولكنه كان خاصا بالشعراء الذين يقولون الشعر ويجيدونه ولم يكونوا في إرث الشعر ، ومن أجل ذلك لم يلقبوا بالنايغة إلا ثمانية من الشعراء ذكرهم بأسمائهم جميعا الزبيدي في تاج العروس في شرح مادة - نبغ - وهم : زياد بن معاوية الديلمي ، وقيس بن عبد الله الجمدي ، وعبد الله بن المخارق الشيباني ، وزياد بن أبان الحارثي المعروف بنايغة بن الديان ، والنايغة ابن لأي الغنوي ، والحارث بن كعب اليربوعي ، والحارث بن عدوان التغلبي ، والنايعة العدواني ولم يسموه .

وعلى السبب في تلقيب هؤلاء بالنوابغ بنى اللغويون تعريف النبوغ في الشعر كما مر ، فيظهر من ذلك أنه تعريف خاص مقيد بسبب معروف فلا يطلق إلا مجازا . أما الألقاب العامة عند العرب فقد ذكرها الجاحظ في البيان ، قال : والشعراء عندهم أربع طبقات : فأولهم الفحل الخنذيذ ، والخنذيذ هو التام ، ودون الفحل الخنذيذ ، الشاعر المفاق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعروور (البيان والتبيين . ج ١) فالخنذيذ هو الذي

يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ؛ وسئل رؤبة عن الفحولة قال : هم الرواة ، والمفلق الذي لا رواية له إلا أنه مجود كالأول في شعره [وقالوا في سبب هذه التسمية إنه يأتي في شعره بالفلق وهو العجب ، وقيل الفلق الداهية] والشاعر فقط هو الذي يكون فوق الرديء بدرجة ، أما الشعروور فهو لا شيء . قال الجاحظ : وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشويعر ، وشعروور . وأول من سُمي بالشويعر امرؤ القيس ؛ سمي به محمد بن حمران بن أبي حمران ، وقد سُمي بعده بذلك نفر ، منهم المفوق شاعر بن حميس ، وصفوان بن عبد ياليل من بني سعد إلا أنهم إنما يبنذون بذلك في الهجاء وعلى وجه النقيصة ؛ وقبل هذه الألقاب كان عندهم لقب بسيط لا يدل على أكثر من هيئة النظم ، وبهذه البساطة استدللنا على أنه أقدم من الألقاب المذكورة آنفا ؛ ذكراً صاحب الخمص (ج ٢ ص ١١٥) قال أبو زيد : العرب تقول : خطيب مصقع وشاعر مرقع ؛ فالمصقع : الذي يأخذ في كل صقع من الكلام أى ناحية منه ؛ والمرقع : الذي يصل الكلام ببعضه ببعض يرفع ما انخرق منه ، وبهذا قيل للشعر نظام ، لاتصاله واتساقه ، فكأن هذا اللقب نشأ عندهم في أوائل العهد بإطالة الشعر ومجاورة البيتين والثلاثة ، لأن مد البيتين مثلاً إلى أن يبلغا أبياتا هو حقيقة ذلك الوصل الذي وضعوا هذه الكلمة لتعرفه .

وبعد أن أخذ شعراء العرب في التروية والتنقيح وتحكيك الشعر نشأ عندهم لقب المطبوع واستعملوه فيمن يجرى على طبعه العربي ولا يتصنع ولا يتكلف ما يلزم التروية من التبييت ومعاودة النظر ونحو ذلك ، فهذه جملة ألقاب الشعراء عندهم .

أما تعريف النبوغ في علم السيكوفيسيولوجيا ، وهو الذي يبحث فيه عن ارتباط أحوال النفس بالوظائف العضوية ، فإن أهل هذا العلم يقولون : إن النبوغ تميز المخلوق بتأدية أعمال مألوفة على وجه من الإتقان يصعب على كثير ممن يقومون بهذه الأعمال عادة ، فهو إذن استعداد فطرى تنميه المتابعة على العمل حتى يبلغ حظه المقسوم له من الكمال ، وعلى ذلك يكون عاما في كل المخلوقات ؛ لأن كل جنس منها يمتاز بعضه على بعض في أداء الحركات والأعمال الطبيعية له .

ولكن عندهم نبوغا عبقرياً خاصا بالإنسان يصح أن يسمى بالجهدة ، وهو ابتداء المرء ما يكون غيره قد غفل عنه ، أو اتباعه ما جرى عليه غيره ولكن على وجه ذاتى يكون له فيه صفة من الابتداع ، فهو إذن نمو عضوى كالى يثبت للعامل شخصية العمل . وهذا المعنى فى الشاعر هو الذى يريد به العرب بلقب الفحل والخنزيد - كما سبق - وبه ميزوا السرقة من الاختراع فى المعانى ، كما سيأتى فى موضعه .

الاختراع والاتباع

لم يغفل علماء الأدب العربي عن معنى الجهيدة والنبوغ العبقري ، وهم يسمون ذلك بقسميه الاختراع والإبداع ، والفرق بينهما عندهم أن الاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها والإتيان بما لم يكن منها قط ، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع ، فصار الاختراع للمعنى والإبداع للفظ ، قالوا : فإذا تم للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع فقد استولى على الأمر وحاز قصب السبق (ج ١ ص ١٧٧ : العمدة) وإنما ذلك معنى شخصية الكلام التي تميزه وتجعله خلقا وابتكاراً فيكون عملاً ذاتياً يدل على صفة شعرية متخصصة ، وليس يصح لقب الشاعر لغير هذه الصفة وإلا فهو منتحل أو منتصب . واشتقاق الاختراع من التلين ، يقال : بيت خرع إذا كان لنا ، والخروع منه ، فكان الشاعر سهل طريقة هذا المعنى أوليته حتى أبرزه ، وأما البديع فهو الجديد ، وأصله في الجبال ، وذلك أن يُقتل الجبل جديداً ، ليس من قوى جبل نقضته ثم فتلته فتلا آخر .

والاختراع في شعر العرب مما يظلمون به عند المحدثين والمولدين ، لأن أولئك أهل البادية وتربية العراء وشعراء الفطرة ، وهؤلاء أهل الحضارة التي تفنق القرائح بما تنوعه من المآخذ المختلفة ؛ ولذلك كانت المعاني قليلة في شعر الجاهليين تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ، وإنما يزيد المعاني التي لا يشتركون فيها بطبيعة الاجتماع ، والتي لو اختلطت جميع أشعارهم لتزايلت وانفصل بعضها عن بعض ، فكان كل معنى قلباً فيه سر حياة

القصيدة أو القطعة ، كقول امرئ القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سموت حباب الماء حالاً على حال

فهذا المعنى الذى لا تصوره إلا الحواس الدقيقة ، قد سلته له الشعراء جميعاً فلم ينازعه فيه أحد ، وقد مكن مزبة الاختراع فيه أنه وصف طبيعى ثابت لا يطاوع فى التوليد والتشقيق إلا بالعت والاستكراه ، ومن أجل ذلك لم يأخذه أحد إلا فضحه ؛ وسنلم به فى ترجمة امرئ القيس .

وقد جاء المخضرمون ولا مزية لهم على شعراء الجاهلية فى الاختراع ، ثم جاء بعدهم شعراء الصدر الأول من الإسلاميين فزادوا فى ذلك بعض الزيادة بما مكنتهم منه الحالة الدينية ، ثم كانت طبقة جرير والفرزدق والأخطل وأصحابهم فذهبوا فى التوليد والإبداع والاختراع مذهباً واضحاً ، وطرقوا لذلك طريقاً سابلة ، ثم أتى أبو المحدثين بشار بن برد وأصحابه فنظروا إلى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فأحكموا سببها وساروا إليها بالفكر الجيد والغريزة القوية ، وقد التقى إليهم طرفاً العربية فى منطقة البداوة الزائلة ومفتتح الحضارة الثابتة ، فأصبح شعرهم خلقاً جديداً ، ووقف شعر من قبلهم عند الاستشهاد بالفاظه ، حتى لتجر اللفظة الواحدة قصيدة بطولها . وكان من افتنان هؤلاء المحدثين أن نصبوا لأنفسهم منزلة تضارع المنزلة التى وقف عندها الشعر القديم ، فصار يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ ، وعلما الأدب بجمعون على أن أكثر الشعراء المولدين اختراعاً وتوليداً ، أبو تمام وابن الرومى .

وهذا الأخير كان ضنيناً بالمعانى حريصاً عليها : يأخذ المعنى الواحد ويولده فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه فى كل وجه وفى كل ناحية ،

حتى يمينته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد يتخصص به ويزيد بذلك مادة النبوغ العبقري في شعره ؛ وقد تجد من يحىء بعده من لا يعد في طبقة قد أخذ هذا المعنى بعينه فولد فيه زيادة ووجهه جهة حسنة تدل البصير بالصناعة على أن ابن الرومي مع شرهه لم يتركها عن قدرة . وقد ذكر ابن رشيق في موضع من كتابه (العمدة) عزمه على تأليف كتاب يحصى فيه معاني الجاهلية ويذكر ما انفرد به المحدثون وما شاركهم فيه المتقدمون ، كصفات النجوم ومواقعها ، والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، وبكاء الحمام ، وكثير مما لم يتسع له كتاب العمدة ، وشرط [على نفسه] في ذلك إحصاء المخترعات للمحدثين وإقامة البرهان منها على أن ابن الرومي أكثر الشعراء اختراعاً . وابن رشيق [أهل لهذا] التأليف ، ولكننا لم نعرف عنه خبراً غير ما ذكره هو .

والمعاني بما فيها من صفة الحياة وفسحة الروح خاضعة كالأحياء لنا موس الانتخاب الطبيعي الذي يقضى بتنازع البقاء ، ولولا ذلك لأقفل باب الاختراع والتوليد ، لأنه إذا اقتصر الناس على طبقة واحدة من الشعر ولم يكن في طباعهم ما يساعد معنى من الكلام على إمانة معنى آخر أو إسقاطه والحلول محله لم يبق من الكلام ما يفتح للتوليد ، ولم يبق من القرائح ما يتمنخض للولادة ؛ ولو تبعت معاني الشعر السائرة ورتبتها ترتيباً تاريخياً على العصور التي قيلت فيها ، لأمكنك أن تضع من ذلك تاريخاً لهذه الوفيات المعنوية ، ومن أمثلة ذلك مقاله الجاحظ أن الناس كانوا يستحسنون قول الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق

فلما قال الخطيئة :

متى تأته تمشوا إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير مو قد
سقط بيت الأعشى (ج ١ : البيان والتبيين) مع أن بيت الخطيئة مولد من
قول الأعشى ، والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه أو
يزيد فيه زيادة ، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له
أيضا سرقة إذا كان الشاعر ليس آخذاً على وجهه .

الاتباع وأنواعه :

فالتوليد إبداع ، ولكن هذا الإبداع على نوعين : إبداع في طريق المعنى ،
وإبداع للمعنى نفسه ؛ والأول يكون إلهاماً وملاحظة واسترواحاً ، والثاني
لا يكون إلا غصبا وسرقة واستكراها ، وذلك دليل البلادة وسقوط الهمة
وضعف القدرة والعجز ؛ وقد ذكروا للإبداع في الشعر أنواعا سموها بأسماء
خاصة ، وهي ألقاب محدثة وضعوا أكثرها في القرن الرابع وذكرها الحاتمي
في حلبة المحاضرة ، وتبسط فيها ابن رشيق (ص ١٦ ج ٢ العمدة) وأورد مثالا
لكل من هذه الألقاب فارجع إليها إن شئت .

ولا غنى للشاعر - جاهليا أو إسلاميا - عن اتباع غيره من الشعراء ، وأول
ذلك الرواية ، وقد كانت شائعة إلى أن انتشر الخط وكثرت الدواوين فصار
الشعراء يتلقون عنها ، وقد وقفنا على أسماء بعض الشعراء الذين رويوا
لغيرهم وتخصصوا بهذه الرواية لهم مبعثرة في بطون الأوراق بجمعناها ، وهي
على قلتها كافية في الدلالة ، فمنهم امرؤ القيس ، كان رواية أبي دؤاد الإيادي
(ص ٦١ ج ١ العمدة) ، وكان زهير رواية أوس بن حجر ، وهو زوج أمه

وطفيل الغنوى (ص ١٣٢ و ١٥٥ ج١ العمدة) وكان الخطيئة راوية زهير وابنه
(ص ٧٨ ج٧ الأغاني) ولم يقتصر على الرواية لهما بل كان يروى شعر الحجازيين
أيضا وكان منقطعا لهم (ص ٣٤ الطبقات) وكان هدية بن الخشرم راوية
الخطيئة ، وجميل راوية هدية ، وكثير راوية جميل (ص ٨ ج٧ الأغاني) وبلغ
من اعتباره إياه أنه كان إذا استنشد لنفسه بدأ فأنشد لجميل (ص ١٣٢ ج١
العمدة) وكان أبو ذؤيب الهذلي راوية ساعدة بن جوبة الهذلي (ص ١٥٤
الطبقات) ولا نظن استغراق هذا الباب ممكنا إلا أن يكون قد كتب فيه
أحد المتقدمين من أئمة الأدب .

شياطين الشعراء

نذكر في هذا الفصل ما يعتقد العرب من قول الجن على ألسنة الشعراء ولا يتجاوز ذلك ، لأن استيفاء هذا البحث خاص بالتكاذيب (الميثولوجيا) ولهم من هذا القبيل عقائد وعادات كثيرة سنشير إليها في ذلك الموضوع .

لم يكن الشعر في لحول أهله من العرب لفظاً لسان يطير ويقع ، ولكنه كان حسبا ونسبا ، وكان الشعراء هم أهل التاريخ ، فإذا لم يستطع الشاعر أن يرفع ويضع ، وأن يبعث لسانه مع الموت إلى الموتى بحيث يكون كما وصفوا الجنى بأن فيه يتأجج نارا ، فذلك الساقط المغمور ؛ من أجل هذا كان ينجح الشعراء إلى اعتقاد أن شعرهم أحرف نارية تلتقي بها الجن على ألسنتهم ، وأنهم إنما يتناولون من الغيب ، فهم فوق أن يُعدَّوا من الناس ودون أن يحسبوا من الجن ؛ فإذا جاء أحدهم بالقصيدة البارعة ، ورمى بالكلمة النافذة ، ضرب قلبه أنها من هناك ، وأنه إنما يؤذيها عن لسان قائمها ، فيكبرن ذلك مدعاة إلى توكيد الثقة والاعتداد ، وإلى الذهاب بالنفس ونفرة الأنف ونحو ذلك بما هو من كبر القرائح وترفع العقول ، والعرب فيما حكاه أبو عبيدة يعرفون الجنى بأسماء ، فإذا كفر وظلم وتعدى وأفسد قيل شيطان ... الخ ، وقد يسمون الغضب شيطانا . ومن ذلك قول أبي الوجيه العكلى في أمر : كان ذلك حين ركبني شيطاني ! قيل : وأى الشياطين تعنى ؟ قال : الغضب ! كما يسمون به الكبر ، ومنه قول عمر : لَأَنْزَعَنَّ شَيْطَانَهُ مِنْ تَغْرَتِهِ ، وكذلك يريدون بالشيطان في بعض معانيه الفطنة وشدّة العارضة (ج ١ : الحيوان) فيكون ما جاء في الشعر من ذكر شياطين الشعراء على وجه المثل ؛ لأن كل الصفات التي سبقت إنما هي خصيصة بالشاعر قبل

الشیطان ؛ وعندنا أنهم أخذوا هذا الاعتقاد من الكهانة وهى أقدم فيهم من الشعر ، وكان لكل كاهن نجى يسمونه الرئى والتابع ، فذهب الشعراء هذا المذهب وسموا شياطينهم أو سماها لهم الرواة ... كما ستعرف ، وقد درج شعراء الأمم على استعانة القوى الغيبية من قديم ، لأن البيان وحى ، ولأن الشعر يكاد يكون تفاعلا روحيا من امتزاج روح الشاعر بروح أخرى ، إذ هو كالحالة الطارئة على النفس : تشعر بها وقتا دون وقت ، وفى موضع دون موضع ؛ فكان شعراء اليونان والرومان يستدعون فى أوائل منظوماتهم (LesMudes) وقد اصطلاحوا على تسميتها بألهة الشعراء أو عرائسه أو ربوات الأغاني ، ولهم فى هذه العرائس أساطير منقولة (انظر شرح الجزء الثالث من الديوان) وقد انسحب على آثارهم المتأخرون من شعراء الأوربيين ، فهم يسمون ربة الشعر ، بالمنشدة السماوية ، ونحو ذلك مما يتوكأ عليه القلب ويلوذ به الاعتقاد .

والعرب لم يكونوا يفتتحون فى أشعارهم باستدعاء تلك القوة الغيبية أو الاستمداد منها ، كما فعل اليونان والرومان ، ولكن ذلك كان لا يجاوز الاعتقاد وحركة النفس كبراً وغرورا ، وكان ذلك فيهم قبيل الإسلام ؛ وفضن أن الذى اخترعه الأعشى ؛ لأنه أول من احترف الشعر وجعله تجارة ؛ إذ هو لم يكن مكفى المأونة ولا سرى التكسب كالنابغة ؛ وقد ذكر صاحب القاموس أن جهنم تابعة الأعشى - أى شيطانه - وهو نفس لقب عمرو بن قطن من بنى سعد بن قيس بن ثعلبة ، وكان يهاجى الأعشى ، فكانه شيطانه لأنه لا يزال يهيجه ويبعثه على الشر ، ولعل هذا هو الأصل . ثم اتخذ الأعشى بعد ذلك مسجلا ؛ 'أما ما نسب من ذلك إلى أوائل الشعراء

كامرئى القيس ، ومازعموا من أن له قصائد ومطارحات مع عمرو الجنى ، وأن شيطانه لافظ بن لاحظ ، فهو من تخرصات الرواة وما يجيئون به استيفاء لهذا البحث الخرافى وتكثراً من النظائر والأشباه فى الروايات ، ولهم فى ذلك أخبار ذكر بعضها صاحب جمهرة أشعار العرب وصاحب كتاب آكام المرجان وغيرهما .

ونحن ذاكرون ما وقفنا عليه من أسماء شياطين الشعراء ، إذ هم جعلوا ذلك مادة فى تاريخ آدابهم :

قالوا إن لافظ بن لاحظ هو صاحب امرئ القيس ، وهبيد صاحب عبيد بن الأبرص وبشير بن أبى حازم ، وهاذر بن ماهر صاحب زياد الديانى ، وهو الذى استنبغه وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره ؛ فالعجب منه كيف سلسل لذيان به ؟ ... (ص ١٩ الجمهرة) ، ومسجل بن أئانة صاحب الأعشى ، وجهنام صاحب عمرو بن قطن ، وعمرو صاحب المنجل السعدى وصاحب حسان بن ثابت من بنى الشيصبان ، ومدرك بن واغم صاحب الكميث ؛ قالوا وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن ، وسنقناق صاحب بشار ؛ وذكر جرير أنه يلقى عليه الشعر مكتهل من الشياطين ؛ والفرزدق يقول إن لسانه لسان أشعر خلق الله شيطاناً ، ولكنهما لم يسمياها جسيهما .

وقالوا إن رجلاً أتى الفرزدق فقال : إني قلت شعراً فانظره ، قال أنشد ، فقال :

وفيهم عمر المحمودُ نائله كأنما رأسه طين الخواتيم
فضحك الفرزدق ثم قال : يا ابن أخى إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما
الموهر والآخر الهوجل ، فمن انفرد به الموهر جاد شعره وصح كلامه ؛

ومن انفرد به الهوجل فسد شعره ، وإنهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في أوله فأجدت ، وغالطك الهوجل في آخره فأفسدت (ص ٢٤ : الجهرة) .

وكانوا يسمون الشعراء كلاب الحى ، وأول من لقبهم بذلك عمرو بن كلثوم في مقوله :

وقد هرت كلاب الحى منا وشذبنا قتادة من يلينا

والرواية التى أتت كلاب الجن خطأ ، لأن المراد بـ كلاب الجن شعراؤهم وهم الذين ينجحون دونهم ويحسون أعراضهم كما ذكر الجاحظ (ج ١ : الحيوان) وقد تابعه الشعراء على هذه التسمية ، لأن كل هجاء منهم يفخر بأنه عقور... ولم يلتفت المحدثون من الشعراء بعد بشار بن برد لأمر هؤلاء الشياطين إلا مايجى لهم من سبيل الفكاهة والبادرة ، ولكنهم لم يدعوا الاستعانة بأسماء الله فى رأس القصيدة ، فيكتبون اسم الفتاح أو العليم أو المعين ، أو يبتدئون بالبسملة ، وقد درجوا على ذلك إلى اليوم ، وبخاصة فى العراق .

طبقات الشعراء

يقسمون الشعراء باعتبار عصورهم إلى أربع طبقات : جاهلي قديم . ومخضرم ، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام . وإسلامي . ومحدث . قال ابن رشيقي : ثم صار المحدثون طبقات : أولى ، وثانية مع التدرج ؛ وهكذا في الهبوط ، ويسمى المحدثون بالمولدين أيضا ، وبعضهم يطلق هذا اللقب على الإسلاميين ويخصه بهم .

وأصل المخضرم عندهم من أدرك الجاهلية والإسلام ، ثم أطلقوه على هذه الطبقة ، فقالوا شاعر مخضرم ، قال ابن بري : أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم - بكسر الراء - لأن الجاهلية لما دخلوا في الإسلام خضرموا آذان إبلهم : قطعوا أطرافها ، (وكان أهل الجاهلية يخضرمون نَعَمهم ، فلما جاء الإسلام أمروا أن يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم فيه أهل الجاهلية) لتكون علامة لإسلامهم إن أُغبر عليها أو حوربوا ؛ وأما من قال : مخضرم - بفتح الراء - فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام (تاج العروس ج ٧ ص ٢٨) .

وأشهر المخضرمين لبيد ، وحسان ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي ، والخنساء . ثم شعراء الجاهلية عند بعض العلماء ثلاث طبقات ، يعدون في الأولى : أصحاب السبع الطوال على المشهور ، والنابغة ، وأعشى قيس ، والمهلهل ، وعدى بن زيد ، وعبيد بن الأبرص ، وأمّية بن أبي الصلت ؛ وفي الطبقة الثانية : الشنفرى ، وأبو دواد ، وسلامة بن جندل ، والمنقّب العبدى ، والبراق بن روحان ، وتأبط شرا ، والسمومل بن عادياء ، وعلقمة الفحل ،

والحارث بن عباد ، وخداش بن زهير ، وعروة بن الورد ، والأسود بن
يعفر ، وحاتم الطائي ، وأوس بن حجر ، ودريد بن الصمة ، والحنساء ؛
ولا يعدون من الطبقة الثالثة غير لقيط بن زرارة . وهذا التحديد يسقط
كثيرين من شعراء الجاهلية وشواعرهم . وهم إنما قسموهم على رتبهم في
الإجادة كما يقولون ؛ ثم إن من يقف على مجازقتهم في التفضيل بالقطعة
والبيت ، بل وبنصف بيت ، لا يرى في هذا التقسيم إلا أنه رأى مرسل
كما اتفق ، لا كما تجرى به الأدلة وتسيره البراهين ؛ ولهم بعد كلام كثير
فيمن هو أشعر العرب ، تجده مبثوثا في سطور الكتب ، وهو مما لا يؤخذ
به لأن سبيله سبيل ذلك الراى ؛ وعندنا أن قولهم فلان أشعر العرب لبيت
كذا أو لقصيدة كذا ، محمول على المبالغة في الاستحسان ، كما يقولون أشعر
الإنس والجن ونحو هذا ؛ فكأنهم يمدحون الشاعر بكلام على مذهب الشعر .
وشعراء الجاهلية معروف أكثرهم ، والمخضرمون معروفون جميعا ،
ولكن الإسلاميين لا يعرف منهم إلا عدد قليل ، وذلك راجع للفتن
الإسلامية التي صرفت قرائحهم واستأصلت أكثر أهل الاستعداد منهم ،
كما سنبينه في موضعه .

أما المحدثون فلم يسقط من مشاهيرهم أحد ، وقد وضعت لهم كتب
التراجم في عصورهم المختلفة إلى اليوم ، وسندكرها في باب التاريخ ،
إن شاء الله .

الشاعرات (*)

كان ابن أبي ذؤاد يقول : ليس أحد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر ، طبع ركب فيهم ، قلّ قوله أو أكثر ، فإن صدق هذا على رجالهم صدق على نساءهم ، إذ الطبع واحد واللغة متفقة والغريزة لا تختلف ، وإنما يتفاوت الجنسان في فنون القول لافى القول نفسه ، ثم في براعة الصناعة من جهة قوة الشعر وسبك ورصفه والتثامه ، ومن ناحية المعنى وصحته والإبداع فيه ؛ أما في استقامة الألفاظ وفصاحتها ، وفي استقامة الأوزان الشعرية بعضها أو كلها فما أحسب ذلك يعي أحداً منهم رجالاً ونساء متى أراد وحمل طبعه عليه ، إن لم يكن في جميعهم ففي أكثرهم ؛ ولهذا كان الذى قصر بالشعر العربى وجعل أكثره متخلفاً لا يثبت على أفواه الرواة - كثرته وتعاطى

(هـ) قلت : هذا الفصل من باب الشعر له صورتان فيما تحت يدي من (الأصل) المكتوب بخط المؤلف ، إحداهما بعنوان « شواعر العرب » والثانية هذه التى نشرها هنا ، وقد آثرت هذه بالنشر دون تلك ، إذ كان فيها ما يغنى عن الأخرى فى موضوعها ، وإذ كانت أحدث عهداً فى الكتابة كما حققت ، على أن هذه الصورة نفسها التى آثرتها بالنشر ، كان فيها صفحة مكررة ، وقد بدا لى أن إحدى الصورتين من هذه الصفحة كانت تعديلاً للأخرى ، لحذفت من إحداهما ما كان مكرراً فى الثانية ووصلت الكلام بعضه ببعض بحيث تتلاحق المعانى من غير أن أزيد شيئاً فيها أو أنقص ؛ ثم بقيت بعد ذلك فقرة من الصفحة التى طويتها لم أجد لها مرادفاً فى أختها فرأيت أن أميتها فى الهامش عند الموضوع الذى يناسبها من الكلام .

وقد عانيت ما عانيت فى قراءة خط المؤلف فى هذا الفصل حتى نشرته على الصحة فى جملته ، ولكن كلمات عبيت بها ولم أستطع قراءتها على وجه تظمن إليه نفسى ، فكاتبته على الظن بين العلامتين [] لاخرج من تبعه التقصير .

كل أصوله . حتى العامة والسفلة ؛ وما من قائل إلا وهو معدُّ لقوله سامعاً ،
ولا من سامع إلا وهو يحفظ ويروى بعض ما سمع ، فقد خرج الأمر إلى
أن صار كالعادة والطبيعة ؛ وإذا وجدت أمة كلها شعراء تساقط شعراؤها
حتى لا يثبت منهم ولا يتفرد إلا من كان فوق الطبيعة وجاء من وراء العادة
فيا قالوا وفيما سمعوا ، أو من احتاجوا أن يعتبروه كذلك لأمر من أمورهم
كما يحتاج أهل المملكة إلى الملك ، وما هو بنفسه صار ملكاً ولكنه بما
رضوا وخضعوا وبما سمعوا وأطاعوا .

فهذان سببان إن وقعا في حكم الشعراء من الرجال لم يتفق أحدهما
ولا كلاهما للشاعرات من النساء ؛ إذ كانت المرأة دون الرجل في هذه القوة ،
فلا هو ينقلب أنثى ولا هي تنقلب رجلاً ، ثم كان لها من الشأن في التاريخ
على مقدارها ، فما قط عرفت شاعرة أخلت شعراء دهرها ، ولا كاتبة غطت
على كتاب زمنها ، ولا عرف مثل هذا في الأدب ولا في الرواية ولا في شيء
من هذه الصناعة بوسائلها وأسبابها ، فكانت الطبيعة نفسها حجاً مضروراً
على النساء قبل الحجاب الذي ضربه الرجال عليهن .

بهذين السببين قلَّ الشاعرات من النساء طبيعة ، ثم زادهن قلة في العرب
أن تاريخ النساء فيهم كان [ينشئ] جزءاً من تاريخ السيوف ، فكانت المرأة
العربية كأنها طبيعة من طبائع النعمة ؛ إذ لم تسكن إلا عرضاً يُحْمَى بالسيف
أو عرضاً يُسَابُ بالسيف ، وجعلها ذلك منهم بمنزلة الذاكرة من وقائع
التاريخ ، فهي التي تذكرهم النار وأيام الدم ، وهي التي لا تنسى شيئاً مما هيأتها له
الطبيعة الاجتماعية في أرضها وقومها ، فإن كانت لم تعيش إلا في ظلال السيوف ،

وإن كانت أما لم تلد إلا قاتلا أو مقتولا ، فهي في الأولى يتصل بها تاريخ القتلى من أهلها ؛ وفي الثانية تتصل هي بتاريخ القتلى من ذويها ؛ فنتم انصرفت عن الشعر إلا في أخص شئونها ، وشغلت من الخيال بإحساسها الذي لا هم لها إلا أن تستمده من الحوادث لتوقع منه أحداثا مثلها ، سيئة بسية ؛ فهي بعيدة عن القول بمقدار قربها من العمل .

ولذلك بنيت المرأة العربية على أخلاق شديدة ، لمكان الطباع والعادات والحوادث التي أنشأتها [وانحدرت] فيها وجرت عليها ، فجاءت في مثل تركيب الصحراء : إن يكن فيها ساعات ندية من الليل وضوئه ونسجه وأحلامه ، ففيها نهار يصب النار على [الأحياء] ملء أقطار السموات ، كأنه لم يقسم لها إلا شدة الحب وشدة البغض ، تجري فيهما على أسباب وعلل مذ صارت جزءا من طبيعتها الثانية فتستفرغ فيهما كل وسائلها وتبلغ بهما ما بلغت قواها . فتنتهي إلى خلقين ثابتين : شدة الجزع ، وشدة الصبر ؛ وكل ذلك مما لا يترك للشعر في طبعها إلا مكانا محدودا في معان محدودة .

وسبب رابع في قلة الشعارات عند العرب ، وهو أن كل قبيلة إنما تعتد الشاعر لسانها السياسي ، وتعدده للخصومة في تاريخها والنضج عن أحاسيسها ، وتنال به ما ينال الأسد من أنيابه ، فهو منهم إن أرادوه كان المعنى المتوحش في المعنى الإنساني ، وإن أرادوه [لأفئدتهم] كان المعنى الإنساني في المعاني الوحشية ولذلك يسمون الشعراء «أظفار العشيرة» . والمرأة لا تصلح ظفراً ولا نابا ، ولا تحسن أن تمضغ لحوم الأعداء في هجائها ، ولا أن تأتي بالكلام الذي تترقق فيه دماؤهم ، ثم هي نفسها

[جزء] تقع عليه الخصومة بينهم ، وفيها أكثر المعاني التي يستبون بها ، بل هي أم هذه المعاني... ثم كانت [طبيعة جنسهم] أن يذشتوها في الحلية لا في الخصام ، وأن يجعلوها فاكهة العيش لا ثمره المر ، وكل هذه حدود تتراجع فيها حداً وراء حد ، والشعراء منطلقون من جميعها (*).

والعرب لا يرون كل من تقول الشعر شاعرة ؛ إذ كان ذلك طبيعياً فيهم وإنما الشأن فيمن تتخطى حدود الحجاب الطبيعي وتكثر من القول وتصرف في فنونه ومعانيه بما يتعدد من حوادثها ومصائبها ؛ فتلك هي الشاعرة عندهم لا غيرها ، وبذلك جرت لهم العادة في السماع والرواية ؛ إذ المصائب تجعل المرأة في [جوق] الرجل أو قريبة منه ، بما تضيف إليها من الشعور وبما تبعثها عليه من العمل ، ثم هي في تلك الحال إنما تدون لهم بعض التاريخ وتزيدهم لساناً في رواية المفاخر ، ومن هذه الجهة تشبه الشعراء ، فيتناشدون شعرها ويستمعون إليها ، وتنبغ بالمصائب ثم تكون ندرتها فيهم نبوغاً آخر ، وقلما تقدمت المرأة عندهم في باب من أبواب الكلام أو العمل إلا كانت غريبة نادرة ، وهي سنة طبيعية في التاريخ انتفعت بها النساء الشاعرات إلى يومنا هذا ؛ فإن الشيء الغريب لو لم تكن له قيمة لكفى بغيرته قيمة فيه .

(٥) قلت : بخط المؤلف في بعض الصفحات من الأصل قرأت العبارة التالية ، فرأيت لإثباتها هنا :

... ثم إن هذه اللغة في العربية خولة في أكثر ألفاظها وأصاليها ، لا تلاثم أنوثة النساء ، فهذا سبب آخر في اقتصارهن على الرقيق المأنوس مما يجري في المعاني الرقيقة ولا يصلح لغيرها ، كالرثاء والغزل ونحوهما ...

وكان نساء العرب يقلن الشعر في معانٍ متقاربة يرجع [أكثرها] إلى
[إحساس المرأة وحسن تصرفه بين عقلها ولسانها ؛ ولم يكن لهن من معاني
الشعر غير الرثاء وبعض الغزل ، وشعر ترقيص الأطفال ، وشعر التحضيض
يثرن به نخوة الرجال ويحضضنهم على طلب الثأر والثبات والاستماتة في
الحرب ؛ وقد تجعل المرأة جسمها قصيدة مع شعرها في التحضيض ، كالذي
فعلته ابنتا الفند الزماني ، فقد قالوا إنه لما اشتدت الوغى يوم التحالق
وخاف بنو بكر من الفرار ، عمدت إحداهما إلى أثوابها فألقته عنها وأقبلت
عارية مجردة وجعلت تحض الناس وترتجز ، وفعلت أختها مثل ذلك ،
فتحمس القوم ووثبوا يقاتلون قتالا منكرا ؛ فهذه مادة من شعر النساء
لا يستطيعها أبلغ الشعراء من الرجال .

والرجز الذي ارتجزت به إحدى هاتين هو الرجز المشهور :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

وهذه الأبيات تروى أيضا لهند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ،
فقد كانت ترتجز بها في وقعة أحد وخلفها النساء يضربن بالدوف ؛ وهند
هذه هي التي شقت بطن حمزة لما قتل ، وقد كان أسداً من أسود الله على
قومها ، فاستخرجت كبده فلا كتها في فها فلم تطق إيساعها فلفظتها ، وهذا
من شر ما يعرف عن امرأة ، وليس يشبهه إلا ما فعلته ريحانة أخت عمرو
ابن معد يكرب الفارس المشهور ؛ وأم دريد بن الصمة فارس هو ازن وسيد
بنى جشم ، فإنه لما قتل ابنها عبد الله بن الصمة لم تزل تعير أخاه دريدا
وتحضه ، حتى نفر في طلب الثأر من غطفان ، فغزاهم وقتل منهم قوما ، ثم
أمر قاتل أخيه وأتى به إلى [فناء] أمه فقتله تحت عينيها ، فأحضرت

السيف وجملت تلحس الدم بلسانها إلى أن انقطع منه شيء وهي لا تشعر
لغلبة الفرح عليها ؛ ومع هذا الظماً إلى الدم لا يروى لريحانة شعر في ابنها ،
ولاهى معدودة في الشواعر ، وإنما رثته أختها كبشة بنت معديكرب ،
فأجزأت الخالة عن الأم ؛ ومن أعجب ما يروى عن شاعرة ، خبر عجوز
تسمى خويلة ، وكان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم بنو إخوة
وبنو أخوات ، طرقتهم بنو واهن وبنو ناغب فقتلوا منهم ثلاثين ، فوقفت
خويلة على مصارعهم ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها [ونظمت] منها قلادة
وألقتها في عنقها وخرجت حتى لحقت بابن أختها تستنفره للشار في شعر
جاف [مقتضب] لخناصر قتلها ، رواه القالي في أماليه (ص ١٢٧ ج ١) .

ومن أعجب شعر النساء القديم في الجاهلية الأبيات المشهورة المروية
للبيلى بنت لكيز الملقبة بالعفيفة ، وهي التي تصف فيها ابتداء الأعداء لعفانها
بهذا البيت النادر :

قيدونى غللونى ضربوا ملىس العفة منى بالعصا

وقولها «ملىس العفة» من الكلام الذى لا يفنى التعجب من بلاغته
ومن حسن التعبير فيه ، وكذلك أبيات جليلة أخت جساس ، وكان
أخوها قتل زوجها كلياً بن ربيعة ؛ فلما اجتمع النساء يندبته أخرجنها
وحسبها شامة لأنها أخت القاتل ، فبلغ ذلك إليها فقالت أحياناً من
أعجب الشعر :

جَلُّ عِنْدِي فَعَلُ جَسَاسٍ ، فَوَا حَسْرَتَا مِمَّا انجَلَى أَوْ يَنْجَلَى !
فَعَلُ جَسَاسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ قَاطِعُ ظَهْرِي وَمُدْنِ أَجَلِي
لَوْ بَعِينُ فَقَعْتِ عَيْنٌ سِوَى أُخْتِي فَاَنْفَقَاتِ لَمْ أَحْفَلِ

يا قتيلا قوِّضَ الدهرُ به سقِفَ بيتي جميعاً من عِلِّ
هدم البيت الذي استحدثته وانثني في هدم بيتي الأول
يشتفي المُدرِكُ بالثَّارِ ، وفي دَرَكي ثأري تُكَلِّ مُشكلي
إنني قاتلةٌ مقتولةٌ ولعل الله أن يرتاح لي^(١)

قال صاحب المثل السائر : وهذه الأبيات لو نطق بها الفحول المعدودون لاستعظمت ، فكيف بها من امرأة ! .

ولا يهولنك كثرة أسماء النساء اللاتي قلن شعرا ، فعمود الشعر عندهن الرثاء ، وليس هن إلا المقاطيع والأبيات القليلة ، ولم تَبِنْ منهن إلا الخنساء ولبلى [الأخيلية] ؛ وما شعرت الخنساء حتى كثرت مصائبها ؛ وكانت قبل ذلك كغيرها من النساء : تقول البيتين والثلاثة ، حتى قُتل أخوها صخر [...] به من كان مثله ، فأجادت وأطالت ؛ لأنها أصبحت مصروفة الهم إلى نوع من الحب في نوع من الشعر ؛ وسمت همتها إلى أن صارت تعاضم العرب في مصيبتها بأبيها وأخويها صخر ومعاوية ؛ فصارت تشهد المواسم وقد سَوَّمت هودجها براية وتقول : أنا أعظم العرب مصيبة ! وتبكي أهلها وتنشد مرثيهم فدارت أشعارها على الألسنة ؛ وقد قلدها في هذا الصنيع هند بنت عتبة ، فإنه لما قُتل أبوها وعمها وأخوها ، وبلغها ما تفعل الخنساء في الموسم وتسويمها هودجها ومُعاضمتها العرب بمصيبتها ، قالت : أنا أعظم من الخنساء مصيبة ! وأمرت بهودجها فسوِّم براية ، وشهدت الموسم بمكاظ ، وجعلت تسأل عن الخنساء فدَلَّت عليها ، وجعلت كل منها تعاضم الأخرى وتنشد مرثي أهلها . فلو كان يُعرف عندهم أشعر من هاتين لسَمُوهُن .

(١) كناية عن الموت .

وقد استفحلت الخنساء في رثاء أخيها صخر ، وكان أخاها لأبيها ولكنه كان أحبَّ إليها من معاوية وهو لأبيها وأمها .

غير أن المصائب لا تجعل غير الشاعرة شاعرة ، ولا بد من تركيب ملائم في بعض الناس لتأقّي مادة الشعر عن الروح والقلب والطبيعة ، ولم يأت في شعر النساء [خاصة] أخف ولا أجزل من شعر الخنساء ، كأن فقد رجالها جعلها رجلا .

وكثير من أشعار النساء يضعه الرواة ويهينون له أخباراً يجرى فيها ذلك الشعر ، ولكن ما تقوله المرأة في لوعتها لا يُحسن الرجل أن يقول مثله مهما تكلف لذلك ولبسه على تصنع ؛ وبهذا تستطيع أن تميز الصحيح والمنحول من شعر النساء .

وقد [يُمسِك] لسان امرأة في مصيبتها زمنا إلى الحول إذا فجعت بحبيبتها ، فلا تقول شيئا مع قدرتها على القول ؛ لأنها لا تسلو ولا تفتيق ، ولا تريد أن تسلو ولا تفتيق ، كأمراة مالك بن عمرو الغسانی ، فلما زوجها بعد زوجها الأول نطقت ترثيه ليلة عرسها ؛ فكان شعرها طلاقها من يعاها الثاني ا

ومن نادر الشعر في مرثي النساء أبيات تروى لامرأة من بني الحارث ابن كعب كان لها طفلان من عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكان عبيد الله هذا عاملا لعلي بن أبي طالب على اليمن ، فوجه معاوية إلى اليمن بسر بن أرطاة فأرشد على الطفلين ، فوارتهما أمهما تحت ذيلها ، فأخذهما وذبحهما تحت عينيها ؛ فكانت تقول في رثائهما وندبهما أياتا ، منها :

يا من أحسن بُنيِّ اللذين هما كالدُّرَّتَيْنِ تَشَطَّىٰ عَنْهُمَا الصَّدْفُ
يا من أحسن بُنيِّ اللذين هما سمعى وطر فى فطرى فى اليوم مُحْتَطَفُ
يا من أحسن بُنيِّ اللذين هما مُحُّ العظام فمخى فى اليوم مُزْدَهَفُ
ولا أبلغ فى البلاغة ولا أحسن حكاية لصوت البكاء والندب من
قولها «بني»، فهاتان الياءان المشددتان تعصران الدموع عصراً وتصوران
غصص العبرات مترددة فى حلق الباكية أبدع تصوير .
ولم يكن نساء العرب يقلن فى الغزل ووصف الهوى إلا قليلا ،
لمكان المرأة بينهم وشدة الغيرة فيهم ، ثم لا يكون غزلهن إلا عفيفا ،
كهذه الأبيات التى رواها ثعلب لامرأة من العرب (*) تقول فيها تصف
خلوة مع حبيبها :

وبنا خلاف الحى لانحن منهم ولا نحن بالأعداء مخرطان
وبنا يقينا سافط الطلّ والندى من الليل بُردًا يُمْنَةً عَطِران
نذود بذكر الله عنا من الصبي إذا كان قلبانا بنا يردان (**)
وهذا المصراع الأخير من أبدع الكنايات ومن أبلغ البلاغة العربية .
فلما تحضر العرب ونشأت طبقة الشعراء العشاق ، وبدأ عصر القيان
النادبات المغنيات — مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء ومن فى
طبقتهن — فشا الغزل فى شعر النساء ، وكان يندر بعد ذلك أن تظهر
الشاعرة المنفحلة التى تجرى على سنة العربيات ، كليلي بنت طريف الشاعرة
[الفارسة] التى كانت فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وكانت تسلك

(*) قلت : هى أم ضيفم البلوية .

(**) قلت : الرواية المشهورة : إذا كان قلبانا بنا يجفان .

في رثاء أخيها الوليد بن طريف الشيداني الخارجي مسلك الخنساء في رثاء
صخر ، ولها الأبيات الطائرة التي منها هذا البيت البليغ المشهور في
كتب النحاة .

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

ولا غرابة في فروسية هذه الشاعرة وفصاحتها وجزالتها ؛ فهي من نساء
الخوارج ، وهن في النساء الإسلاميات كالعضل في الجسم ا

وللقيان الناديات تأثير بعيد في تاريخ الأدب ، لأنهن يتهاكن رقة
وظرفا وحبا ، وشعر الشاعرات منهن كحفظان القلوب ، كله مقاطيع
لا قصائد ، وكان منهن من تجلس للشعراء تناقضهم وللأدباء تحاورهم ،
كحلوب جارية يحيى بن خالد البرمكي ، وفضل الشاعرة جارية المتوكل ، ولم
تكن تشعر الواحدة منهن حتى يتصل [الموى] بينها وبين شاعر أو
شعراء وكاتب أو كتاب ، تأخذ منهم وتدع ، وتعرف منهم وتنكر ؛
وليس بعد الخنساء وليلي الأخيلى أشهر من فضل الشاعرة جارية المتوكل ؛
وروى صاحب الأغاني في أخبار سعيد بن حميد الشاعر الكاتب المترسل ،
وكانت تهواه فضل ، عن إبراهيم بن المهدي ، قال : كانت فضل الشاعرة
من أحسن خلق الله خطأ وأفصحهم كلاما وأبلغهم في مخاطبة أوأئبتهم
في محاوره ؛ فقلت يوما لسعيد بن حميد : أظنك يا أبا عثمان تكتب
لفضل رقاها وتفيدها [وتخرجها] فقد أخذت نحوك في الكلام
وسلكت سبيلك ، فقال لي وهو يضحك : ما أخبت ظنك . . . [والله]
يا أخي لو أخذ [أوائل] الكتاب و [أمائهم] عنها [استغنوا]
عن ذلك .

ومن مضحكات فضل هذه أنها كانت تهاجى خنساء الشاعرة جارية هشام المكفوف ، وذلك ما لم نعرف له نظيراً في الأدب العربي ، فقد عرفنا أن الهجاء قد يلجّ بين شاعرين ، أو بين شاعر وشاعرة ، ولكننا لم نعرفه بين شاعرة وأخرى مثلها ، إلا ما قيل عن فضل وخنساء ؛ وكان هجاؤهما نساءياً [حياً] وكانت كلتاها تستعين في ذلك بالرجال ؛ فكان أبو شبل عاصم بن وهب يعاون فضلاً ، وكان القصيري والحفصي يعينان خنساء ، وبهذا رجع الهجاء إلى حقيقته فصار بين رجال بعضهم وبعض .

وكان عند المتوكل شاعرتان غير فضل ، هما : بنان ومحبوبة ، غير أن السبق لفضل ؛ فهي شاعرة زمنها .

وعلى كثرة أسماء النساء الشاعرات في التاريخ الأدبي وروايتهم ؛ عن أبي نواس أنه قال : ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء ولبلى ؛ وقول أبي تمام : لم أنظم شعراً حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة — لم يفته إلينا ولا ديوان واحد إلا المقطعات التي جمعت للخنساء ، وهي ليست ديوانها ؛ ولعل السبب في ذلك أن الناس لم يكونوا يحفلون بشعر النساء ، إذ كان شعر الرجال قد ملأ الدنيا وذهب المذاهب كلها في فنون الكلام وبلاغته ، وإنما كان يجمع بعض الرواة والعلماء أشياء من ذلك ، كالكتاب الذي جمعه أبو عبد الرحمن العُتبي الشاعر البصري المتوفى سنة ٢٢٨ هـ من أشعار النساء اللاتي أحببن ثم أبغضن ، وكلهن من العرب ، وأشعار النساء للبرزباني ، وهذا الكتاب لا يزال موجوداً ؛ ثم ما ألف في طبقاتهن ، كالإمام الشواعر للأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، والنساء الشاعرات لعدة أدباء .

والعجيب أن الذين ألفوا في طبقات الشعراء لم يذكروا الشاعرات
معهن ، لا في الحجاز ولا في الشام ولا في العراق ولا في مصر ولا في المغرب
ولا في الأندلس ؛ وضربوا الحجاب عليهن ؛ إذ كان شعر النساء تظرفاً ،
وإذ لا يكاد يعرف في التاريخ كله من تستحق اسم الشاعرة غير بضع
نساء معدودات أشهرهن من عددنا ؛ وإذا عرفت امرأة واحدة في عصر ؛
غطى عليها مائة رجل في حجاب من لحمى الرجال فلا تكاد تظهر ؛ فيارحمنا
لهؤلاء الضعيفات !

تنوع الشعر العربي وفنونه

الشاعر إنسان منفرد في الناس ، وهو في نفسه عالم يجتمع من حيث تشبّك في نفسه علائق الموجودات وترتبط أسباب الحوادث وتتألف من ذلك كله صور مرتبة تلقىها إليه حقائق هذا العالم التي يستمد منها الشعر ؛ غير أن تلك الصور يدخل عليها ما يعترى الصور الحسية من الجمال والقبیح على اختلاف أنواعها من الرقة والمناسبة والغلظة واختلال التركيب ونحوها؛ وذلك تابع لتأثير العصور على الشاعر ومقدار ما يكون قد تخلف في عصره من أسباب الرقي الإنساني ، فإن جهد الشاعر أن يكتنه حكمة الخالق في خلقه — وليس العالم كله إلا تفسيراً مرتباً على أجزاء هذه الحكمة البالغة — فالعصر الطويل بحوادثه التي تغير وجه الأرض إنما هو صفحة تطوى لتترك من المعاني ما تبني عليه صفحة أخرى ، وما هذا التشابه في حوادث العالم إلا نوع من الائتام ؛ كما يتشابه الثوب في جملة نسجه ولكن قطعة منه لا تبنى عن قطعة ؛ بل لا بد لظهور حقيقته من التمام كلها على حسب ما يقدر له في كماله . وعلى ذلك يمكن تقسيم الشعر مطلقاً إلى ثلاثة أقسام باعتبار علاقة روح الإنسان بالقوى الغيبية ؛ وعلاقتها بأحوال الناس ؛ وعلاقتها بسائر الموجودات الأخرى ، لأن الشعر ليس أكثر من أن يكون لغة الروح ؛ لجميع أنواعه إلى هذه الأقسام الثلاثة ؛ وعلى مقدار ارتقاء كل أمة يكون مبلغ شعرها منها ؛ فالعرب في جاهليتهم كانوا منصرفين عن الفكر في حقائق القوى الغيبية ، مستسلمين للأوهام بحكم العادة ولذلك فقدت من شعرهم مادة الجمال الروحاني التي يتألق فيها نور السماء ، فكان شعراً مادياً لا يصف المحسوس بأكثر من كونه محسوساً وإن تنوعت

العبارات واختلقت الأساليب ، وكذلك كانت علائقهم الاجتماعية بسيطة في أكثر أحوالها ، لأنهم أهل بادية لا يختلطون بغيرهم ولا يعرفون من تاريخ العصور أكثر من عوائد أسلافهم الأقربين ، فكأنهم في أوائل من عمروا الأرض ، وكأنهم عند أنفسهم من آباء التاريخ ؛ ولذلك جاءت فنون شعرهم غير مرتبة ولا مستقصاة ، بل تنحصر في أنواع لا تكافئ ما يكون من العلائق في أمة راقية ، وكانوا يعرفون ذلك النقص في مادة أشعارهم فوجهوا جهدهم وصرفوا قواهم إلى الفصاحة وتشويق الكلام وتصريف اللغة ؛ فبلغوا في ذلك منزعا بعيدا ؛ لأنها من الصناعات التي تلائم الظواهر النفسية ، وكانت أحوالهم الاجتماعية كلها بعيدة عن أن يخاص عليها في قرارة النفس ، فلما صادف ذلك الاتفاق منهم المشابهة التامة والمطابقة الصحيحة ، نهضت به طباعهم الراقية إلى ما قصرت فيه عنهم سائر الأمم ، لانصراف طباعها إلى غير ذلك وتوزع قوى الابتكار في أفرادها ونوابغها المعدودين .

وبهذا يتضح لك خطأ ما حكاه ابن خلدون وأقره من اعتقاد أئمة الصناعة الأدبية أن ما لم يجر على أساليب العرب كشعر المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء ؛ وهو يريد بأساليب العرب ما صرفوا إليه جهدهم بما وافق ظواهر أحوالهم على نقصه ؛ وقد سقط في ذلك جمهور الأدباء حتى كبارهم كالجاحظ وغيره ؛ فكان من هذا علة أصل الجمود الذي جعل الشعر العربي يضطرب في دورة الأزمنة لأنه لا يدور معها إلا قليلا عندما يدفعه أهل القرائح المستقلة ، ومدار الاستقلال في القريحة على نوع من الإبداع خاص بها هو الذي يقال فيه نفس فلان وروح فلان ، فإذا اقتدت القرائح بعضها ببعض فقد

استعبدت وذلك ؛ لأنها تتبع آثاراً في طريق مصنوعة ؛ ولكن طريق الإلهام لا أثر فيها إلا حس الأرواح بعضها ببعض ، وليس يحق هذا الحس إلا خذلان من الله ؛ فالقريحة المستقلة لا تتبع صفة قريحة أخرى ؛ ولكنها تتبع الروح الملهم وتبين آثاره في الصنعة وتبالغ في تمييزها حتى تتجه إلى مصدر الإلهام ؛ وذلك سر النبوغ العبقري .

وقد يتفق للجاحظ أن يحوم بخاطره حول المعنى المقصود من الشعر ولكنه لا يسقط إلا على أطرافه وأعلى فروعها ، وإنما يعمى عليه أنه ينظر إلى أن الشعر عمل فردى مبدؤه الشخص وغايته الشخص ؛ وكان ذلك صحيحاً في العرب لأنه ينطبق على حالتهم الاجتماعية ؛ إذ كانوا أفراداً أو في حكم الأفراد ؛ وكانت كل أعمالهم تجري هذا المجرى ، فهم لا يغزون مثلاً مدافعة عن الحياة العامة للقبيلة ؛ أى من أجل باعث سيامى ؛ ولكنهم يغزون للحياة الفردية ؛ أى مدافعة عن العيش أو التماس له أو مغالبة عليه ؛ وكذلك هم في كل شأنهم مادام قوام الاجتماع عندهم بالعصبية ، وقد ظهر أثر ذلك في شعرهم فهو شخصى في معانيه ، يمتاز بهذه الشخصية ، حتى لا تجد فيه الحوادث المركبة التي يرمى بها إلى غرض عام ، كتاريخ قبيلة من القبائل ؛ والشعر التمثيلي الذي يُتَحِيلُ فيه على تصريف المعاني وسياسة الحوادث ؛ وكان ذلك سهلاً عليهم لو أنه في طبيعة معيشتهم ومن مقتضى نظامهم الاجتماعى ، أما فيما عدا ذلك ، أى في المعانى الشخصية ، فقد بلغوا في إجادتها مبلغاً يناسب لإحكام اللغة وإتقانها ؛ وهو الذى خُذع به الرواة حتى ظنوه كالأإنسانيا كان مقسوماً للعرب فخصوا به وذهب في مآثر زمنهم ، لأن على أسلوبهم وشئ الغريزة ، وفيه حوك الطبيعة ، وذلك معدوم

في طبع من بعدهم بالضرورة ؛ ولما سُئل أبو عمرو بن العلاء عن المولدين قال : ما كان من حسن فقد سُبِقوا إليه وما كان من قبيح فمن عندهم ، ليس النبط واحدا ، ترى قطعة ديباج وقطعة [نسيج] وقطعة نطع ...

قال الجاحظ : عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه ؛ وقد رأيت ناسا منهم يهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ؛ ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان ... إلى أن قال : والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ؛ وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ؛ وإنما الشعر صناعة وضرب من الصنع وجنس من التصوير . . .

ونقول إن الفرق بين المولد والأعرابي أن المولد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو ؛ فإذا أمن انحلت قوته واضطرب كلامه . اهـ (ج ٣ ص ٤٠ الجواهر)

قلت : وإذا كان الشعر ضربا من الصنع وجنسا من التصوير فلا ينبغي أن يكون كله ماء ورونقا ، وهو اللون البليغ الذي يريدونه ؛ لأن تصوير الحياة العامة يحتاج إلى الألوان الكثيرة ، وربما دخل فيها أقبح الألوان فكان أحسن شيء ، لوقوعه مع المناسبة بين الألوان الأخرى .

على أن المحدثين قد خالفوا العرب في كثير من الشعر إلى ما هو أليق وأمسّ بأزمانهم ، ولكن ذلك إنما كان من تأثير العصور عليهم ضرورة ولم يتجاوزوا به التشبيه والأوصاف ، أما فنون الشعر فبقيت على ما تركها العرب ، إلا ما كان من التصرف القليل في بعضها - كما ستعرفه - وأول من عد هذه الفنون وميز الشعر بها تمييزاً أخذ عنه ، أبو تمام ؛ فإنه رتب كتاب الحماسة في عشرة أبواب : هي الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والإضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومعرفة النساء ؛ ثم جاء عبد العزيز بن أبي الأصبح فجعلها بعد التبع والاستقصاء ثمانية عشر : وهي الغزل ، والوصف ، والفخر ، والمدح ، والهجاء ، والعتاب ، والاعتذار ، والأدب ، والخريات ، والأهديات ، والمراثي ، والبشارة ، والتهاني ، والوعيد ، والتحذير ، والتحريض ، والملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب .

وقد ذكر الثعالبي في ترجمة ابن حجاج الشاعر الهذلي الكبير وكان في القرن الرابع ، أن البديع الأسطرلابي رتب ديوانه على مائة وأربعين باباً وواحد ؛ ثم قفى كل باب وجعله في فن من فنون شعر الزجل ؛ ولكن هذه الفنون غير متباينة في تنوعها ، بل ربما كان منها مائة نوع من الهجاء والسباب وحده ، والباقي في المديح وغيره .

فأنت ترى أن تلك الفنون جميعها متداخل بعضها في بعض من حيث الوصف الشعري ، وإنما هي أسماء نوعية تباين مسمياتها بالحالة لا بالذات ، فإن الشعر في الأعم الأغلب واحد في جميع تلك المتناقضات والمتشابهات من حيث روحه وأسلوبه والمبدأ الذي يأخذ منه والغرض الذي ينتهي

إليه ، ولكن أحواله متعددة بحسب اختلاف تلك الأنواع ، فإن حالة الرثاء وصفة الفجيجة مثلا غير حالة الشعر المخمري وصفة الطرب والانشراح .

ولكن تنوع الشعر في الحقيقة إنما يكون ذاتيا ، أى في الروح والأسلوب والمبدأ والغرض ؛ فروح الشعر هو نوع التأثير الذى يخلقه الشاعر فيه ، والأسلوب هو الطريقة التى يخصص بها نوع هذا التأثير ، والمبدأ هو المعنى النفسى الخاص الذى يكيف به الشعر المؤثر ، والغرض هو المعنى العام النفسى الذى يقصده من التأثير .

وبذلك يكون الشعر تمثيلا حقيقيا للحياة ، لأن الحياة بمجموع من العادات العملية والانفعالية والذهنية مرتبة ترتيباً منظماً يؤدي إلى سعادة أو شقاء ، ويسوق إلى الأقدار أيها كان ؛ والناس كذلك مختلفون في قيمة التأثير بأحوال هذه الحياة ، ونوع هذا التأثير ، وفي المبادئ الخاصة التى تبني عليها تلك الأحوال ، والأغراض العامة التى تساق إليها ، فالشاعر ينبغي أن يكون قوة من قوى الطبيعة التى تساعد في تكوين هذا الاجتماع على حالة من أحواله المختلفة ، والقوى الطبيعية كلها متغايرة متباينة ، ولكن هذا التغير فيها إنما هو شكل الانتظام الذى قامت به الحياة . والذى يحتاج إلى المطر لا يشترط في السحاب أن يحمىء من هنا أو من هناك ، ولا أن يكون قد تصاعد من بحر كذا أو غيره ، ولا أن يساق بريح شديدة أو لينة ؛ وكذلك الشاعر لا يقلد في شعره بنوع أو حالة ؛ لأن الشعر قوة مؤلفة من عناصر دقيقة تنظم بطبيعتها على النحو الذى يصورها في شكلها الملائم لتصرف مادة القوة فيها وعلى حسب ما يصرف الشاعر من هذه القوة .

فإذا اتفق الشعراء على شكل واحد وعلى أنواع معروفة لا تكافئ أغراض الحياة ، فقد سقطوا من منزلتهم الطبيعية المبينة على تنوع القوى ، وعند ذلك تظهر في مجموعة شعرهم الزيادة عن الحاجة الخاصة بأكثر مما يظهر فيه النقص عن الحاجة العامة اللازمة للاجتماع ، وتكون النتيجة من ذلك أن يضح أكثرهم [من وقت الحرفة] لأن المتفردين منهم بظهور القوة هم الذين يكونون شعراء الناس فيجتازون ، والباقيون يكونون شعراء أنفسهم فيغيبون في شعراء الناس .

وليس يؤخذ مما ذكرناه أن شعراء العرب لم يكونوا على بينة من حقيقة الشعر ، بل هم قد تبنوها ولكن لم تمكنهم حالة عصرهم التفهم في أقسام الشعر وتنويعه على معاني الحياة الراقية ؛ إذ كانت هذه الحياة غير متيسرة لهم ، وكان ذلك حقا على من جاءوا بعدهم ، واسكنهم إنما درسوا الشعر في الغالب لينوعوا به الحياة ، وكان الصحيح لو أثبتوا سنة العرب أنفسهم ودرسوا الحياة لينوعوا بها الشعر .

وسنأخذ في تاريخ أهم الأبواب التي فيها يدخل النظم العربي وهي : الهجاء ، والمدح ، والحماسة ، والرثاء ، والتشبيب ، والوصف ، والسياسة ، والحكمة ، والهزل ، وشعر الحكاية ، وشعر الترقيص . وتبعتها بفصل في الشعر العلمي ، وهو الذي تنظم فيه المتون والضوابط والكتب ، مقتصرين على تاريخ كل باب دون البحث في وجه المعنى وطريق صنعته ، فذلك من موضوع البلاغة ونقد الشعر .

الهجاء

نحن في تاريخ هذه الأبواب لا نبسط فلسفة الأخلاق ، ولا نكتنه
أمرار تركيبها نريد أن نلون أجزاء الصورة الإنسانية بالأصباغ حتى نعين
منها ما يكون صباغة بالشعر وما لا يكون ؛ لأننا لو ذهبنا نُعدّ لذلك لأدخلنا
في هذا الكتاب كتابا آخر ، وأحدهما لا محالة مخرج الثاني عن غرضه الذي
وضع له ؛ فالكلام في الهجاء يحتمل كثيراً من فلسفة النفس ، كتعريف
العيوب والذائل وما يتأثر بها من الأخلاق والأحوال التي يكون فيها
هذا التأثير على اختلافه لينا وشدة ، إلى ما يتصل بهذه المعاني أو يقاربها .
فنحن نتجاوز ذلك كله إلى التاريخ . وإنما نلم فيه بما لا يحسن بنا أن
نتخطاه وإن ترامت أطراف الكلام ، وكان الإسراع وسيلة السائر فيه
إلى الأمام .

العرب أمة أخلاق ، لم تصفها الحضارة ، ولم يذهب بخشونتها النعيم
والترف ، فهي جارية طبيعة في مجرى العادات الوراثة الذي تحطه العصور
ويتحيف جوانبه تيار الاجتماع ؛ وبديهي أن ذلك المجرى لا يكون مطرداً
على اتساق ، بل هو يستقيم وينحرف ، وتلتئم جوانبه وتمزق على مقتضى
سنة التكون الطبيعي الذي يرجع في كل ظواهره إلى الانفاق [قذافات]
الأقدار . لذلك يرى العربي نفسه مُخلقا محضا ، ولكن فطرة الحياة غطت
على بعض جوانب منه وكشفت عن بعضها . فهذا يظهر منه جانب الكرم
وإن كان شجاعا ، ويظهر من الآخر جانب الشجاعة وإن كان كريما ،
وهلم جرا ، حتى إنهم لا يُميزون بوصف من الأوصاف إلا من تناهى

فيه ، وتجد ذلك في أمثالهم ، فيقولون : أكرم من فلان ، وأشجع من فلان ، وأحلم من فلان ؛ ولكنهم لا يميزون من يستجمع الفضائل الكثيرة ويكون كُلهَا غالباً ظاهراً ، فلا يضربون به أمثالهم ، لأنه عندهم دون من يستغرق الخُلقَ الواحد ويستوفى مناقبه على ما يعرفونها ؛ فلما قضى عليهم نظام الحياة بالمغالبة ، كان جانب التنافس بالأخلاق أغلبَ فيهم على جانب المنازعة بالأعمال ، لأن العمل مظهر الخلق ، وقلما يأتون شيئاً من أعمالهم إلا ابتغاء أن يُظهروا تلك الأخلاقَ أو يكتسبوا ما يساعدهم على المبالغة في إظهارها ، وذلك يبيِّن في حروبهم ومنافراتهم وكثير من عواندهم ؛ فكان من الطبيعي أن يدعو إلى ظهور الهجاء .

ولهذا لم يكن الهجاء عند العرب في اعتبار السباب والإفحاش ؛ ولكنه سلبُ الخُلقِ أو سلب النفس ، أو فصلُ المرء من مجموع الخُلقِ الحى الذى يؤلف قومية الجماعة وتركه عضواً ميتاً يتواصفون ازدراؤه ويُحرِّك جسمُ الأمة حركة جامدة كلها نهض أو تقدم .

لا جرم كان للهجاء عندهم ذلك الشأن ؛ وعدوا بكاء الأشراف منه أولَ مكارمهم كما ستعرف ؛ وكان السباب والإفحاش فيه مما يحيله عن أن يكرن هجواً ولا يضر المهجور شيئاً ؛ فالهجاء عندهم قسمان : قسم يسمونه هجو الأشراف ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباً مقدماً ، بل هو [التضرُّب] بين الأحساب ، وتعليق الكلام على الأخلاق يمتص منها مادة الحياة ؛ وقسم هو السباب ، ولا يعبتون به لأنه هجو المهجورين بطبيعتهم وهم السفلة ؛ فليس يجنح إليه الشاعر إلا إذا عجز عن إصابة المغمز الذى يكمن فيه الألم من الموضوع

الصحيح . ولما قدم النابغة بعد وقعة حسي سأل بني ذبيان : ما قلتم لعامر بن
الطفيل وما قال لكم ؟ فأشدهوه ؛ فقال : أفضتتم على الرجل وهو شريف
لا يقال له مثل ذلك ؛ ولكني سأقوله ؛ ثم قال :

فإن يك عامر قد قال جهلا فإن مطيبة الجهل السبابُ

الآيات (ص ١٣٩ ج ٢ : العمدة) فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شق عليه
وقال : ما هجان أحد حتى هجانى النابغة ؛ جعلنى القومُ رئيساً وجعلنى النابغة
سفيها جاهلا وتهكم بي !

ولذلك السبب كان أليق ما يسمى به الهجاء (شعر التاريخ) لأن الهجاء
مؤرخ يذكر مثالب الناس ومناقبهم ، ويقص من التاريخ ما يستعين به على
إحكام معنى الهجاء ؛ حتى إنك لتقرأ كثيراً من الشعر الذى أثر عنهم فى ذلك
وفيه ذكر العادات وأخبار من التاريخ فلا تجد فيه شعراً ، حتى إذا عرفت
شرحه وتأويله وجدت فيه شعراً لا يكون ذلك المنظوم إلا إشارة إليه ،
وذلك كقول جرير يعير الفرزدق ويعلمه نخر قيس عليه :

تَحَصَّضْ يَا ابْنَ الْقَيْنِ قَيْسًا لِيَجْعَلُوا لِقَوْمِكَ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ الْأَرَاقِمِ

كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ لَقَيْطًا وَحَاجِبًا وَعَمْرُوبَ بْنَ عَمْرٍو إِذْ دَعَا يَالَ دَارِمِ

وَلَمْ تَشْهَدْ الْجَوْنِينَ وَالشَّعْبَ وَالصَّفَا وَشَدَاتِ قَيْسِ يَوْمِ دِيرِ الْجَمَاجِمِ

وقد أوردها المبرد فى كتابه الكامل (ص ١٣٤ ج ١) وشرحها ، وعلى

هذا التأويل قال يونس بن حبيب : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار
الناس ، ومن الهجاء بالعادة قول ابن لسان الحمرة لرجل من بني أسد مر به :
قد علمت العرب يا معشر بني أسد أنكم أشدها بياض جعور ! فعطف عليه الأسدى
فضربه بالسيف حتى برد ، وتأويل ذلك أنه عيره بأنهم لا يعرفون البقل ولا يعرفون

إلا اللين ؛ لأنهم يقولون إن الجعور قد تبيض إذا كان قوت صاحبها اللين .
وقال الشاعر يهجو ناسا منهم بذلك (ص ٧٥ ج ٢ : الحيوان) :

عراجلة يبيض الجُعمور كأنهم بمنعرج الغيطان شهب العناكب

وهذا وإن كان تطرفا في الهجاء إلا أنه شائع فيهم ، لأنهم يهجون
بكل شيء حتى بأكل الكراث ، كما عير به جرير عبد قيس بالبحرين
(ص ٨١ ج ٢ : الكامل) ؛ وبأكل السخينة ، وعيرت بها قريش .
وبأكل لحوم الكلاب ، وعيرت به بنو أسد ؛ وبأكل لحوم الناس
أيضا . . . وهجيت به هذيل وأسد وبلعنبر وباهلة (ص ١٣٩ ج ١ :
الحيوان) . وبكثرة الأكل ، وهجيت به تميم .
والأشعار في ذلك مأثورة تفيض بها السكتب .

الهجاء في القبائل

وكان هجاء الشريف عندهم مما [يندرع] إلى هجاء قبيلته وتشعيثها ، لأنه
لا يشرف إلا إذا نغرت القبيلة به وجعلته معقد ألسنتها فيما بينها وعنوان
شرفها بين القبائل ، وكان له عز الأمر والنهي ، وعقد المنن في أعناق الرجال
وسرور الرباسة ، وثمرة السيادة . قال الجاحظ في سبب ذلك : وإذا بلغ
السيد في السوود الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ،
ونغرت به عشيرته ، فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه
على مرتبة سيد عشيرته فهجاه . ومن طلب عيبا وجده ، فإن لم يجد عيبا
وجد بعض ما إذا ذكر وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هجى حصن
ابن حذيفة ، وهجى زرارة بن عدس ، وهجى عبد الله بن جدعان ، وهجى
حاجب بن زرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سوودهم ، وطاعة

القبيلة لهم ، لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم
مذهب كليب بن ربيعة ، ولا مذهب حذيفة بن بدر ، ومذهب عيينة
ابن حصن ، ولا مذهب لقيط بن زرارة - أى فى إعنات الناس بطغيانهم
وبغيهم كما كان يفعل كليب إذ كان يحمى موقع السحاب فلا يُرعى ونحو
ذلك - (ص ١٥٦ ج ١ : الحيوان . و ص ٢٣٧ ج ١٠ : ابن الأثير)
فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون ... وكان أولئك السادة
لم يكن شأنهم أن يردوا الناس إلى أهوائهم ، وإلى الانسياق لهم بعنف
السوق وبالحرث فى القود ؛ وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء . ومتى
أحب السيد الجامع والرئيس الكامل قومه أشد الحب ، وحاطهم على حسب
حبه لهم ، كان بغض أعدائهم له على حسب حب قومه (ص ٣١ ج ٢ :
الحيوان) . هذا إذا لم يتوئب إليه ، ولم يعترض عليه من بنى عمه وإخوته
من قد أطمعته الحال فى اللحاق به ، كجبر أوس بن حارثة بن لأم الطائى
حين ألبسه النعمان الحلة التى جعلها لأكرم العرب ، فحسده قوم من
أهله ، فقالوا للحطيئة : اجهه ولك ثلاثمائة ناقة فقال الحطيئة : كيف أهجو
رجلا لا أرى فى بيتى أناثا ولا مالا إلا من عنده ؟ ثم أخذها بشر بن
أبي خازم أحد بنى أسد وهجاه ... والخبر بجملته ساقه المبرد فى الكامل
(ص ١٣٧ ج ١) . ولذلك لم يكن يسلم من ضروب الهجاء إلا القبائل
الغمورة والمنسية ، حيث لا يكون فيها خير كثير ولا شر كثير ، وحيث
يكون محلم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدكم الأكفاء ،
فيسلمون من أن يضرب بهم المثل فى قلة ونذالة ، بخلاف القبائل التى
يعرفونها بالمناقب والمثالب . وقد تسكون القبائل متقدمة الميلاد ، ويكون

في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شر وضعة ، مثل قبائل غطفان
وقيس عيلان ؛ ومثل فزارة ومرة وثعلبة ؛ ومثل عبس وعبد الله بن
غطفان ؛ ثم غنى وباهلة واليعسوب والظفاوة ؛ فالشرف والخطر في عبس
وذبيان ؛ وربما ذكروا القبائل الوضيعة ببعض الذكر ؛ مثل اليعسوب
والظفاوة وهاربة البقعاة وأشجع الخنثى ؛ ولكن البلاء كله لم يقع إلا بغنى
وباهلة ، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر مناقب ، ولكنهم لقوا من صوائب
سهام الشعراء ومرّ الهجاء كأنهم آلة لمدارج الأقدام ينكب فيها كل ساع
ويعثر بها كل ماش ، حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالا
من فيه الخير الكثير وبعض الشر ، قال الجاحظ : ومن هذا الضرب
تميم بن مر وثور وعكل وتيم ومزينة ، ففي عكل ومزينة من الشرف
ماليس في ثور ؛ وقد سلم ثور إلا من الشيء اليسير مما لا يرويه إلا العلماء ؛
ثم حلت البلية وركد الشر والتحف الهجاء على عكل وتيم وقد شعثوا بين
مزينة شينا ؛ ولكنهم حبيبهم إلى المسلمين قاطبة ماتها لهم من الإسلام حين
قل حظ تيم فيه ...

ولولا الربيع بن خيثم وسفيان الثوري لما علم العامة أن في العرب
قبيلة يقال لها ثور ؛ ولشريف واحد من قبيلة تيم أكثر من ثور وما ولد ؛
وكذلك بلعنبر قد ابتليت وظلمت ومُخِست مع ما فيها من الفرسان والشعراء ...
ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين ؛ وقد سلمت كعب بن عمرو ؛ فإنه
لم ينلها من الهجاء إلا الخنس والتنف ...

ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء ، وهذا من
أول كرمها ، كما بكى مخارق بن شهاب ، وكما بكى علقمة بن علاثة ، وكما بكى

عبد الله بن جدعان (ص ١٧٦ ج ١ : الحيوان) ؛ أما مخارق بن شهاب فذكر في البيان أنه وفد رجل من بني مازن على النعمان بن المنذر ، فقال له النعمان : كيف مخارق بن شهاب فيكم ؟ قال : سيد كريم ، وحسبك من رجل يمدح نفسه ويهجو ابن عمه . ذهب إلى قوله :

ترى ضيفها فيها بيت بغبطة وجار ابن قيس جائع يتحوب

ولعله بكى لذلك ؛ وأما علقمة بن علاثة فقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أنه لما سمع قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم عرثي يبتن خائفا

بكى وقال : أنحن نفعل ذلك بجاراتنا ؟ وأما عبد الله بن جدعان ، فقد قال الجاحظ في الحيوان : إنه بكى من بيت لخداش بن زهير ولم يذكره ، ولم نقف عليه ؛ وكان خداش قد هجاه من غير أن يكون قد رآه ؛ وكذلك فعل دريد بن الصمة ؛ لأنه رأى فيه شرفا ونبلا فأراد أن يضع شعره موضعه (ص ٢٥٤ : شرح العيون) .

ومن أسباب الهجاء في القبائل أيضا أن يكون القبيل متقادماً الميلاد قليل الذلة قليل السيادة ؛ فيتهيأ أن يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام ؛ فإنه يستبين حينئذ لكل من رآهم أو سمع بهم أضعاف الذي هم عليه من القلة والضعف ، وتكون البلية من شرف إخوتهم ؛ وكذلك عندهم كل أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال في الجود والإفضال أو في الفروسة والبيان ، فإنهم يقصدون بماثر الآخر في الطبقة السفلى لتبين البراعة في أخيه ، وقد يكون مع ذلك وسطاً من الرجال ، فصارت قرابته التي كانت

مفخرة هي التي بلغت به أسفل السافلين (ص ١٧٩ ج ١ : الحيوان) .
ولما صار للهجاء في القبائل هذا الشأن واعتقدوه سياسة ، صار البيت
الواحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد والفعال ، فيدور بهم
في الناس دوران الرحي ؛ كما أهلك الحَبَطَات وهم بنو الحارث بن عمرو بن
تميم قول الشاعر فيهم :

رأيت الحمر من شر المطايا كما الحبطاتُ شرَّ بني تميم

فلزمهم هذا القول ؛ وكما أهلك ظليمَ البراجم قول الآخر :

إن أبانا فقحة لدارم كما الظليمُ فقحة البراجم

وكما أهلك بني عجلان قول النجاشي :

وما سُمِّي العجلانَ إلا لقولهم خذ العقبَ واحلب أيها العبد واعجل

وكما أهلك نيمراً قول جرير يهجو الراعي :

فدُضَّ الطرف إنك من نيمر فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وهذه القصيدة تسميها العرب : الفاضحة ، وقيل سماها جرير : الدماغة ،
وقد تركت بني نيمر ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن أضعصة ويتجاوزون
أباهم نيمراً إلى أبيه عامر ؛ هرباً من ذكر نيمر ؛ وفراراً مما وسم به من
الفضيحة والوصمة (ص ٢٦ ج ١ : العمدة) ، وكان بنو نيمر من جمرات
العرب الذين تجمعوا في أنفسهم ولم يُدخلوا معهم غيرهم في أنسابهم
بالمخالفة ونحوها ؛ والجمرات هم بنو نيمر ؛ وبنو الحارث بن كعب ؛ وبنو ضبة ؛
وبنو عبس بن بغيض ؛ قال المبرد في «الكامل» : وأبو عبيدة لم يعدد فيهم
عبساً في «كتاب الديباج» ولكنه قال : فطفئت جمرتان وهما : بنو ضبة ؛ لأنها

صارت إلى الرباب مخالفت ؛ وبنو الحارث لأنها صارت إلى مذحج ؛ وبقيت بنو نمير إلى الساعة لأنها لم تحالف (ص ٣٧٧ ج ١ : الكامل) وقد أجاب شاعرهم جريراً فلم يغن عن قومه شيئاً .

وعلى الضد من ذلك خبر بني أنف الناقة ؛ فإن الواحد منهم كان إذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بني قريع ، فيتجاوز جمعراً أنف الناقة بن قريع بن عوف بن مالك ؛ فما هو إلا أن قال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهمُ ومن يسوق بأنف الناقة الذنبا ؟

حتى صاروا يتناولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة (ص ٢٩ ج ١ : العمدة) . وقد بلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السب عليهم وتخوفهم أن يبقى ذكر ذلك في الأعتاب ويسب به الأحياء والأموات ، أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه الموائيق ؛ وربما شذوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص حين أسرته بنو تميم يوم الكلاب ، وأبياته في ذلك مشهورة (ج ٢ : البيان) وأسر ربيعة في بعض حروب تميم فنع الكلام ؛ فجعل يصرخ : يا صباحاه ! يا بني تميم ؛ أطلقوا من لسانى (ج ٢ : البيان) .

ثم صاروا يستنجدون بالشعراء ليحضوا لهم الأشراف في رد الغارة وغيرها فيخشى الشريف إن هو لم يغثه أن يفضحه بهجائه (ص ١٧٠ و ١٧١ ج ١ : الحيوان) .

وكما سلم بعض القبائل من الهجاء بالحنول والقلة ، كغسان وغيلان من قبائل عمرو بن تميم سلمت بعض القبائل بالنباهة العالية من مضرة الهجاء فكانها لم تهج ، مثل نباهة بن بدر وبني فزارة ، ومثل نباهة بن عدس بن زيد وبني عبد الله

ابن دارم ، ومثل نباهة الذبان بن عبد المدان ، وبني الحارث بن كعب ،
فليس يسلم من مضرة الهجاء إلا خامل جدا أو نبيه جدا (ج ٢ البيان) .

وذكروا عن حجناء بن جرير أنه قال لأبيه : يا أبت إنك لم تهج أحداً
إلا وضعته إلا التيم . فقال جرير : إنى لم أجد حسباً فأضعه ولا بناء فاهدمه
(ج ٢ : البيان) .

وقد سمر يزيد الرقاشي ذات ليلة عند السفاح خذته بحديث ساقه فيه
أشعاراً هجيت بها ثلاث وأربعون قبيلة ، وقد حكاها المسعودي في (مروج
الذهب - ص ٢) فالتسه هناك .

وكان الشعراء يعرفون تاريخ الهجاء في القبائل حتى ليستطيعون أن يميزوا
القبائل التي انتضلت بينها تلك السلام من القبائل التي تجاوزت فلم يكن
بينهما هجاء ، وقد أنشد الكميث بن زيد نصيباً الشاعر فاستمع له ، فكان فيما
أنشده قوله يصف غليان القدر .

كأن العظام من غليها أراجيز أسلم تهجو غفاراً

(يشبه غليان القدر وارتفاع اللحم فيه بالموج الذي يرتفع) فقال له نصيب :
ما هجت أسلم غفاراً قط ، فاستحيا الكميث فسكت (ص ٣٣٥ ج ١ : الكامل)

الهجاء في الشعراء :

قد عرفت أن الشاعر لا يكون هجاء إلا وهو في معنى المؤرخ ، فليس
كل القبائل يعرف بعضها مثالب بعض ، ولا كل الناس يعرف ذلك ، فتي
سير الشاعر قصيدة فكأنه نشر كتاباً في أمة كلها يقرأ ويكتب ، ومن أجل
هذا لما استأذن حسان النبي صلى الله عليه وسلم أن يهجو قريشا قبل

إسلامهم ويسلّمه منهم سل الشعرة من العجين ، أمره أن يستعين بأبي بكر ، ولم يكن في زمنه أعلم بالأنساب منه ، حتى إن أنسب العرب إنما أخذوا عنه كما ستعرفه في موضعه .

ولمكّانة ذلك الشعر من التاريخ ، صار الراوية للأشعار لا يكون راوية حتى يكون نسابة عالماً بالأخبار ، وقد تغلب على بعضهم رواية المثالب خاصة كعقيل بن أبي طالب ، وهو أحد الأربعة من قريش الذين كانوا رواة الناس الأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار ، وهم مخزّمة بن نوفل ، وأبو الجهم ابن حذيفة ، وحويطب بن عبدالعزيز ، وعقيل هذا (ج ٢ : البيان) ومن تخصصوا بالمثالب والعيوب من الرواة : دغفل النسابة ، والنخار العذري ، وابن السكيس النمرى ، وصحار العبدى ، وابن شريه ، وابن أبي الشطاح وهشام بن الكلبي .

ولم يبالغ جرير مبلغه من الهجاء إلا لمكان علمه بالنسب والمثالب من جده الخطّاني ، وهو حذيفة بن بدر بن سلم ، وكان الخطّاني هذا من العرفاء العلماء بالنسب والغريب (ج ١ : البيان) وكذلك الفرزدق ، كان هو شاعر الناس وراوية أخبارهم ، وهما يكادان لشهرتهما يكونان فكيّ الهجاء فيما يُبلاك ويُمنع من الأعراض .

ولما كان الشعراء ألسنة قبائلهم ونوابها في السياسة العامة ، كان هجاء بعضهم بعضاً لا يزال عاماً حتى إذا ذهبت عصية القبائل ووهنت عقدة الجاهلية وسكنت نائرة الأحزاب ، صار الهجاء كسائر أغراض الشعر : يقال فيه للبراعة وابتكار المعاني فاتخذ لحك الحزازات وشق المرائر وتحول إلى كذب

وسخف وإفحاش وإفداع وكان من هذا شيء في الجاهلية حين يكون الشاعر منبوذاً من قبيلته ، أو حين يلتبس لنفسه الذكر في القبائل وشيوع المقالة باسمه ، فيقصد الأسواق والمواسم ؛ كالذي نقله السكري في شرح أشعار الهذليين قال : أقبل رجل من أهل اليمن شاعر يقال له حبيب - والناس يذى المجاز - يهجو الناس ، فأشار له بعضهم إلى خباء أبي ذرة الهذلي حتى وقف عليه فرجز به فخرج إليه أبو ذرة من قبل أن يعرفه فأشار له بيده ورجز به أيضاً ، ثم سأله عن اسمه فعرفه ، فعاد إلى الرجز به ، فطرده أهل اليمن ؛ ثم كان الخطيئة وهو الحسب الموضوع ، فسلح بالشعر سلاحاً ، ثم جاء جرير وطبقته فصار أكثر الهجاء من يومئذ فحشاً خالصاً وكذباً مصمماً وسباباً محضاً ، ثم كان كل متعاصرين من الشعراء يكون بينهما مثل ذلك ويعتونه من منافسة الحرفة وطبع الصناعة ، فتنى نظم الشاعر قصيدة نقضها الآخر عليه ، ويسمون هذه القصائد بالنقائض ، وأشهرها نقائض جرير والفرزدق ، وهي محفوظة متدارسة ، وقد نقل المبرد في الكامل شيئاً منها (ج ١ : ص ٢٨٢) .

وقالوا إن جنازة مرت بجرير فبكى وقال : أحرقتني هذه الجنازة ا قيل فلم تقذف المحصنات ؟ قال : يبدو لي ولا أصبر (ج ٢ : البيان) فكذلك كان يبدو لمن في طبقته حتى صار الناس يستجرون بقبر أبي الفرزدق من هجائه فيجبرهم (ج ١ ص ٢٩١ : الكامل) .

وقد نسب الفرزدق في آخر عمره وتعلق بأستار الكعبة وعاهد الله أن لا يكذب ولا يشتم مسلماً ، وذكر ذلك في شعره (ص ٧٠ ج ١ الكامل) وكان جرير مولعاً بقذف المحصنات يدهن شطر الهجاء ومادة الإفداع

وقد دعا مرة رجلا من شعراء بني كلاب إلى مهاجته فقال الكلابي : إن نسأق بأمعتن ولم تدع الشعراء في نسائك مترقعا (ج ١ : البيان) .
ولانطباع الشعراء على هذه الشراسة الشديدة والجرح العريض لما يدلون به من طول اللسان وإحجام الناس عن مخاشنتهم كان الأشراف يتجنبون ممازحة الشاعر خوف لفظه تسمع منه مزحا فتعود جدا (ج ١ ص ٤٦ : العمدة) كما كانوا يتقون من أنفسهم مآثور القول في المصيدة والمرزئة ، خوف أن يسبق لسانهم بكلمة من التوجع فتؤخذ عليهم وتجري في الناس مثلا مضروباً وعبياً منسوبا .

مشاهير الهجائيين

ليست الشهرة بالهجاء مما تيسر لكل شاعر يسب ويفحش ، فلو كان هذا لقد كان غلب الهجاء على كل شاعر ، ولكن أصحاب الهجاء كأصحاب السياسة من أهلها وغير أهلها ؛ يستطيع كل امرئ أن يتأول ويتنبأ وينذر ويأتي بصنوف القول كلها ، ومع ذلك لا تجد شهرة السياسة إلا لنوادير الرجال ، لأن حوادثها أزراق وحظوظ ، فلا يتفق لكل من ينتحل السياسة أن يصرف الدول ويضع ويرفع ، كما لا يتفق مثل ذلك لكل هجاء ، قال أبو عبيدة : والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوه ، وهجاء قوم فردوا عليهم وأخموهم وسكت عنهم بعض من هجاء مخافة التعرض لهم ، وسكنوا عن هجاءهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم وهم إسلاميون - الخطيئة ، وجري ، والفرزدق ، والأخطل ؛ وفي الجاهلية

زهير ، وطرفة ، والأعشى ، والنايعة (ج ٢ : البيان) .

فهؤلاء أفراد الهجائين وأقطاب السياسة اللسانية ، ولم يبلغوا أن يكونوا كذلك حتى كانت فيهم السلطة والسلطة معا ؛ وهي جماع الصفات التي ذكرهم بها أبو عبيدة ، فانظر أين يقع ثمانية من جمهور شعراء الجاهلية والإسلاميين لولا أن في الشركا في الخير أرزاقا وأقساما ، وهذا الفرزدق نفسه قد تجنب مهاجمة زياد الأعجم ووهب لمخافته عبد القيس (ج ١ ص ٣٧ العمدة) وتجنب هو وجريير معا مهاجمة الأحوص إكباراً لشعره (ص ٣٨ منه) ومع ذلك لم يذكر معهما هذان الشاعران في قليل ولا كثير ، ولو بقي الأمر بعد الدولة الأموية عربيا كما كان فيها ظهرت طبقات أخرى تستحق التأريخ ، ولكن الذين ظهروا ، وأولهم بشار بن برد ، إنما صرفوا بأسهم بعضهم إلى بعض ، وهجوا الكبراء لأموالهم لا لأحسابهم ، حتى قيل فيهم لأنهم يمدحون بثمان وبهجون مجانا ... وقد صار الهجاء من يومئذ كما قلنا ضربا من الصناعة ونوعا معدودا من الشعر ، وإن لم تكن إجادته في طبع كل شاعر ، كما قالوا عن ذى الرمة ، فقد كان أحسن الناس نسيباً وأجودهم تشبها وأوصفهم لرمل ، وهاجرة ، وفلاة ، وماء ، وقراد ، وحية ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانة الطبع ؛ وذلك الذي أخره عن الفحول ، فقالوا : في شعره أثمار غزلان ونقط عروس (ص ١٤ : طبقات) .

وأشهر المحدثين بالهجاء على هذا الوصف بشار بن برد ، وكان إذا غضب وأراد أن يقول هجاءً صفق يديه وتقل عن يمينه ويساره (ص ٢١٠ : سرح العيون) ودعبل بن علي الخزاعي ، وكان هجاء الملوك جسوراً على الخليفة متحاملا لا يبالي ما صنع حتى عرف بذلك وطار اسمه فيه ، وكان لذلك

يقول عن نفسه إنه يحمل خشبة منذ كذا سنة لا يجد من يصلبه عليها ، وابن الرومي علي بن عباس ، وكان لسانه أطول من عقله حتى قتله الهجاء ، وأكثر إجادته فيه لأنه كان سلك طريقة جرير من الإطالة والإفحاش ، فإن جريراً أول من أطال الهجاء ، وكان يقول : إذا هجوت فأضحك (ص ١٤٠ ج ٢ : العمدة) وابن بسام ، وكان يهجو أباه وأقاربه ، يستنّ في ذلك سنة الحطيئة الذي هجأ أمه ، وابن الحجاج البغدادي خبيث العراق ؛ وأبو بكر الخزومي هجأ الأندلس في القرن الخامس ؛ وكان أعمى شديد الشر كأنه نار صاعقة ، وكان يهجو في كل كلامه من شعر وغير شعر ؛ ويقول عن نفسه : لا تبديل لخلق الله . ومع سبقه في الهجاء كان إذا مدح ضعف شعره (ص ٨٩ ج ١ : نفع الطيب) ؛ وابن القطان المتوفى سنة ٤٩٨ هـ كان هجاء لم يسلم منه الخليفة فن دونه ، وأبو القاسم [الشميشي] الأندلسي في القرن السادس وقد جمع هجاءه في ديوان سماه «شفاء الأمراض في أخذ الأعراض» وعلى بن حزمون هجاء المغرب في أوائل القرن السابع وكانوا يتدارسون هجاءه حتى لم تخل بلدة في المغرب من شعره (ص ١٩٦ المعجب) وابن عنين هجاء مصر في القرن السابع . قال المقرئ في نفع الطيب : وله ديوان سماه «مقراض الأعراض» ولكن ابن خلدان وكان معاصراً له ورآه قال : إن المقراض قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء دمشق ، وقد نفاه صلاح الدين الأيوبي إلى اليمن لإفحاشه في هجاء الناس ، وتوفى سنة ٦٣٠ .

فهؤلاء أشهر أهل الهجاء لغلبته على شعرهم وإتيانهم فيه بالأوابد وذهابهم في معارضة كل مذهب ، وهم في المحدثين كالذين عددهم أبو عبيدة في الإسلاميين والجاهليين وإن كان من عددهم كلهم يهجون ؛ ومن للشعراء قوم يسمونهم

المغلبين وهم الذين غلبوا بالهجاء وإن كان ممن ليسوا إليهم في الشعر ولا قريبا منهم ، ومعنى المغلب عندهم الذي لا يزال مغلوباً . قال ابن رشيق : ومنهم نابغة بنى جمدة ، وقد غلب عليه أوس بن مغراء القريعي وغلبت عليه ليلى الأخييلية ... وقد علم الكافة ما صنع جرير بالأخطل والراعي جميعا .. ومن المغلبين : الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم وغلبه المخبل السعدي وغلبه الخطيئة ، وقد أجاب الاثنين ولم يجب الخطيئة ، ومنهم تميم بن أبي مقبل ، هجاه النجاشي فقهره وغلب عليه ، وهاجى النجاشي عبد الرحمن بن حسان فغلبه عبد الرحمن وأخفه .. ومن مغلبي المولدين على جلالته بشار بن برد ، فإن حماد مجرد وليس من رجاله ولا أكفائه هجاه فأبكاه ، ومثل به أشد تمثيل ، وعلى بن الجهم هاجى أبا السمط مروان بن أبي الجنوب فغلبه مروان ، وهاجاه البحترى فغلب عليه أيضا ، على أن عليا أقذع منه لساناً وأسبق إلى ما يريد من ذلك وأقدم سنا ، ومنهم حبيب الطائي ، وهاجى السراج وعتبة فما أتى بشيء ... وهاجى دعبلا فاستطال عليه دعبل أيضا (٦٧ و ٦٨ ج ١ : العمدة) ، وربما هجى الشاعر من هو أكبر منه وأبعد صيتا ، لا ليغلبه ، ولكن ليحبيه فيعد في طبقتة ، كما فعل بشار ، فإنه هجى جريراً بأشعار كثيرة فلم يجبه جرير أنفة واحتقارا ، فقال : لو هجاني لكنت أشعر الناس (ص ٧٠ ج ١ : العمدة) .

المديح

والمديح في فطرة الإنسان ، لأنه إحساس الكبرياء التي هي عمود الإنسانية فيه ، فإن الناس متفاضلون في القوة على الأعمال ، وهم كذلك متفاضلون في حسم لهذه القوة ، فالواثق بنفسه الناهب بها مذهب الغناء والاعتداد يجد في طبعه حركة واهتزازاً متى حققت له أعماله تلك الثقة ولم يكذب وهمه في الاعتداد باطلاً ؛ فذلك الاهتزاز هو إحساس الكبرياء الكامنة فيه ، وهو الذي يقصد تصويره بالفخر والمديح .

ولا تكون الكبرياء رذيلة ممقوتة إلا إذا تجاوزت مقدارها الطبيعي الذي يكون دائماً مكاناً لحقيقة الثقة بالنفس ، فهي حينئذ تنقلب صلفاً وتدخل في حكم الطباع المتكافئة ولا تحدث من الاهتزاز إلا وهماً وغروراً ، كالذي يحدث من نشوة الخمر ؛ فإذا هي زادت كانت عند العقلاء عريضة ... والمديح الذي يصور هذه الكبرياء الكاذبة لا بد أن يكون أكذب منها حتى تعوض عليه غرابة المبالغة شيئاً من رونق الحقيقة ، وهو حينئذ صنعة وتكلف ، ثم هو الذي عناه المتأخرون بقولهم : أعذب الشعر أكذبه .

فهذان شطرا المديح ، لا يكون إلا في أحدهما ، وقد ذهب العرب بالشرط الأول قبل أن تضعف أعصاب البداوة ، فكان مديحهم نغراً كله ، لأن أساس الطبيعة البدوية فضيلة الاعتماد على النفس ، وهي التي تحدث الكبرياء الصحيحة ، فلا تكاد تجد في شعر المهامل أو امرئ القيس وطبقتهما مدحاً مبنيًا على الملق والمداهنة وتصنع الأخلاق ، وإن وجد شيء من ذلك

قبل النابغة وزهير فهو مصنوع لاشك في صنعته وتوليدِه ؛ وقد زعم
الأصمعي (ص ١٨٨ ج ٢ : الكامل) أن هذا البيت الذي يروى لمهل
مصنوع محدث ، وهو قوله :

أَنْبَضُوا مَعْجِسَ الْقِسِيِّ وَأَبْرَقْنَا كَمَا تُرْعِدُ الْفُحُولُ الْفُحُولَا
لأن فيه غلطا لغويا ، إذ لا يقال إلا رعد و برق إذا أوعد وتهدد ،
وأرعدنا نحن وأبرقنا إذا دخلنا في الرعد والبرق ، وليس الخطأ اللغوي
وحده وهو الذي [بدل] (*) على الصنعة والتوليد ، ولكن الخطأ الأخلاقي
أمكن منه في باب الدلالة .

ولما وهنت أعصاب البداوة في بعض الشعراء بما وجدوا من مس
الترف والنعيم ، جعلوا يبتغون بالشعر المنالة والسكسب ، وبذلك حولوا
شينا من مديحهم إلى الشطر الثاني ، وقد ذكرنا منشأ ذلك في باب البديهة
والارتجال ؛ غير أن هذا التحول المرضي في المديح إنما كان يأخذ منه
على التدرج في أول أمره ، فبقي مديح زهير طبيعيا لم يحاول فيه صنيغ
الحقيقة بذلك اللون الأسود الذي يعطيها في الوهم منظر الاستعباد ،
ولذلك فضله عمر بن الخطاب بأنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه ؛
ولكن الذي سلم من أمر زهير لم يسلم من أمر النابغة ، لأن زهيرا كان
لا يقول على الرغبة والطمع ، وكان يمدح رجلا من الأشراف بصفات
مثله الصحيحة ، والنابغة كان يتكسب من المناذرة والغسانة ، وهم ملوك ،
فكان يرى النابغة أن مديحهم لا بد أن يكون طبقة في الشعر تساوي
طبقتهم في الناس ، ولما هرب من النعمان وجعل يعتذر إليه باعتذاراته

(٥) من زيادتنا .

المشهوره ، عمد إلى تجويد المديح وزخرفته ينفخ به كبريائه فيصغر في جنبها ما أتاه ويتجاوز عنه .

وقد جاء بعدهما الأعشى ، فلم تكن له همة إلا في المدح والهجاء ، وكان رجلاً مجوداً في الشعر : ما مدح أحداً إلا رفعه ولا هجا أحداً إلا وضعه ، والأمور يومئذ تطير للشعر طيراناً ؛ فكان الأعشى على التحقيق أول من احترق المديح وابتذله في طبقات الناس ؛ ولذلك اضطر أن ينفخ معانيه بالمبالغة والإغراق ، وإن تجاوز موضع الحقيقة إلى ما يقع وراءها من نواحي التصوّر البعيدة ؛ وقد عرف العرب ذلك منه وألفوه ، لأن حظ هذا النوع من الشعر أن يسير وإن كان كذبا ، فإذا ركد في لسان الشاعر لم يبالوا به وإن كان حقيقة ؛ ولذلك لما نزل الأعشى بمكة وأضافه المحلق — وهو رجل فقير خامل الذكر ذو بنات قد كسدن عليه ، وأراد الأعشى إنفاقهن وأن يكفيه أمرهن — أصبح بعكاز ينفذ قصيدة وقد اجتمع الناس (٢٥ ج ١ : العمدة) .

يقول فيها :

أرقتُ وما هذا السهادُ المورقُ ومابى من سقمٍ ومابى معشوقُ

نفي الذم عن آل المحلق جفنة بكايية الشيخ العراقي تفهق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئون ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته ، لمكان شعر الأعشى ، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف . وافتنان هذا الشاعر في صنعة المديح وقصده فيه إلى تصوير الكبرياء الكاذبة ، هو الذي

طوع له أن يكذب في التاريخ حين نظم قصائده التي ذكر فيها منافرة عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، وقد كانا تنافرا إلى هرم بن قطبة . فأقاما عنده سنة لا يقضى لأحدهما على الآخر ، حتى قدم الأعشى ، وكانت لعامر عنده يد ؛ فقال شعره في ذلك فرواه الناس ، وافترقوا وقد نفر عامر على علقمة بحكم الأعشى ، والقصة مشهورة (العمدة ج ١ ص ٢٨ وشرح العيون ص ١٠٦) وفيها أقوال ولكن الرواة يجمعون على حكم هذا الأعشى . وكذلك كذب الحطيئة على التاريخ في مديح قومه ، وكانوا من القائمين في أهل الردة ، فقال :

فَدَيْ لِبْنِي نَصْرِي طَرِيقِي وَتَالِدِي عَشِيَّةَ ذَادُوا بِالرَّمَا حِ أَبَا بَكْرٍ
قال المبرد : قوله ذادوا بالرماح أبا بكر ، كذب ؛ إنما خرجوا على الإبل فقعقعوا لها بالشنان فنفرت وفزت (ج ١ ص ٢٣٢ : الكامل) والمعاني تخضع الحقائق وتصرّفها فيما شاءت ولكنها لا تخضع التاريخ ، لأنه في نفسه حقيقة خالدة لا تمسخ ولا تموت ، فإذا حاول الشاعر أن يكذب فيه فلا يكون ذلك إلا إذا اعتاد تحويل الحقائق فيمدح كذبا ويهجو كذبا ، وذلك من ضرورة الصنعة والاحتراف ، فلا يفعله إلا وقد ابتذل الشعر واتخذ حرفة ، وذلك ما ذهبنا إليه في أمر الأعشى .

وقد نقلت في فصل (الشعر في القبائل) قول الجاحظ إنه لم تمدح قبيلة في الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم ، ولم يتهياً من الشاهد والمثل لمادح في أحد من العرب ماتهياً في بني بدر .

ولما دجا الإسلام وتحضرت الدولة واستأصلت الفتن أهل الطبع

الشعري من العرب ، انفرد بالشعر جماعة هم الذين اتصلوا بدولة الذهب (الأمويين) فاستقلت طريقة المديح من يومئذ وأطاله الشعراء ، وقد أجمعوا على أن كثيراً أول من فعل ذلك (ص ٦٢ ج ١ : العمدة) كما أن جريراً هو أول من استن إطالة الهجاء وتقصير المهادحة . قال : فإنه ينسى أولها ولا يحفظ آخرها (ص ١٠٣ ج ٢ : العمدة) .

وقد نصوا على أن أمدح الناس في طبقة الجاهلية والإسلاميين زهير والأعشى ثم الأخطل وكثير (ص ١٠٤ ج ٢ : العمدة) أما المحدثون فقلّ منهم من لا يحترف المديح ويجعله عمود شعره وموضع كته وإجادته ، وقد جزأهم على ذلك جود الخلفاء والأمراء ورغبتهم في اصطناعهم وتسنية الجوائز لهم من أجل ذلك ، ولا أعجب من أن يدخل الحبيص يصح الشاعر المتوفى سنة ٥٧٤ على خالد القسري أحد أمراء الدولة الأموية فيقول له : إني مدحتك ببيتين قيمتهما عشرة آلاف درهم فأحضرها حتى أنشدتهما ، فيحضر خالد الدراهم ثم ينشد الحبيص يصح قوله :

قد كان آدم قبل حين وفاته أوصاك وهو يجود بالحبوب

بينه أن ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء

فيدفع إليه خالد الدراهم ويأمر أن يضرب أسواطاً وينادي عليه : هذا جزاء من لا يعرف قيمة شعره ، ثم يقول له : إن قيمتها مائة ألف (ص ٢٠٤ سرح العيون) ، وخالد هذا هو الذي كان يجلس للشعراء في يوم معين ويميزهم فيه ، وهو أول من فعل ذلك ، وقد حذا حذوه الخليفة المهدي العباسي ، ولكنه لم يقصر اتخاذ الأباة على الشعراء ، بل اتخذ كذلك أياها

لأرباب الصناعات والغايات ؛ وكان الوليد بن يزيد من خلفاء بني أمية أول من تخزق في البذل للشعراء ، فعَدَّ أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم (ص ١٤٨ ج ١٧ الأغانى) فلما جاء المهدي من خلفاء العباسيين وصل مروان بن أبي حفصة بمائة ألف درهم على قصيدته التي مطلعها :

• طرقتك زائرة فحى خيالها •

يعارض بها قصيدة للأعشى ؛ وكذلك كان يعطيه الرشيد ؛ وقد كثر الشعراء في أيامه ، فكان يباهيهم من لم يجتمع لأحد قبله - وسنذكر فخرهم لمناسبة تأتي في بحث الأدب الأندلسي - وضاعت بهم بغداد فاضطروا إلى تقديرهم بالاختبار وترتيبهم في الجوائز ؛ فعهد يحيى بن خالد بذلك إلى شاعره أبان اللاحق (ص ٧٣ ج ٢٠ الأغانى) ؛ وكان ذلك عهد البرامكة وهم من هم ؛ فقد نال شاعرهم أبان اللاحق على قصيدة واحدة فيهم مثل ماناله مروان من الرشيد كل عمره (ص ٧٣ ج ٢٠ الأغانى) ؛ وأعطى المتوكل حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من إحدى قصائده ؛ وهو أول من أعطى ذلك (ص ١٩٤ ج ٦ الأغانى) ، ولم يساو هؤلاء في ذلك غير الأندلسيين - وسنلم بشيء من خبرهم في موضعه - ولو ذهبنا نتتبع تاريخ الجوائز ونستقصى مقاديرها للزمتنا لذلك مؤنة في التأليف وكلفة في الجمع ؛ لأنها مع تاريخ الشعر في كل عصر ؛ وقد كان من الشعراء من يتراجع طبعه وتنضب مادته بعد ممدوحه الذي اختص به ، كأبي الحسن السلامي توفى سنة ٣٩٤ شاعر عضد الدولة ؛ وكان عضد الدولة يقول : إذا رأيت السلامي في مجلسي ظننت أن عطارد نزل من الفلك إلى ووقف بين يدي ! فلما توفى تراجع طبعه وروقت حاله ولم ينتفع بنفسه

(ص ١٦٣ ج ٢ يتيمة الدهر) ومثله كثيرون .

ويحسب الناس أن من نقائص شعراء المتأخرين أنهم ينقلون المديح من رجل إلى رجل ؛ فيلقون بالقصيدة الواحدة جماعة من الناس ؛ ولكن ابن رشيقي يقول إن ذلك كان دأب البحترى ؛ وفعله أبو تمام في قصائد معدودة ؛ منها :

• قَدَكَ اتَّيَدُ أُرَيْيْتِ فِي الْعُلُوءِ •

نقلها عن يحيى بن ثابت إلى محمد بن حسان (ص ١١٤ ج ٢ العمدة) ؛ وإن كان وجه ذلك في المتأخرين العجز عن الشعر فلا نرى له وجهها في المتقدمين إلا أن يكون إخلالاً في الأمل في المثوبة والإجازة بالحرمان ؛ فيقول قائلهم : هن بُنَيَاتِي أَنْكحُهُنَّ مِنْ أَشَاءِ !

شعر الكدية أو الشعر الساساني

الكدية حرفة السائل المالح ؛ وهي أيضاً شدة الدهر ؛ وكان من شعراء العرب صعاليك وشطّار ومتلصّصون ؛ وأشهرهم عروة ابن الورد المعروف بعروة الصعاليك ، وتأبط شراً ، وسعد بن ناسب ؛ ولكن لم يكن فيهم مكدون ؛ والفرق بين الحالتين أن الشطارة تبسط اليد قوية عزيزة ؛ والكدية بسطها بالسؤال ضارعة ذليلة ؛ فلما استفحل التمدن الإسلامي وامتزج العرب بالفرس ؛ أخذ خبثاؤهم فيما أخذوه منهم تلك الحرفة ؛ ولذلك يسمون بني ساسان كما أخذوا عن الهنود مذهب الخناقين واستعدوا له استعداداً عجيباً ؛ فانتحلها جماعة من أصحاب المنصورية والغالية وغيرهما ؛ وقد ذكر الجاحظ من ذلك طرفاً صالحاً (ص ٩٧ و ٩٨ ج ٢ الحيوان) وأورد شعراً لحماذ الراوية

يذكر فيه القبائل المشهورة بالحنق لعهدده ؛ أى فى منتصف القرن الثانى ؛
وهى مجل وكندة وبجيلة ، فراجعه هناك ، ثم نسب هذا الشعر فى موضع
آخر لأعشى همدان (ص ١١٩ ج ٦ : الحيوان) .

أما السكديّة فهى عند أهلها كل ما يحتال به على الشر والأذى فى سبيل
العيش من الشعوذة والمخرقة وما إليهما ، ولهم فيها رموز لا يفهمها غيرهم ،
وأصحابها أهل بأس وشدة وفساد كبير ، ولكن من الشعراء من كان يقبل
على هذه الحرفة لا يبغي بها بدلا من عرض الحياة ووفرة الغنى وإقبال
الأمراء ، ومنهم من كان يحفظ رموزها تظرفا وتملحا ، ونظن أنهم لم
يظهروا بها إلا فى القرن الرابع ، وأشهرهم فى ذلك الأحنف العكبرى ،
وكان فرد بنى ساسان بمدينة السلام ، وهو من جماعة الصاحب بن عباد
(ص ٢٨٥ ج ٢ : يتيمة الدهر) . وكان من شعرائه فيها أيضا أبو دلف
الجزرجى الينبوعى ، قال الثعالبي فيه : شاعر كثير الملح والظرف ،
مشحوذ المدينة فى السكديّة ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ،
وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالحراب . . . قال :
وكان الصاحب يحفظ مناكاة بنى ساسان حفظا عجيبا ، ويمعجه من
أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ويجريان فيما
لا يفتن له حاضرهما ، ولما أتحفه أبو دلف بقصيدته التى عارض بها
دالية الأحنف العكبرى فى المناكاة وذكر المسكين والتنبية على فنون
حرفهم وأنواع رسومهم وتنادر بإدخال الخليفة المطيع لله فى جملتهم ،
وقد فسرها تفسيراً شافياً كافياً - اهتز ونشط لها وتبجح بها ، وتحفظ
كلها ، وأجزل صلته عليها ، وقد اختار منها الثعالبي ١٩٥ بيتاً وساقها

في يقيمته مع شرحها (جزء ثالث) وأكثر مصطلحاتها فارسي ، ورأينا
صاحبها يقول فيها :

ومنا شعراء الأار ض أهل البدو والحضر

فإذا لم يكن منهم يومئذ طائفة كبيرة طوام التاريخ بأجناسهم على
أدناسهم ، فإن أبادلف إنما أراد صنعة المديح وتكسب الشعراء
بها ، وهي فن من تلك الفنون اختص به الشعراء كما اختص غيرهم
بغيره من فنونها الكثيرة ، ومدار جميعها على أخذ « جزية الخلق »
كما يقولون ، وليس للمديح عند الشعراء الذين يتكسبون به معنى أكثر
من ذلك .

الفخر والجماسة

يقول ابن رشيقي : إن الفخر هو المديح نفسه ، ولكن الشاعر يخص نفسه وقومه . ونحن كذلك زاه قد يكون شطراً من الهجاء ؛ إذ يقصد به التفضيل والترجيح بين الصفات المدحوة التي يعز بها والصفات المهجوة التي يفتخر عليها ، أما في الهجاء فهو طبيعي كما ترى ، لأنه بعض مادته ، ولكن مدح النفس مرذول ، يدل على سقوط الهمة ، وعلى فسولة الرأي ، وعلى أن المرء يزور من نفسه لساناً غير مخلوق ، وهذا أدخل في باب المذلة والضعة منه في باب الفخر والجمية ؛ والصحيح أن هذا الفخر الذي عناه ابن رشيقي إنما هو الفخر الصناعي الذي تزيد فيه المتأخرون واستظهرت به طبيعتهم ، فصنعتهم مديحٌ صرف ، وكل من قدر على أن يقول حاتم كريم ، فهو قادرٌ بدنياً على أن يقول أما كريم ، وقس على ذلك ؛ لأن التأريخ يعتبر دائماً ميتاً موتاً حقيقياً إذا أريدت تقليد أعماله الخالدة بالأقوال ، فلو كان الذي يقول : أنا كريم كرم حاتم ؛ إنما قال هذا القول في الناس الذين شهروا حاتمًا بالكرم ؛ لكان قد وجد التأريخ حياً فيما يكذبه أو يصدقه ؛ على مقدار عمله الذي يساوى به عمل حاتم ، ولا يكون لكلمته معنى إلا التنبيه على هذه الفضيلة فيه .

لحقيقة الفخر إذن ليست مدحاً كما قيل ، ولكنها تأريخ ، وسواء في معنى التأريخ فضيلة الفرد وفضيلة الجماعة ، لأنه كما يكون ظفر الجيش في الحرب نتيجة حوادث كثيرة ، كذلك تكون فضيلة الكرم عن حوادث معروفة أنتجت هذه التسمية ؛ والمرء لا يكون كريماً في العرب بلا شيء ، ولا بشيء قليل .

وعلى هذا التأويل نرى الفخر فطرة في العرب ، فلا يكاد السيد منهم يأتي عملاً إلا تناولته شاعر قبيلته ونخر به ، لأنه لسان القبيلة ومؤرخ أحسابها ، وإذا نخر أحدهم بفضيلة في نفسه كالشجاعة أو الكرم أو غيرهما ، فإتسا يكون ذلك في معرض التذكير بهذه الفضيلة واستشهاد التاريخ الحي عليها ، أو يكون توطئاً لنفسه وتحميماً لها بما يهيج من كبرياتها ، كما يغنى الشجاع في الحرب ، وكما ينبه عن نفسه عند الضربة القاضية والطعنة النافذة ؛ وهذا هو باب الحماسة .

وفيما عدا ذلك فلا يكون في الفخر معنى المدح إلا لأن فيه معنى الهجاء ، كالمناقرات المشهورة في العرب ؛ وكانوا إذا تنازع الرجلان منهم وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه ، تحاك إلى عالم من حكاهم المحيطين بالأنساب والتاريخ ، فن نقر منهما — أى فضل نفره على الآخر — لا يفلح الثاني بعدها أبداً ؛ والأصل في هذا كما ترى الهجاء لا المدح ، لأن الذي يقارع الآخر عن حسبه ويكأثره بالأحياء والأموات من أشرف قومه ، إنما يريد الغرض منه ، ليظهر هو وقبيلته بهذه المقابلة ، ولو أراد معنى التمدح وحده لقد كان في حسب قومه غنى .

وتم نوع آخر من الفخر عند العرب هو شبيه بالفخر المصنوع في ظاهره لا في حقيقته ؛ وذلك أن العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره ، فإن ابتلى به ملاً ماضغيه نفراً ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجأ به صاحبه ، قال الجاحظ : فافهم هذه ، فإن الناس يغلطون على العرب ويزعمون أنهم قد يمدحون الشيء الذي قد يهجون به ، وهذا باطل ، فإنه ليس شيء

إلا وله وجهان وطريقان . فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين ؛ وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين (ص ٥٧ ج ٥ الحيوان) . ويدخل في هذا النوع باب العيوب الخلقية كالبرص فإنهم يهجون به ، ولكن من ابتلى به من شعرائهم ضرب له المثل الذي يستغرقه ويشغل عنه كقول ابن جناب :

إني امرؤ حظلي حين تنسبني لا من عتيك ولا أخوالي العوق
لا تحسبن بياضا في منقصة إن اللهمم في أقرانها الباق
(الحيوان ص ٥٤ ج ٥) .

وقس على ذلك ، فهذا المدح المصنوع ، ولكن عذرهم فيه أنهم اضطروا إليه فراراً من معنى الهجاء ، ومن هذه الجهة اكتسب معنى المديح .

فكيفما أدرنا القول لا نجد هذا الباب خالصا عند العرب غير مقصود به إلا صنعة الكلام وحدها كما يفعل المولدون ، ولذلك لم يغلب هذا النوع على قول الشاعر منهم كما يغلب المديح الهجاء والوصف ، بل لم يكد يتميز به بعضهم على بعض ؛ واعتبر ذلك بالآبيات التي يعدونها أفر الشعر ؛ وقد روى منها ابن رشيق طائفة ، فإنك لا تجد لجاهلي بيتا يبرعها أو يكون منها بمنزلة في الصنعة ، وإنما تجد أكثر ذلك للإسلاميين والمولدين .

أما الإسلاميون فقد شاع الفخر في أيامهم ، للخلافات التي كانت بين بني هاشم وبني أمية ، وبين هؤلاء وبني العباس ، ولكنه بُني على الهجاء كما مر في مناسفات العرب ، ولذلك استغرقت الخطب والكتب ولم تكن مهمة الشعر منه إلا القليل ؛ وكان منهم من يغرى بين الوجوه من الناس وبين العلماء بالانساب ، يجب أن يعرف حالات الناس وعيوب

الأشراف ، كعبد الله بن عامر ، ومصعب بن الزبير قال الجاحظ : فلا جرم
أنهما كانا إذا سببا أوجعا (ج ١ البيان) وسنلم بشيء من هذا الباب في
بحث الخطابة .

وكان فيهم قوم متميزون دون سائر القبائل بالكبر ، أبطرم ما وجدوا
لأنفسهم من الفضيلة ، ولم يكن في قوى عقولهم ودياتهم فضل على قوى دواعي
الحمية فيهم ، وهم من قريش بنو مخزوم ، وبنو أمية . ومن العرب بنو جعفر
ابن كلاب ، وبنو زرارة بن عدس خاصة (ص ٢١ : ٢٢ ج ٦ الحيوان)
فلا جرم كان من هؤلاء ديوان مفرد لمعاني الفخر والحماسة . وقد
ذهب بشهرة الفخر في الإسلاميين من الشعراء جرير والفرزدق : لذهابهما
بشهرة الهجاء .

أما في المولدين فالذين برعوا في صنعة الفخر والحماسة كثيرون ، وقد
صارت الإجابة في ذلك على حسب قوة الشاعر وبمقدار ما توثق القرينة
من التصرف ؛ لأن هذا الشعر لا يصنع لرغبة ولا لرهبة وليس وراء معانيه
ظل ، فلا يجيده إلا مجيد ، ولكن شهرته أكثر ما تعلق بالأمراء والشجعان
وأهل النسب ؛ كالشريف الرضي ، وهم يقصدون إلى هذا النوع في شعرهم
قصدا ، ويتخذون منه لسانا للسياسة والتاريخ . ثم هو شيء في طباعهم ،
لا يتكلفون منه الكثير كما يفعل من دونهم . ولذلك لا يعدوه وشئ الطبيعة
وروتق الغريزة ، وذلك شائع فيهم . وأول هذه الطبقة في الإسلام شعراء
الخوارج ، وأشهرهم قطري بن الفجاءة ، ثم الأمراء والوزراء . كأمرأ
بني حمدان ، وأشهرهم أبو فراس الحمداني ، وكالوزير الطغراني ، وكثيرين من
وزراء الأندلس ، وسندكرم في موضعهم ، وكان آخر من أداه إلينا الزمان

من هذه الفئة ، المرحوم محمود سامى البارودى .
وقد استحدث المتأخرون طريقة صناعية فى الحماسة ؛ وهى مزجها
بالغزل والافتنان فى ذلك ؛ وأخذوا هذه الطريقة عن عنتره فى البيتين
المنسويين إليه :

• ولقد ذكرتك والرماح نواهل •

وكان يتفق ذلك فى الأبيات من القصيدة ؛ حتى صنع فيه القاضى السعيد
هبة الله بن سناء الملك قصيدته الشهيرة التى مطلعها :
سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
وقسمها على الحماسة والغزل ؛ وهى أشهر القصائد فى هذا النوع .

الرثاء

الشعر في المرثي إنما يقال على الوفاء ، فيقضى الشاعر بقوله حقوقاً سلفت ، أو على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض أهله ، أما أن يقال على الرغبة فلا ؛ لأن العرب التزموا في ذلك مذهباً واحداً ، وهو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات ؛ فيجمعون بين التفجع والحسرة والأسف والتأهف والاستعظام ، ثم [يذكرون] صفات المدح مبللة بالدموع ، حتى قال قدامة : إنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يُذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك ؛ ومن أجل ذلك لم يتبسطوا في معاني الرثاء والفجيجة من [الموجودات] وما يتبع ذلك من درس العواطف المحزنة والبحث عن أماكن الألم في نفس الإنسان ، كما كان ذلك عند اليونان ، إذ كان من شعرائهم من تخصص للفواجع وعرف بصفات الحزن كأوريبيندس وغيره ، وكما كان عند العبرانيين ، وهم أبكى الناس ، حتى إن الرثاء من الصفات المميزة لأشعارهم ؛ ويرجع ذلك النقص في العرب إلى أسبابه الطبيعية مما يتعلق بالبدواة والأخلاق التي تكون عنها ، وقد مر ذكر ذلك في مواضع كثيرة .

ومن تلك الأخلاق كانوا لا يرثون قتلى الحروب ، لأنهم ماخرجوا إلا ليقتلوا ، فإذا بكوهم كان ذلك هجاء أو في حكمة ؛ ولكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه ؛ أو يقتل في غير حرب من حروب التاريخ ، كالغارة ونحوها ، فحينئذ يعددون المآثر ويبالغون في الفجيجة كأن هذا الموت غير طبيعي فيمن يستحق أن يموت ...

وقد مر في الكلام عن شواعر العرب شيء عن موضعهن من الرثاء ،

لأنهن أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهن جزعا على هالك ؛ لما رُكِبَ في طبعهن من الخور ، وفي قلوبهن من سهولة الانخلاع . أما الرجال فلم يشتهر منهم بالرتاء إلا أفراد عضتهم المصيبة بما لم يبرأ من الألم فصاحوا تلك الصيحة التي ينجذب معها القلب إلى الشفتين .

قال المبرد في الكامل (ص ٣٩٠ ج ٢) . وكانت العرب تقدم مرأى وتفضلها ، وترى قائلها بها فوق كل مؤبّن . وكأنهم يرون ما بعدها من المرأى منها أخذت وفي كفها تصلح . . . ثم ذكر منها قصيدة أعشى باهلة التي يرثى بها المنقشر بن وهب الباهلي وساق خبرها . وكذلك روى قصيدة متمم بن نويرة في أخيه مالك ، وهذه القصائد التي يشير إليها المبرد هي عيون المرأى التي رواها محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه «جوهرة أشعار العرب» ، وهي لأبي ذؤيب الهذلي ، وعلقمة ابن ذى جَدَن الحميري ، ومحمد بن كعب الغنوي ، والأعشى الباهلي ، وأبي زيد الطائي ، ومالك بن الربيع ، ومتمم بن نويرة . ولم يذكروا منها شعر النابغة في حصن بن حذيفة ، ولا مرأى أوس بن حجر في فضالة بن كَلْدَةَ . ولأوس هذا فيه مرات جيدة ، من أحسنها القصيدة السائرة التي أولها :

أيتها النفس أجملِي جَزَعًا إن الذي تحذرين قد وقعا

وبديهي أن الرثاء لا يتعلق بالنسيب كما يتعلق به المدح والهجاء وغيرهما ولكن وردت للعرب في ذلك قصيدة واحدة . قال ابن الكلبي : لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرثُ جديداُ الحبلِ من أم معبدٍ بعافية وأخلفت كل موعدا

وقال ابن رشيقي : «ولمّا تَغزَلْ دريد بعد قتل أخيه بسنة وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته ، وربما قال الشاعر في مقدمة الرثاء : تركت كذا أو كبرت عن كذا وشغلت عن كذا ، وهو في ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء ، وكان الكميّ ركاباً لهذه الطريقة في أكثر شعره ، فأما ابن مقبل فمن جفاء أعرابيته أنه رثى عثمان بن عفان بقصيدة حسنة أتى فيها على ما في النفس ثم عطف وقال :

فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ عَلَقْتُ حَبْلَ عَاشِقٍ «الآيات»

والنسيب في أول القصيدة على مذهب دريد خير مما ختم به هذا الجلف على تقدمه في الصناعة (ص ١٢١ و ١٢٢ ج ٢ : العمدة) .

ومما حدث بعد الإسلام في طرق الرثاء الجمع بين التعزية والتهنئة ، وهو مخصوص بالخلفاء في تمزية من بلى عهد أبيه منهم ، وكان أول ذلك حين مات معاوية وقدم يزيد ولده فلم يقدم أحد على تمزيته ، حتى دخل عليه عبد الله بن همام السلولى فأنشده (ج ١ : البيان) ففتح للناس بعده باب القول ، وقد روى بن رشيقي هذه الآيات في العمدة (ص ١٢٤ ج ٢) ووطأ لها بسجعات نسبها للسلولى ، والصحيح أن له الشعر وحده ، أما السجع فهو لعطاء بن أبي سبقي الثقفى ، وهو من الخطباء الذين فتح لهم الكلام بذلك الشعر (ج ١ البيان) . ولما توفى عبد الملك وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ؟ فأقبل غيلان ابن مسلمة الثقفى ، فسلم عليه ثم خطب معزيا ومهنثا . وكذلك لما توفى المنصور دخل ابن عتبة مع الخطباء على المهدي فسلم ونحنا هذا المنحى ، وقد روى كلامهما الجاحظ في الجزء الأول من البيان .

والذى ابتدأ بالإجادة فى هذه الطريقة من الشعراء ، أبو نواس فى قصيدته النونية التى يعزى بها الفضل بن الربيع عن الرشيد ويهنيه بالأمين ، يقول منها :
وَفى الحىِّ بالميتِ الذى غَيَّبَ الثرى فلا المَلِكُ مَغْبُونٌ ولا الموتُ غابنُ
ثم اتبعه أبو تمام فى قصيدته التى أولها :

• ما للدموع تروم كل مرام •

يقولها للوائق بعد موت المعتصم ، وقد صرف الكلام فيها كيف شاء وأطنب كما أراد ، وتقدم فيها على كل من سلك هذه الناحية من الشعراء ؛ وليس فى المتأخرين من يؤتم فى هذه الطريقة غير جمال الدين بن نباتة المصرى ، من شعراء القرن السابع ، فإنه جاء فى قصيدته الميمية التى عزى فيها عبد الملك المؤيد صاحب حماه وهناً ولده الأفضل ، بما يعد من عجائب الصناعة ، لأنه استطرد فى القصيدة على طولها بالجمع بين التهنتة والتعزية إلى آخرها ، وهى مشهورة ، مطلعها :

هنا محاذك العزاء المقتما فما عَبَسَ المحزون حتى تبسما

وأبو تمام من المعدودين فى إجادة الرثاء خاصة ، حتى قيل فيه إنه نواحة ندابة ؛ وكذلك عبد السلام بن زغبان المعروف بديك الجن ؛ واشتهر فى الرثاء بطريقة انفرد بها لا ترجع إلى الأسلوب ولا إلى الصناعة ، ولكن إلى معنى الفجعية ، وذلك أنه قتل له جارية وغلاما كان يهواها ثم جعل ينوح عليهما ويرثيها ، فاشتهر بهذه الطريقة ، وليس أدل على جودة رثائه من قوله فيها :

لو كان يدرى الميتُ ماذا بعده بالحىِّ منه ، بكى له فى قبره

وكان للرثاء شأن فى أول الدولة الأموية ، حتى كانت المراثى يُناح بها

نوحا على القتلى والاموات ، وأشهر من عرف بذلك الغريض المغنى ، وقد ربه الثريا بنت عبد الله بن الحارث وعلمته النوح بالمرأى على من قتله يزيد ابن معاوية من أهلها يوم الحرة (ص ٨٥ ج ١ : الأغاني) ؛ وكان المشهور قبله بالنوح ابن سريج المغنى ، وقد عدل بعد ظهور الغريض إلى الغناء فعدل معه الغريض إليه (ص ١٠٠ ج ١ : الأغاني) ، ثم كان بنو أمية يشترطون في تقريب الراوية منهم أن يكون لمرأى العرب [أحفظ] ، وكان القائم برثاء المتقدمين منهم النصيب الشاعر ، فكان إذا قدم على هشام ابن عبد الملك أخلى له مجلسه واستنشد مرأى قومه ، فإذا أنشده بكى وبكى معه (ص ١٣٥ ج ١ : الأغاني) وكان يتقرب بذلك إلى ملوكهم وأمراءهم ، حتى إنه لما دخل على عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة ابتداءه في الاستئذان أن ينشده من مرأى أبيه عبد العزيز ، فقال : لا تفعل فتحزنتى (ص ١٣٧ ج ١ : الأغاني) ، وقد عارض بنو أمية في الودع بالرثاء شعراء الطالبيين ومن نبغ بعد ذلك من هذه الشيعة إلى اليوم .

ومن طرق الرثاء التي أحدثها المتأخرون ، ما يرثون به الدواب والآثام والأدوات ، وقد مرت الإشارة إلى ذلك في موضع آخر ؛ ولكن القصيدة التي احتذوها في ذلك إنما هي القصيدة الهرية الشهيرة التي نظمها ابن العلاف الشاعر المتوفى سنة ٣١٨ ، وكان له هز يأنس به ، وكان يدخل أبراج الحمام التي لجيرانه ويأكل فراخها ، وكثر ذلك منه فأمسكه أربابها فذبحوه ، فرثاه بها ؛ وقيل إنه إنما رثى بها عبد الله بن المعتز وخشى من الإمام المقتدر لأنه هو الذى قتله ، فنسبها إلى الهر وعرض به في أبيات منها ، ويقال بل كنى

بالهر عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أيام محنته ، لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه . وقيل غير ذلك ، وهذه القصيدة في ٦٥ بيتا ، وهي معدودة من أحسن الشعر وأبدعه ، وقد نقل زبديها ابن خلكان في تاريخه (الجزء الأول ص ١٣٧) . وللعلاف قصائد أخرى في الهر أيضا ولكن هذه أشهرها . [واستحسن] مَنْ بَعده هذا المذهب ، فعارض ابن العميد القصيدة الهرية صناعة ، ونقل الثعالبي شيئا من قصيدته في اليتيمة (الجزء الثالث ص ٢٣) ولما نفق بردون أبي عيسى المنجم بأصبهان وكان قد طالت محبته له ، أوعز الصاحب ابن عباد إلى الندماء المقيمين في حلبته أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا بردونه ، فقال كل منهم قصيدة فريدة ، نقل الثعالبي مختارات منها (الجزء الثالث ص ٥٥ : يتيمة الدهر) . ثم شاع هذا النوع بعد ذلك وتقبلوا في أغراضه .

الغزل والنسيب

ليست هاتان الكلمتان مترادفتين بالمعنى الأخص كما جرى في عرف الناس ، ولكن بينهما فرقا نبه عليه قدامة فقال : إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب [عن] قوم موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه . قال : والغزل إنما هو التصابى والاستهتار بمودات النساء ... وإذ قد بان أن الذى قلناه على ما قلنا فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهاك فى الصباية ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الحشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز ، وأن يكون جماع الأمر فيه ماضاة التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض .

لا جرم كانت هذه الأخلاق التى يحلو بها النسيب ويعذب الغزل غير صريحة فى البداوة ، ولا خالصة فى تلك الخشونة الفطرية التى طبع عليها العرب فى جاهليتهم ، فكان نسيب شعرائهم قليلا بمقدار تلك الأخلاق التى انسلخت من الطبيعة العربية وتحولت عن صميمها بما فيها من المادة الحضرية الموروثة أو المكتسبة ، لأن أول من تعهر فى شعره من العرب وشبب بالنساء ، إنما هو امرؤ القيس بإجماع الرواة ، وكان أبوه من ملوك كندة فظهرت فى غزله

الحضارة اليمنية وأفسدتها صعلكة الرجل ؛ إذ كان على أنه ابن ملك لا يستتبع إلا صعاليك العرب وذؤبانهم ، وقد شبب حتى بنساء أبيه ؛ وكان هذا سبب نفيه ، لا ما زعموه من أن الملوك كانت تأنف لأبنائها من الشعر ، وقد نبه على ذلك الجاحظ في الحيوان ، وسنكشف قلب هذا الشاعر متى وصلنا إلى ترجمته . وكان قبل امرئ القيس خاله مهلهل ، وهو زير نساء ، ولكنه كان بعين أخيه كليب فارس العرب المشهور - وقد مر وصفه - فلم يك بالمفحش ولا بالبذى ، ولما كان مهلهل أول من أرق الشعر كان كذلك أول من غنى بالتشبيب من شعره (ص ٦١ : سرح العيون) .

ولم يحن بعد هذين الشعارين من يتهاك في غزله غير النابغة الذبياني ، وقد أخش في بعض نسيبه إغاشا كأنه رومي أو فارسي ، لطول ما صحب المناذرة والغساسنة ، أما سائر الشعراء من العرب فكانوا على سنة قومهم من الغيرة والأنفة ؛ ولذلك ظهر النسب فيهم طبيعياً [فقامت] فيه الطول والآثار ، وتشوقوا بالرياح الهابة والبروق اللامعة والحمام الهاتفة والخيالات الطائفة وبكوا على آثار الديار العافية وأشخاص الأطلال الدائرة .

وهم إذا وصفوا محاسن النساء لم يزيدوا على الأوصاف الطبيعية التي تقع عليها الأعين ؛ إذ كن غير مقصورات ولا محجوبات ، وإنما تجيء طهارة الغزل من اعتبار الحسن اعتباراً طبيعياً ، كالذي تعرفه النفس من جمال الشمس والقمر ، وخضرة الرياض ، وأريج الأزهار ، ونحو ذلك ؛ وأظن أن إجماع الناس كافة على اختلاف أهمهم في تشبيه الحسن النسائي بتلك المعاني إنما جاءهم من ذلك الاعتبار ، لأنه فيهم إرث الطهارة الطبيعية من لدن

الإنسان الأول ؛ ولذلك السبب عينه لم تكن تأنف العربية أن توصف بحاسنها ، لأن الحسنة فيهم [صفة] نفسها ، وإنما كان الشأن في ريبة النظر وندس الفؤاد ، وذلك الذي كان يستطير له الشر بينهم وتعتقد عليه الغارات فهو غزل الأسننة لا غزل الألسنة ، وهو أيضا كان السبب في أن النسيب لم يغلب على شعر واحد من شعرائهم فيعرف به كما عرف قوم بالهجاء والمديح وغيرهما ، وعلى أن هذا النسيب كان نوعا من أنواع الوصف فهو كذلك لم يتميز به شاعر تَمَيَّزَهُ بالأوصاف الأخرى ؛ وهذه تراجم شعراء الجاهلية وأشعارهم بين أيدينا ، وهي بجملتها الدليل على ما أسلفنا بيانه .

فلسا جاء الإسلام آمنت العيون المربية ، وصدق النظر في عفته ؛ وتاجلجت الألسنة فيما كانت تنطلق به ؛ فكان ذلك أبغ في عفة النسيب ، حتى صار يؤخذ من طرف اللسان ، ولا يقصد به إلا إقامة السنة التي درج عليها العرب ، وتحريك ما في القلوب من بقايا الشباب ؛ حتى يستجيب الطبع للشاعر وتسلس له الخواطر ، كما قال مالك بن زغبة الباهلي (ص ٩٨ ج ٢ : العمدة) :

وما كان طي حبا غير أنه يُقامُ بسلسي للقوافي صدورُها
ولولا ذلك ما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجده من قصيدة
كعب بن زهير الشهيرة ؛ ولتبين الناس منه الكراهة له ؛ وهم لم يرووا من ذلك شيئا كما رووا في غيره (هو منافرة الزبرقان ؛ راجع العمدة) .

ومضى الشعراء على ذلك إلى زمن عمر بن الخطاب ، وكان لشدته في الدين ينكر من الشعر غير معالي الأخلاق وصواب الرأي وما يرجع إلى الأنساب ؛

حتى لقد مر بحسان وهو ينشد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأنكر ذلك ، ثم قال : أرغاه كرهاه البكر ؟ فقال حسان : دعني عنك يا عمر ،
فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير
على ذلك ! لا جرم أنه استبطل النسب وراه عبثاً ، إن لم تكن فيه حرمة فقد
يكون سبباً إليها ، خصوصاً وقد توأف الناس في زمنه معاني الغزل بما جلبته
لهم الفتوح من السراى ، فتقدم عمر إلى الشعراء أن لا يتشبه أحد بامرأة إلا
جلده (ج ٤ ص ٩٨ : الأغاني) : وكان يأبى أن يساكنه جميل من الرجال تهتف
به العواتق في خدورهن ؛ وقصة نصر بن حجاج معه مشهورة ، ولكن ماجأتهم
به الفتوح كان قد أدخل عليهم رخاوة المدينة ونقض من طباعهم ، ثم جعلت
قلوبهم تسبب وتسبب معها أخلاق البداوة ؛ فإهدأت الفتن بعد عثمان
واستقر الأمر لمعاوية حتى قويت قلوب وضعفت عقول ، وانصرف أكثر
القرشيين إلى ما ألهمهم به معاوية من الترف والنعمة ، وما جرأهم عليه من
مباحات النظر واللسان ، وهو كان يبذل إليهم الأموال في هذا السبيل ويعينهم
عليه بما وسعه من الجهد ، ليكسر من قرشيتهم التي هي قوام الخلافة . وظهر
يومئذ الغناء [مُمْتَرَى] فيه حتى أباحه يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤ هـ)
ففسحا في الحجاز ؛ والنسب مادة الغناء الطبيعية وبه يقوم أمره ؛ فكان
المغنون يتناولون في أول أمرهم نسب الجاهليين والمخضرمين ؛ كالمهلل
وامرئ القيس والنابغة وذى الإصبع العدواني وحيد بن ثور وغيرهم ؛ وكان
هذا منشأ الظرف الحجازى الذين ضربوه مثلاً ؛ لأن أهل العراق كانوا
ينكرون الغناء ولكن لا يرون بأساً بالرجز ، وهو ما يحدى به (ص ١٦٣ ج ١ :
الأغاني) ؛ وكذلك صاروا يكرهون النسب من أجله ؛ حتى قال فيهم سعيد بن

المسيب : إنهم فسكوا نسكا أعجميا ، ونبغ في ذلك العهد عمر بن أبي ربيعة الغزلُ المترف ، وكانت أمه سُبيت من حضرموت ، ويقال من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل (ص ٣٢ ج ١ : الأغانى) كما أتى امرأ القيس من قبله ، وليس بينهما من يساويهما في هذه الطريقة ، وإنما نشأ لزمانه فتیان الشعر من القرشيين ، كأبي دهب الجمحي ، ومن ينزل منزلتهم بما يدل به من سابق الحرمة ، كعبدالرحمن بن حسان ، فلم يتركوا أن يقولوا للنسيب في كل من جاز أن يقولوه فيه وكل من لم يجز ، حتى تناولوا به بنت معاوية ؛ ولكن ابن أبي ربيعة هو الذى استقلت [له] هذه الطريقة وكان أول من شهر بها ، فبرع نظراءه بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن الوصف وإرسال شعره قصصاً غزلية حتى كأنه إنما يدقون فيه تأريخ قلبه ، ولذلك فتن به الناس ، وكان أشهر أهل الحجاز يومئذ بالظرف والرقه وطباع الغزل ، ابن أبي عتيق ، وهو عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي بكر ، فكان عمر يذهب فى شعره إلى أخلاقه (ص ٢٨ ج ٢ : الحيوان) وأخبارهما مشهورة ، ثم كان يغنى فى أشعاره ابن سريج المغنى النواحة ، فلو أن القلوب لا ترى بصرها إلا لونهاً واحداً لكان هو اللون الذى يعطيه غناء ابن سريج بشعر ابن أبي ربيعة ، ولذلك طار نسيبه وصار الحسان يتعرضن فى آفاق لحظه كواكبٍ وأقاراً لبشهرن فيرتفعن فى الناس بصفته ، وبلغ من فتنة شعره للنساء أنهن كن يتدارسنه ويكتبنه (٣٧ ج ١ : الأغانى).

وقد خلقت تلك البيئة عمر خلقا نسانيا ، حتى كأنما كن ينجذبن إليه للنسابة الجنسية... فقد كان فى أيام الجمع يلبس حلل الوشى ويركب النجائب المنخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويخرج يتأقى العراقيات إلى ذات عرق ، ويتلقى المدنيات إلى مَرّ ويتأقى الشاميات إلى الكديد (ص ٨٨

ج ١ الأغانى) كل ذلك التماساً للغزل وطلباً لمأثاته ، وأخباره كثيرة مثبتة في موضعها من كتاب الأغانى .

وظهرت مع عمر طبقة العشاق من شعراء العرب : كجميل ، وكثير ، ونصيب ، وجنادة العذرى وغيرهم ؛ ثم الشعراء الذين صاغتهم البيئته : كالأحوص الذى كان يشبب بالنساء ذوات الأخطار من أهل المدينة ، حتى نفاه سليمان بن عبد الملك (ص ٤٨ ج ٤ : الأغانى) ؛ ووضاح اليمن وكان يشبب بامرأة الوليد بن عبد الملك .

وفشا أمر الغناء فكان ابن سريج وابن محرز ومعبد والغريص ومالك وابن عائشة وغيرهم [يغنون] فى النسب من شعر تلك الطبقة كلها ؛ وبذلك ظهر النسب فى وضع يشبه أن يكون فارسياً أو رومياً ولا يلتئم مع أخلاق العرب ؛ إذ تحكى فيه قصة الغزل ويفتخر فيه بنقض العفة وانحلال الطباع ، إلى أمثال هذه المعانى ؛ وكان ذلك أصل ما ورثه المولدون من هذه الصناعة .

وتم نوع من الهجاء استخدم فيه النسب ، واستعين على البلوغ إلى حقيقته بهذا الغزل الحديث ، وأول من فعل ذلك الشاعر الملقب بالعرجى ، وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وقد نبغ بعد موت ابن أبي ربيعة ونحانحوه وتشبه به فأجاد ، وكان جريئاً فى شعره على نساء قريش ونساء بنى أمية ، قليل [المحاشاة] لأحد ، وكان يهجو محمد بن هشام ابن عبد الملك الخليفة الأموى ، فلما رأى أنه لم يبلغ منه ولم [يُبصّه] جعل يشبب بأمه وامراته (ص ١٦١ ج ١ : الأغانى) وينسب بهما ، وخصوصاً أمه ، على تلك الطريقة من حكاية الوقائع وافتراء الإفك ، لا لمحبة ولا لمعنى من معانى الغزل (ص ١٥٤ ج ١ : الأغانى) ؛ ولكن ليفضح الرجل بإشاعة

الشعر على أسنة المغنين ؛ وليس يؤخذ بالنسيب هذا المأخذ إلا وقد استقامت
طريقته تلك بما يمتهد لها من الأعراض ويوطأ من الأخلاق ؛ ولذلك
صار الأشراف والأمراء يتقون تلك الأسنة أكثر مما يتقون العيون
المريية بعد أن شددوا في الحجاب وفزقوا بين الرجال والنساء في الطواف ،
وذلك في إمارة خالد القسرى عامل سليمان بن عبد الملك على مكة ، إذ بلغه
قول بعض الشعراء (ص ١١٦ ج ٢ : المسعودى) :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا السكبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمتنا عند استلام الحجر الأسود

فتحوّلت الأخلاق يومئذ في سواد الأمة بهذا النسيب ، حتى كان من
الأشراف من يحاول أن يعيد الأخلاق العربية ، كعبد العزيز بن مروان
[والى] عبد الملك على مصر ، فإنه كان لا يعطى شاعراً شيئاً حتى يذكر أمه
في مدحه لشرفها ، فكان الشعراء يذكرونها باسمها في أشعارهم (ص ١٣٦
ج ١ : الأغاني) .

ولما كانت خلافة عمر بن عبدالعزيز تحامى شعراء الغزل أن يشهروا
النساء في نسيبهم ، وتحوّلوا عن طريقة ابن أبي ربيعة ، حتى إن النسيب
الشاعر المقدم في ذلك لم يأخذ جائزته إلا بعد أن شهدوا له أنه عاهد الله
أن لا يقول نسيباً يشهر به النساء (ص ١٣٨ ج ١ : الأغاني) واستمر أكثرهم
على ذلك : لا ينسب إلا تملحاً واستجباماً على غير ريبة ولا فاحشة ، ومالوا
في ذلك إلى طريقة العرب ، إلا ما لا بد منه من صنعة الأخلاق التي تناسب
الغزل والتشاجى ، حتى ظهر أبو المحدثين بشار بن برد ، فأفرط في الصنعة ،
لأنه كان أعمى ، وبالغ في تصوير الإحساس ليمتاز بذلك على المبصرين وهو

والأعشى معدودان كذلك عندهم ، فكان سبيله إلى هذا الغرض أن نصب في شعره من جبايل الشيطان وزخرفته بتزويق اللسان وقارب في غزله النساء بما كان يجتزئ ابن أبي ربيعة بنظره عن التحدث به في النسب ، حتى [اشتهر] نساء البصرة وشبانها بشعر بشار ، وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي ابن المنصور العباسي ، وكان أشد الناس غيرة ، فنهاه عن ذكر النساء وقول التشبيب (ص ٤١ ج ١ الأغانى) ثم ظهر بعد ذلك أبو فراس والعباس بن الأحنف ، وهذا الأخير ليس في شعره مديح ، إنما هو مصروف إلى النسب يتوخى فيه صفة المعنى لا صفة الحكاية ، وشعره عكس شعر الفرزدق لأنه كان لا يقول في الغزل (ج ١: البيان) والعباس لا يقول إلا فيه .

ومن ذلك المهد شاع النسب والتحم بالشعر ، ورغب فيه الخلفاء من شعرائهم حتى إن الرشيد أمر بحبس أبي العتاهية والتصفيق عليه لما تزهد وآلى على نفسه أن لا يقول شعراً في الغزل (ص ١٦٠ ج ٣ : الأغانى) ثم أضاف البحترى إلى النسب معنى تعلق به وردده في شعره واستقصاه ، حتى كان الباب الذى شهر به على أنه أرق الناس نسيباً وأملحهم طريقة ، وذلك المعنى هو ذكر الطيف والخيال ، وكان من ذلك شيء قليل فى أشعار المتقدمين يركبون فيه صنعة جافية تتخون محاسنه وتعفى على معنى الغزل فيه ، إذ كانوا يطردونه ؛ وأشهر ما فى ذلك قول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

ومن انفرد بطريقته فى النسب بعد البحترى وشهر بالغزل خاصة ، أبو الوليد بن زيدون ، وهو الذى لقبه الأندلس ببحتري المغرب ، وقصائده مشهورة ، وخصوصاً النونية التى يتشوق بها إلى ولادة ، وكذلك أبو الوليد

ابن الجنان من شعراء الملك الناصر صاحب الشام في القرن السابع ، قال ابن سعيد المغربي : ومقاطيعه الغرامية فلانند أهل الغرام (ص ٣٧٩ > ١ : نفع الطيب) وكان في ذلك القرن أيضاً أبو الفضل زهير الشهير ببهاء الدين ، وهو صاحب الديوان المشهور الذي يقال في غزله إنه السهل الممتنع ، وقد انفرد بهذه الطريقة حتى لا يذكر معه فيها أحد من المتأخرين إلا تابعا ، ثم تتابع الشعراء بعد هؤلاء وكلهم ينسبون وأكثرهم يجيدون ، ولكننا لانعرف لواحد منهم طريقة يتبع فيها بل كلهم ، إلا ما اشتهروا به من السخافات ، كالغزل الممقوت الذي يصفون فيه الأحداث والمخنيين ، وكان منشأ ذلك في أوائل الدولة العباسية بعد اقتناء المماليك من الروم والترك وغيرهم ؛ ولبعض خلفائهم ولع به واستهتار ، كالمعتضد وغيره ، وليس هذا موضع شرحه ولا تأريخه ، وقد رأينا لبعض المتأخرين فيه كتاباً مطبوعاً ، ولكننا نزه كتابنا عن الإشارة إليه .

ويدخل في تاريخ النسيب بعض المذاهب الصناعية التي استحدثت فيه ، ونخص بالذكر من ذلك مذهبين : الأول ما سلكه المتنبى من التغزل بممدوحه ، وقد نبه عليه الشعالي في القيمة ، والثاني ما استنته الوزير الطغراني من الجمع بين مدح فتيان الحى والتغزل بفتياته ، وقد شغف بهذه الطريقة من المتأخرين ابن معتوق الموسوى وأكثر غزله فيها .

الشعر الوصفي

الوصف جزء طبيعي من منطق الإنسان ، لأن النفس محتاجة من أصل الفطرة إلى ما يكشف لها من الموجودات وما يكشف للوجودات منها ، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة وتأديتها إلى التصوّر في طريق من طرق السمع والبصر والفؤاد ، أي الحس المعنوي ، فالأمم الطبيعية هي أصدق الأمم في الوصف طبيعة ، لأنه سبيل الحقيقة في أسفنها ، ولأن حاجتها المناسبة إليه تجعل هذا الحس فيها أقرب إلى الكمال ، فإذا أضفت إلى ذلك سعة العبارة ومطلوعة اللغة في التصريف — كما هو الشأن عند العرب — كان أجمع للحس وأبدع في تصوير الحقيقة بما تكثرت اللغة من أصباغها ويجيد الحس في تأليف بينها وتكوين المناسبات الطبيعية التي تظهرها تلك الألوان المهيأة على حسب هذه المناسبات .

ولما كان الوصف الشعري هو أرق ما يكون في اللغة من صناعة الأصباغ والتلون ، كان لا يقع إلا على الأشياء المركبة من ضروب المعاني ، وكان أجوده لذلك ما استجمع أكثر المعاني التي يتركب منها الشيء الموصوف وأظهرها فيه وأولاها بتمثيل حقيقته ، وهي الطريقة التي اتبعها العرب في أوصافهم بدلالة الفطرة القوية والطبيعة الراقية ، وقد كان هذا سبباً في تطبيقهم وصف الحيوان والنبات وغيرها على علومهم ومعارفهم التي خلدوها بذلك في أشعارهم ؛ لأن من أخص مزايا العلم التدقيق والاستقصاء ، حتى قال الجاحظ : قلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد

وجدنا قريباً منه في أشعار العرب والأعراب (ص ٨٣ ج ٣ الحيوان) .
فاستقصاء المعاني التي يتركب منها الموصوف طبيعة عامة في شعرائهم ،
ولكنهم يتفاوتون في قوة الاحتمال على إبراز هذه المعاني وابتداع
الأساليب في تصويرها ، وهذا هو موضع التفضيل بينهم ، لأنه راجع
إلى اختلاف القرائح خلقاً واستعداداً . وقد غفل أكثر الأدباء عن
هذه الحقيقة ، فتراهم يعجبون لما يرونه في بعض أشعارهم مما يكون
سبيله الاحتمال على تصوير أجزاء الموصوف ، ويعدون خشونة وجفاء
طبع ، كالذي يذكرونه في وصف الناقة بأن هراً قد ثبت في دَفِّها ،
كقول عنتره :

وكأنما ينأى بجانب دَفِّها الـ ووحشى من هزج العشى مؤقـم
هراً جنببُ كلما عطفت له غَضْبُ اتقاها باليدن وبالقم

وهم إنما أرادوا صفة الناقة بأنها رَوَاقِعٌ شديدة التفرع لفرط نشاطها
ومرحها ، فجاءوا بهذا المعنى الذي تلزم عنه تلك الصفة ، وخصوا المر لأنه
يجمع العَضَّ بالناب والمحض بالمخالب ، فيكون ذلك أبلغ فيما أرادوه .
ومنه قول أوس بن حجر ، وقد جاء بأكثر من ذلك ، يريد أنها
لا تستقر :

كأن هراً جنبباً تحت غَرْضِها والتفّ دبك بمَقْوَيْها وخنزير
وقول الشماخ :

كأن ابن آوى موققٌ تحت غَرْضِها إذا هو لم ينكلم بنائبه ظفراً
« والغرضة والغرض : حزام الرجل (ص ٧٤ ج ٢ : الكامل) » .
وعلى ذلك يؤول كل ماورد في أوصافهم من أمثال تلك المعاني التي

يستقصون بها أجزاء الصفة وأساليب التركيب ، وهي عامة في الشعر الجاهلي والطبقة التي تليهم من الإسلاميين ، ومن أعجبها قول الراعي حين أراد أن يصف لون الذئب :

متوقع الأقران فيه شبيهة هسَّ اليدين تخاله مشكولا

كدخان مرتجل بأعلى تلعلة غرثانَ ضرَمَ عرجفا مبلولا

المرتجل : الذي أصاب رجلا من جراد فهو يشويه ، وجعله غرثان لأنه على طول الغرث لا يختار الحطب اليابس على رطبه ، فهو يشويه بما حضره . وأدار الراعي هذا الكلام ليكون لون الدخان بلون الذئب الأطلحل متفقين (ص ٢٤ ج ٥ : الحيوان) .

ومن تفاوتهم في الأساليب قول الشماخ في صفة العرّ :

كأن قنودي فوق جاب مطرد من الحقب لاحتها الجداد الغوارز

(الآيات ... ص ٢٨ ج ٥ : الحيوان) قال الجاحظ : ولهذه الآيات كان الخطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم . وسجد الفرزدق مرة إذ سمع رجلا ينشد بيتا للبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبرٌ تُجدُّ متونها أقلامها

ف قيل له : ما هذا ؟ قال : موضع سجدة في الشعر أعرفه كما تعرفون مواضع السجود في القرآن ! (ص ٢٧٥ : شرح العيون) .

ولما كان الوصف عند العرب أشبه بالحقيقة العلمية كما مر ، كان الشاعر منهم لا يتعاطى إلى ما يحسن من ذلك ضرورة ، وقد يشارك في أوصاف كثيرة ولكنه ينفرد بالشهرة في بعضها ، من جهة العلم لا من جهة الصناعة ، فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته ،

وأقدر على استقصاء هذا العلم في شعره ، كان أبلغ في الوصف وأولى بالتقديم فيه ؛ وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم ، وصرفته روعة العجب ، فإن العلم يعطى مادة الحقيقة ، والعجب يكسبها صورة من المبالغة الشعرية ، وكل وصف لا يكون عن هذين أو أحدهما فهو تزئيد من الكذب ، وتكثير بالباطل ، لأن سيئله سبيل المصنوع المتكاف ، ولا يسلم متعاطيه من الخطأ ، كما ترى شعراء المولدين يصنعون في صفة الإبل ونحوها من خصائص الشعر الجاهلي . وقد أخطأ أبو نواس على جلالتة في وصف الأسد حين تعاطاه ، وسيأتي ذلك في موضع آخر .

وعلى جهتي الوصف الصادق اللتين ذكرناهما ، يجرى كل شعر العرب ومن بعدهم من طبقتي المخضرمين والإسلاميين ، ولا يبقى موضع للعجب في تناوهم بالوصف كل أجزاء طبيعتهم ، حتى الحشرات ، وحتى ما لا يستحسن مثله عادة من الوصف ، كما فعل مخارق بن شهاب المازني ؛ وهو على سيادته وكرمه ، وعلى أنه من رؤساء العرب ، تراه يصف تيس غنمه ، ولولا روعة العجب لترك ذلك لأخلاق الرعاة ومن في طبقتهم (ص ١٤٣ ج ٥ : الحيوان) .

على أنهم في ذلك جميعه إنما كانوا يتوسعون فيما يتعلق بالأجزاء من الموصوفات دون ما يتعلق بالمعاني ، والأجزاء متعلقة بالهيئة الخاصة ، والمعاني متعلقة بالحالة العامة ؛ فإذا وصفوا الناقة مثلاً وهي ذات هيئة خاصة مميزة بأجزائها أتوا على هذه الأجزاء واستغرقوا كل ما يتعلق بالهيئة ؛ وحسبك أن تقرأ قصيدة النخلي في وصف القطاة ، وقد رواها الجاحظ وقال إنها أجود قصيدة

قيلت في القطة (ص ١٦٩ ج ٥ : الحيوان) وإنما كانت كذلك لاستغراقها كل أجزاء الصفة بحيث تصوورها تصويراً حياً ، ولكنهم إذا وصفوا حرباً انصرفوا عما فيها من المعاني العامة وردوها إلى النوع الأول فجزموها أجزاء واعتبروها هيئة ، فربما وصفوا منها الخيل وفسانها وأدوات القتال وذكروا الصفة العامة للحرب ، من النقع والدماء والطير التي تتبع القتلى ونحو ذلك مما ترد جملة إلى أجزاء مفردة بأعيانها ، ولكنهم لا يصفون حالة المتقاتلين مما يبني على معاني النفس وتقام به فلسفة الإنسانية ، لأن ذلك بعيد عن نظام اجتماعهم ، ولو اقتضاه الاجتماع لاهتدوا إليه ؛ ولهذا السبب عينه لم يؤثر عنهم شيء في الأوصاف التاريخية التي يستمد منها الشعر القصصي ، وقد ذكر شعراؤهم واقعة الفيل وسيل العرم وغيرهما (انظر ج ٧ : الحيوان) ولكنهم لم يحتالوا على أن يصفوا ذلك بمعانيه العامة في قصة أو شبه قصة ، كما رأيتهم يحتالون على إبراز الصفات الطبيعية ويتكلفون لذلك نوعاً من القصص على ما سلف بيانه (*) . وقد تجدهم يزحمون أجزاء الهيئة وبياناتها في استقصائها حتى تقصر الألفاظ عن بسط المعنى وتترك في التصوير مواضع للنظر والفسر ، كقول الشماخ يصف أرضاً تسير النبالة فيها :

تقعقع في الآباط منها وفاضها خلعت غير آثار الأراجيل ترمي

قال قدامة : فقد أتى في هذا البيت بذكر الرجالة وبين أفعالها بقوله « ترمي » ، ومن الحال في مقدار سيرها بوصفه تقعقع الوفاض ، إذ كان

(*) قلت : لعله كان يقصد أن يكون موضع هذا الفصل مبحث (الشعر القصصي) ولكننا رتبنا فصول هذا الباب على ما أشار إليه في مبحث (تنوع الشعر وفنونه) ص ٧٣ من هذا الجزء ، فلم نغزبه لهذه العبارة إلا من بعد ...

في ذلك دليل على الهرولة أو نحوها من ضروب السير ، ودل أيضاً على الموضع الذي حملت فيه هذه الرجالة الوفاض ، وهي أوعية السهام ، حيث قال « في الآباط ، فاستوعب أكثر دهيآت ، النبالة وأتى من صفاتها بأولها وأظهرها عليها ، وحكاها حتى كأن سامع قوله يراها (ص ٤١ : نقد الشعر) ولم يلتزم المولدون سنن العرب في الوصف ، بل قلبوه إلى التشبيه ، وبينهما فرق عند العرب ، وهو أن الوصف إخبار عن حقيقة الشيء ، والتشبيه مجاز وتمثيل ، لأنه مبني على أن يوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، إذ لا بد أن يكون بين المشبه والمشبه به اشتراك في معانٍ تعمهما ويوصفان بها ، واقتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها ، فهو يدخل في الوصف كما ترى وليس به في الحقيقة .

ومن أجل ذلك بالغوا في أوصافهم وجاءوا بالتشبيه المفرط والبعيد ، وكان هذا شيء اقتضته حضارتهم المبنية على الترف وتمويه الأشياء بالزخرفة ، وقل منهم من يصف عن علم كأنى نواس في أوصافه للكلاب واستغراقه في سننها ، لأنه كان عالماً راوية ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب ، قال الجاحظ : وذلك موجود في شعره ، وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه ؛ هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحدق بالصنعة ؛ وإن تأملت شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أوترى أن أهل البدو أبدأ أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء ، قال : فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً (ص ١٠ ج ٢ : الحيوان) وهذه الصفات هي التي تذكر في شعر الصيد والطرْد ؛ ولانصراف المولدين عن حقائق الموصوفات كانوا يسمون

الأوصاف الشعرية بما يجرى مجرى العويص (ص ٢٢٨ ج ٣: اليتيمة) وجعلوا لبعض التشبيهات ألفاظاً سموها بالألفاظ الملوكية (زهر الآداب ص ٥٣: على هامش العقد الفريد) وهي خاصة بوصف ما يكون عند الملوك من أدوات الترف والنعمة .

أما مشاهير الوصافين في تاريخ الأدب جاهلية وإسلاماً فهم وإن كانوا يجيدون أكثر الأوصاف لكنهم اشتهروا بأنواع غلبت عليهم الإجادة فيها، فاشتهر من نعات الخيل امرؤ القيس وأبو دؤاد وطفيل الغنوي والنابغة الجعدي ، ومن نعات الإبل طرفة وأوس بن حجر وكعب بن زهير والشماخ ، وإن كان أكثر القدماء يجيدون وصفها لأنها مراكبهم ؛ وكان عبيد بن حصين الراعي النيرى أوصف الناس لها ، ولذلك سُمي راعياً ؛ وأما الحُمُر الوحشية والقسي والنبل فأوصف الناس لها الشماخ ، ولقد أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعره في الحُمُر فقال : ما أوصفه لها ! إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً ... وأما الخمر فن أوصاف الأعشى والاخلطل وأبي نواس ، واشتهر أبو نواس وابن المعتز أيضاً بصفة الصيد والطرْد ، ولا يذكر مع امرئ القيس في منزلته من اختراع التشبيه إلا ابن المعتز ، وكان ذو الرمة أوصف الناس لرمْل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية ، وهو رئيس المشبهين الإسلاميين ، وكان يقول : إذا قلت كأن ... ولم أجد مخلصاً منها فقطع الله لساني ! وقد اشتهر بوصف الطبيعة الوحشية أيضاً عبيد بن أيوب العنبري ، وكان نافرماً من الإنس جوالاً في مجهول الأرض ، فاستغرق ذلك شعره (ص ٥٠ ج ٦ : الحيوان) ومن الوصافين المتفنين في الأوصاف على بن إسحاق المعروف بالراجحي المتوفى سنة ٣٥٢ ،

وأبو طالب المأمونى المتوفى سنة ٣٨٣ ، وله أشياء كثيرة فيما يجرى بجرى العويص ، واشتهر كشاجم بآلات المنادمة ، والصنوبرى بالروضيات ، وابن خفاجة الأندلسى بأوصاف الطبيعة الحضرية وابن حمديس الصقلى بأوصاف البرك والمياه والأنهار ، وسنذكر كلمة عن أوصاف الأندلسيين متى وصلنا إلى تاريخ الأدب الأندلسى إن شاء الله .

والوصف باب من الشعر قلما تجد شاعراً لا يحسن منه شيئاً أو أشياء ، ولكن هؤلاء الذين عددناهم قد ذهب لهم بالأوصاف التى غلبت عليهم الإجابة فيها صيتٌ بعيد وذكر ، ولم يكن مثل ذلك لمن جاءوا بعدهم وإن أحسنوا فى أشياء كثيرة ، إما لأن الإجابة لم تغلب عليهم فى نوع دون آخر ، وإما لإهمال الأدباء والمؤرخين أن يعينوا لهم مثل تلك الأوصاف . والله أعلم .

الشعر الحكيم^(٥)

إذا استصفينا المأثور من شعر العرب ومن بعدهم ، وميزنا كل نوع منه بغرضه الذي يجمع جملة كما فعلنا في هذه الأبواب التي نكتب فيها ، خرج لنا من ذلك هذا النوع الذي نسميه الشعر الحكيم ، وهو المقصود على الدين والفلسفة وما يرمى إلى هذه الناحية ، ونحن وإن لم نتمكن من زراه شعراً خالصاً ولكننا نراه مذهباً من مذاهب الشعر ، ولذلك خصصناه بالتأريخ .

كانت حكمة العرب راجعة إلى وثاقة الخلوم وشدة العقول وفضل المنزلة في تجارب الأيام ، فهي حكمة لا تجرى على مذهب ولا تدور على نخلة ولا يبلغ بها الزمن مبلغ أحد هذين النوعين بالقياس والاستنباط ، كما يكون ذلك في القضايا العلمية وعلى النحو الذي أخذت إليه شرائع الرومان وفلسفة اليونان مثلاً ، وإنما كان أساس تلك الحكمة رسوخ الأخلاق فيهم بحكم العادة ونظر كل امرئ لنفسه بحكم الطبيعة ، وذلك كان محور دينهم الطبيعي لا جرم أنهم صرفوا حكتهم في الشعر إلى ما يتعاق بالآخلاق والسياسة ولم يبالوا بتقرير مذهب من مذاهب أديانهم ولا أقاموا لظواهر هذه الأديان في شعرهم وزناً ، وقد صرفهم عن ذلك أنهم لم يدرسوا شيئاً من كتب الأديان ، وأنهم كانوا يحتقرون هذه الحراء من الفرس والنبط والروم وغيرهم ، وقد كانت النصرانية واليهودية في بعض قبائلهم ، فكانت اليهودية في بني كنانة وكنسدة وبني الحارث ، وكانت النصرانية في

(٥) قلت : كان نهج المؤلف - رحمه الله - أن يسبق هذا الفصل حديث عن الشعر السياسي ، ولكنني لم أجد فيما خلف فصلاً معقوداً لهذا الغرض ، وأحسبه لم يكتبه !

ربيعة وغسان وبعض قضاة وبني تغلب وأهل نجران ، غير من كانوا في الحيرة ممن يطلقون عليهم اسم العباد ، ومنهم عدى بن زيد العبادي (انظر الحيوان ص ٦٦ ج ٧) ففيه أسماء القبائل المحلين ومن كانوا على غير دين مشركي العرب .

وقال الجاحظ في نحو هذا : والمحلون من العرب ممن كان لا يرى للحرم ولا للشهر الحرام حرمة . . . الخ .

وخرج من أهل الملتين شعراء معروفون ومع ذلك تؤثر لهم أشعار دينية على نحو ما تجد في الشعر العبراني مثلاً ، إلا أن يكون لذلك سبب تستدعيه طبيعة الشاعر فيغلب على الأسباب الأخرى ، والطبيعة دائماً تقوى أسبابها وتضعف على هذا التقدير ؛ ولم نعتز بعد جهد التفتيش وطول التنقيب [إلا على] اثنين من الشعراء اشتهرا بهذا النوع الديني من الشعر . . . وهما عدى بن زيد العبادي ، وأميرة بن أبي الصلت ؛ أما عدى فكان يسكن الحيرة ويجاور الريف ، وشعره لإحكام أمثاله مَثَلٌ في الحكيم ، ومن مشهوره أبحاثه في الاعتبار بذهاب القرون وهلاك الملوك ، ومطلعه :

أيها الشاعر المعير بالدهر سر أنت المبرأ الموفور ؟

قال الجاحظ في عدى (ص ٦٥ ج ٤ : الحيوان) وكان نصرانياً دياناً وترجماناً وصاحب كتب ، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر . . . ثم أورد شعراً له يذكر فيه شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه إبليس وكيف دخل في الحية وأن الحية كانت في صورة جمل فسخها الله عقوبة لها حين طاعت عدوه على وليه ، ومطلع هذا الشعر :

قضى لسته أيام خليقته وكان آخرها أن صور الرجال

دعاه آدم صوتاً فاستجاب له بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
وهذا هو المذهب الذي قلنا إننا لم نعرف به في شعراء العرب غير اثنين ،
عدى هذا أحدهما .

وأما أمية بن أبي الصلت فقد كان أعرايا مدرياً ، قال الجاحظ : وكان
داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف من دهاة العرب ، وقد بلغ من افتداره
في نفسه أنه قد كان هم بادعاء النبوة وهو يعلم كيف الخصال التي يكون بها
الرجل نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له . نعم وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات
ودرس الكتب ، وقد بان عند العرب علامة ومعروفاً بالجولان في البلاد
وراوية (ص ١١٧ ج ٢ : الحيوان) .

قال ابن قتيبة : وكان أمية يخبر أن نبياً يخرج قد أظل زمانه ، وكان يؤمل
أن يكون ذلك النبي ، فلما بلغه خروج النبي صلى الله عليه وسلم كفر به حسداً
له ، ولما أنشد النبي صلى الله عليه وسلم شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه
(ص ١٠٧ : طبقات) ؛ وله من الشعر الديني شيء كثير ؛ يقص فيه أحوال
الثواب والعقاب وخرافات الأمم ونحو ذلك ، وبعضه مذكور في المجموعة
المسماة شعراء النصرانية .

ومن يذهب هذا المذهب من العرب غير هذين الاثنين وإن كان ليس
مذكوراً بالشعر ولا يتعلق بهما فيه - ورقة بن نوفل ، وكان يتناشد مع زيد
ابن عمرو بن نفيل أشعاراً في التوحيد وعبادة الله ، ومنهم قس بن ساعدة
الإيادي الحكيم الخطيب ، وكان مذهبه الوعظ والاعتبار ، ولم يكن يقص
كأمية وعدى ؛ لأنه صرف ذلك إلى الخطابة ، وهو بها أعرف وأشهر .

ذلك شأن الجاهلية ، أما الإسلام فقد مضى الصدر الأول منه والشعراء على سنة العرب ، وإنما تنفق لبعضهم الآيات مما يذكر فيه أمر الآخرة أو تحقيق معنى من معاني الحكمة الأخلاقية ونحو ذلك ، حتى نشأت الخلافات الأموية بين علي ومعاوية ، وكان شاعر الشام يومئذ كعب بن جعيل ، وشاعر العراق النجاشي أحد بني الحارث بن كعب (ص ١٩٤ ج ١ : الكامل) ، فاستنجد كل منهما بشاعر مصره ودفعاهما إلى التشيع ، وكان هذا فيما نعلم أول ما تشيع الشعراء في الإسلام ، ثم استبحرت هذه الفتن في الأعقاب واستحرت المفاخرات ، فكان من الملتشيعين لآل عليّ الفرزدق وكثير الكميت ، فكانوا ينظمون في تفضيلهم ومدحهم وأنهم أحقّ بالأمر الذي خرج من أيديهم ، وكان الكميت شيعيا من الغالية ، وكان صاحبه الطرمّاح خارجيا من الصّفرية يتعصب لأهل الشام ، ومع ذلك كانت بينهما من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين (ج ١ : البيان) ثم فشت المقالات وتفرقت الفرق وشاعت المذاهب ، فدخل أكثر الشعراء والرواة في غمار أهلها ، وسنذكر في بحث الرواية شيئا عن الرواة (*) ولكننا نقول هنا إنهم جعلوا يستخرجون من بعض شعر الجاهلية مذاهب كالتى ينتحلونها ، فكان أبو عمرو ابن العلاء يقول : كان ليبد مجبرا ؛ وكان الأعشى عدليا ، وأنشد ليبد :

من هداه سُبُلَ الخير اهتدى ناعمَ البال ومن شاء أضلّ

(*) قلت : هذه العبارة مما يرجح عندي أن تأليف هذا الفصل كان قبل سنة ١٩١١ - أي قبل الطبعة الأولى للجزء الأول - وكنت أتوهم أن المؤلف فرغ من تأليف هذه الفصول حوالى سنة ١٩١٣ بعد الفراغ من طبع الجزء الثاني في (إنجاز القرآن) ولكن في هذه العبارة تنبها إلى أنه قد يكون وضع هذه الفصول جملة ثم جعلها أجزاء من بعد ، ويكون تاريخ هذا الجزء هو تاريخ الجزء الأول ، ليس بينهما إلا السبق المطبعي .

وأشدد للأعشى (ص ٢٩٢ : سرح العيون) :

استأثر الله بالوفاء وبالعدو ل وولى الملامة الرجلا

أما الشعراء فكان غيلان ذو الرمة على ما يقال أول من تكلم في القدر
وخلق القرآن في الإسلام ؛ وقيل أول من تكلم في القدر رجل من أهل
العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر ، وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان
الدمشقي (ص ٢٠١ : سرح العيون) ؛ وكان رؤبة الراجز من أهل الجبر ؛
وقد تحاكم في ذلك مع غيلان إلى بلال بن أبي بردة صاحب القضاء ؛ وكان
السيد الحميري من المفرطين في التشيع ، وهو يقول برأى الإمامية ، وكان
أبو المحدثين بشار بن برد على جلالته في الشعر يسخف شعره بالاعتذار
عن إبليس في أن النار خير من الأرض ، ونحو ذلك من آراء الزنادقة
(ج ١ : البيان) . وكذلك كان سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد ، ثم
كان بشار ينكر على حماد مجرد وحماد الراوية وأبان بن عبد الحميد اللاحق
وسائر إخوانهم في الرأي ، وكانوا يتواصلون كأنهم نفس واحدة (ص ١٤٣ :
الحيوان) . وكان أبو نواس يجلس لبعض هؤلاء وينظم في سخيف ما يذهبون
إليه ، وذكر الجاحظ في البيان : أنه كان لابن عقب الليثي (انظر الأغاني
ص ١٦٩ ج ١ وتصحيح اسم ابن أبي العقب وأنه مجهول لا يُعرف ... الخ)
مذهب شعري في الملاحم والمغيبات ، وأن أبا نواس والرقاشي كانا يقولان
أشعاراً على مذاهب أشعار ابن عقب هذا وينحلانها أبايس الحاسب الذي
ذهب عقله بسبب تفكيره في مسألة ، فلما جن كان يهذي أنه سيصير ملكا ؛
وقد ألهم ما يحدث في الدنيا من الملاحم ؛ وقد روى في البيان (ص ٧ ج ٢)
قطعة من تلك الأشعار .

وكان أبو العتاهية يتشيع على مذهب الزيدية ؛ وكان مجبراً ، وكان كثيراً ما يعارض ثمامة بن أشرس بين يدي المأمون . ومن شعراء النحل زرارة ابن أيمن مولى بني أسعد بن همام ، وهو رأس النيمية (ص ٣٩ ج ٧ : الحيوان) وأبو السري معدان الأعمى الشميطي ؛ وله قصيدة صنف فيها الرفضة ثم الغالية وشرح مذاهم وذكر رؤسائهم (ص ٩٨ ج ٢ : الحيوان) . ومنهم أبو سهيل بشر بن المعتز ، وكان خاصاً بالفضل بن يحيى من البرامكة ؛ فإن له قصيدتين ذكر فيهما آيات الله في صنعه وخلقه ؛ ودل على مواضع الحكمة ومغزى الاعتبار ، وصنف في الأولى منهما الرفضة والإباضية والناطقة ، وقد رواهما الجاحظ في الحيوان (ج ٦) وشرح منهما ما يختص بالحكمة دون النحلة ؛ وكان بشر : أروى المعتزلة للشعر ، ولكن كل أولئك ومن حذا حذوهم لم يتخذوا الفلسفة والنحلة إلا مذمباً ، وإنما كان شعرهم لسان اعتقادهم فيها ولهذا كان خيراً لهم لو كانوا على غير ذلك ، بخلاف الفلاسفة من شعراء الأندلس - وسنذكرهم في موضع الكلام عليهم - وبخلاف من استعان بالحكمة اليونانية والفارسية في الشعر ، كأبي العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاحق شاعر البرامكة ، وكالمثنبي والمعري وأبي علي بن الشبل الحكيم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٣ هـ ، وغيرهم . فإنهم إنما وصلوا بالحكمة بين العقل والقلب ، وجعلوا لها من الشعر منفذا بينهما إلى الروح ، ولذلك قال بعضهم : لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر .

وكان صالح بن عبد القدوس من الشعراء الفلاسفة ، وجميع شعره في الحكمة والأمثال ؛ ولذلك عابه الجاحظ عليه وقال إنه لو تفرق في أشعار

كثيرة لزانها ؛ وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها ، وأن حال اليقظان كحال النائم ؛ وله كتاب سماه كتاب الشكوك ، قال فيه : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان !

الشعر الإلهي

وهو النوع الذي يكون إلهياً محضاً تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق كأشعار الصوفية ومن أخذ لإخذهم ، والعلماء يسمون طريقة ذلك النظم « طريقة التحقيق » ويقول المتصوفة فيه :

جسوم أحرّفه للسرّ عاملةً إن شئت تعرفه جرّب معانيه

وقد كان بعض العلماء ينكر هذه الشطحات وهو يعتقد بها ، صيانة لظاهر الشرع ، إلا أن الأدب لا ظاهر له دون حقيقته ، فيمكن أن نقول إن هذا الشعر نوع من العلم موزون ، وقد سميناه علماً لأنه لا بد أن يكون مؤولاً لا يقصد ظاهره وإنما تكون له محامل يحمل عليها ، كقول الشيخ محيي بن العربي (كان المغاربة يقولون ابن العربي واصطلاح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام ، فرقاً بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي — ص ٤٠٤ ج ١ : نفح الطيب) :

يامن يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

فلو أدرت القول في هذا سنة ما عرفت وجه تأويله ، ولكن بعض إخوان الشيخ سأله : كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟ فقال مرتجلاً :

يا من يراني مجرماً ولا أراه آخذاً

كم ذا أراه مُنعبها ولا يراني لائذا ١

(ص ٤٠١ ج ١ : نفع الطيب)

وكان أصل هذا النوع من الشعر في الأندلس في أواخر القرن الثاني أيام الحكم بن هشام الملقب بالربضي ، فإنه كان طاغياً مسرفاً له آثار سوء قبيحة ، وقد كان من قبله أهل تقوى ودين ، وكان أهل الأندلس يومئذ كأنهم من بلادهم في مسجد ؛ فأوقع الحكم هذا بالفقهاء لأنهم كانوا أشد الناس عليه ؛ ولذلك أحدثوا في أيامه إنشاد أشعار الزهد بدنياً حتى شاعت وألفها الناس ، ثم خلطوا على ذلك شيئاً من التعريض بالحكم على جهة الرمز والإشارة ، ثقة بفهم الناس عنهم ؛ (ص ١٣ : المعجب) فلما طويت أيامه ولم تبق حاجة إلى التعريض بشخص معين ، أطلقوا تلك الرموز وقصروها على الحقائق ، حتى ظهرت الفلسفة الإلهية واستعمل أهلها في كتبهم الرموز والاصطلاحات ، فاتسع الصوفية بذلك في شعرهم ، خصوصاً بعد أن تلقوا كتب الشيخ أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ ، قال الفيلسوف أبو جعفر ابن طفيل في صفة تعاليمه : وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع به إلا من وقف عليها بصيرة نفسه أولاً ، ثم سمعها منه ثانياً ، أو من كان مُعداً لفهمها فائق الفطرة يكتفي بأيسر إشارة ، وقد ذُكر في كتاب الجواهر أن له كتباً مضموناً بها على غير أهلها ، وأنه ضمنها طريق الحق (ص ٦ : حى بن يقظان) يريد كتبه المشتملة على علم المكاشفة ، ولم نعرف قبل هذا الزمن شاعراً من شعراء الإلهيات الذين ينظمون على « طريقة التحقيق » وإن كان للمعري المتوفى سنة ٤٤٩ شيء من ذلك ، ولكنه مكشوف ليس فيه من أسرار المكاشفة شيء ، وإنما كان المعري حكماً متفلسفاً ولم يكن إلهياً محققاً وإن

كان على قدم التجرد في طريقة الفقراء . وكان قبل المعري الحسين بن منصور الحلاج الذي أحرق سنة ٣٣٢ ، وينسبون له أبياتا قليلة على طريق الاصطلاح والإشارة وإن كان ليس من الشعراء ، كقوله :

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا

لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن

والبيت المشهور :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء ا

ولسنا نصصح مثل هذه النسبة ، فإن هذا رجل اشتهرت حاله فسهل الحمل عليه ، وكان أشعر شعراء القرن السادس في هذه الطريقة وما ناسبها محمد بن عبد المنعم الغساني الجلياني (جليانة: قرية من أعمال غرناطة) المتوفى بدمشق سنة ٦٠٢ ، وكان يقال له حكيم الزمان . وأكثر شعره في الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات والكلام على طريق القوم (ص ١٦ ج ٢ : نفح الطيب) وفي القرن السابع نشأ أكبر شعراء الصوفية الذين تركوا لغيرهم هذا الميراث ، وهم الشيخ ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ ، والشيخ ابن العربي المتوفى سنة ٦٤٠ ، وأبو الحسن التستري المتوفى سنة ٦٦٨ (ص ٤١٠ ج ١ : نفح الطيب) . وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩ ، ولم ينشأ بعد هؤلاء من يساويهم أو يذكر معهم في طريقة التحقيق ؛ على أن أشهر المتأخرين بعدهم الشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ .

ولم يكن نظمهم مقصوراً على الشعر وحده ، بل كانوا ينظمون في الموشح والزجل أيضا . ولكن ذلك منهم قليل ، لأنهم إنما يريدون بالشعر المدرسة والحفظ ، وأن يكون من أشعار المذاكرة عندهم وأبيات الطرائف.

الشعر الأخلاقي والمبادئ الاجتماعية

قد عرفت ما زريده من الفرق بين الشعر الحكيم والأخلاقي ، فهذا الأخير هو ديوان التجارب ، وإن في كتاب القلب صفحتين : واحدة يحفظها التاريخ وينساها الاجتماع ، وهي التي تخط عليها تفاصيل الحوادث ، والأخرى يحفظها الاجتماع وينساها التاريخ ، وهي صفحة الحكمة الأخلاقية التي تستخلص من جملة التاريخ ، فهذه هي التي تستمل منها النفس معاني الشعر الأخلاقي دائماً ، ولذلك تجد هذا النوع من الشعر كثيراً عند العرب يصورون فيه أخلاقهم تصويراً طبيعياً لم تخلق فيه صنعة الكلام شيئاً ، ويذكرون حكمتهم المستفادة من التجارب ، ويدونون نصائحهم التي هي صفة تلك الحكمة ، وذلك هو الذي سماه أبو تمام في حماسه « باب الأدب » .

نرى العرب لصفاء فطرتهم وحدة أذهانهم وقوة طباعهم كأنما ينظمون في شعرهم الأخلاقي قضايا الفلسفة التي ذهب في تحقيقها شطر كبير من عمر الاجتماع الإنساني ، حتى لا تكاد تجد مبدأ من المبادئ الاجتماعية التي قررتها الفلسفة الحديثة إلا ومثله ذكر في شعر هؤلاء الأعراب ، وتأويل ذلك أن هذا الاجتماع الحديث مصنوع لا طبيعي ، والفلسفة إنما هي حقائق الطبيعة ، فهي تدعو لها أبداً ، ولكون الناس مجتمعين على صورة مجهولون حقيقة ألوانها وأصباغها اختلفوا في الدلالة على ذلك اختلافاً بيننا نشأت منه هذه المذاهب الكثيرة التي ترمي بجملتها إلى غرض واحد ، وهو تلوين الصورة الاجتماعية بألوانها التي تصلح لها في الحقيقة حتى تظهر من دقة التناسب وإحكام الملامة وسلامة الوضع في صيغ كأنه إلهي ؛ فالعرب لميا

كانوا من صميم البداوة وفي إقليم كأنه بموافقته لنمو العقل أقرب إلى السماء من سواه ، كانوا يذكرون الصفات الأخلاقية للفردي والمجتمع فلا يعدون حقيقة الصفة ؛ ولو أخذت تلك الصفات اليوم لخرجت عن موضوعها إلى أن تكون في اعتبارنا مبادئ ، لأنها قيلت في حالة طبيعية فكانت صفة تحقق ، ولما استدار الزمان صارت حقاً يوصف ؛ خذ مثلاً قول زهير :

على مُكثِرِهِمْ حَقٌّ مِنْ يَعْتَرِيهِمْ وعند المُقْلِينِ السَّاحَةُ والبَذْلُ

فهما أدرت مذهب الاشتراكية ، ومهما قلبت آراء علمائه ، لا تجد صوابه يخرج عن هذا البيت ؛ فلو راعى المكثرون حق من يعتريهم بمن يعملون عندهم ومن هم مادة قوتهم — والحق كلمة جامعة لكل ما يوافق حقيقة المرء — وكذلك لو صار المقلون من أهل الساحة والبذل يتجاوزون عما لا يضر بالحق ولا يريدون من هذا الحق إلا أن يبذلوه في إصلاح أحوالهم حتى لا يأخذهم طمعُ الادخارِ بوم المزاخرة للمكثرين — لو راعوا ذلك حق مراعاته لبقى أهل المال مهتئين بأموالهم ؛ والمقلون مغتبطين بإقلاهم ؛ والاشتراكية إنما هي الموصل الذي يشرك هذين الطرفين في الامتزاج بالرضى . ولعل أديبا أن يستقرئ هذه المعاني في الشعر العربي وبشرحها بالمبادئ الحديثة ، فإنه لا يعدم من ذلك كتاباً حكيماً .

وكان الشعراء من العرب أثبتت الناس على أخلاقهم التي يصفونها ، ولذلك دلت عليهم دلالة المطابقة ، بخلاف الإسلاميين فإنهم مارسوا صفة الأخلاق ومرتوا عليها ، حتى تجد للشاعر منهم في الباب الواحد أقوالاً متناقضة ، وهم مع ذلك لا يدرسون تلك الأخلاق ، بل يتلقون من تجارب غيرهم ، ومن الحكمة التي وضحّت لهم ، ثم يرسلون الشعر في ذلك على أنه صنعة دقيقة يستدل

بها على لطف الحس وذكاه الفؤاد ، ثم لا يعجب من ذلك إلا من يصيب
بفطنته موضع الدقة ويقع على مكن الخاطر ، ولذلك لم يكن للشعر الأخلاقي
تأثير في الاجتماع الإسلامي ، ولم تستمد منه مبادئ ذلك الاجتماع شيئاً ،
لأنهم لم [يبدوروا] به السياسة ، ولا أرادوا به مكان الاعتقاد ، ولا أجروه
بمجرى النظر في طبقة من الطبقات ؛ وإذا أخرج الكلام على أنه صنعة ، نظر
فيه الناس على أنهم متفرجون (يقال تفرج بكذا إذا جعل منه لنفسه هواً) .

أما من خالف ذلك من الشعراء بعض المخالفة ؛ وحاول أن يجعل كلامه
في الأخلاق للناس لا لنفسه ، وأن يقرر فيه مبادئ قد درسها ؛ ويعطيه من
مادة التأثير الاجتماعي ، كما جرى في بعض ديوانه « اللزوميات » فإنه يُطرح
ويُحَقَّق ، لأنه لا يؤتى من قِبَل الناس وفسولة آرائهم ، بل من قِبَل نفسه أيضاً ؛
لأن أحداً من الشعراء في التاريخ الإسلامي كله لم يترك أن يتخذ الشعر [صفة]
تأدياً أو تكسباً ، ولم يقف أحد منهم شعره أو جزءاً منه على مذهب واحد
في السياسة أو الاجتماع يتفنن في شرحه والاحتجاج له والاحتتيال في تصوير
معانيه وإيراد أجزائها على نحو ما يقتضى [لعصره] ، بل تراهم يخرجون أشعارهم
مخرج الخواطر والسانحات ، وهمهم أن يجمعوا فيها أبواباً من الحكمة وفنوناً
من الأخلاق ، ثم يتركوا للناس شأن الاختيار ، وإطلاق الاختيار وحده
كاف في إضعاف كل مذهب ، لأن من توخى الإقناع توخى به الحمل عليه .

وذلك هو شعر المواعظ والنصائح والحكم ، وهو كثير ، وقد اشتهر به
أفراد ، كصالح بن عبد القدوس ، وأبي الشيص ، وغيرهما ؛ وتهافت به
بعض العلماء حتى وضعوا فيه الكتب المستقلة ، كسعد بن ليون التجيبي في
القرن الثامن ؛ وهو من أشياخ لسان الدين بن الخطيب ، فقد نظم في ذلك

ثلاثة كتب وأورد في بعضها أشياء لغيره ، وقد ساق منها المقرئ - في نفع الطيب - قطعة كبيرة (ص ٣٠٢ ج ٣) .

وعندنا أن شعراء الجاهلية لو قدر لهم أن يستخروا الشعر في السياسة والاجتماع ، الراقى «الديموقراطي» ، لقدم الإسلاميون في ذلك وبلغوا بهذا النوع مبلغ السكال ، ولكن من أين للعرب سياسة الملك ونظام الاجتماع ؟ على أنهم مع ذلك لم يهملوا نوعا من الشعر السياسي ، وإن كان قليلا بينهم لقلة البواعث عليه ، كقصيدة لقيط بن يعمر الإيادي التي ينذر بها قومه غزو كسرى إياهم ، وكان كاتبها في ديوانه ، ويعلمهم وجه الحزم في تدبير أسرهم وسياسة مجتمعهم واختيار من يُلقون إليه المقادة في ذلك ، وهي شهيرة متداولة ، وكأيات سلبه بن خرشب التي أرسل بها إلى سبيع التغلبي في شأن الرهن التي وضعت على يديه في قتال عبس وذيان ، يذكر فيها لسبيع سياسة القضاء وتدبير الحكم ، وقد رواها الجاحظ في البيان (ج ١) ولا بد أن يكون لهم من مثل ذلك أشياء لم تقع إلينا ، والله أعلم .

الشعر الهزلى

وهذا النوع آخر ما تبلغ إليه رقة الحضارة من فنون الأدب ، لأنه إنما يتخصص به أناس لا يباليون أن يغمروهم سواد الحقى وأهل المجون ، وهم يعلمون أنهم شعراء العامة ، وأنهم لا يلجئون إلى الخاصة إلا من باب الطبع المنسجم ومن جهة الذهن المتفككة ، وإنما قوام أمرهم الحيلة الطريفة والنادرة المعجبة والكلمة المتهاككة ، وهذا كله وإن كان محتاجا إلى ظرف اللسان ، وإلى شدة المعارضة ، وإلى نبوغ متميز فى القريحة — إلا أنه لا يقوم عليه شيء من أمر اللغة ، فإذا كان فيها لم يزد لها ، وإذا سقط منها لم ينقصها ، ولذلك ترى هذا النوع أكثر ما يكون فى الأمم التى هزمت لغتها ، كاللاتين واليونان . ومن أشهر نوابغ اليرنان فيه : الشاعر تراس ، والشاعر ميادر الذى يقال إنه ألف ثمانمائة رواية كلها قصائد ، ضحكة ، وكان قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وقد عثروا من زمن قريب فى إحدى القرى المغمورة فى ضفة النيل على أربع قطع له كانت ضحكا مدفونا فى الأرض من ٢٢٠٠ سنة ...

لا جرم أنه لم يكن للعرب شعر هزلى فى جاهليتهم ، ولكنهم مع ذلك لم يدعوا التنادر ؛ إذ هو شيء فى أصل الفطرة وفى مذاهب المعانى ، فجاءوا لذلك فى شعرهم بنوع من التهمك يستخف الوقور ويرمى إلى الغاية من سياسة الهزل ، فىبقى حسرة ولا يذهب ضحكا ، كقول بعضهم :

إذا ما تميمى أتاك مُفاخرا

فقل : عدّ عن ذا ، كيف أكلك للضبّ

وقول المُكعَّبِ الضَّبِّي في بني العنبر ، وكان قومه أُغير عليهم فاستغاثوا
بهم فلم يغيثوهم (ص ٤٩ ج ١ : الكامل) :

وإني لأرجوكم على بطة سعيكم كما في بطون الحملات رجاء !

يتهم بهم ويقول : هذا رجاء غير صادق ولا موقوف عليه ، كما أن
هذه الحوامل لا يُعلم ما في بطونها وليس بميتوس منهم .

وأكثر ما يكون ذلك عندهم في معاني الهجاء ، ولهذا سماه المتأخرون
التهم ، والهزل الذي يراد به الجد ، وقالوا في الفرق بينهما إن التهم ظاهره
جِدٌّ وباطنه هزل ، وهو ضد الثاني ؛ لأن ظاهره يكون هزلاً وباطنه جد ،
وقد ورد منه في القرآن قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾
وقوله : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

وقد مر عصر الجاهلية والإسلاميين لا يعدو بهما الشعراء ذلك هزلاً ،
حتى إذا استبحر الترف وفسدت مِرَّةُ الاجتماع ، وتهاكت طبيعته ، جعل
الشعراء يتنظفون ويتنادرون ويفتنون في أساليب الهزل ؛ لأن ذلك كان
سبباً من أسباب معاشهم ؛ إذ رأوا الخلفاء والأمراء قد اتخذوا لأنفسهم
مقربين ممن يضحكونهم بالنوادير والمجون ، شعراء وغير شعراء ، كأشعب
الطَّمَاع ، وأبي دلامة الشاعر ، وأبي الحسين بن الضحاك المعروف بالخلع
المتوفى سنة ٢٥٠ ، وأبي العبر ، وأبي العيناء ، ومزيد وغيرهم ؛ ومن هؤلاء
نوع يحكون ألفاظ الناس من الأقطار المختلفة مع مخارج حروفهم ، لا يغادرون
من ذلك شيئاً ، ويحكون السنة الدواب والبهائم ؛ وذكر الجاحظ من
مشاهيرهم أبا ربوبة الزنجي مولى آل زياد ، وقال إنه يقف بباب الكرخ
لحاضرة المكارين فينطق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب

بهير إلا نهق... (ج ١ : البيان) .

وليس ذلك عجيباً في مثل طبقة أبي ربوبة ، ولكن العجيب أن يكون مثله في الشعراء الظرفاء ؛ فقد ذكر الثعالبي في ترجمة أبي محمد بن زريق الكوفي الكاتب الشاعر أنه كان من عجائب الدنيا في المطايب والمحاكاة ، وكان يخدم مجلس الوزير المهلبى ، ويحكى شمائل الناس وأسنتهم فيؤديها كما هي ، فيعجب الناظر والسامع ويضحك الشكلاان (ص ١٤٢ ج ٢ : يتيمة الدهر) ؛ وهذا نوع من التمثيل انفرد به اليوم في أوربا قوم ربما صور الواحد منهم في نفسه العالم مناطق ولهجات وأزياء .

وقد يكون من البواعث على الشعر الهزلى والتزام هذا المذهب أن يجد الشاعر نفسه لا يقع مع فحول المعاصرين له في شيء ، فبسلك هذا المسلك يتميز به بينهم ، كما فعل رأس الشعراء الهزليين ابن الحجاج البغدادي المتوفى سنة ٣٩١ ، وهو الذى جعلوه بعد ذلك مقياساً في الشعر الهزلى ؛ ويقال إنه في الشعر كامرئى القيس ولم يكن بينهما مثلهما ؛ لأن كل واحد منهما مخترع طريقة ، وكان مع ذلك من كبار شعراء الشيعة ؛ وعاصره أبو حامد الأنطاكى المنبوز بأبى الرقعمق المتوفى سنة ٣٩٩ قال الثعالبي هو بالشام كان حجاج بالعراق ، وكما فعل أبو عبد الله محمد الوهرائى الكاتب ، وقد دخل البلاد المصرية في زمن صلاح الدين فرأى بها القاضى الفاضل ، وعماد الدين الأصهبانى ؛ وتلك الحلبة ، وعلم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، فتنفق عندهم برسائله الهزلية ومقاماته المشهورة ، وسندكرها في موضعها ؛ وتوفى الوهرائى سنة ٥٧٥ .

ويكون من ذلك أيضاً التزام الشاعر مذهباً واحداً في الهجاء يريد أن يُعرف به ويجعله عرضة ملححه ونوادره ، كما فعل ابن سكرة الهاشمى معاصر

ابن الحجاج ، وكان يقال فيهما : إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج
لسخى^١ جدا ، وهو من شعراء المجون والسخف كابن الحجاج ، إلا أنه انفرد
عنه بهجائه الهزلي في قينة له سوداء يقال لها خمرة ، وقد نظم في هجائها
عشرة آلاف بيت (ص ١٨٩ ج ٢ بقيمة الدهر) وكما فعل إسماعيل بن إبراهيم
البصرى الحمدوني الشاعر في الطيلسان الذي أعطاه إياه أحمد بن حرب ،
وكان خليعا ، فسير فيه الحمدوني مائتي مقطوع ، في كل مقطوع معنى بديع ،
حتى ذهب طيلسان ابن حرب مثلا إلى اليوم ، وكان الأصل الذي عمل ،
عليه الحمدوني أنه وقف على أبيات عملها أبو حمران السلمي في طيلسانه ،
وكان قد أخلق حتى بلى ، فتهافت بمعارضتها وجعل ذلك له طريقة يعرف بها
(ص ٤٧٣ ج ٢ : ابن خلكان).

ومن ذلك أيضا أن يهزل الشاعر في تصوير حالة من الفقر أو الضعف
أو نحو ذلك من الصفات التي يتباين فيها الناس ، فكأنه يرمى إلى انتقاد
الخطوظ والأقسام ، كما فعل أبو الشمقمق في ذكر فقره وفقر بيته من
القرآن ومصيبة سنوره من ذلك ، وساق الجاحظ بعض أشعاره تلك في
الحيوان (ص ٨٢ ج ٥).

وكان عند الأعراب كثير من هذا النوع ، وكذلك ترى منه قصائد
وقطعا في شعر المولدين والمتأخرين ، وبعضهم خص أكثر شعره بالفحش
والتعهر حتى ضربوه مثلا فنحن نضرب عنه صفحا .

وجاء بعد هؤلاء علي بن عبد الواحد صريع الدلاء وقتيل الغواني
المتوفى سنة ٤١٢ ، فسلك مسلك أبي الرقعق ، ونبز بلقب ذي الرقاعتين ،
وله مقصورة في الهزل يعارض بها مقصورة ابن دريد المشهورة ، وابن الهبارية

الملقب بنظام الدين البغدادي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ ، قال العماد الكاتب في الخريدة : إنه غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبك في قالب ابن حجاج وسلك أسلوبه وفاقه في الخلاعة ، قال : والنظيف من شعره ... في غاية الحسن ، ثم كان بعده الشاعر المتصرف في أكثر فنون الهزل أبو الحكم الباهلي الأديلي المتوفى بدمشق سنة ٥٤٩ هـ ، قال المقرئ : وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة ، وله ديوان شعر سماه نهج الوضاعة لأولى الخلاعة ، ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصوري ، ونصر الهيثي وغيرهما ... ورث في أنواعا من الدواب ومن الأثاث وخلفاً من المغنين والأطراف ، قال : وشرح هذا الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبي الحكم الملقب بأفضل الدولة (ص ١٧ ج ٢ : نفع الطيب) فانظر ما عسى أن يكون هذا الشرح ؟ ولأبي الحكم هذا مقصورة هزلية عارض بها مقصورة ابن دريد أيضا ، ومثل هذه المعارضة كثيرة للقصائد المعروفة يتعلق عليها أهل الظرف والملح ، وقد رأيت شاعراً من شعراء الحلبة التي سبقت وقتنا هذا وغاب عنى اسمه ، تناول ألفتة ابن مالك فقلبها كلها تطفلا ونقل ما فيها من أحكام اللسان على الأضراس والأسنان ، وكان يفتخر دائماً بهذا الطبخ ... ١

وأورد المقرئ أيضا قصيدة من هزل الأندلسيين ومجونهم قال إنها منسوبة لأبي عبد الله بن الأزرق وقد ذكر فيها صوت الصفع وصوت الضحك كما هو ، على نحو ما صورت العرب أصوات الأشياء كقولهم : « جرت الخيل فقالت حَبَطَطَطَقْ » ونحو ذلك ، والقصيدة مثسعبة الفنون (ص ١٩٣ ج ٢ : نفع الطيب) .

تم نبغ محمد بن دانيال الموصلى الحكيم المتوفى بمصر سنة ٦٠٨ قال فيه
الصفدى : هو ابن حجاج عصره ، وابن سكرة مصره ، وله غرائب يتناقلها
المصريون عنه من النكت والنوادر ؛ وتقى الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٨٤
وهو صاحب القصيدة البديية الشهيرة التي جمعت فنونا من الهزل ، وقد
ذكرها العاملى فى الكشكول .

وبالجملة فقلنا تجد شاعراً قد فضجت قريحته ونفذ خاطره فى أسرار
الأشياء إلا وله فى مطارح نظره شىء من الضحك يخرج تهكماً واستهزاءً ؛
فكأنما تكشف له الطبيعة عن حقيقة تركيبها على ما خلقها الله ، فكلمها
قارن بها هذا الوضع الاجتماعى المصنوع رأى تركيباً مضحكاً ؛ ولولا ذلك
لمحقت مادة الانتقاد ، والانتقاد قوة إلهية فى قريحة الشعراء ؛ فإذا أردنا
بهزل القرائح هذا المعنى الجدى فالشاعر الذى لا تكون فيه هذه القوة يشبه
أن يكون على نقص تركيبه فى نظر الحكيم المتأمل ، كأننا من الكائنات
المضحكة أيضاً .

أما إذا أردنا المعنى العام وهو التطرف فى الانتقاد بمقدار ما يتطرف
المتبسم إلى القهقهة أو المجون والسخف أو العمل فى صناعة الضحك وتركيبه
فى النوادر والملح حتى تكون قابلة للانفجار ضحكا . . . فذلك الذى جئنا
بمساقه ، وهو عند العرب كما علمت كثير فى جهتي المجون والانتقاد ، قليل
فى جهة المطاوعة والإضحاك ، لاستغنائهم عنه بالنوادر ، ومخالفته فطرة
الشعر فيهم .

الشعر القصصي

المراد بهذا النوع ما يسميه الإفريج *ebic* ، وهو عندهم ما تروى فيه الوقائع والحوادث على طريقة الشعر ، مما لا يخلو من الغلو والإطراء ، حتى يتميز عن التاريخ البحت ، والنظم فيه قديم في الأمم التي اغتدى خيالها بالدين والعادات كالمهابهارا عند الهنود ، والأوديسا عند اليونان ، والألياذة عند الرومان ، وكذلك نظمت فيه شعراء الأمم المتأخرة كالفرنسيين والألمان والاطليان والإنكليز . وعندهم في ذلك الملاحم المأثورة (ذكرت هذه اللفظة في باب الشعر الحكيم ، وقد استعملها الجاحظ في الحوادث والوقائع التي يتضمنها الشعر ، ثم نقلها أدباء المغاربة لما يقارب في المنظوم العامي معنى الشعر القصصي) .

وللفرس والترک في تاريخهم الإسلامي منظومات من هذا النوع ، أشهرها شاهنامه الفردوسی ، وشاهنامه الشاعر التركي الملقب بالفردوسی الطويل ، قال في كشف الظنون : إنه نظمها في مليون وستمائة ألف بيت ، وكتبها في ٣٣ مجلدا ، فلما عرضت على السلطان بايزيد العثماني أمر بانتخاب ثمانين مجلداً وإحراق الباقي ، فترك المؤلف بلاد الروم وذهب إلى خراسان فمات فيها كدا .

وفي كل ذلك شرح طويل لا موضع لبسطه هنا ، ونحن إنما نتكلم عن العرب خاصة ، ولقد حار المتأخرون الذين كتبوا في تاريخهم وآدابهم عند ما ألموا بذكر هذا النوع والتسوه في أشعارهم ثم قطع بهم دونه — كيف يعملون ذلك وكيف يتأولونه ؛ فمنهم من زعم أن العرب نظموا فيه كثيرا

وضاع ما نظموه ، فلم يبق لعهد التدوين والرواية إلا القليل مما ذكرت فيه أخبار الحروب ؛ ومنهم من رجع إلى أبعد من ذلك وتعلق بذنب التاريخ فزعم أن سفر أيوب في التوراة ليس إلا منظومة عربية نقلت إلى العبرانية ولحق أصلها بدفائن العدم ، والكلام في هذا المعنى لا يُحْمَل على التاريخ ، فإن حُمل عليه خطأ به إلى الخطأ ؛ لأننا لا نتصور أن العرب خَلِقُوا من فطرتهم شعراء ينحتون الأوزان ويؤلفون الكلام على هذا النحو الذى وصل إلينا ، بل ذلك شيء أوجده الحاجة إليه في عصر يعينه تأريخ الاجتماع كما أشرنا إليه من قبل ، ولو ذهب عنا تاريخ الأندلس مثلاً ثم رأينا بعض الموشحات أكننا نزعم أن ذلك النمط قديم في عرب الجاهلية ونُفِئِل دلالة اللغة التى نظمت بها الموشحات وحالة الاجتماع التى تشير إليها ؟

ثم إن الرواة الموثوق بهم والعلماء [المفتشين] كالجاحظ وغيره يقطعون على الجزم بأنه لم يضع من شعر الجاهلية منذ جودوه على كثرة القبائل ، ولا من أرجازهم ، شيء كثير ؛ والجاحظ يكرر هذا المعنى فى مواضع من كتاب الحيوان ، والتكرار أبلغ فى التوكيد ، فلو كان فى طبيعة اللغة وحالة الاجتماع ما يدعو إلى نظم الوقائع الكبرى لما أغفلوه ولا ذهب عن الرواة خبره ؛ وفى أيدينا أثر مما يشبه ذلك وهو قاطع فى الدلالة التاريخية التى تؤخذ منه على أنه قائم بنفسه وأنه نوع صحيح الكفاية لاتدعو الحاجة لأكثر منه ، والحاجة دائماً أم الاختراع ، وهذا هو الذى خصصناه بالكلام .

إذا كان الغرض من الشعر القصصى ما يتجمع من التاريخ ويحفظ من الأخبار ، فذلك موجود فى أشعارهم ، ولكنهم لم يطيلوها إطالة الإلياذة

وغيرها ، لأن ذلك يقتضى له عمل من النظم وضرب من التأليف المقصود لا يتم حسنه إلا بالنسيق وسياسة الألفاظ واستكراه المعانى واقتسارها ، ثم إحكام اللحمة بين فصل وفصل وبين قطعة وقطعة ، ثم تحريك الألفاظ وتصفية الأسلوب واستيفاء صنعة التأليف ، ولا يكون ذلك جميعه إلا بالصبر والمطاوله ورصد الأوقات التى تكون أجْمً للنشاط وأصْفى للخواطر ؛ ولو أن فى العرب من انقطع لهذا العمل لهجنوا صنيعه ورموه بالعمى ولتركوه مثلاً وآية ؛ لأن الشعر فيهم عند أسبابه التى ذكرناها فيما تقدم ، وتاريخ البديهة والروية معروفٌ أجمع عليه الرواة ، ولم يسقط بعد طبقة المصنّعين — كزهير والنابغة — شئ من الشعر ، وهذا النوع لا يتفق على الارتجال أبداً ولا بد فيه من الصنعة ؛ فلو كان مما تدعو إليه الحاجة لقاله مثل زهير والنابغة ، ولكنهم لم يقولوه بإجماع الرواة ، فدل ذلك على أنه ليس من حاجة اجتماعهم .

ووجه آخر ، وهو أن العرب لا يطيلون أشعارهم إلا فى المواقف وفى أيام الحفل ، كما فعل الحارث بن حلزة فى طويلته ، وهى أقرب دليل على الشعر القصصى ومنزلته وأسبابه عندهم ، وسيأتى الكلام عن سببها فى موضعه ؛ ثم إن طبيعة لغتهم تأبى الإطالة إلى أكثر مما تبعث عليه حاجة المفاخرة والمقارعة ؛ [لأن] البلاغة فيها مبنية على الحذف أو الإشارة والإيجاز والاكتفاء من المعنى باللحمة الدالة ومن القصة بالمثل المعروف ، ثقة بفهم بعضهم عن بعض ؛ ثم هم إنما يتفاخرون [على هذه السنة] وبهذه البلاغة ، فلو أنهم ابتلوا بمفاخرة اليونان أو الرومان مثلاً لاحتالوا فى نوع آخر من الشعر يبسطون فيه اللغة ويمدون معانى الخطاب ، لأن مفاخرة القبيلة

للقبيلة إنما تكون بمعاني من تاريخ الاثنتين ، ولكن مفاخرة أمة لأمة لا تكون إلا بتاريخ كليهما دون بعض معانيه ، كما فعل الشعوية والعرب ، ومن تدبر طارق الخطاب التي جاء بها القرآن وهو أبلغ ما يمكن أن تصل إليه العربية ، وجده يوجز في مخاطبة العرب ويكتفي بأيسر إشارة وأدنى لمحة ، فإذا خاطب اليهود بسط الكلام وفرغ منه وكرر بعض المعاني بزيادة في بعضها عن بعض ؛ فكذلك كان يفعل العرب .

وإذا كان الغرض من الشعر القصصي ما يحمله من الخرافات أو القصص الموضوعية ، فهذا أيضاً قد نظم فيه العرب ، ولكنهم لم يفرده بالقصائد ولم يطيلوه إطالة بالغة ، لذهاب معنى التقديس من عقائدهم وعاداتهم ، فليس لهم آلهة ولا أنصاف آلهة ولا أساطير من هذا القبيل على نحو ما كان عند الهنود واليونان والرومان ، وإنما كانوا يتناقلون من ذلك أشياء تناسب طبيعتهم ومذهبهم الاجتماعي ؛ كالقصص الموضوعية على السنة الحيوانات والجمادات وبعض الخرافات المادية ، فهذه كلها نظموها في شعرهم على طريقة المثل كما فعل اليونان ؛ لا على طريقة التاريخ كما سديناه .

يخرج من ذلك أن الشعر القصصي - بالمعنى المصطلح عليه - لم يكن في طبيعة العرب ولا هو من مقتضيات اجتماعهم ، فهم لم ينظموه في جاهليتهم قطعا ، ولم ينظمه من بعدهم لوقوفهم عند حد التقليد كما أشرنا إليه مراراً فيما سبق ، أما ما كان من ذلك عند الجاهليين والإسلاميين فنحن ذاكره فيما يلي :

قد تتبعنا أشعارهم وتقصصناها في دواوينهم ودرسنا أكثر ما استخرجه العلماء ، ومنها شواهد وأمثلة على الأخبار والعلوم ، ثم اعتبرنا ذلك وتدبرناه

فلم نرهم يقصّون في شعرهم إلا في مواضع معدودة .

أولاً - إذا كانت القصة ترمى إلى خلق من الأخلاق ، كالوفاء والغدر والحفيظة ونحوها ، فتكون صبغاً من أصباغ الشعر يعطيه لونا ثابتا من ألوان الحفيظة التي يرمى الشاعر إلى تأييدها ، ولا أثبت في ذلك من لون التاريخ ؛ ومن هذا النوع قصص الحارث بن حلزة في طويلته . وقد يكون في القصة من هذا النوع مواضع تصلح أن تُبنى عليها المعاني الكثيرة في الاخلاق فيتجاوزونها ويختصرون القصة بضرب من الإشارة إليها ، ثقة بالفهم عنهم ، كأنهم يريدون أن يجعلوا القصة كلها معنى واحداً من معاني الشعر ، كقول جابر بن حنّى التغلبي : (ص ٤٢ ج ٣ : الحيوان) .

ولسنا كأقوام قريبٍ محلّمهم	ولسنا كمن يرضيكم بالتملق
فسائلٌ شرحبيلاً بنا ومحلمنا	غداة نُسكرُ الخيلَ في كل خندق
لعمرك ما عمرو بن هندٍ وقد دعا	لتخدّم ليلى أمه بموق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مغضباً	فأمسك من ندمانه بالحنق
وعتمه عمداً على السيف ضربةً	بذى شطبٍ صافي الحديدِ مخفّق

والقصة مشهورة وهي من مفاخر العرب (*) ؛ فكان جابراً يقول : أنا وإياك فيما تريده من التملق كابن كلثوم فيما أراه عمرو بن هند ، فجعل القصة معنى من معاني شعره واقتصر منها على ما يؤدى غرضه ، فذكر الباغى والمبغى عليه وعاقبة البغى ، وترك ما وراء ذلك للأسماء التي تنبّه إليه الذاكرة .

ثانياً - إذا كانت القصة ذريعة لجلاء صفة من الصفات التي يريدون تحقيقها ، فإنها حينئذ تكون ضرباً من التمثيل الذي يقرب الحقيقة ويكشفها

(هـ) قلت : انظر الاغانى ج ٩ ص ١٧٦ .

للعقل ، كآيات النابغة في بعض اعتذاره للنعمان (ص ٦٧ ج ٣ : الحيوان) :

واحكم حكيم فتاة الحمى إذ نظرتُ إلى حمام شرعٍ وارد الشميدِ
يحفّهُ جانباً نيقٍ ويتبعهُ مثلُ الزجاجة لم تُكحلّ من الرمدِ
قالت : ألا ليتما هذا الحمامُ لنا إلى حمامتنا ونصفهُ فقَدِ
خَسْبُوهُ فالقُوهُ كما حسبتُ تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزدِ
فكملت مائةً فيها حمامتها وأسرعتُ حسبةً في ذلك العدد

فإن ظاهرها يؤدي معنى من القصص ، ولكن باطنها يؤدي إلى غرض
لا حيلة في إبرازه بغير هذا الوضع ، فإنه أراد أن يصور للنعمان اضطراب
أمره ، وأن ذنبه مظنة الخطأ في الحكم لما فيه مما يثير الحمية ويهيج الكبرياء ؛
ثم أن يستنزله إلى العفو والصفح والنظر فيما أتاه بالعقل لا بالقلب ، وأن
ذلك أحمدُ له وألبقُ بموضعه من الفضل والتمكن ؛ فصور له هذه الفتاة
تحزُّرُ طيراً ، والطيْرُ أخفُّ من غيره ، ثم جعله حماماً ، والحمامُ أسرعُ الطيرِ ،
ثم جعله كبيراً ، لأنه يكون أكثر اجتهاداً في السرعة إذا كثرت عدده ، وذلك
أنه يشتد طيرانه عند المسابقة والمنافسة ، ثم لم يرض بذلك حتى جاء بما يدعو
إلى منتهى السرعة الممكنة فقال : « يحفّه جانباً نيقٍ ويتبعه » ، وذلك أن الحمام
إذا كان في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء ، فشدد
الامر وضيقه على الفتاة كما ترى ، بما يقيم لها ألفَ عذيرٍ إن أخطأت في
الحساب ، ثم لم يكفه أن يذكر مع ذلك أنها أصابت ، بل جعل لإصابتها مثلاً
في الفطنة ، إذ عبّرت في تلك الحالة عن تسع وتسعين بمجموعٍ ونصفه أي
٦٦ و ٣٣ فهذه غاية البيان ؛ وإذا لم تكن القصة من وضع النابغة وكانت
صحيحة النسبة إلى زرقاء اليمامة ، فلا شك عندنا في أن النابغة قصد منها هذا

التصوير بعينه ، ولا عجب مع هذا أن يكون من أهل الصنعة والتنقيح .
ولا يشترط أن تكون القصة في هذا النوع تاريخية ، بل ربما وضعها
الشاعر ، كقول بعضهم في صفة صائد يعنيه بقصة معيشته وحياته ، والضمير
في البيت الأول راجع للصيد :

أتيح له طلحٌ أذاه بكفه خنوف وأشباه تخيرن من حجر
أبو صبية ، لا يستدِر إذا شتَا لقوحا ولا عزا ، وليس بذى وفر
له زوجة شمطاء يدرج حولها فطيمٌ تناجيه ؛ وآخر في الحجر
... .. (الآيات ص ١٤٠ ج ٤ : الحيوان)

فقد بالغ في صفة هذا الصائد بالتوحش والقوة وحسن الإصابة ، وذكر
كل ما يدل على انفراده بالكدح ، لئلا يكون أقوى له وأبلغ في الاعتماد ؛ إذ
زوجته شمطاء ، وأولاده فطيم وآخر في الحجر ، ثم وصف انفراد قلبه كذلك
بما شوه من عجوزه ، حتى لا يكون فيه موضع للرفة على الحيوان ، وليس يتعين
أن يكون هذا الصائد كذلك ، ولكن صفة الرمية النافذة اقتضت هذه القصة .

ثالثا - إذا كانت القصة خرافة من الخرافات ؛ فيضربونها مثلا لتوكيد
الحقيقة ، وأكثر ما يكون ذلك في الخرافات الموضوعة على السنة الحيوان ،
وهي شائعة في الأعراب ، ومثلها في كل أمة ، ولها في أكثر الأمم شعراء
ينفردون بها ، وأشهرهم في المتأخرين لافونتين الشاعر الفرنسي ، ومن هذا
النوع قول النابغة في هذا المثل البديع :

أليس لنا مولى يجب سراحنا فيعذرنا من مرة المتناصره
(الآيات في خرافة الحية وحليفها ص ٦٨ ج ٤ : الحيوان ، وص ١١ :
حسن التوسل) .

وقول الهذلي :

وإخال إن أحاكم رعانةً إذ جامكم بتعطف وسكون
(الآيات في خرافة النعامة التي ذهبت أطلب أذنين فمادت صلماً ،
ص ١٠٧ ج ٤ : الحيوان) .

وقول ابن هرمة في خرافة الضب والصفدع :

ألم تارق لضوء البرق في أسحم لَمَاح
(الآيات ص ٣٨ ج ٦ : الحيوان)

ومن أراد أن يقف على بعض خرافات الأعراب فعليه بقصيدة الحكم
ابن عمرو البهراني ، وكان أنى بنى العنبر بالبادية فنفوه إلى الحاضرة ، فجعل
يتفقه ويُتقى فنيا الأعراب ، وكان مكفوفاً دهرياً ، وقصيدته كلها ظريف
غريب ، وكلها باطل ، والأعراب تؤمن بها أجمع ، وقد رواها الجاحظ في
الحيوان (ص ٢٤ ج ٦) وشرحها شرحاً مطولاً .

وقد وقفنا على نوع غريب من الشعر القصصي كنا نظن أن العرب
لم يقولوا فيه ، وذلك محاورة الحيوان ومساءلته ، في نظم قائم بنفسه وعلى
نمط قات المتأخرين الذين عزبوا مثل هذا الشعر عن اليونان والفرنسيين
وغيرهم ، فإنهم ينظمون ذلك شعراً مزاجاً من الرجز ، يستقل كل بيت
منه بقافيتين ، ولكن هذا الشاعر أطلق القوافي في رجزه ، فهو يغيرها
عند انتقاله من معنى لمعنى مباين ؛ ولا جرم أن الشعر القصصي لو نظم
على هذا النحو لأمكن منه ماظنه الأدباء غير ممكن ، أما الأرجوزة فهي
عن أبي زياد الكلابي ، قال : أكلت الضبع شاة رجل من الأعراب ،
فجعل يخاطبها ويقول :

ما أنا يا جعار من خطابك على دق العصل من أنيابك

. (الآيات ص ١٥١ ج ٦ : الحيوان)

أما الأساطير الدينية فليس في العرب من يتعمل لنظمها غير أمية بن أبي الصلت ؛ لما مرّ من شأنه في باب الشعر الحكيم ، وله من ذلك أشياء مروية ، كقصة سفينة نوح ، وقصة الحمامة التي بعثها ترتاد في الأرض موضعاً يكون مرفأً للسفينة بعد أن بعث الغراب فوق علي جيفة ونحو ذلك ؛ ومما نظم أمية من خرافات الأعراب خرافة الغراب والديك التي يقولون فيها إن الديك كان نديماً للغراب ، وإنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئاً ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن ورهن الديك ، فخاس به ولم يرجع ؛ ولذلك ذهب الغراب مطلقاً في الأرض وبقي الديك محبوساً عند الناس ؛ ولكن نظم أمية في هذه المعاني لا يرمى إلى شيء غير معنى القصص ؛ كأنه لا يريد من الشعر إلا أن يكون دليلاً على علمه وترشحه للأمر الذي يحدث به نفسه كما سبق . . .

وقد نظم بعض المولدين في الشعر القصصي بما يقارب المعنى المصطلح عليه . من ذلك قصيدة محمد بن عبد العزيز السوسى من شعراء اليتيمة ؛ قال الثعالبي فيه إنه أحد شياطين الإنس ؛ يقول قصيدة تُرَبِّي على أربعمئة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات ، وقد أورد منها قطعة (ص ٢٣٧ ج ٣ : يتيمة الدهر) ونظم المتأخرون في السيرة النبوية خاصة ؛ وأشهرهم في ذلك حكمة وإحكاما ، الإمام شرف الدين البوصيري ، وشهرة قصيدته الردة والهمزية قد ملأت الدنيا .

الشعر العلمي (*)

قد علمت أن الشعر كان مستودع علوم العرب وكتاب تجاربهم وحكمهم ، فليس هذا الذي زیده بالشعر العلمي ، ولكننا نزيد القصائد التاريخية أو العلمية التي جاءت في حكم الكتب ، وكذلك الكتب التي نظمها فجاءت في حكم القصائد ، وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة ، كألفية ابن مالك وغيرها مما يجمع مسائل الفنون وضوابطها ، وليس من عالم في هؤلاء إلا وله من ذلك شيء قلّ أو أكثر نصيباً مفروضاً .

ونحن نزيد أن نتكلم هنا عن أصل هذا النوع وأقدم ما وقفنا عليه من أمثله التي احتذاها المتأخرون ، وهم يجمعون على استعمال هذا النمط من الرجز الذي يستقل فيه كل مصراعين بقافية ، حتى لقبوه بجمار الشعر لسهولة الحمل عليه ، ثم هم مع ذلك التهافت لا تكاد تجد فيهم من يعرف اسمه عند المتقدمين ؛ والعرب أنفسهم لم يضعوا له اسماً لم يأت في مشهور أراجيزهم منه شيء ، ولم نقف منه عندهم إلا على مثال واحد ، وهو ما ذكره الخطيب التبريزي في شرحه على تهذيب الألفاظ (ص ٢٢٢) من أن رجلاً من هذيل أقبل إلى عمر بن الخطاب وهو جالس فأنشده شعراً يتجزم فيه على أبيه ويستظهره عليه ، فبعث عمر إلى أبيه فدعاه ، فقال : ماذا يقول ابنك ؟ زعم أنك نفيته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، غدوته صغيراً وعقني كبيراً ، أنكحتني الحرائر ، وكفيتها الجرائر ، فأخذ بلحيتي وأظهر مشمتي .

شاهد ذلك من هذيل أربعة مسافع وعمه ومشجعة

(*) قلت : كان الترتيب أن يكون قبل هذا الفصل مبحث عن (شعر الترقيص) ولكننا لم نعتز به .

وسيدُ الحَيِّ جميعاً مالكُ ومالكُ محض العروق ناسكُ

وهذا الرجز كما تراه إنما انساق مع الكلام واستجز للحكاية ، فيما أن يكون بعض ما يتفق من أحاديثهم العامة وأهملوا حفظه وروايته لأنه في سبيلها ، وإما أن يكون شيئاً جرى على لسان ذلك العربي ، وعلى أي الوجهين فما كان ليروى لولا أنه جاء تابعاً للشعر الذي قبله ؛ وفيه شاهد من شواهد اللغة لحفظوه ليساق مع الحديث .

ثم جاء بشر بن المعتمر الذي مر ذكره في الشعر الحكيم ، وكان من أروى المعتزلة للشعر ، فبنى على هذا الأصل أرجوزة طويلة ذكر فيها الملل والنحل وضرب الأمثال وأخذ في قواعد مذهبه . ويظهر من كلام الجاحظ أن هذه الأرجوزة قد رُفعت إلى الناس وذهب لها صيت ، وقد ذكرها مرتين في كتاب الحيوان ونقل قطعة من أمثالها (ص ٨٠ ج ٤ : الحيوان) وقطعة أخرى في ذكر فضل عليّ على الخوارج (ص ١٥٥ ج ٦) وهو في كل مرة يقول : قال بشر بن المعتمر في شعره المزاج . وهذه التسمية أليق ما يسمّى به هذا النوع من الأراجيز ، ولا بد أن تكون هذه الأرجوزة الأولى من نوعها ، لأن الجاحظ نسب هذا النوع إليه وعينه به وكان يكفي أن يقول : قال بشر فقط ، ولأنه قد ظهر قبل بشر شعراء نظموا في أمثال هذه المعاني ، ولكن على طريقة الشعر المقتضى ، ولم يرد لواحد منهم شيء من المزاج ، وكان أسهل عليهم لو عرفوه ؛ وقد اشتهر هذا النمط بعد بشر ، ونظم فيه ابن المعتز في أواخر القرن الثالث كتابه «بشر الإمام» في أرجوزة طويلة مثبتة في ديوانه ، ثم كان حذو المتأخرين في المتون بعد ذلك على منظومة الإمام محمد بن عبد الله بن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ علامة النحو واللغات الغريبة

والآية في حفظ أشعار العرب ، وهذه المنظومة هي الألفية الشهيرة في علم النحر ، تبع فيها ابن معطى ، قالوا : ونظّمه أجمع وأوعب ، ونظم ابن معطى أسلس وأعذب (ص ٤٣٢ ج ١ : نفع الطيب) . ولا ابن مالك منظومات أخرى غير الألفية ، ولكن هذه هي أشهر المتون المنظومة ، يكاد ذلك يكون إجماعا .

أما الشعر الذى تنظم فيه الضوابط العلية لسهولة حفظها ، فأكثر ما يكون قطعاً وأبياتاً قليلة ، والأغلب فيه أن لا يكون مزاجاً ، وقد وقفنا على مثال منه عند العرب ، وهو قول طفيل الغنوى : يصف كيف تزجر الخيل فجمعه في بيت واحد ، هكذا قال المبرد في الكامل ، وقوله دليل على أن نظم الضوابط لم يكن معروفاً إلى زمنه ، وإنما هو مما أحدثه المتأخرون :
وقيل اقدىمى واقديم وأخ وأخرى وها وهلا واضير وقادعها هي
وهذه كلها كلمات تزجر بها الخيل ، ولم يقسع البيت للفظتين من هذا القبيل ؛ هما هَقَبٌ وهِقَطٌ (ص ١٦١ ج ١ : الكامل) .

والمتأخرون من العلماء الذين يابون أن يتركوا شيئاً غير متروك إلى أصله ؛ يزعمون أن أول من نظم المتون العلية هو هرمس الحكيم الذى يزعم قوم من الصابئة أنه إدريس عليه السلام ؛ ويقولون إنه أول من فطر في الطب وتكلم فيه وصنف لأهل زمانه دكتبا بأشعار موزونة ، بلغتهم في معرفة الأشياء العلوية والأرضية (ص ١٣٨ : شرح العيون) .

هذا في نظم المتون والضوابط ، أما الشعر الذى يحمل معانى التاريخ وأنواع الفنون على غير تلك الطريقة فإنما يجىء به المولدون على جهة الفخر بما يضمونونه ، كقصيدة رياح بن سنيح الزنجى مولى بنى ناجية ،

وكان فصيحاً ، فلما قال جرير :

لا تطلبنّ خثولةً في تغلبٍ فالزنج أكرم منهم أخوالا

تحزك رياح فذكر أكثر من ولدته الزنج من أشراف العرب في قصيدة

مشهورة معروفة ، ومنها البيت السائر :

إن الفرزدق صخرة عادية طالت فليس تنالها الأجيالا

يريد طالت الأجيال فليس تنالها (ص ٨ ج ٢ : الكامل) . ومن هذا النوع

القصيدة الحميدية التي نظمها نشوان الحميري صاحب كتاب شمس العلوم ، وقد

نشرها بعض المستشرقين (تاريخ العرب) وقد عدّ فيها من ملكوا من الحميريين

وافترخ بقومه هؤلاء وصارت هذه القصيدة اليوم عند الباحثين في التاريخ

العربي القديم لا يقاس بها شعر شاعر ، لما فيها من الأسماء التاريخية .

وقد ينظّمون ذلك الشعر على جهة الفخر بالنظم نفسه وقوة التصرف

كما فعل أبو العباس الناشئ المعروف بابن شرشير ، وهو الناشئ الأكبر ،

وكان متبحراً في عدة علوم ، وهو في الشعر من طبقة البحتری وابن الرومی

وأضربهما ، قال ابن خلكان : وله قصيدة في فنون من العلم على روى

واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وتوفى سنة ٢٩٣ ؛ فلو أنه جعل هذه القصيدة

في فنون من التاريخ والقصص ونحوها ؛ لما خلا الشعر العربي إلى اليوم

من النمط القصصي الذي نفاخر به الإلياذة وأمثالها في كل شعر غير عربي .

وكذلك فعل أبو الحسن الأنصاري الجياني المتوفى سنة ٥٩٣ في نظم

كتابه شذور الذهب في صناعة الكيمياء ؛ وقد قالوا فيه : إن لم يعلمك صنعة

الذهب علمك صنعة الأدب ؛ وقيل في الجياني : شاعر الحكماء وحكيم الشعراء

ومما يحسن ذكره في هذا الموضوع توفية للفائدة ؛ كتب الحكمة والأمثال

التي نظمها المولدون لتسهيل حفظها ومدارستها ؛ وأهم هذه الكتب كلية ودمنة
الذي عزّبه ابن المقفع ؛ فقد نظمه أبان بن عبد الحميد اللاحق شاعر البرامكة ،
ونظمه أيضا ابن الهبّارية البغدادي ، وسمى كتابه نتائج الفطنة في نظم
كلية ودمنة ؛ وكلا الشاعرين مرّ ذكرهما ؛ وكذلك نظمه الأسعد بن ممتّاق
المصرى ناظر الدواوين بالديار المصرية المتوفى سنة ٦٠٦ ؛ ولابن الهبّارية
أيضا كتاب الصادح والباغم ؛ نظمه على أسلوب كلية ودمنة ؛ وهو أراجيز
في ألفي بيت نظمها في عشر سنين ؛ ولم نذكره في الشعر القصصي لأن
هذا الموضوع أليق به ؛ ومن منظومة السير أرجوزة ابن عبد ربه صاحب
العقد الفريد ، في أخبار الملك الناصر صاحب الأندلس ؛ وسيرة صلاح الدين
التي نظمها الأسعد بن ممتّاق المذكور ؛ وذلك في الجملة ليس من الشعر ،
ولكنه نوع مما أخذنا في تأريخه ، فكان لا بد من الإشارة إلى بعض
أمثاله في التاريخ .

الفنون المحدثه

من الشعر

ذكرنا تاريخ الشعر وأفضنا في مناحيه ، وبقى علينا تاريخ هذه الفنون التي أحدثها البلديون : وهي الموشح ، والزجل ، والدوييت ، والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ؛ وهذا الكتاب وإن كان ليس فيه متسع للفنون التي خرجت بها آداب اللغة الملاحونة ، ولكننا سنلّم بها إلماماً ، ونتجاوز في ذلك بعد أن نتكلم على الموشح مقتصرين على مبتدأ خبرها ، فإن لها طرقاً ورجالا ؛ إذ هي آداب لغة مفردة يتكلم بها شعراء الناس ، واستيفاء ذلك هنا يعدُّ من تداخل التواريخ ، وهو في رأينا دليل على فساد النظر وسوء الاحتمال لهذه العلوم ؛ فلو أن مؤلفاً كتب في تاريخ لغة العامة وآدابها ، ثم بسط في كتابه الكلام عن شعر العرب بمثل ما قدمناه ، وعلى النحو الذي أخذنا إليه ، لكان حقيقةً بأن يدل فضل اطلاعه على فساد صنعيته في تأليف الكتاب ، وكذلك ليس خلط الأعداد وهي مادة الحساب ، مما يعدُّ في شيء من صحة الحساب .

الموشح : اختراعه

ويقال له التوشيح أيضاً ، والذي نراه في أصل هذه اللفظة أنها منقولة عن قولهم : ثوب موشح ، وذلك لوشي يكون فيه ، فكان هذه الأسماء والأغصان التي يزينونه بها هي من الكلام في سبيل الوشي من الثوب ، ثم صارت اللفظة بعد ذلك علماً ؛ إلا أن يكون الأندلسيون قد أخذوا هذه التسمية عن المشاركة ، فتكون منقولة عن التوشيح الذي عدّه قدامة بن جعفر في نقد الشعر من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، وجرى

عليه أهل البديع ، فيكون اشتقاقها من معنى الوشاح كما نصوا عليه ، لأنهم عرفوا هذا النوع بأن يكون معنى أول البيت دالا على قافيته ، فينزل فيه هذا المعنى منزلة الوشاح ، وينزل أول الكلام وآخره منزلة محل الوشاح من العاتق والكشح اللذين يحول عليهما .

وقال ابن خلدون في أصل استحداث هذا الفن : « أما أهل الأندلس فلما كثرت الشعر في قطرهم وتهدبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدثت المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ... واستظرفه الناس جملة ، الخاصة والكافة ؛ لسهولة تناوله وقرب طريقه ، وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القربري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية .. الخ »

وعبادة هذا توفي سنة ٤٢٢ هـ ، فالذي يفهم من كلام ابن خلدون أحد معنيين : إما أن يكون مقدم بن معافر شاعر الأمير عبد الله [في القرن الثالث] هو الذي سمى هذا النوع بالموشح حين اخترعه ، فيكون قد بقي إلى زمن عبادة لم ينبغ فيه أحد ، ويكون الأندلسيون في القرن الثالث « قد كثرت الشعر في قطرهم وتهدبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية » وإما أن تكون هذه التسمية قد أحدثها المتأخرون من زمن عبادة ، وزمنه أرقى عصور الشعر في الأندلس ، وكلاهما خطأ ، وذلك مما وهم فيه ابن خلدون لأنه إنما ذهب كعادته إلى التعليل ، فظن أن استحداث هذا الفن من فضل

القوة وإتقان الصناعة ، وذلك لا يكون إلا على ما وصف ، ولكن الشعر لم يكن قد بلغ في الأندلس ذلك المبلغ في القرن الثالث كما سنفصله متى انتهينا إلى الكلام على الأدب الأندلسي ، ولو كان كما زعم ابن خلدون لحفظوا اسم مقدم بن معافر ، وإننا على طول ما عيننا من نصّب البحث ومطالوة التعب في التنقيب ، وقد قرأنا ما قرأناه لتهيئة مواد هذا الكتاب حتى لم نغادر كتابا في الأدب والتاريخ بأنواعه — لم نظفر بكلام عن مقدم هذا ولا تكشف لنا من تاريخه شيء . وبما يدل على فساد المعنى الثاني ، أن ابن بسام — وهو أعلم بهذا من ابن خلدون وغيره من المتأخرين — ذكر في كتابه الذخيرة أنه نشأ بين مخترع الموشح وبين عبادة ، يوسف بن هارون الرمادي ، وهو الشاعر الأندلسي في القرن الرابع (توفي سنة ٤٠٣) فلا بد أن يكون عبادة قد أخذ عنه مثال الإتقان في هذه الصنعة ، وحينئذ يتعين أن لاختراع الموشح سببا آخر غير كثرة الشعر وبلوغ الغاية في تنميقه ، ونحن ذاكروه بعد ، ولكننا ننقل هنا عبارة الذخيرة ، فإن فيها قولاً آخر في اختراع هذه الأوزان ، قال ابن بسام في ترجمة عبادة : « كان في ذلك العصر شيخ الصناعة وأحكم الجماعة ... وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ووصفوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا عمادها ، وقوم ميسرها وسنادها ، فكانها لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ؛ وأول من صنع أوزان هذه الموشحات : محمد بن محمود المقبري الضرير ؛ وقيل إن ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات ؛ ثم نشأ

يوسف بن هارون الرمادى ؛ ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التصغير ؛ وذلك أنه اعتمد على مواضع الوقف فى المراكز (ص ١٩٩ : فوات الوفيات) .

سبب اختراعه

وعندنا أن الذى نبههم إلى اختراع أوزان التوشيح إنما هو الغناء لا غيره ، فإن تلحين البيت من الشعر قد يحىء على بعض الوجوه كالموشح ، إذ يخرج جملا مقطعة [تساوق] مع النغم ؛ فلو تنبه إلى ذلك أديب موسيقى لأمكن أن يضع أوزانا على هذه التقاطيع ، وهم لا يختارون للغناء من الشعر إلا ما احتمل فى حركاته حسن التجزئة وصحة التقسيم وإجادة المقاطع والمبادئ .

والذى يدل على أن الغناء هو الأصل فى التوشيح ، أن الأندلس فتحت فى أواخر القرن الأول ، ولم يخترع التوشيح إلا فى الربع الأخير من القرن الثالث ، فكانت الفترة قريبة من مائتى سنة ، والسبب الطبيعى فى ذلك أن أمر الأندلس كان فى مبدئه دينيا محضا - كما ستراه فى موضعه - وبقى الشعر عندهم متعلقا بنوايع مـيزين بالضعف والقلة إلى زمن الأمير عبد الرحمن ابن الحكم فى أوائل القرن الثالث ، حتى نبغ يحيى الغزال شاعر الأندلس وفيلسوفها ؛ ثم قدم زرياب المغنى من العراق على هذا الأمير سنة ٢٠٦ ، وكان الأمير مفتونا بالغناء ، فلم يمض على ذلك زمن حتى شاع الغناء وانحرف إليه الأندلسيون ، وكان ذلك أول تاريخه عندهم ، فلعل المدة بين شيوع الغناء واستحداث التوشيح لا تزيد عن نصف قرن .

وقد أقبل أدباء الأندلس فى أواخر القرن الرابع على الموسيقى ، ومن هاهنا دعت الحاجة إلى التفنن فى تلك الأوزان ، فاستقل بذلك عبادة الذى

أوماًنا إليه ، وليس هذا فيه بهجيب إذا عرفت أن ابن الحداد وهو معاصر عبادة ، وكلاهما من شعراء المعتصم بن صمادح ، قد وضع كتاباً في العروض مزج فيه بين الموسيقى وبين آراء الخليل - وكل ذلك سيأتيك في موضعه مفصلاً إن شاء الله -

والأندلسيون لم يلحقوا المشاركة في الغناء ، ولم يكثرُوا فحولهم فيه ؛ ولذلك انصرفوا عن الغناء في الشعر إلى تحميله أوزان التوشيح ، فأغربوا بذلك كما قال ابن دحية على أهل المشرق ، لأنهم جمعوا فيه جملة التطريب ؛ وقد نبه على ذلك ابن رشد فيلسوف الأندلس في تلخيصه كتاب أرسطوطاليس في الشعر حيث قال كلامه على المحاكاة : « والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبه نفسه ، وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عن صاحبه ، مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ ، أعني الأقاويل المخيلة (الغير موزونة) ؛ وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها ، مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال ، وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة اهـ العذاري المائسات . »

وهذا هو السبب في اختلاف أوزانه وأوضاعه ؛ لأن الغرض منه تطبيق ألفاظه على مؤلفات من الأصوات [بمقتضى] صناعة الموسيقى ، فكانوا يؤلفون من الأصوات التي تخرجها الضربات على الأوتار المختلفة كلاماً يناسب أن يقابل في وزنه تلك الأصوات بحروف متحركة أو ساكنة وعلى ذلك يكون مؤلف التوشيح تابعاً لما تقتضيه أصوات الموسيقى وأوزانها ،

وذلك قد يوافق الأوزان العربية التي يلحن فيها الشعر وقد يخالفها وعليه أكثر عملهم ، ولم يلتفت أكثر أدباء المتأخرين إلى هذه الحقيقة فحسبوا التوشيح كغيره من الأوزان ، ولذلك اقتصر شعراؤهم على النظم في مذهب العروض منه وتركوا ما عداه ، لأنهم لا يعرفون له وزناً ، إلا أهل الموسيقى منهم ؛ فإنهم ذهبوا فيه كل مذهب ، وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في سفيفته المشهورة أن موشحات المتقدمين قد بطل العمل في تلحينها ، ولذلك اقتصر في السفيفة على إيراد موشحات المتأخرين ، وأثبت من ذلك ٣٠٠ موشح فيها ٣٥٠ لحناً .

وعلى الأصل في أوزان التوشيح اخترع المتأخرون نوعين آخرين هما المستجاد والبنود ، وسنذكرهما في بحث الصناعات لأن موضعهما هناك أليق بهما .

الموشح الملحون

ومن التوشيح ما لا يكون معرباً ، وهو من اختراع أدباء اليمن ، قال صاحب سلافة العصر : ولأهل اليمن نظم يسمونه الموشح ، غير موشح أهل المغرب ، والفرق بينهما أن موشح أهل المغرب يُرَاعَى فيه الإعراب بخلاف موشح أهل اليمن فإنه لا يراعى فيه شيء من الإعراب ، بل اللحن فيه أعذب ؛ وحكمه في ذلك حكم الزجل اه (ص ٢٤٣) .

ولم نزل نبحت عن أصل هذا النوع حتى وقفنا في كتاب نفحة اليمن لأحمد الأنصاري اليمني الشرواني^(١) ، وهو مطبوع في مصر ، على نوع سماه

(١) ذكر في موضع من كتابه هذا أنه كان بلكوتنا سنة ١٢٢٢ .

الشعر الجيني لا يكون إلا ملحونا ، وقال إنه منسوب إلى الفضل الأديب
محمد بن حسين الكوكباني البيني ، وهو توشيح أوله :

ما لقلبي لم يزل عَشَقُو فنون • في هوى حال التثني والمجون • زى النصوص
قد فنى صبرى وقل الإحتيال

قد قسم قلبي بأسياف الجفون • وقسم لى من هوى تلك العيون • ريب المنون
ما حياتى بعد ذا إلا محال

وقال : إن شعراء اليمن هم فرسان هذا الميدان ، وحاملو لواء هذا الشأن ؛
وعلى هذه الطريقة نظم بعض علماء المتأخرين على نمط الشعر ، كقصيدة
الشيخ عليش الشهيرة التى مطلعها :

الزم باب ربك واترك كل دون

وأورد فى النفحة قصيدة من هذا النمط قال إنها للفاضل البكرى ؛
فهذا هو الشعر الجيني على ما عرفت ، وهى تسمية أهل اليمن ؛ أما المغاربة
فقد استحدثت عامتهم من هذا النمط أنواعاً سموها بأسماء أخرى ، وسنشير
إليها بعد .

بعض أنواع الموشح

لم يوضع فى صناعة الموشح ووجه نظمه وأسماء أوزانه فيما نعلم ، غير
كتاب واحد وضعه صفي الدين الحلى الشاعر المتوفى سنة ٧٥٠ ، وهذا
الكتاب لم ينته إلينا إلا خبره ، وسنذكر اسمه فى كتب التوشيح ، ثم إن
هذه الصناعة لا ضابط لأوزانها إلا الألحان كما سلف ، فهى موطأة

للاختراع بمقدار ما تجرأ عليه القرائح ؛ ولذلك تعددت فيها الأوزان واختلفت طرق الصنعة . فلا سبيل إلى حصرها إلا بالتأني واتصال السند عن أهلها ، ولا فدرى إن كانوا قد وضعوا لكل وزن اسماً يعرف به أم كان اسم التوشيح عاماً لجميعها فلا تخصص الأوزان إلا بأسماء ألحانها فقط كما هو الشأن في أدوار الغناء ؛ وقد بحثنا في ذلك كثيراً فلم نرجع بطائل ، وكنا نظن أننا نصل إلى تسمية كل وزن وتعيين مخترعه ، ولكننا لم نقف من ذلك إلا على النذر القليل الذي لا يُعْتَدُّ به في استنباط التاريخ ، وقد رجح عندنا أنهم لم يسموا الموشحات بأسماء معينة كما فعلوا بالصناعات الشعرية ، كالتخميس والذشطير وغيرهما ، إلا ما دخل فيه الشعر من ذلك ، كهذا النوع الذي اخترعه الصفي الحلبي وسماه الموشح المضمّن ، ومثل له بتضمين الآيات المنسوبة لأبي نواس ، وقيل إنها للحريري ، ومطلع موشحه (ص ٢٩٨ : ديوان صفي الدين الحلبي) :

وهو الهوى ، ما حلتُ يوماً عن الهوى

ولكن نجمي في المحبة قد هوى

وما كنت أرجو وصل من قتلتي نوى

وأضني فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجب إن أصابني العطب

(حامل الهوى تعب يستفزه الطرب)

فالببت الأخير «حامل الهوى... الخ» هو المضمّن ، وما قبله توطئة له من نظم الصفي ؛ وكالموشح المجنح ، ويسمونه أيضاً الشعري ، لأنه قصيدة على وزن وروي واحد من الشعر يفصل بين كل بيتين منها بيت من الموشح

يناسب وزنه لحن القصيدة ، ويشترط فيه أن تكون كل أبيات التوشيح
مصرعة على قافية واحدة (انظر ص ٢٩٩ : ديوان الحلي) .

وكما خلطوا بين أوزان الشعر وبين أوزان التوشيح ، يخلطون بين
وزن الدوبيت والرجل وبينه ، وكل ذلك لأن التوشيح لا ضابط لوزنه
إلا المناسبة كيفما اتفقت .

ومن الأوزان التي عينوا مخترعها ، هذا الوزن الذي قال الصفي إن مخترعه
السلطان المؤيد صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ (انظر ص ٣٠١ : ديوان
صفي الدين الحلي) .

وهو - كما ترى - يكذّر لسان الناطق ، ولكنه إذا قطع الحاناً وصحّحت
تجزئته وأحكمت مخارج ألفاظه وجرى فيه الغناء كان طرباً عجيباً ، وعلى ذلك
وضع ؛ ومن أراد أن يقف على كثير من أوزان الموشحات فليقرأ ماورد
من ذلك في نفح الطيب وفوات الوفيات وكتاب العذارى المائسات وسفينة
الشيخ شهاب الدين ، وكلها مطبوعة ؛ وكنا هممنا أن نحصى ماوقفنا عليه
من ذلك ، لولا [رأينا] أن الفائدة لا تتم إلا إذا أثبتنا مطلع كل وزن
ليتصفح القارئ وجوه الأنواع ويستثبت مواضع الاختلاف في أوزانها ،
وذلك يستغرق قطعة كبيرة من هذا الكتاب ، ثم هو عمل تعليمي فليتبعه
من مست إليه حاجته .

نوابغ الوشاحين

يبتدئ تاريخ النبوغ في التوشيح من القرن الخامس ، ورأس أديبانه
عبادة ، وشاح المعتصم الذي أوامنا إليه من قبل ، ثم جاء بعده ابن أرفع

رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طيطة ، وبعدهما الحلبة التي كانت في دولة الملتامين إلى القرن السادس ، وسابق فرسانها القطيبي الأعمى (كذلك يذكره صاحب نفع الطيب ، وقد ورد اسمه في مواضع ، وفي مقدمة ابن خلدون : الطيطي) ثم يحيى بن بقر ، ومحمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض ، والحكيم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة (وسيأتي بيان ذلك في الأدب الأندلسي) ثم اشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف ، وأبو إسحاق الرويني ؛ ثم كان حسنة هذه المائة السادسة الفيلسوف أبا بكر بن زهر المتوفى سنة ٥٩٥ ، والوشاحون عيال على إحسانه فيما اتفق له من بدائع الموشحات التي شرقت وغزبت ؛ واشتهر بعده ابن حيون ، والمهر بن الفرس ، ثم نبغ ابن جرمون بمرسية ، وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة ، وأبو بكر بن الصابوني ، واشتهر بين أهل العدو ابن خلف الجزائري ، وابن هزر البجائي ، ولكن الذي انفرد بشهرة هذه المائة إبراهيم بن سهل الإسرائيلي وشاح أشبيلية وشاعرها ؛ وقد طبعت له قطع صغيرة في مصر على أنها ديوانه ؛ ولكن الذي يقول في نفع الطيب إن ديوانه كبير مشهور بالمغرب حاز به قصب السبق في النظم والتواشيع ، ومات ابن سهل غريقاً سنة ٦٤٩ ؛ وظهر بعده أحمد المقريبي المعروف بالكساة ، وهو شاعر وشاح زجال (ص ٣٠٣ ج ٢ : نفع الطيب) .

ثم كان نابغة المائة الثامنة في الأندلس لسان العربية ابن الخطيب ، وله في التوشيح بدائع كثيرة ، وكان من أروع تلامذته في ذلك ابن زمرك وزير الغنى بالله ، ثم اشتهر بعده العربي العقيلي الوشاح ، ثم ظهر

في المائة التاسعة في النصف الأول أبو يحيى بن عاصم الذي يقول عنه الأندلسيون إنه ابن الخطيب الثاني ؛ ثم استعجمت الأندلس وظهر في المغرب في أواخر القرن العاشر عبد العزيز بن محمد القشتالي وزير أبي العباس أحمد الشريف الحسبني ، وسنذكره بعد ؛ أما المشاركة قد تكلفوا التوشيح وبقى للأندلسيين فضل الطبع لم ينازعهم فيه إلا ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ فقد طارت موشحاته خصوصاً موشحته التي اشتهرت شرقاً وغرباً ، وأولها :

يا حبيبي ارفع حجاب النور عن العذار
ننظر المسك على الكافور في جلتنار

كللي ، يا سحبت تيجان الربى ، بالبحلي واجعلي ، سوارها منعطف الجدول
ولاتزال في أفواه المغنين إلى اليوم .

كتب التوشيح

وضع صفي الدين الحلبي ديواناً سماه (العاطل الحالى والمرخص الغالى) (وذكر في كشف الظنون العاطل الحادى خطأ) وقد أوضح فيه قاعدة الفنون الشعرية جميعها ، وهى الموشح ، والدوبيت ، والزجل ، والمواليا ، والكان وكان ، والقوما ؛ وأورد أمثلة ذلك من نظمه . وذكر ابن خلكان في ترجمة ابن سناء الملك أنه جمع موشحاته التي نظمها في ديوان سماه (دار الطراز) . وفي نفح الطيب أن لسان الدين بن الخطيب ألف في هذا الفن كتابه المسمى بجيش التوشيح وأنى فيه بالغرائب . قال : وذيل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب عبد العزيز بن محمد القشتالي بكتاب سماه :

«مدد الجيش ...» وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ،
وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف
الحسيني ما زاده زينا ، وأخبرني أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ،
ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من ٣٠٠ موشح (ص ٢٢٧ ج ٤ :
نفح الطيب) .

وقد طبع بعض الأدباء مجموعة صغيرة قال إنه انتخبها من كتاب
وجدته في بعض مكاتب رومه اسمه «العداري المائسات في الأزجال
والموشحات» هذا غير ما تجده في كتاب نفح الطيب وسفينته الشهاب وبعض
الدواوين .

الدوبيت

وهذا الاسم من كلمتين ، إحداهما فارسية وهي (دو) بمعنى اثنين ،
والأخرى (بيت) العربية ؛ وسموه كذلك لأنه لا يكون أكثر من بيتين ،
وقد أخذه أدباء العرب عن الفرس ، ويعرف عندهم بالرباعي ، واختص
بالإجادة فيه بعض شعرائهم ، كعمر الخيام ، ورباعياته مشهورة مترجمة
باللغات الأجنبية ، وهي ٥٠٠ بيت ، ولا نعرف أول من استعمل هذا النوع
في العربية ، ولكن نشأته كانت في بغداد ؛ ولاندرى كيف يعده ابن خلدون
من شعر عامتها ، وهو كالموشح والشعر : لا تكون ثلاثها إلا مغربة ، فإذا
دخلها اللحن خرجت عن هذه الأسماء إلى أسماء أخرى ، كالشعر الحميني في
الموشح عند أهل اليمن ، (وعروض البلد) فيه نفسه عند أهل الأمصار بالمغرب .
ونحن نرجح أن هذا النوع لم يكن في العربية قبل القرن السابع ؛ لأننا
لم نجد في شعر أحد قبل ذلك الزمن ولا وجدنا إشارة إليه ، ولم نجد
للشعراء ولعاً به إلا في أواخر تلك المائة وما بعدها ، والرباعي يعد من
المخترعات الحديثة في اللغة الفارسية ، لأن أول من وضعه أبو سعيد بن الخير
المتوفى سنة ٤٦٥ ، وبعضهم يقول إنه كان موجوداً قبل ذلك ولا يرجع
اختراعه إلى تاريخ معين ؛ غير أن من عرفوا بنظمه أبا جعفر رودكى الشاعر
المتوفى سنة ٣٠٢ حتى أفتن فيه الخيام وأجاده فاشتهر بما نظمه فيه شهرة
بعيدة ، لأنه ضمنه أفكاراً سامية وانتقادات مرة ؛ ثم أقبل الأدباء عليه من
بعده . . . وقد عارضها في العربية سيد الدين الأنباري كما ذكر صاحب
خلاصة الأثر (ص ٣٩٠ ج ٤) ولم يقع لنا شيء من رباعياته .
واللدوبيت وزن واحد ، وهو فعْلُن (بسكون العين) متفاعِلن (وتارة

يغَيَّرُ إِلَى مُتَفَاعِلِينَ) ، فَعُولُن ، فَعَلُن (بِتَحْرِيكِ الْعَيْنِ وَسُكُونِهَا) وَأَمْلَتْهُ كَثِيرَةً ؛ وَقَدْ يَضْمُنُونَهُ أَنْوَاعًا مِنَ الْبَدِيعِ ، وَمِنْ أَكْثَرِ الشُّعْرَاءِ وَلَوْعًا بِذَلِكَ ، الصَّنْفِيُّ الْحَلِّيُّ ، وَلَهُ فِي دِيْوَانِهِ مِنْهُ مَقَاطِيعٌ كَثِيرَةٌ ، وَلِلدَّوَيْدِيِّتِ بِاعْتِبَارِ الْقَوَافِي خَمْسَةَ أَنْوَاعٍ : الْأَوَّلُ يَسْمُونَهُ الرَّبَاعِيَّ الْمَرْجُ وَيَشْتَرَطُ فِي قَوَافِيهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الثَّلَاثَةِ مِنْهُمَا أَوْ [بَيْنَ] أَرْبَعَتِهَا الْجِنَاسُ التَّامُّ ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

يَا مَنْ بَسَنَانِ رِمَحِهِ قَدْ طَعَنَانَا وَالصَّارِمِ مِنْ لِحْظِهِ قَطَعَنَانَا

أَرْحَمُ دَنِقًا فِي سَنَتِهِ قَدْ طَعَنَانَا فِي حَبِكَ لَا يَصِيْبُهُ قَطْعَانَا

وَالرَّبَاعِيَّ الْخَاصُّ ، وَيَشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ تَكُونَ كُلُّ قَافِيَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ بَيْنَهُمَا جِنَاسٌ تَامٌ ؛ وَيَقُولُونَ إِنْ مِثَالَهُ :

أَهْوَى رِشَاءً بِلِحْظِهِ كَلَّمَنَا رَمَزًا وَبَسِيفِ لِحْظِهِ كَلَّمَنَا

لَوْ كَانَ مِنَ الْغَرَامِ قَدْ سَلَبْنَا مَا كَانَ لَهُ يَدِهِ سَلَبْنَا

وَالرَّبَاعِيَّ الْمُنْطَقَ ، وَمِثَالَهُ :

قَدْ قَدَّ لِمُهْجَتِي غَرَامٌ وَنَشَرُّ وَالقَلْبِ مَلَكٌ

مَنْ كَانَ يِرَاكُ قَالَ مَا أَنْتَ بِبَشَرٍ بَلْ أَنْتَ مَلَكٌ

وَالرَّبَاعِيَّ الْمُرْقَلَّ كَقَوْلِهِ :

بَدَرٌ إِذَا رَأَتْهُ شَمْسُ الْأَفْقِ كَسَفَتْ وَرَقِي فِي يَوْمٍ أَحَدُ

عَوَّذْتُ جَمَالَهَ رَبِّ الْفَلَقِ وَبِمَا خَلَقْنَا مِنْ كُلِّ أَحَدُ

وَهَذَانِ النَّوْعَانِ لَا يَشْتَرَطُ فِي قَوَافِيهِمَا الْجِنَاسُ .

وَالخَامِسُ الرَّبَاعِيُّ الْمُرْدُوفُ ، وَيَحْسُنُ فِيهِ التَّنَازُ الْجِنَاسُ ، وَمِثَالُهُ :

يَا مُرْسَلًا لِلْأَنَامِ جَاءَهَا وَحَمِي هَا أَنْتَ لَنَا عِزًّا وَهَدِي

فِي أَيِّ مَدَدُ

يا أَفْضَلَ مَنْ مَشَى بِأَرْضِ سَمَا يا شَافِعَنَا فِي الحِشْرِ غَدَا
غَوْنًا وَمَدَدًا

الشعر العامي والمواليا

لا نعرف بالتحقيق أصل الشعر العامي ولا منشأه ؛ ولكننا لانشك أنه قديم ، وأن ظهوره كان في أواخر القرن الأول للهجرة ، بعد ظهور الغناء وانتشاره ؛ لأن طبقات كثيرة من العامة - ومن في حكمهم بمن لا أدب لهم - لا يطربون للغناء في الشعر الفصيح ؛ وخاصة عاقبة أهل الشام ، ولعلمهم أصل الشعر العامي في العربية لأن الفصيح استبحر في بلادهم ، وهم مع ذلك أسقم الناس ألسنة ؛ فكان لا بد لعاقمتهم من هذا الشعر ، وقد وقفنا على شيء من شعرهم الذي يطربون له ؛ من ذلك ما رواه صاحب الأغاني في أخبار معبد أنه اشْتِخَصَّ إلى الوليد بن يزيد ، ثم كان في منزل بعض أهل الشام من ذوى الحال الرفيعة وقال في وصف غناؤه عنده : فجعلت لا آتى بحسن إلا أخرجت إلى ما هو أحسن منه ، وهو لا يرتاح ولا يحفل لما يرى منى فلما طال عليه أمرى ، قال : يا غلام ، شيخنا شيخنا ! فأنى بشيخ ، فلما رآه هَشَّ إليه ، فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغنى :

سَلَوْرٌ فِي القِدْرِ ، وَيَلِي عُلُوهُ جَاء القِطُّ أَكَلَهُ ، وَيَلِي عُلُوهُ !

والسلور : السمك بلغة أهل الشام ، قال : فجعل صاحب المنزل يصفق ويضرب برجله طرباً وسروراً . . . اهـ (ص ٢٨ ج ١ : الأغاني) وذكر في أخبار حنين الجيرى ، وكان في أيام عبد الملك بن مروان ، أنه خرج إلى حصص يلتمس الكسب بها ويرتاد من يستفيد منه شيئاً ، فاجتمع بفتيانها ثم غنّاهم في هُنَيَاتٍ معبد ، وغناء الغريص ، وخفائف ابن سريج ، وأهازج حكيم ، وفي

غناؤه هو ، فلم يتحرك منهم أحد ولا فكهوا ذلك ، وجعلوا يقولون : ليت
أباً منبته قد جاءنا ، حتى جاء أبو منبه ، فخنس حنين وصار كلا شيء ، خوفاً منه
ورهبته أن يفتضح بإحسانه ، قال : فأخذ العود ثم اندفع يغنى :

طرب البحرُ فاعبري ياسفينه لا تشقى على رجال المدينة
فأقبل القوم يصفقون ويطربون ويشربون ، ثم أخذ في نحو هذا من
الغناء (ص ١٢٣ ج ٢ : الأغاني)

ولا بد أن تكون مثل هذه الأشعار قد شاعت في العامة يومئذ وجعلوها
فهم ، ولكن الأدباء لم يحفلوا بها فلم يصل إلينا من خبرها شيء ، ويدل على
ذلك ما نقله صاحب الأغاني [من مثل ذلك] في أخبار إسحاق الموصلي .

ثم ظهر بعد ذلك هذا النوع الذي يسمونه المواليا ، وقالوا في أصله أقوالاً
أشهرها عند الأدباء أن الرشيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم أحد
بشعر ، وتكرر لمن يفعل ذلك ، فرثت إحدى جواربهم جعفرأ بهذا النوع
الذي يدخله اللحن ولا يجري على أوزان الشعر ، لتتق بذلك نكبة الرشيد ،
وجعلت تقول بعد كل شطر : يامواليا ! فعرف هذا النوع به وتناقله الناس :
والذي قالته في ذلك هو :

يادار ، أين ملوك الأرض أين الفرس

أين الذين حموها بالقنسا والترس

قالت : نراهم رمم تحت الأراضى الدرر

سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس !

وليس هذا النوع ملحوناً أبداً كالزجل والكان كان والقوما ، ولكنه
يحتمل الإعراب واللحن ، ولا يجيزون فيه مع ذلك أن يختلط الاثنان في

قول واحد فتكون بعض ألفاظ البيت معربة وبعضها ملحونة ؛ فهذا من أقبح العيوب التي لا تجوز؛ وإنما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده ؛ والمملحون منه ملحوناً لا يدخله الإعراب (المستطرف عن كتاب العاقل والحالي).

وللواليا وزن واحد وأربع قواف ؛ منها واحدة اخترعها صفي الدين الحلبي (المستطرف) وقد حمّله المتأخرون محاسن البديع كما فعلوا بالدوبيت ؛ وحرّف المصريون هذه الكلمة بكلمة «موال» ، وأهل الصعيد منهم أشهر الناس بهذه المواويل ؛ وخاصة أهل مديرتي قنا وجرجا ، ويقسمون الموالم إلى نوعين : أحمر ، وهو الذي ينظم في الحماسة والحرب والحكمة ، وأخضر وهو ما دخل في الغزل والنسيب وما لإيهما من الأنواع الرقيقة . وقد يحملونه مخمّساً ومسبّعاً ، ويسمى النعماني ، وذلك كله مأثور بينهم مستفيض في مناقلاتهم وقريب منه نوع آخر يسمونه « فن الواو » ووزنه كوزن بحر المجتث في الشعر : مستفعلن فاعلاتن ، ويكون في أربع شطرات ، كل شطرة تسمى في اصطلاحهم فردة - ومنه أحمر وأخضر كما مر في الموالم - ولكنهم يسمون المحتوى منه على الجناسات مغلوفاً ، والأمثلة في ذلك كله كثيرة ولها رسائل متداولة معروفة .

الزجل

قال ابن خلدون : ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على منحاهم

فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية ، أبو بكر بن قزمان ، وإن كانت قيلت قبله بالاندلس ، ولكن لم تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها إلا في زمانه ، وكان لعهد المثلثين (أول القرن الثامن) ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق اه

ورأيت في بعض الكتب أن ابن قزمان هذا أول من تكلم بالزجل ، وسبب ذلك أنه وهو في المكتب عشق بعض الصبيان ، فرُفِع أمره للؤدب فزجره ومنعه من مجالسة الصبي ، فكتب في لوحه :

المِلاخُ ولاذُ أماره [ولاوحاش] ولاد نَصاره

وابن قزمان جا يغفر ما قبلوا الشيخ غفاره

فاطلع عليه المؤدب [فقال] : قد هجوتنا بكلام مزجول ، فيقال إنه سُمي زجلا من هذه الكلمة .

ولست أثبت هذه الرواية ولا أنفيها ؛ أما ابن قزمان فهو الوزير الكاتب أبو بكر بن قزمان ، اشتمل عليه المتوكل على الله صاحب بَطْلِيمُوس في أواخر القرن الخامس ؛ فاقطع في دولته أسمى الرتب ، وهو شاعر بليغ وصفه الفتح ابن خاقان في القلائد بأنه «مبرز في البيان ، ومحرز للسبق عند تسابق الأعيان» وقال لسان الدين بن الخطيب : كان ابن قزمان نسيج وحده أدباً وظرفاً ولوذعية ... وكان أديباً بارعاً حلو الكلام مليح النثر مبرزاً في نظم الزجل ، قال : وهذه الطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع وتنفسح لكثير مما يضيق على الشاعر سلوكه ، وبلغ فيها أبو بكر رحمه الله مبلغاً حججه الله

عمن سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وفارسها المعلم (والمبتدى فيها والمتمم) ص ٣٥٦ ج ٢ : نفع الطيب .

وقد شاعت أزجال ابن قزمان وأواع بها الناس خصوصاً المشاركة ، حتى كانت في القرن السابع كما قال ابن سعيد العربي ، مروية في بغداد أكثر مما هي في حواضر المغرب ، واشتهر مع ابن قزمان من معاصريه بهذه الطريقة عيسى البليدى ، وأبو عمرو بن الزاهر الأشيبلى ، وأبو الحسن المقرئ [الداني] وأبو بكر بن [مدين] ، وكان في عصرهم بشرق الأندلس محلف الأسود ، إلا أن إمامهم المجمع عليه إنما هو ابن قزمان . ثم جاءت بعد هؤلاء حلبة كان سابقها عبدالله بن الحاج المعروف بمدغليس ، وهو خليفة ابن قزمان في زمانه وقد وقعت له العجائب في هذه الطريقة ، وامتاز عن ابن قزمان بصنعة ألفاظه حتى طارت شهرته بذلك ، وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبي تمام ، بالنظر إلى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى ومدغليس ملتفت إلى اللفظ ، وكان أديباً عربياً لكلامه مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل أنجب ، اقتصر عليه (ص ٢٣٧ ج ٢ : نفع الطيب) ، وقد ذهب مدغليس بشهرة القرن السادس ، حتى ظهر ابن جحدر الأشيبلى في النصف الأول من القرن السابع ، وكان إمام الزجالين في عصره ، ثم كانت الإمامة بعده لإمام الأدب أبي الحسن سهل بن مالك ، ثم استقل بها في أول المائة الثامنة أبو عبدالله الألوسى ، ثم محمد بن عبدالعظيم من أهل وادي آش ، ومعاصره لسان الدين ابن الخطيب الشهير ، وفي هذه المائة صارت الطريقة الزجلية فن العامة بالأندلس ، واستحدثوا منها نوعاً سموه الشعر الزجلي ، وذلك أنهم ينظمون بها

في بحور الشعر ، لكن بلغتهم العامية ، فتجمع وزن الشعر ولحن الزجل على المبالغة المألوفة .

أما المشاركة فقد أولعوا بالزجل وأكثروا من أوزانه ، حتى قالوا : صاحب ألف وزن ليس بزجال ، والمتأخرون من أهل هذا الفن يقولون لأنه لم يتصل بهم أكثر من خمسين وزنا . وتفننوا في إيداعه أنواع البديع ، ومن أشهرهم في ذلك علاء الدين بن مقاتل الحموي من أدباء الملك المؤيد صاحب حماة ، وقد استشهد ببعض أزجاله ابن حجة في كتابه خزنة الأدب في باب الجناس المقلوب وفي باب التوجيه وغيرهما (ص ٥٠ ، ١٧٠) متابعا في ذلك الشيخ شمس الدين بن الصائغ ، فقد ذكر أنه استشهد في شرحه المسمى رقم البردة بشيء من أزجال أهل عصره على بعض أنواع البديع (خزنة الأدب) ، وقلده هو في ذلك ولكنه لم يورد لغير علاء الدين ابن مقاتل ، لذهاب شهرته شرقا وغربا ، وإيداعه في إيداعه ، واقتراعه في اختراعه .

وللمصريين تاريخ خاص في الزجل ، لأن هذه الطريقة توافق ما في طباعهم من اللين ومشايعة الكلام بشيء من التهمك الذي تبعت عليه صفة [الفتور] الطبيعية فيهم ، وهي التي يقال فيها إنها ذوق حلاوة النيل . وقد اخترع المصريون في الزجل نوعين سموهما البليقة والقرقية . قال صاحب كتاب الألفاظ القريب ، وهو أبو عبد الله محمد التنوخي ، في كلامه على الموشحات والأزجال : ومنها قرقيات المصريين وبليقاتهم ، والفرق بينهما وبين الزجل أن الزجل متى جاء فيه الكلام المعرب كان معيبا ، والبليقة لبست كذلك ، فيجىء فيها المعرب وغير المعرب ، ولذلك سميت بليقة ؛

من البلق ، وهو اختلاف الألوان ، وتفارق البليقة الفرقية في أن البليقة لا تزيد على خمس حشوات غالبا ، وقد تنتهي إلى السبع قليلا ، والقرقية تزيد كثيراً على حكم الزجل في ذلك ، وسميت القرقية كذلك من القرقة وهي لعبة يلعب بها صبيان الأعراب ، وهذه اللعبة سماها صاحب القاموس : القرق ، ووصفها ورسمت خطوطها في تاج العروس ، فانظرها هناك .

وقد كان اختراع البليقة في القرن السابع ، ثم تبسطوا فيها بعد ذلك فكانت القرقيات ، ولا تحقق تاريخها ، ولكنها متأخرة عن المائة السابعة حتما ، وقد استدللنا على ذلك بما ذكره صاحب فوات الوفيات إذ قال في ترجمة صدر الدين بن المرحل المتوفى سنة ٧١٦ بالقاهرة ، وهو المعروف في كتب الشاميين بابن الوكيل المصري : « وشعره مليح إلى الغاية ، وكان ينظم الشعر والموشح والدوبيت والخمس والزجل والبليق ، . فلو كانت القرقيات يومئذ معروفة لذكرها وإن كانت من الزجل ، فقد ذكر الخمس وهو من الشعر (ص ٢٥٤ ج ٢ : فوات الوفيات) .

وأشهر نوايع المصريين في الأزجال من المتقدمين ، الغباري الذي نبغ في عهد السلطان حسن ، فإن له أزجالا بعيدة الشهرة بما فيها من دقة الصنعة وإبداع المعاني وكثرة [التفنن] وقد رأينا في مجموعة من مدامه حملا زجليا (أهل هذا الفن يسمون ما يعادل القصيدة في الشعر منه : حملا) لرئيس العامة في هذا الفن على عهد محمد علي باشا ، وهو محمد الحباك القشاشي ، يزاهى ٥٦٠ بيتا ، مدح فيه أهل مصر على طريقة عامية ، وذكر علماءها وأشرفها ومنتزهاتها وعد أكثر أسواقها — لأنه من سوق كان يسمى القشاشين ذكره في الزجل — وقال في آخره ما يستدل منه أنه يعارض الغباري في حمل له بهذا

المعنى ، وقال : إن الغبارى ما استطاع أن يضبط محاسن مصر فيما وصف :
ومما استفدناه من هذه المجموعة ، أن للزجل أوزاناً كانت مشهورة ، منها
وزن : (أصبحت مصر نزهة للناظرين) ، ووزن (على دارى) ووزن
(فى الهند مكتوب) وللتأخرين من عوام العصر مثل هذه الأوزان أيضاً ،
ويعدون منها (بفتة هندی یا بنات) .

ولم يزل فن الزجل مشهوراً بمصر إلى عهدنا ، ولأهله فيه إحسان كثير
وهم يرتجلونه ويحاضرون به ، وقد ذكر الأديب عبد الله نديم المصرى
الشهير فى مجلة الأستاذ واقعة فى المساجلة بالزجل مع بعض رؤساء الفن من
العامة ، وكان الشرط أن من تلثم أو استبلع الآخر ريقه يبتغى بذلك مهل
البديهة وخلصة الفكر فهو المغلب ، وذكر هناك بعض الأوزان التى أخذوا
فيها ؛ فارجع إليها فإنها عجيبية .

والزجل اليوم أحد أنواع الشعر العامى الباقية لهدنا ، وقد اقتص
به المصريون ، فيقال : الزجل المصرى ، كما يقال : المعنى السورى ،
والزهيرى البغدادى .

ومما نوفى به فائدة هذا الفصل ، أن ظرفاء المصريين يقولون فى
الفنون السبعة التى نكتب تاريخها : « السبعة وتمتها » ويريدون بهذه « النمة »
فن الوار الذى ذكرناه وأجراً أخرى ينظمون عليها العامية فى أوزان
خاصة ، يعارضون بها أسماء البحور الشعرية ، ومنها المستطيل فى معارضة
الطويل ، والممتد فى معارضة المديد ، والمتوفر فى معارضة الوافر ، وغير
ذلك مما يبعث عليه الظرف المصرى ، وهو بحملته محدود من الزجل
فلا حاجة إلى إيراد أنواعه وأمثله .

فنون أخرى

قال ابن خلدون بعد كلامه على الأزجال : ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح ، نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضاً وسموه عروض البلد ، وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب ، مطلعها :

أبكاني بشاطى النهر نوح الحمام على الغصن في البستان قريب الصباح
فاستحسنه أهل فاس وأولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب
الذى ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم وفرعوه
أصنافاً إلى المزدوج والكارى والملعبة والغزل ، واختلفت أسماؤها باختلاف
ازدواجها وملاحظاتهم فيها ... الخ (انظر ص ٣٤٨ وما بعدها : مقدمة
ابن خلدون) .

... ونقل قطعة كبيرة من هذه الملعبة تشبه الشعر التاريخي المعروف
بالقصصى ، حتى ذهب بعض المتأخرين إلى أن أمثال هذه الملاعب تعتبر
نوعاً من الشعر القصصى وإن كانت عامية .

الإصمعيات والبدوى

وذكر ابن خلدون أيضاً أن العرب المستعجمين عن لغة سلفهم من
مضر يقرضون لعهد الشعر في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم
المستعربون ويأتون منه بالمطولات ... الخ (ص ٣٣٣ : مقدمة ابن خلدون)
وقد أورد في مقدمته بعض قصائد أمثلة على ما ذكر .

كان وكان والقوما

وهما كما قال أصحاب هذه الفنون فرعان من الزجل ، وإنما أفردوهما نوعين لتغيرات فيهما لا تكون في الزجل ، أما الأول فلا نعرف من تاريخه شيئاً ، وله وزن واحد وقافية واحدة ، وبستهملونه كثيراً في الوعظ ونحوه من المعاني التي تدخل فيها الحرفة والحدة ونحو ذلك ، كقول بعضهم :

ماذقت عمري جرعة أمر من طعم الهوى

الله بصبر قلبي على الذي يهواه

وأما القوما فقل أن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وإنما كان الناصر يطرب له فاشتهر في زمنه ، وهو من اختراع البغداديين ، قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان كما يفعل المسحرون بالقصص والأدعية لعهدنا ، وسمى بذلك من قول المنين (قوما نسحر قوما) وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث ، ثم فرعوا منه فروعاً دعوها الزهرى والخمرى وغيرهما على حسب المعاني التي ينظمون فيها ، ومن هذا النوع ما نظمه الصفي الخلي يسحر به بعض الخلفاء :

لا زال سعدك جديد دائم وجدك سعيد

(ج ٢ ص ٢٥٤ : المستطرف)

الحماق

وهو نوع قد يدخلونه في الزجل ، ولكن أكثرهم على أنه منفرد ، وهم ينظمونه قطعاً ، كل بيتين من القطعة في قافية (انظر ص ٢٥٥ ج ٢ : المستطرف) .

العامي الغريب

وهو نوع من النظم نشير إليه استطراداً ونلم به تفكّهة وتماحها ، وذلك أن « اللغويين » من أدباء العامة يخترعون ألفاظاً غريبة لا تجرى على وزن ولا تدخل في لغة . ثم ينظّمونها معاينة بها في الحفظ ، أو إغراباً في التفكّهة ، أو مبالغة في التشديق والتعجير ، كالقصيدة التي أوردها صاحب كتاب إعلام الناس ونسبها للأصمعي ، وقصتها هناك فارّجع إليها ، وهي من تكاذيب الظرفاء وباطل المنحول .

ورأينا في كتاب « نفحة الين » الأنصاري أنه اجتمع في بلدة كلكتة سنة ١٢٢٢ هـ رجل من العرب اسمه جواد سابط وقد ارتد عن الإسلام وسمى نائناً نائيل سابط ، وهو واحد فيما يرويه من المضحكات والهجائب ، قال : وله نظم على أسلوب أبي الهميسع المنسوب إليه لفظ « حَجَلَنْجَع » وذكر هناك بعض شعره ، ومنه قصيدة شنيعة يقول فيها :

بهشوا الخرباش عنه برخشوا طسعوا عن دارمي حين أشوا

وذلك يدل على أن أبا الهميسع كان متميزاً بهذه الطريقة ، وقد أولع بها أهل التعجير من المتأخرين ، ومنها قول بعضهم وقد ضبطناه بإملائه :

ياسائلي عن حَبَلَطَنْج عُجْرَفْتْ عَجْرَفْتَاهُ تَمْر كَالعَنْبَعَلْصِ

ولا نشك في أن هذه القافية في معارضة كلية أبي الهميسع التي ذكرها الأنصاري . وأول من ابتدأ هذه الطريقة من الفصحاء بشار بن برد أبو المحدثين كان يجيء بالسكلمات اليسيرة التي لاحقيقة لها فيحشو بها شعره ليتنادر بذلك ، ومنه ما حكاه قال : مات حماري فرأيت في النوم فقلت له : لم مت ؟ ألم أكن

أحسن إليك ؟ فقال :

سیدی خذ بی آتانا عند باب الاصبهانی
تیمتسی بینان وبدلّ قد شجانی
ولها خذ أسیل مثل خذ الشیفران

فقال له بعضهم : ما الشیفران ؟ قال : ما یدرینی ؟ هذا من غریب الحمار ،
فاذا لقیته فاسأله ! (ص ٦٤ ج ٣ : الاغانی) ، ثم استظرف الناس منه ذلك
فتروا فيه حتى بلغ مبلغه فی المتأخرین . والله أعلم .

الباب السادس

في حقيقة القصائد المعلقة ودرس شعرائها

السبع الطوال

هي المعروفة بالمعلقات ، المروية لامرئ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير ابن أنى سلى ، وليبد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث بن حلزة ، وكلهم جاهليون إلا لبيدا ، فإنه من المخضرمين ؛ وإنما سميت المعلقة ، لأن العرب اختارتها من بين أشعارها فكتبوها بالذهب على الحرير ، وقيل بماء الذهب في القبايطى (جمع قبطية - بالكسر والضم ، وهي ثياب إلى الرقة والدقة والبياض ، كانت تتخذ بمصر من السكتان) ثم علقوها على أركان الكعبة ، وقيل في أستارها ، وزاد بعضهم أنهم كانوا يسجدون لها كما يسجدون لأصنامهم . .

أما أن هذه القصائد من مخنارات الشعر فأمرٌ لا ندفعه ؛ لأن العرب في الجاهلية كان يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يُعبأ به حتى يأتى مكة فيعرضه على قريش ، فإن استحسناه روى وكان نغراً لقائله ، وإن لم يستحسناه طُرح وذهب فيما يذهب ؛ قال أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ (وقيل ١٥٩) : وكانت العرب تجتمع في كل عام بمكة ، وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش .

وأما خبر الكتابة بالذهب أو بمائه والتعليق على الكعبة ففي روايته نظر ، وعندى أنه من الأخبار الموضوعية التي خفي أصلها حتى وثق بها المتأخرون ، وإنما استدرجهم إلى ذلك أن هذه القصائد تكاد تكون الصفحة المذهبة من ديوان الجاهلية ، وأن العرب قوم لم يصح من أدبانهم إلا دين الفصاحة وهو الذي دانوا به أجمعين ، فلو أنهم فعلوا ذلك لكانوا قد أتوا بشيء غير نكير ، وسنقص في أخبارهم وكتبهم أثر تلك الرواية ونورد ما رجح عندنا أنها موضوعية :

نقل ابن خلكان عن ابن جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٧ (وقيل ٣٣٨) أن حماداً الراوية هو الذي جمع السبع الطوال ، وحماد هذا توفي سنة ١٥٥ ، وفي المزهرة أنه أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، وقال البغدادي في خزنة الأدب (ص ٦١ ج ١) بعد أن ذكر أصحاب المعلقات : وقد طرح عبد الملك بن مروان شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة ، وعبد الملك توفي سنة ٨٦ ، فبين وفاته وبين وفاة حماد ٦٩ سنة ، ثم قال البغدادي : وروى أن بعض أسراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فساها المعلقات ، وفي رواية أخرى - في غير الخزنة - : فساها المعلقات الثواني .

وقال ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ (وقيل سنة ٢٠٦) : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، عُلِّق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه ، ثم أُحْدِرَ فَعَلِمَتْ الشعراء ذلك بعده ، وكان ذلك نغزاً للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر ، إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة .

وبمعارضة هذه الرواية بما ذكره أبو جعفر النحاس يتضح لك أن

أبا جعفر لم يثق بها ، فيكون خبر طرح عبد الملك وإثباته موضوعاً أيضاً ، خصوصاً وقد أغفله أبو زيد بن أبي الخطاب القرشي صاحب الجهرة المتوفى سنة ١٧٠ ، وابن الكلبي هذا هو الذي نقل عنه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرحه ديوان امرئ القيس عند ذكر قصيدته المختارة أنه قال : إن أعراب كلب ينشدون هذه القصيدة لابن حذام (هو امرؤ القيس بن حذام) وذكره امرؤ القيس بن حجر في بعض شعره حيث يقول :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبيكي الديار كما بيكي ابن حذام

ويروى حذام — بالخاء ، وحزام بالزاي ، وحمام . ويقال إن (لأننا) لغة في (لعلنا) ، حكى الخليل أن بعض العرب يقول : ائت السوق أنك تشتري لنا سويقاً ، أى لعلك . وكان ابن حذام يكي الديار قبل امرئ القيس .

وقد أغفل ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ رواية ابن الكلبي بحملتها في كتابه طبقات الشعراء ، ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعليهم أشار إلى هذا التعليق ولا سُمي تلك القصائد بهذا الاسم ، كالجاحظ والمبرد وصاحب الجهرة وصاحب الأغاني ، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم تنقلاً وأحياناً منها ، وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني المتوفى سنة ٣٥٦ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة ، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لماضره أن يقول : فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة .

وقال ابن قتيبة في ترجمة طرفه : وهو أجودهم طويلاً ، يعني مختارته . وفي ترجمة عنتره ، وكانت العرب تسميها الذهبية ، ولكنه قال في ترجمة الحارث ابن حلزة عند ذكر قصيدته : وهي من جيد شعر العرب ، وإحدى السبع المعلقات ؛ ولم ترد هذه اللفظة إلا في هذا الموضع ، غير أن البغدادى نقل

كلمة في الخزانة معرّوة إليه وأسقط منها لفظة المعلقة (ص ٥١٩ ج ١) فيكون ذكرها في طبقات ابن قتيبة زيادة من النسخ ، لشهرة الكلمة في المتأخرين وارتباطها بهذا النعت .

والأسماء التي وردت بها تلك القصائد فيما لدينا من كتب الأدب والبيان واللغة إلى آخر القرن الثالث ، هي : السبع الطوال ، والسموط ، والسبعيات ؛ أما الأولى فهي تسمية حماد ، وقد نقلها من الحديث « أعطيت مكان النوراة السبع الطوال ، وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام والأعراف ؛ واختلفوا في السابعة أنها يونس ، أو يوسف ، أو الكهف - وأما الثانية ففي الجمهرة عن المفضل أن امرأة القيس وزهيراً والنابغة والأعشى وليدأ وعمراً وطرفة ، أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط (ونقلها صاحب العمدة : السمط ، ونقلها عنه كذلك السيوطي في المزهر) ، فن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة ؛ فأسقط من أصحاب المعلقة عنرة والحارث بن حلزة ، وأثبت الأعشى والنابغة ؛ وهذا بما يدل على أن بين الرواة اختلافاً فيهم ، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لكان نصاً في تعيين الأسماء . وأصل التسمية بالسمط أو السموط عن حماد أيضاً ، ففي بعض أخباره قال : كانت العرب تعرّض أشعارها على قريش ، فما قبلوا منها كان مقبولاً ، وما ردّوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم :

• هل ما علمت وما استودعت مكتوم •

فقالوا هذه سمط الدهر ؛ ثم عاد إليهم في العام المقبل فأنشدهم :

• طحا بك قلب في الحسان طروب •

فقالوا : هانان سمط الدهر ؛ وهي رواية لا توافق ما قالوه من أن العرب

كانت تقرر لقريش بالتقدم عليها إلا في الشعر .

وأما السبعيات فهي تسمية وقفنا عليها في إعجاز القرآن للباقر المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ؛ وقد ذكر هناك ما تؤخذ منه حقيقة هذه القصائد ؛ قال : أنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ؛ ولا ترتاب في براعته ؛ وقد ترى الأدباء أولاً يوازنون بشعره فلانا وفلانا ؛ ويضمون أشعارهم إلى شعره ؛ حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره في أشياء لطيفة وأمور بديعة ؛ وربما فضلوهم عليه أو سقوا بينهم وبينه ؛ أو قرَّبوا موضع تقدمهم عليه وبرزوه بين أيديهم ؛ ولما اختاروا - أي الأدباء - قصيدته في السبعيات أضافوا إليها أمثالها ، وقرنوا بها نظائرها ؛ ثم نراهم يقولون : لفلان لامية مثلاً ... الخ ، وقد أورد ذلك وبالغ في مدح القصيدة ، ثم بين عوارها ، وزيف كثيراً من جيدها ، ليظهر الفرق بين أجود الشعر وبين القرآن في أسباب الإعجاز ، ويبرهن على أن نظم القرآن جنس مميز وأسلوب متخصص ؛ فلو صح عنده خبر التعليق وأن العرب هي التي اختارتها وقدمتها على سائر الشعر - لكان في ذلك دليل يشدُّ عليه يده شدَّ الحريص .

وفي الجهرة عن المفضل (هو المفضل بن محمد الضبي ، كان عالماً بالشعر وكان أوثق من روى الشعر من الكوفيين ، وهو معاصر لحمد الراوية ، وقد غلبه عليه بصدق الرواية عند المهدي كما سيمر بك في بحث الرواة*) بعد أن ذكر أصحاب السموط قال : وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بمدن سبعاً ما هن بدونهن ، ولقد تلا أصحابنا أصحاب الأوائل فاقصروا ، وهن «المجمهرات» لعبيد بن الأبرص ، وعنبرة بن عمرو ، وعدى بن زيد ،

وبشر بن أبي خازم ، وأمّية بن أبي الصلت ، وخداش بن زهير ، والنمر بن تولب
وأما منتقيات العرب فهن للسيب بن علس ، والمرقش ، والمتلس ،
وعروة بن الورد ، والمهلhel بن ربيعة ، ودريد بن الصّمة ، والمتنخل بن عويمر .
وأما المذهبات فلأوس والحزرج خاصة ، وهن لحسان بن ثابت ،
وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيجة بن
الجلاح ، وأبي قيس بن الأسلت ، وعمرو بن أمريئ القيس .

وعيون المرثي سبع ، لأبي ذؤيب الهذلي ، وعلقمة بن ذى جردن الحميري ؛
ومحمد بن كعب الغنوي ، والأعشى الباهلي ، وأبي زيد الطائي ، ومالك بن الريب
النهشلي ، ومتعم بن نويرة اليربوعي .

وأما مشوبات العرب وهي التي شابهن الكفر والإسلام ، فلنابغة
بني جمدة ، وكعب بن زهير ، والقطامي ، والحطيئة ، والشاخ ، وعمرو بن
أحمر ، وابن مقبل .

وأما الملحمت السبع فهي للفرزدق ، وجربير ، والأخطل ، وعبيد الراعي ،
وذى الرمة ، والكميت بن زيد ، والطرماح بن حكيم .

قال المفضل : فهذه التسع والأربعون قصيدة هي عيون أشعار العرب
في الجاهلية والإسلام (ص ٣٥) وبعد أن ساق صاحب الجهرة أخباراً
أخرى قال : هذا ما صححت به الرواية عن الشعراء وأخبارهم

فقد خاص لنا بما تقدم أن حماداً هو أول من اختار السبع الطوال
وشهرها في الناس ، وأن ابن الكلبي هو الذي ذكر خبر تعليقها على الكعبة ،
وهو قد علل ذلك بأن العرب ينظرونها في الموسم ، ثم ينزلونها أو يسقونها ،
وأن من عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق في رواية الشعر وأخباره لم يذكرها من

ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمى إلى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو بمائه في الحرير أو في القباطي ، وأن العرب بقيت تسجد لها ١٥٠ سنة حتى ظهر الإسلام ، مع أن امرأ القيس لم يفته الإسلام بأكثر من مائة سنة ، [وتسميتهم] لذلك المعلقات بالمذاهب ، مع أنك رأيت في رواية المفضل أن المذاهب قصائد أخرى للأوس والخزرج ، وذكر ابن رشيقي في العمدة رواية أخرى في تسمية الطوال بالمعلقات ، وهي أن الملك كان يقول إذا استجيدت قصيدة الشاعر : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزائنه ...

[(*) وليس ببعيد أن يكون ابن الكلبي ، وهو من متأخري الرواة ، قد رأى انصراف الناس عن شعر الجاهلية والتأدب به إلا فيما احتاجوا إليه من الشاهد والمثل ، ولا يكاد ذلك يعدو أشعاراً معروفة متداولة في أيدي العلماء لمكانة الشعر الإسلامي يومئذ ، وقد كثر فحوله وافتنوا فيه أياما افتنان ، وذهبوا في البديع كل مذهب ، فاختلق ابن الكلبي - أو غيره - خبر التعليق ، ليصرف وجوه الناس إلى هذه القصائد ، وهم يومئذ أكثر من قبلهم ولعاً بمآثر الجاهلية ، لعفاء الصبغة العربية من سياسة عصرهم كما يعرفه الواقف على التاريخ . وليس يشك أحد أنه لولا هذا الخبر لما بقيت هذه القصائد متداولة إلى اليوم ، لا لشاهد منها ولا لمثل فيها ، ولكن لوقوع اختيار العرب عليها . وعندنا أن الذي روى التعليق إنما أخذه من تعليق قريش للصحيفة ، وذلك أنه لما فشا الإسلام وقوى المسلمون بحمزة وعمر ، ائتمرت قريش في أن

(هـ) قلت : هذه الفقرة المحصورة بين العلامتين [] كانت في ورقة منفصلة ، وليس بها إشارة تدل على موضعها من البحث ، فأثرت لإثباتها في هذا المسكان .

يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بنى هاشم ولا يبيعوهم
ولا يبتاعوا منهم شيئاً ؛ فكتبوا بذلك صحيفة بخط منصور بن عكرمة ، ثم
علقوها في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم .

وأعجب شيء أنك لا ترى في كلام أحد من الصدر الأول من لدن النبي
صلى الله عليه وسلم ما يشير إلى ذلك الخبر ، مع أنهم تكلموا في الشعر
والشعراء وفاضلوا بينهم ، وورد في الحديث كلام عن امرئ القيس وعنترة ،
وكل ذلك مما يدل على أن ذلك التعليق إنما كان بجبل التلفيق !

وقد شرح هذه القصائد جماعة ذكر منهم صاحب كشف الظنون
أبا جعفر بن النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ ، وأبا علي الثعالبي المتوفى سنة ٣٥٦ ،
وأبا بكر البَطْلَيْمُوسِي المتوفى سنة ٣٩٤ ، وأبا زكريا بن الخطيب التبريزي
المتوفى سنة ٥٠٢ ؛ والدميري صاحب حياة الحيوان ، والزوزني المتوفى
سنة ٤٨٦ وشرحه مطبوع متداول ؛ وهي مشروحة أيضاً في كتاب الجمهرة ،
ولابن الأنباري عليها شرح مفرد .

وقد رأينا من ينكر أن هذه القصائد صحيحة النسبة إلى قائلها ، مرجحاً
أنها منحولة وضعها مثل حماد الراوية ، أو خلف الأحمر ، وهو رأى فائل ؛
لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها في كلام الصدر
الأول ؛ وإنما تصحح الروايات بالمعارضة بينها ؛ فإذا اتفقت فلا سبيل
إلى ذلك ، غير أنه مما لاشك فيه عندنا أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة
وتعارض الألسنة ، قل ذلك أو أكثر ؛ أما أن تكون بجملتها مولدة فدون
هذا البناء نقض التاريخ .

امرؤ القيس

هو حندج بن حجر ، الحندج الرملة الطيبة تنبت نباتاً حسناً ، وليس في العرب حُجْر - بضم الحاء - غير هذا ؛ ومعنى امرئ القيس : رجل الشدة ، والمسّمون بهذا الاسم في العرب جماعة ذكر منهم السيوطي ستة عشر في كتابه المزهر ؛ ومؤرخو الروم يذكرونه في كتبهم باسم قيس .

يُكنى أبا الحارث ؛ وأبا وهب ، ويلقب بالملك الضليل ؛ وذى القروح ؛ كان أبوه وأعمامه ملوكا على قبائل من العرب ؛ وكانت لأبيه على بني أسد إتاوة في كل سنة ؛ فغبروا على ذلك دهرا ؛ ثم إنه بعث إليهم جاييه الذي كان يُجيبهم فنعوه ذلك ؛ وحُجْر يومئذ بتهمة ؛ وضربوا رسله وخرجوهم ضرجا شديداً قبيحا ؛ فسار إليهم وأخذ سراهم فجعل يقتلهم بالعصا ؛ فسُموا عبيد العصا ؛ وآلى أن لا يساكنهم في بلد أبداً ؛ وحبس منهم عمرو بن مسعود ؛ وكان سيداً ؛ وعبيد بن الأبرص الشاعر ؛ ثم إن عبيداً استعطفه بأبيات منها :

برمت بنو أسد كما	برمت يبيضتها الحمامة
جعلت لها عودين من	نشمت وآخر من ثمامة
إما تركت تركت عفوا	أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم	وهم العبيد إلى القيامه

فرق لهم حجر وبعث في أثرهم ؛ فأقبلوا ؛ حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة ؛ تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة يحضهم على قتله ؛ فركبوا كل صعب وذلول ؛ فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر

حجر ، فهجموا على قبتة وخبم عليه حجابه لئيموه ويجيروه ، فأقبل عليهم
علياء بن الحارث الكاهلي ، وكان حجر قد قتل أباه ، فطعنه من خلفهم ،
فأصاب نساءه فقتله ، وقيل غير ذلك ، وأنهم أخذوه أسيراً في حرب بينهم
وبينه ، فوثب عليه ابن أخت علياء فطعنه ولم يجهز عليه ، فأوصى ودفع
كتابه إلى رجل وأمره أن ينطلق إلى أولاده ويستقرهم واحداً واحداً
حتى يأتي امرأ القيس ، وكان أصغرهم ، فأبهم لم يجزع دفع إليه سلاحه
وخيله ووصيته ، وكان بين فيها من قتله وكيف كان خبره ، فانطلق الرجل
بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، ثم استقرأهم
واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم
له يشرب الخمر ويلاعبه بالترد ، فقال له : قتل حجر ا فلم يلتفت إلى قوله
وأمسك نديمه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ؛ فضرب ، حتى إذا فرغ
قال : ما كنت لأفسد عليك دستك ا ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ،
فأخبره ؛ فقال : « الخمرُ علي والنساء حرام حتى أقتل من بني أسد مائة وأجز
نواصي مائة ا »

وفي خبر آخر أن حجراً كان طرد امرأ القيس وآلى أن لا يقيم معه ،
أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في
أحياء العرب ومعه أخلاط من سُذَّاذ العرب من طيئ وكلب وبكر بن وائل
فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم
وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم
وغنته قبانه ، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى
غيره ، فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدمون من أرض اليمن فقال : ضيعة

صغيراً وحملى دمه كبيراً ، لاصحو اليوم ولا سكر غدا ، اليوم خمر وغدا
أمراً ثم شرب سبعا ، فلما صحا آلى أن لا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ،
ولا يدهن ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره ؛ وفي
الأغاني رواية أخرى عن سيويه عن الخليل بن أحمد (ص ٧٥ ج ٨) .

ثم إنه نهد إلى بني أسد فقاتلهم ، وكان أدركهم ظهراً وقد تقطعت
خيله وقطع أعناقهم العطش ، فكثرت الجرحى والقتلى ، وحجز الليل
بينهم وهزبت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب - وهم الذين كانوا معه -
أبوا أن يتبعوهم وقالوا له : قد أصبت ثأرك ؛ قال : والله ما فعلت
ولا أصبت من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحدا . قالوا : بلى ،
ولكنك رجل مشنوم ، وانصرفوا عنه ، فمضى هارباً لوجهه ، حتى أمده
مرشد الخير بن ذى جدن الحميري ، وتبعه شذاذ من العرب ، واستأجر
رجالا من القبائل ثم خرج فظفر ببني أسد ، وألح المنذر في طلب
امرئ القيس ووجه إليه الجيوش فنفروا من كان معه ونجا في عصبته ،
فكان ينزل على بعض العرب ويرحل حتى قدم على السموول فعرف له
حقه ، فكان عنده ما شاء الله ، ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث
ابن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر ، فاستنجد له رجلا فلما انتهى
إلى قيصر - ذكر مؤرخو الروم أنه القيصر يوستينيانس ، وقال بعضهم إن
امراً القيس قدم عليه في القسطنطينية فقلده إمرة فلسطين ، إلا أنه لم يسع
في إصلاح أمره وإعادة ملكه ، فضجر وقفل راجعا ، ثم أصابه مرض
كالجدري في طريقه كان سبب موته - قبله وأكرمه وضم إليه جيشا كشيفا
فيهم جماعة من أبناء الملوك ، فلما فصل من عنده [وشى به] الطماح ، وهو رجل

من بني أسد كان امرؤ القيس قد قتل أخوا له ... (ص ٧٣ ج ٨ : الأغانى).
ثم دفن في سفح جبل يقال له عسيب ببلدة تدعى أنقرة ، وقيل إن
ذلك سنة ٥٣٨ للميلاد ، أى سنة ٨٤ قبل الهجرة ، وقيل سنة ٥٦٥ م ،
ووفيات الجاهلية لا يعتمد فيها على نصوص التاريخ إلا الذين تكون
أدمغتهم مجلدات من التاريخ القديم ...

طويلة امرئ القيس

ذلك نبذ من تاريخ أمير الشعراء بسطنا منه بعض ما يكشف لك وجه نشأته ، لتعرف الأخلاق التي كان لابد لشعره أن يظهر بها مظهر التميز والمتخصص ، ثم نحن نسوق إليك طرفاً من الحديث عن طويلته ، ثم نقذف بحملة الكلام عن شعره في فصل انتقادي ؛ لأن امرأ القيس ليس بالشاعر الذي يقال فيه وُلد ومات ، فيترجم بالفاظ لا تفوت حتى تموت ، ولكنه الرجل الذي افتتح به ديوان التاريخ الأدبي ، وما زال فيه كأنه قطعة من الزمن ، لا يغيره الموت ولا يغييه الكفن !

كان من حديث تلك القصيدة أن امرأ القيس كان مولعاً ببنت عم له يقال لها فاطمة ، وأنه طلبها زماناً فلم يصل إليها ، حتى كان يوم الغدير (*) [حين مرت به فتيات وفيهن ابنة عمه يرذن الغدير لبيتردن ، فتبعهن مخفياً ، فلما تجردن ودخلن الغدير وثب على ثيابهن فأخذها وقعد عليها ، وقال : والله لا أعطى واحدة منكن ثوبها حتى تخرج كما هي فتأخذه بيدها . فأبين ذلك عليه ، حتى ارتفع النهار ؛ فلما خشين فوات الوقت خرجت إحداهن فوضع لها ثيابها ناحية فلبستها ..] ، ثم تتابعن على ذلك حتى فضحن جميعاً ، وذلك العهر الذي ليس بعده خلق ذميم ولا عهد أثيم ، ثم حملن متاع راحلته بعد أن نحرها لهن ، وحملته ابنة عمه على غارب بعيرها ، فلما راح إلى أهله نفث الحديث على لسانه ، فقال هذه القصيدة وقص فيها ما كان وجعلها حديثاً باقياً على الدهر .

وقد قابلنا بين أربع نسخ منها بروايات مختلفة ، فما وجدنا نسخة تساوى

(*) قلت ما بين العلامتين [] زيادة على الاصل .

الأخرى في عدد أبياتها ، فهي في الجمهرة سبعون بيتاً ، وفي الديوان الذي شرحه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب ٧٧ بيتاً ، وهو ينقل في مواضع من شرحه عن ابن النحاس ، فلعله قابل على نسخته ؛ وفي شرح الزوزني ٧٩ ، وفي نسخة أخرى من ديوانه ٧٥ بيتاً ؛ وهذه النسخ تختلف مع ذلك في كثير من الأبيات تقديماً وتأخيراً ، وفي رواية بعض الألفاظ ، بحيث لا يجتمع اثنتان منها على صورة واحدة .

أما القصيدة فقد وقف فيها واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الديار والآثار ، ثم استشعر العزاء وتجلد ، ثم التاع وتهد ، ثم كأنه عفا وتجدد ، وذكر يوم الغدير ، ووصف عقربا نافته للعدارى ، وتبدله لمن تبدل الجازر ، وارتماه من بلحمها وشحمها ، ثم ألم بأطراف العفاف من ابنة عمه ، وتعهّر في ذلك حتى كأن الكلام لا يمر بقلبه بل يخلقه لسانه خلقاً ، إلا في أبيات قليلة ووصف الجمال وصفاً ظاهراً يبلغ شهوة النظر ، ثم وصف طول الليل وخرج من الفخر إلى صفة الخيل ، واستتبع ذلك بالصيد والقنص والطعام ، ثم رفع عينيه إلى البرق والسحاب ، وخفضها إلى الجبل فزمله من المطر في ثياب ، ثم أغمضها وسكت كما يسكت على خير جواب .

والمختار من ذلك كله قوله :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل	وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
أغرّك منى أن حبسك قاتلى	وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عينك إلا لتضربني	بسهميك في أعشار قلب مقل
تصد وتبدي عن أسيل وتتنق	بناظرة من وحش وجرة مطفل

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليتسلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناه بكلنكل
ألا أيها الليل الطويل ، ألا انجلى بصُبحٍ ؛ وما الإصباحُ منك بأمثل
وقد أعتدى والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيسكل
مكسرٌ مفترٍ مُقبِلٍ مدبرٍ معاً بكلهودٍ صخرٍ حطه السيلُ من عِل
له أبطلاً ظنبي وساقاً نعامه وإرخاء سرحانٍ وتقريبُ تتفل

شاعرية امرئ القيس وأسباب شهرته

كان امرؤ القيس يمانى النسب ولكنه كان زارياً الدار والمنشأ ، فإن الديار التي وصفها في شعره كلها ديار بني أسد ، ومن ثم كانت له الفصاحة ؛ وقد رأيت أن أباه وأعمامه كانوا ملوكا ، ولملكهم قصة رواها صاحب الأغاني ؛ فلم يألفوا ما ألفتة العرب من خشونة العيش وجفاء البداوة ، بل كان أبوه حين يرتحل يقدم بعض ثقله أمامه ويهَيئُ زُلَّهُ ، ثم يجيء وقد هُيئَ له من ذلك ما يعجبه ، فضربت القباب ، واجتمعت القيان ، فينزل ، ويقدم مثل ذلك إلى ما بين يديه من المنازل (ص ٦٧ ج ٨ : الأغاني)

فلا جرم كان ميراث امرئ القيس منه هذه الكبرياء التي تسمع شعره ، وتلك النعمة التي يرف بها ريفياً ؛ وقد كان المهلهل الشاعرُ خالهُ ، فنزع إليه بالعرق ، واجتمع له الشعر والنعمة والكبرياء ، على فراغ وشباب ، فأفسدته ، فشب خليعاً ماجناً يتعهر في شعره ، ولم يطرده أبوه أنفة من الشعر لأن الملوك كانت تأنف منه كما يروى ؛ ولكن حياء مما فيه ؛ إذا كان شعره قد تغالبت عليه الشهوات حتى كأنه صورة قلبه ثم كانت العرب تروى ذلك منسوباً إلى ابن ملك من ملوكها ، وقد كان أبوه أراد أن يشغله عن الشعر فجعله في رعاء إبله حتى يكون في أتعب عمل ، فلما كان الليل بات يدور إلى متحدثه حيث كان يتحدث ، فقال أبوه ما شغلته بشيء ، ثم أرسله في خيله ، فكذلك ؛ ثم جعله في الضأن ، فمكث يومه فيها ، حتى إذا أمسى أراحها ، فلما بلغت المراح دنا أبوه يسمع فإذا هو يقول أخزاها الله وقد أخزاها ، من باعها خيرٌ من اشتراها ! ثم سقط ليلته لا يتحرك ، فلما أصبح قال أبوه : اخرج

بها فمضى حتى بعد عن الحى وأشرف على الوادى ، فحنا فى وجهها التراب
فارتدت ، وخرج مراغماً لأبيه ، فكان يسير فى العرب يستمتع صعاليكهم
وذؤبانهم ، ويطلب الصيد والغزل وما إلى ذلك فلم يبق فى شعره فضل
لشرف النفس والعفة والحفاظ ولولا تصعلكك ومخالطته الرعاء لما جنح
فى التشبيه إلى مساويك الإسحل ، وحب الفلفل ، ونقف الحنظل ، وغيرها
بما هو فى شعره ؛ ولما جاء من ذلك بالساقط والسفساف ، وقد عابه عليه
المتأخرون وما أنصفوه ، لأنه لا يكون كائن المعتر الذى إليه انتهى التشبيه
فى صناعة الشعر ، فهو يصف ماعون بيته إذ يقول فى الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فانتقاد الشاعر من هذه الجهة خطأ بين لأن ذلك سبب طبيعى لا قبل
لانتقاد به وهو أشبه شئ بعيب الطويل لطوله ، والقصير لقصره ، والحبل
للسعته ، ونحو ذلك ، مع أن فى تلك مناسبات أخرى تستدعى الإعجاب
وتعد فى محاسن الخلق .

ولا يذهبن عنك أن الذين ينتقدون امرأ القيس وغيره بما هو من
خصائص الجاهلية ، إنما نشأ عندهم ذلك بعد مقابلته بنعمة الحضارة وترف
العمران ، ولو كانوا فى الجاهلية لكانوا أجهل منه ؛ وليكن فى شعر كل شاعر
ما يمكن أن ينتقد فى كل زمن ، وذلك مما يكون سبيله سبيل المعانى الطبيعية ،
ولا يتفاوت فى الناس إلا بميزات أخرى ترجع إلى النشأة وسلامة الذوق
وخلوص الفطرة ونحوها من الصفات التى هى تأويل معنى التفاوت .

ومن تدبر ما نقلوه من شعر امرئ القيس يخيل له أول وهلة أن هذه الشهرة
التي رزقها ليست على مقدار شعره ، ولا هى فى وزن براعته ، وليكنها جامته من

ذكره في الحديث الشريف ، وما زين به الرواة أخباره وشعره حتى كأنما عوضه الدهر من ملك النسب ملك الأدب ، ولكن ذلك إنما يعتربه إذا قرأ بعض ما نسب إليه لا جميعه ، لأن في شعره منحولا كثيرا ، وبعضه يلائم ديباجته فيكاد يلتحم به حتى لا يميزه إلا دقيق النظر ، ولا برهان لدينا على النفي والإثبات في شعر مثل امرئ القيس ومنزلته ماهي ؛ وليس من شاعر أو راوية إلا وقد أحب أن يكون له في كلامه لفظ أو معنى ، ولذلك تعاوروا ألفاظه بالتغيير والتبديل ، وأدخلوا في شعره ما ليس منه ، وقد نص بعضهم على أنه لم يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة (ص ٦٧ ج ١ : العمدة) ولذا نفي الأصمعي الآيات المروية التي يقول فيها :

ألا إلا تكن إبلٌ فَمِعْزَى كَأَنَّ قُرُونًا جَلَّتْهَا الْعِصِيُّ

وقال إن امرأ القيس لا يقول مثل هذا ، وأحسبه للحطية . فاستطاع أن يستدل على ذلك إلا بقوله فيها :

فَتَوْسَعُ أَهْلَهَا أَقِطًا وَسَمْنَا وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى شَيْعٍ وَرِيٍّ

لأن مثل هذا لا يقوله من يذكر عن نفسه أنه لا يقتصر إلا على الحصول على الملك (ص ١٧٥ : شرح ديوانه) . وإنما يناسب مثل الحطية لما في شعره من الجشع والضراعة .

وقد بالغوا في الحمل عليه حتى كأنه دابة الشعر ، فنسبوا له سخف القول وساقط الكلام وما يجرى مجرى الهذيان ؛ ورأيت في بعض نسخ ديوانه قصيدة لامية أشبه شيء بالجلجلوتية وشعر الطلاس ، منها :

فكم كم وكم كم ثم كم كم وكم كم قطعت الفيافي والمهامم لم أمل

وكاف وكفكاف وكفى بكفها

وكاف كفوف الودق من كفها انهمل

وهذا المغفل الذي نحله هذه القصيدة جرى في بعضها على قياس قوله
في القصيدة التي تروى له (ص ١١٩ : من ديوانه) :

وسنّ كسُليبي سناءً وسنمٍ ذعرتُ بميدلاج الهجير نهوض

ولعل هذه «الكلمة» من قول محمد بن منذر البصري في معنى التكنير
(ص ٦٠ ج ٢ : العمدة) . غير أن الناقد البصير يستطيع أن يتبين أسلوب
امرئ القيس من قراءة قصيدتين أو ثلاث مما صح له ، فيستخلص منها
صفات شعره التي ميزته بالتقديم وجعلته أمير الشعراء وصاحب لواتهم ؛
إذ كان أحسنهم نادرة ، وأسبغهم بادرة ، وقبل أن تأتي على شيء من ذلك
نذكر نشأته الشعرية وما استخلصناه من الأسباب الطبيعية في شهرته :

كان امرؤ القيس يروى شعر أبي دؤاد الإيادي ويتوكأ عليه (ص ٦١
ج ١ : العمدة) وهو فحل قديم كان أحد نعات الخيل المجيدين . قال
الاصمعي : هم ثلاثة : أبو دؤاد في الجاهلية ، وطفيل ، والجعدى . قال :
والعرب لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد ، وذلك أن ألفاظهما
ليست بنجدية (ص ٣٨ : الطبقات) .

فلو أن امرأ القيس لم يكن من أهل نجد لكانوا قد أهملوا رواية شعره
تم هو كان يعرف أن امرأ القيس بن حذام يبكي في شعره الطلول ؛ فأخذ
ذلك عنه كما أخذ صفة الخيل عن أبي دؤاد ، وتراه يحاول أن يلحقه في
إجادة نعتها والشهرة بذلك ؛ حتى لا يخلو أكثر شعره من هذا الوصف .

وقد كان يعاصره من الشعراء المعروفين : علقمة بن عبدة ، وعبيد بن

الأبرص ؛ والشنفرى ، وأبو دؤاد ، وسلامة بن جندل ، والمثقب العبدى ،
والبراق بن روحان ، وتأبط شرا ، والتوم اليشكري ؛ وكان من حشم آية
شاعر اسمه عمرو بن قسبة ، وهو الذى ذكره فى قصيدته التى قالها حين
توجه إلى قيصر ، وذلك فى قوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا

وكل هؤلاء لم يقع للرواة من شعرهم مقدار ما وقع فى أيديهم لامرئ القيس ؛
فكان ذلك سببا من أسباب تميزه وانفراده .

وتم سبب آخر ، وهو أن الذى فى يد العلماء من أهل الغرب والعربية
وعلماء البيان لا يجتمع منه لشاعر واحد جاهلى ما اجتمع لامرئ القيس ؛
وهو عندهم طبقة متميزة لفصاحته وقدمه ؛ فشعره أشبه شئ بأقدم كتاب
فى اللغة عند من يظفر به من المتأخرين ، وكأنما كان بعضهم يحلّه عن
الانتقاد فى ألفاظه ؛ فكل ما استعمله فصيح من حيثما تلقفه وكيفما جاء به ؛
وإن كان ذلك لاشك فى صحته دون فصاحته ؛ فإن أهل النظر من علماء
البصرة يقولون فى تأويل بيته :

لها متنتان خَطَّانا كما أكب على ساعديه النمر

إنه لما جاور فى طيى علق من لغتهم ، وهم يقبلون الياء ألفا ؛ يقولون
فى رضينا : رَضَّانا ؛ وكذلك خطَّانا أصله خطَّيتنا ؛ فقلب الياء ألفا ؛ وهى لغة
لم يلتزمها الشاعر ، ولاوجه لها إلا أن يكون ميزان لسانه قد تعطل فى هذه
الكلمة كما تعطل فى غيرها ؛ فأنحدرت منه ثقيلة غثة باردة ؛ والعجيب أن
علماء المعانى والنحو والعروض انتقدوه جميعا وأخذوا عليه أشياء كثيرة ؛
ولكن مات الانتقاد وبقيت الألفاظ حية ؛ حتى إن أكثر ما قالوه لا يُعرف

اليوم ولم يُورد منه سُراح ديوانه إلا القليل ؛ ولعلمهم فعلوا ذلك ليتكافأ الانتقاد مع شهرة الرجل ، وهؤلاء أصحاب البيان مازالوا يطأطئون من الغدائر المستشزرات في كلامه ويضربونها مثلاً في التنافر والثقل ، ولكن (مستشزرات) هذه كانت قد رسخت قبلهم حتى لم يستطيعوا أن يحدروها عن منزلتها من الشهرة ، وذلك من عجائب امرئ القيس ، فإن له ألفاظاً وإن كانت أحجاراً ، إلا أنها ثابتة من شهرته في جبل .

والعلماء بالشعر يقولون إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ؛ لأنه أول من لطف المعاني ، ومن استوقف على الطول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيّض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وفرق بين النسب وماسواه من القصيدة ، وقرب مأخذ الكلام ، فقيّد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ؛ وقلبا يخلو كتاب في الأدب من هذه الكلمة ، وهي مع ذلك مقبولة كأنها ناموس من نواميس الطبيعة في شهرة هذا الشاعر ، على أنها - كما ترى - لم تعزز ببرهان ، ولم يمسكها دليل ؛ فليس ما يمنعنا أن نمسها بالمحك فنخلص إلى حقيقتها .

أما أنه أول من لطف المعاني واستوقف على الطول الخ ، فلا يكون دليله إلا تتبع كلام العرب بمن كانوا قبله ، وإدارة الأذان في هواة الجزيرة من أكتافه ، وهو شيء لا يصدق مدعيه كائناً من كان ، لأن العرب أنفسهم أهملوا رواية كلام أبي دؤاد كما ذكر الأصمعي ، وسيله سبيل غيره ، فضلاً عن أهملهم الزمن وجلّدت صدورهم التي هي دواوين أشعارهم بصفحات من الكفن ؛ وانظر ما معنى قول ذلك القائل : « وإنه أول من فرق بين النسب وماسواه من القصيدة » فإن هي إلا كلمة مولّد قصير النظر في

مطارح الكلام ، كأن شعراء العرب كلهم كانوا على سنة المولدين من افتتاح القصيدة بالنسيب ثم التخلص بعد ذلك إلى ما يأخذون فيه من المعاني ، وهو رأى لم يقل به أحد ؛ ولا يزال في القصائد المروية قبل امرئ القيس بقية من القوة على تكذيبه ..

وأما أن هذا الشاعر أول من قزب مأخذ الكلام ، ففيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ، فهو الصحيح ، ولكن لا على أنه أول من ابتداء ذلك ، بل على أنه أول من اشتهر به وابتدع فيه ، وجملة ما حفظ له منه أشياء معدودة ، غير أنها لو توزعها شعراء الجاهلية لزانتهم جميعا .

بقي سبب آخر من أسباب شهرة امرئ القيس في العرب وبقاء شعره على ألسنتهم وهو أنهم يجدون في بعض كلامه رقة المناادمة وطرب الخمر وفنور الغزل وغير ذلك ، مما هو من حظ القلب ، ثم هم يرونه إذا أخذ في غير هذه المعاني يطبع ألفاظه على قلبها من الاستعارة والتشبيه ، فإذا قابلوا ذلك بخشونة غيره وانصرافه إلى أوصاف البداوة ، وجدوا في شعره كالظل الذي يفيء ، والماء الذي يجري ، والحسن الذي يتميح ، والنسيم الذي يترنح ؛ فكان ولا جرم كأنما يستهويهم استهواء ، وكان بمجموع شعره في البدو حضارة وفي الحضرة بداوة ؛ وهذا مروان بن أبي حفصة الشاعر أنشده العتيبي لزهير ، فقال : هذا أشعر الناس ، ثم أنشده لامرئ القيس فكانما سمع به غناء على الشراب ، فقال : امرؤ القيس والله أشعر الناس (ص ٩ : الطبقات) ومروان شاعر [في صميم] الحضارة ، فكيف بالعرب ؟ وعندى أن هذا أعظم ما تتميز به شاعرية امرئ القيس ؛ لأنه دليل الصنعة التي [تبرز على] الطبع ، والطبع الذي يبلغ في سموه مبلغه بالصنعة ؛ وهو الدليل الذي لو سقط من شعره لسقط بشعره لا محالة .

شعر امرئ القيس

لم نعد ما عددناه من أسباب شهرة هذا الشاعر وهو قليل بحمل ، إلا توطئة لما يأتي من انتقاد كلامه ، فإنه عند المتأخرين أفق لا يحس إلا بالنظر ، ورجل كأنما كانت شهرته قدراً من القدر ، يأخذون ذلك بالتسليم ، ويقولون هو أمر كان من قديم ؛ مع أن أدباء الصدر الأول قد تكلموا في خطئه في العروض والنحو والمعاني ، وعابوا عليه كثيراً من شعره وخطبوه في وجوه من التصرف ، ولا يزال ديوانه يدعو إلى ذلك ، لأنه هو هو اليوم وقبل اليوم ، غير أن أولئك المتأخرين أصبحوا يرون هذا الديوان كدار الآثار : لا يطمع الحى ببعض الإجلال لميت من أمواتها ...

كل ما يتناوله امرؤ القيس في شعره من المعاني ، لا يتجاوز الغزل ، والاستهتار بالنساء ، ووصف الصيد والخمر والطيب والخيل والنوق وحر الوحش والطلول والجبال والبرق والمطر ؛ أما افتخاره في شعره فقليل جيد ، والحكمة فيه أقل وأكثر جودة ، ومن عيونها قوله :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلب وهو يُخرج بعض ذلك مخارج نافرة ، فلا يتناسب شعره في الجودة ، ولا يطرد في سلامة اللفظ ، ولا يتشابه في صحة المعنى ، بل يجيء بالشريف والسخيف ، والمبتذل والضعيف ؛ حتى كأن شعره صُور على اضطراب أخلاقه ، ولا يعلل ذلك إلا بتفاوت الأحوال التي يقول فيها ، وأنه لم يكن يقصد إلى الشعر قصداً إلا في القليل الذي أجاده وبرع فيه ، أما فيما عدا ذلك

فقد منعتهُ الثقةُ بنفسه أن يقتنع عليها ويقابل بين وجوه الكلام ، وذلك بديهي : وإلا فلا معنى لأن يكون مرة نجما في السحاب ومرة حجراً في التراب ؛ والشاعر الذي يسف إنما يسقط في طبقات الهواء لا في طبقات الأرض ؛ ولذلك كان جيد امرئ القيس أجود شيء ، ورديته أردأ شيء . وغزل هذا الشاعر ساقط كله ، لأن استهتاره وتبذله معناه أن يتلطف في المعاني بما يستلزمه الإبداع في التعريض والكناية ، والاكتفاء باللحمة الدالة ، فبردت حرارته بذلك التصريح ، وثقل على القلوب إلا قليلاً مما يفتن فيه ، فيجىء حسنه من صنعة المعنى لا من المعنى نفسه ، كقوله :

أغزك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمرى القلب يفعل؟

فإنه نزع فيه إلى الحماس ، وهو بيت لو دار في كل أمة لوجد له في شعرها موضعاً ؛ وكذلك قوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سُمُو حَبَابِ الماءِ حالاً على حال

وهذا البيت من مخترعاته ، فإنه أول من طرق هذا المعنى وابتكره ، وسلم الشعراء إليه ، قال صاحب العمدة : وهو أول الناس اختراعاً وأكثرهم توليداً (ص ١٧٥ ج ١ : العمدة) فلا ينبغي من شعره إلا الوصف ، ومداره على الاستعارة والتشبيه ، وسأخذ بطرف من الكلام فيهما ، ثم نفصل به إلى القول في معانيه ومباغ انطباق ألفاظه عليها ، لتبين موقع نظره في مطارح الكلام ، ومذهب فؤاده من أسرار الصناعة ؛ ولا بد لنا هنا من التنبيه على أن الأدباء قد وضعوا أشعاراً من البديع ونحلوها امرأ القيس ، يقصدون من ذلك إلى الغرض من شأن الذين اخترعوا تلك الأنواع ؛ حتى يوهموا أنهم سبقوا إليها ؛ أو إقامة الشاهد على بعض ما يتباغضون فيه من مبتذل الشعر .

ومن النوع الأول ما أورده ابن رشيق (ص ٥٥ ج ٢: العمدة) بعد أن
أورد بيتين لأبي نواس فقال: وأول من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس:
لَمِنْ طَلَّلُ دَارِسَ آيَةً أَضَرَ بِهِ سَالِفُ الْأَحْرِسِ
تَشْكُرُهُ الْعَيْنُ مِنْ جَانِبٍ وَيَعْرِفُهُ شَغَفُ الْأَنْفِيسِ
وليس فيما دونه لامرئ القيس؛ والتوليد فيه بين.

ومن الثاني ما أورده ابن رشيق أيضاً (ص ٢٥ ج ٢: العمدة) عند الكلام
على التقطيع والتقسيم من باب التصحيح، كقول المتنبي:
أَقِلْ أَنْلِ اقْطِعْ أَحْمَلْ عَلَّ سَلَّ أَعِدِ.

زُدْ هَشَّ بَشَّ تَفْضَلْ أذُنْ سُرَّ صِلْ

فإنه قال: وأصل هذا كله من قول امرئ القيس:
أَفَادَ بَجَادَ ، وَشَادَ فَوَادَ وَقَادَ فَذَاذَ ، وَعَادَ فَأَفْضَلْ
ومهما تهافت امرؤ القيس فلا أراه يسقط على مثل هذا.

استعاراته

قالوا إن الاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة، وليس
ضرورة؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم؛ وليس ذلك في لغة أحد
من الأمم غيرهم، فهم إنما استعاروا مجازاً واتساعاً، ومرجع ذلك إلى شرح
المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل
من اللفظ، أو بحسن المعرض الذي يبرز فيه، تبسطاً في اللغة، واسترسالاً
في طرق التعبير، فعلى هذا تكاد تكون الاستعارة البيان كله، وليس من
غرضنا أن نشرح أقسامها، أو نلم بما قالوه في تحقيقها، وإنما نتكلم عليها في

شعر امرئ القيس خاصة، فهي التي ميزت شعره، وقلدت في جيد الزمان
دره، وأكسبته شهرة أنه أول من أفلح في شق هذه الصدقة حتى زعم
ابن وكيع (ص ١٨٦ ج ١: العمدة) أن أول استعارة وقعت في الكلام قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناه بكلكل

وليس يخفى أن العربي الذي يجيء بالاستعارة المتمكنة إنما كان ينظر
فيها ويدبرها إدارة، بحيث لا تتفق اتفاقاً ولا تجيء عفواً إلا في النادر،
ولذلك قل الجيد منها في كلامهم حتى نزل القرآن، فتكون من هذه الجهة
اختراعاً يدل على قوة غير قوة الفطرة، وهي في شعر امرئ القيس أكثر
منها في المأثور من شعر غيره من الجاهلية، وأصفي ماء، وأعذب رواء،
وحسب ذلك أن يكون دليلاً على تفضيله، وأشهر الاستعارات التي اتفقت له
هذان البيتان.

فاستعار لليل سدولاً يرخيها، وصبلاً يتمطى به، وأعجازاً يردفها وكلكلاً
ينوم به. وقد تنازعهما الأدباء، حتى جرباً مجرى المثل، وقلما تجد كتاباً في
البيان خالياً منهما، وقد ذكر الآمدي في الموازنة البيت الثاني، ورد عليه
ابن سنان وجعله من الاستعارة المتوسطة، وفرق بينهما صاحب المثل السائر،
ولكنه على كل حال بمنزلة من الحسن.

وسنخط في البيتين كلمة موجزة: أما الأول فإن تشبيه الليل بموج البحر
تشبيه لا أحسن منه، لما يجيش فيه من الظنون ويتقلب من الخواطر، ثم هو
مرمى البصر من سريرة الكون؛ فذلك شبه اتساع البحر وغوره بالنسبة لما
يدرك النظر منه، غير أن قوله: أرخى سدوله، ذهب بذلك الحسن كله، إذ

أفاد أن الغرض من التشبيه غرض محسوس ، وهو أدنى أنواعه : لأن إرخاء السدول إنما يدل على السكون والحجاب ، لا أكثر من ذلك ، والكلمة استعارة لظلام الليل ، فصارت لفظة الموج لا معنى لها إلا إقامة الوزن ، وهي التي كانت عمود الحسن في التشبيه .

وأما البيت الثاني فقد أجمعوا على أنه في وصف طول الليل ، ولست أراه كذلك ، وإلا فلو تمطى كلب مازاد في وصف طولها على هذه الألفاظ ، وإنما أراد الشاعر نقل الليل وفتوره ، وأنه كلما هم أن ينجلي سقط ، كما يفعل الذي يتمطى ثم يردف أعجازه ثم ينوء بكليله . فالوصف حقيقة ممثلة وتصوير ناطق ، وعلى ذلك المعنى تكون الاستعارة أبلغ ما يمكن أن يقع في هذا الموضع ، وما أخطأ من عده من التشبيه المضمحل الأداة ، لأنه به أبقى .

ومن تصرفه بالاستعارة في شعره قوله :

وهرّ تصيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو حُجْر

هرّ : هي المعروفة بابنة العامري ، وكان يشبب بها امرؤ القيس ، وبفاطمة ، والرباب ، وهند ، وذرتنا ، ومليس ؛ وسلى ؛ ومعنى البيت أن أباه أفلت منها ، ولو رآها لصادته فيما نصيد . قالوا : واستعارة الصيد مع الهر مضحكة ، ولو أن أباه من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف . . .

فقد ألزموه الاستعارة كما ترى حتى قارنوا بينها وبين استعارة زهير في قوله (ص ١٨٣ ج ١ : العمدة) :

ليثٌ بعثَرٌ يصطاد الرجال إذا ما كذَّبَ الليث عن أقرانه صدقا

ولكنهم جهلوه فيها هذا الجهل وكيف بمثله من مثله ؟ والذي أرى أنهم

غفلوا عن المعنى الذى قصد إليه ؛ فإن هرا كانت من كلب ، وكان امرؤ القيس فى كلب وطئ أيام نفاه أبوه ، فهو إنما يتنادر عليه ، وإذا خرج البيت على هذا المعنى كانت الاستعارة فيه متوسطة ، ولكنها تكون سبباً لكناية من أبلغ الكنايات ...

ومن استمارته البديعة كلمته التى كأنما قيد بها شهرته فى هذه الحياة ، وذلك قوله فى الجواد : قيد الأوابد ؛ ولقد حاول المولّدون أن يجيئوا بمثلها ، غير أنها بقيت مفردة ، وذلك كقول ابن الرومى فى الحديث : شرك العقول وعقلة المستوفز ، وقول المتنبي فى صفة الجواد : أجل الظلم وربقة السرحان ، ورأيت لدريد بن الصمة كلمة تكاد تساويها فى الحسن ، وهى فى قوله :

يا فارساً ، ما أبو أوفى إذا اشتغلت كلنا اليبين كروراً غير وقاف
(عُبرُ الفوارس) معروف بشكته كافٍ إذا لم يكن من كربة كافٍ

فالكلمة هى (عُبرُ الفوارس) يريد بها أن الفوارس ترى منه ما يبكى

أعينهم ويستعبرها (ص ٢٥٥ : سرح العيون) .

وهذا وأمثاله مما يدل على فطنة الشاعر وحدة فؤاده ، وأن له من قوة الفطرة ما يقوم مقام الصنعة ؛ وتلك صفات يدل عليها كثير من كلامه ، غير أن امرؤ القيس إنما كان مبتدئاً فيما ابتدع ، ولذلك لا يمكن أن يؤخذ البديع كله من شعره ، وليس هذا بضائره ونحن الآن فى الكلام عن استعاراته ؛ ومن الاستعارة نوع اتفق علماء البديع أنها المقدمة فى هذا الباب وليس فوق رتبها فى البلاغة رتبة ، وهى الاستعارة المرشحة ، كقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ... ﴾ فإن الاستعارة الأولى وهى لفظ الشراء ، رشحت الثانية وهى لفظ الربح والتجارة ؛ وهذا النوع

لا تصيب منه في شعر امرئ القيس مثلاً واحداً ؛ والذي بقي من استعاراته إنما هو في سبيل ما قدمناه ، وهو قليل تدل جملة على قلب يعنى وفؤاد يصنع ، وشعر في زمنه شاعر ؛ ولا نستطيع أن نوازن بين مذاهبه في الاستعارة ومذاهب المولدين ، فلو سمع هذا الشاعر القرآن وكان أمويًا أو عباسياً ، لكان ابن المعتز ثانياً اثنين في الاستعارة والتشبيه .

وقد أخرجوا من كلامه كلمات جرت أمثالا ، ورواها الميداني والضبي وغيرهما (انظر شعراء النصرانية ج ١ ص ٦٨) .

تشبيهاته :

قد قلنا في استعارات امرئ القيس ، وترسمنا آثاره في ذلك المذهب بما يؤدي إلى حكم في الصناعة ، ويكشف عن غاية من غايات الرجل ؛ ونحن وإن لم نكن أفضنا في ذلك ، إلا أن هذا المنزع قريب ، ربما أغنى في بعضه الأمثال الواحد ؛ إذ كان امرؤ القيس مبتدئاً في شيء ومبتدعاً في شيء ، وجهده في جميع ذلك أن تُخصى له الكلماتُ المعدودة ، وهي لا تحتل الإفاضة على تقسيم الكلام إلى فصول وتمييز بعضها من بعض . ثم هو إنما كان شاعراً من شعراء الفطرة ، يعرض لسانه القول كما يعرض لعينه الوحش ؛ فينطلق كلاهما على نفس واحد يصنع القليل ولا ينقح الجملة ؛ فكان ما يجيء في كلامه من بدائع الصناعة هو الدليل على فضل قوته التي تغمر فؤاده وتصرفه إلى مشايعة طبيعة اللغة في النمو ، ولو صرفت تلك القوة إلى الصناعة التي [يعرق] فيها الكلام من كثرة تقليبه ، لكان للكلام في شعره مذهب آخر ؛ وأنت قد تجد للمتنبى بيتاً واحداً لو جُمع اختلافُ العلماء فيه ل زاد على

اختلافهم في جميع شعر امرئ القيس .

أما تشبيهاته فهي بجملتها ترمى إلى غرض واحد ، وهو تصوير الحقيقة تصويراً غير ملون ، وله فيها طرائق بديعة هو أول من ابتكرها ، كتشبيهه الإضافة في قوله :

له أَيْطَلًا ظَبْيِي وَساقًا نَعَامَةً وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبَ تَنْفِيلٍ
فقد جاء به — كما ترى — حتى جعله تحقيقاً ، وفيه أيضاً تشبيه أربعة بأربعة ،
وقد زعم الفرزدق أنه أكمل بيت قالته العرب ، أو قال : أجمع بيت (ص ٢١ ج ٢ : العمدة) وهو أول من فتح هذا الباب (ص ١٩٩ ج ١ : العمدة) .
وقد يحى بعضها مُخَدَّجًا غير تام الأجزاء ، وتبلغ ببعضها المبالغة إلى
الاعتساف والشطط ، كقوله في صفة الفرس :

وَأَرْكَبُ فِي الرُّوعِ خَيْفَانَةً كَسَاءَ وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

الخيفانة : الجرادة التي انساخت من لونها الأول الأسود أو الأصفر
وصارت إلى الحمرة ، فشبّه فرسه بها لحفتها ، وشبه ناصيتها بسعف النخلة ،
قالوا : وهذا الوصف غير مصيب ، لأن الشعر إذا غطى العين كان عيباً ،
وهو العَمَمُ ، والحسن منها أن تكون الناصية كأنها حبشة ، أى قصيرة بجمعة
(ص ١٣ ديوان امرئ القيس) وفي هذه القصيدة وهو مما نحن فيه :

لَهَا مَتْنَانٌ خَطَّانَا كَمَا أَكَبَّ عَلَى سَاعِدِيهِ النَّمِرُ

يريد أن لها متنين كساعدي النمر المبارك ، في الغلظ واكتناز اللحم ؛
والمستحب عندهم تعريق المَنّ وتعريق الوجه ، كما قال طفيل وهو أحد
نُعَاتِ الخَيْلِ المَجِيدِينَ :

مَعْرِقَةُ الأَلْحَى تَلُوحُ مُتَوُّبُهَا ٥

أى معرفة الوجوه ويكاد يستبين العصب من قلة اللحم ، وكذلك المتون ؛ وقد وصف امرؤ القيس الخيل فى هذه القصيدة وصف سمسار يزين فرسا فى السوق لا وصف فارس ، ولولا تصعلكك لجاء من ذلك بما لا يلحق له الشعراء غبارا ، وهذا شئ تعرفه بمقارنة معانيه فى الخيل بمعانى غيره من فرسانها . ومن قبل ما نحن فيه قوله فى الغزل :

وإذ هى تمشى كمشى النزير . فِ يَصْرَعُهُ بِالْكَيْبِ الْهَرِّ

يصف تفتت الحسناة فى مشيتها بمشية المنزوف دمه أو عقله بالسكر إذا صعد كثيرا فانقطع نفسه من الإعياء والكلال ، فانظر هذه المبالغة الباردة وهذا التشبيه القبيح ، وما عسى أن تكون تلك الحسناة إلا فى الدرجة الثالثة من السل ...

ولهذا الشاعر طريقة فى التشبيه جاء منها بأبيات معدودة ، وهى تناسب التبع الذى سنتكلم عنه ، لأنه كان أول من اخترعه ؛ وهذه الطريقة هى أن يريد من الوصف ما يلزم من حقيقته الممثلة فى الذهن ، وقد اتفق له من ذلك ما يُعد غاية فى الحسن ، كقوله فى وصف سالفه الفرس :

وسالفة كسحوق الليا ن أضرَمَ فيها الغوى السُّعْرُ

فلقد أراد من وصف عنق الفرس بأنها شجرة متوقدة من شجر الكندر ما يستتبعه هذا الوصف من لون النار ، وهى الشقرة ، فكأنه أراد أن يقول إن فرسه شقراء ، فاحتال لذلك بهذا التشبيه البديع ، وقد أخذ هذا التشبيه أوس بن حجر فقال :

حتى يلفّ نخيلهم ويوتهم لهُبَّ كِناصية الحصان الأشقر

وبينه معدود عند أهل البديع من عجيب ما وقع في باب التبييع (ص ٢١٧ ج ١: العمدة)؛ لأنهم يقولون إنه أراد الحرب التي هي المقصود بالصفة.

وبمقدار ما أحسن [امرؤ القيس] في هذا القول أساء في قوله:

كَانَ عَلَى لَبَاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ أَصَابَ غَضًّا جَزَلًا وَكَفَّتْ بِأَجْزَالٍ
وَهَبَّتْ لَهُ رِيحٌ بِمَخْتَلَفِ الصَّوَى صَبًّا وَشِمَالًا فِي مَنَازِلٍ فُقَالَ
وهي على طريقته تلك؛ فإنه أراد أن يصف توقد الخلى وصفاهه على
لبات تلك الحسناء، فخلص إلى ذلك من طريق الشياطين والزبانية... إذ لم
يكفه أن جعله على صدرها كالجمر، بل خصه بجمر المصطلي، لأنه لا يزال
يذكيه ويقبله فهو يتوقد ويظهر جمره جمره، ثم كأنه استقل هذا كله على
صدرها فجعل الجمر من الغضا، وهو شجر معروف يقال إن جمره أبقى الجمر
وأحسنه، ثم جعل لهذا الجمر كفافاً من أصول الشجر، وهي الأجزاء،
حتى تزيد في وهجه وتوقده، ثم لما كان قد تلك الحسناء لا بد أن يكون
مشوقاً فقد جعل هذه النار من صدرها على مثل اليفاع من الأرض،
لنكون الريح أشد تمسكنا منها، ثم جعلها في منازل راجعين من الأسفار
فهي توقد لهم ويحتفل فيها على ما هو معروف من عوائدهم. فليت شعري هل
يبقى بعد هذا الحريق من لبات الحسناء ما يُنَاطُ به الخلى، فضلاً عما يظهر
حُسْنُهُ وَتَوَقُّدُهُ...؟

وأعجب شيء في أوصاف امرئ القيس وهو ابن ملك، أنه يصف الجميلة
بحسن الغذاء، ويصف سنا البرق بمصاييح راهب أهان في ذبأها السليط،
وهو الزيت، فلم يميزه لكثرة عنده... وهكذا بما لا يؤخذ منه إلا أنه

كان صعلوكاً يصف للصعاليك ، وهو دليل أيضاً على ما قدمناه من أن شعره صورة غير مرتبة من حياته .

ومن بدائع التشبيه التي اتفقت له قوله :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالٍ

المراد بحباب الماء : إما طرائقه ، أو فقائعه ؛ فمن ذهب إن الحباب الطرائق فإنما أراد : أنى جئت أتدفع إليها كما يتدفع الماء شيئاً بعد شيء حتى صرت إلى ما أريد ، ومن ذهب إلى أن الحباب الفقائيع ، فإنه أراد خفة الوطء وإخفاء الحركة ؛ وكلا المعنيين غاية في تصوير نملك الحال ، مع اللطف والرفقة وبراعة التشبيه ؛ وقد تقدم أنه من مخترعاته التي سلها له الشعراء ، وهو أحد المعاني التي تلم بها خواطرم فتختلس منه ماتختلس الألاحظ ، وكثيرون قد ألموا به ، ولكن الغاية في ذلك قول ابن شهيد الأندلسي : (ص ١٤٣ ج ٢ : نفع الطيب) .

وَمَا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ وَنَامَ وَنَامَتْ عَيُونُ الْحَرَسِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى قَرِيهِ دُنُوَّ رَفِيقِ دَرَى مَا لَتَمَسُ
أَدَبَ إِلَيْهِ دَيْبَ الْكُرَى وَأَسْمُوَ إِلَيْهِ سُمُوَ النَّفْسِ

ومن هذه القصيدة قوله يذكر العقاب حين شبه فرسه بها ، وهو من المخترعات أيضاً في معناه ، وأسلوبه طريقة من طرائقه المبتكرة :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرَهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

العُنَابُ ثَمَرُ أَحْمَرٍ ، وَالْحَشْفُ مَا يَبْسُ مِنَ الثَّمْرِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَعْمٌ وَلَا نَوَى .
وقد أجمع الرواة على أن هذا أحسن بيت جاء في تشبيه شيتين بشيتين في حالتين مختلفتين . وتقديره : كأن قلوب الطير رطباً العنابُ ويابساً الحشفُ

البالي ؛ فشبه الطرىء من القلوب بالعُناب ، والعتيق بالحشف ، وخص قلوب الطير ؛ لأن فرخ العُناب فيما يقال يأكل لحم الطائر ما خلا قلبه ، فلذلك كثرت قلوب الطير عندها ، وقيل غير ذلك . والتشبيه كما ترى ليس بشيء ، غير أن الطريقة التي جاء بها هي دليل من الأدلة على فضل صاحبها ، ولم يُحفظ قبل امرئ [القيس] بيت على هذا النمط ، فهو أول من جاء بذلك من الشعراء ، وقد رووا أن بشار بن برد قال : ما قرئ بي قرار بعد أن سمعت بيت امرئ القيس حتى صنعتُ :

كأن مُشار النقع فوق ره وسنا وأسيافنا ، ليلٌ تهاوى كواكبهُ

فقد اتبع الطريقة نفسها ؛ وقالوا في بيته إنه لم يقع بعد بيت امرئ القيس في الترتيب أحسن منه ؛ ولكن البيت الأول يفضله بأنه أورد التشبيه في حالتين مختلفتين ، إذ قلوب الطير واحدة ، ولكن التشبيه إنما وقع على حالتها من الطرارة واليبوسة ، وقد غفل عن ذلك بشار ؛ وبالجملة فإن امرأ القيس وسط بين شعراء التشبيه ؛ وإن كان قد أكثر منه واحتذى فيه فعل أبي دؤاد والمهلhel وغيرهما ، إلا أن له طرقا في هذا التشبيه هي من مبتكراته ، وهي كل ما في يدنا من الأدلة على براعته وحسن تصرفه ورجحانه على غيره من متميزي الشعراء . وقد عدل المولدون عن تشبيهات الجاهلية إلى ما هو أليق بأزمانهم وأدنى شبا منها ، ولكنهم مع ذلك لا يزال في مجموع أشعارهم موضع لبعض أبيات امرئ القيس ، كقوله : سموت إليها ... وغيره ، على أن أكثر شعراء الجاهلية قد خرجوا من هذا الباب ، ولم يرض المولدون أن يقفوا عليه ولا وقفه الحُجُجاب !

تتمة الانتقاد

بقي علينا — بعد أن تكلمنا في استعارات امرئ القيس وتشبيهاته — أن نأتى على بقية هذا الكلام مما يصف معانيه وألفاظه وما يقع عليه الناقد في سائر كلامه ويصديه من حسناته المتفرقة في كتب البيان ، وقد أشرنا إلى بعض مبتكراته تلك ونحن مُستوفون سائرهما هنا : قالوا : إنه أول من فتح باب الاحتراس ، وذلك في نحو قوله (ص ٦ : الديوان) :

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحزقت الأرض واليوم نر

أى واليوم بارد ، فاحترس وكان الاحتراس بالقافية التي هي تمام البيت وهذا من أبداع ما يجيء ، لأنه يزيد في تمكين القافية ويكسبها عزة لا تكون للكلمة غيرها في البيت بحملته .

وقد رأينا هذا الشاعر يبالغ في استقصاء جزئيات المعاني مبالغة هي طبع فيه ، وهي عند التي هيأت له مثل هذا الاحتراس ، وقد مر من ذلك ما وصف تَوَقُّدَ الحلي ، ومثله في كلامه كثير وسيمر بك شيء من بديعه ، وكذلك قالوا في التتبع ، وهو من أنواع الإشارة ، وذلك أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوز به ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه قال ابن رشيق (ص ٢١٥ ج ١ : العمدة) : وأول من أشار إلى شيء من ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويُضْحِي فَتَيْتُ الْمَسْكِ فَوْقَ فَرَاشِهَا نُؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْطِقْ عَنْ تَفْضُلِ
فقوله (يُضْحِي فَتَيْتُ الْمَسْكِ) تتببع ، وقوله (نُؤُومُ الضُّحَى) تتببع ثان ، وقوله (لم تنطق عن تفضل) تتببع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترف والنعممة وقلة الامتهان في الخدمة ، وأنها شريفة مكفية المؤنة ، فجاءها بما يتبع الصفة

ويدل عليها أفضل دلالة .

وقال [ابن رشيق] أيضاً في باب التمثيل الذي هو من ضرب الاستعارة - وذلك أن تمثل شيئاً بشيء فيه إشارة إليه - إن امرأ القيس أول من ابتكره ، ولم يأت أملح من قوله فيه :

وما ذرفت عينك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلبٍ مُقتلٍ
فمثل عينها بسهمى الميسر ، يعنى المَعَالَى وله سبعة أنصباء ، والرقيب وله ثلاثة أنصباء ، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينها ، ومثل قلبه بأعشار الجزور ، فتمت له الاستعارة والتمثيل (١) .

وقال في الإيغال : وهو ضرب من المبالغة إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها : وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله يصف الفرس :

إذا ماجرى شأوين وابتلَّ عطفهُ تقولُ هزبُ الريح مرّت بأثابٍ
فبالغ في صفته وجعله على هذه الصفة بعد أن يجرى شأوين ويبتلَّ عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالا في صفته بذكر الأثاب ، وهو شجر للريح في إضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت ، ومثل ذلك قوله :

كأن عيونَ الطير حول خيائنا وأرْحلنا الجزعُ الذي لم يُثَقِّبِ
فقوله (لم يثقب) إيغال في التشبيه ، واتبعه زهير فقال :

كأن فئات العهن في كل منزل نزلن به ، حبُّ الفنا لم يُحْطَمِ
فأوغل في التشبيه إيغالا ، بتشبيهه ما يقناثر من فئات الأرجوان بحب

(١) كانت الجزور تقسم على عشرة أعشار ، والمراد أنها ضربت على قلبه بالسهمين فاخترته كما تختار بهما أعشار الجزور .

الفنا الذى لم يُحطَم ، لانه أحمر الظاهر أبيض الباطن ؛ فإذا لم يُحطَم لم يظهر فيه يياضٌ ألبتة وكان خالص الحمرة ؛ وتبعهما الأعشى فقال يصف امرأة :
غَزَاءُ فَرَعَاءَ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشَى الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشَى الْوَحَى الْوَجِيلُ
فأوغل بقوله (الْوَجِيلُ) بعد أن قال الوحى ؛ وبهذا تستدل على أن الشعراء كانوا يهتدون فى الصنعة بامرئ القيس ، فكان شعره لهم أشبه بكتب البلاغة للتأخرين ؛ وما من نوع من الأنواع التى سلفت إلا وقد اتبعوه فيها وانسحبوا على أثره . وعلى تقليب المولدين لهذه الأنواع حتى لم يغادروا فيها مطمعا — بقى من شعر هذا الرجل ما هو فى بعض نسيج وحده ، والمثال الأول فى الدلالة على حده .

أما ما جاء فى شعره من أنواع البديع غير ما ذكرناه ، مما مثلوا له فى كتبهم بشىء من قوله : كالالتفات ، والتقسيم ، والمقابلة ، والغلو ، ونفى الشىء بإيجابه فى قوله :

• على لاحبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ •

أى لا منار له فهتدى به ؛ والاتساع ، والاشترار ، والإشارة ، والإرداف ، والترصيع ، وجمع المؤنث والمختلف ، وغيرها - فلم ينص أحد من علماء البديع على أنه أول من جاء به ، على أنهم فى أكثر ذلك لا يستدلون بشعر شاعر معروف قبله أو معاصره له ، فإن لم يكن وقع من ذلك شىء فهو مبتكره ، ولكن شعره على الجملة فى ذلك مثال حسن ؛ وبعضه لا يعدلون به شيئاً ، كما ذكروا فى التكرار الذى لا يكون إلا على جهة القشوق والاستعذاب إذا كان فى تغزل أو نسيب - أنه لم يتخلص أحد تَخَلَّصَ امرئ القيس ، ولا سَلَّمَ سلامه فى هذا الباب إذ يقول :

ديارٌ لسأَمَى عافياتُ بذى الخالِ أَلحَ عليها كلُّ أسحَمَ هَطَالِ
وتحسبُ سلبى لاتزال كَمهدنا

بوادى الخزأَمى أو على رأس أوعالِ
وتحسبُ سلبى لاتزل ترى طَلأً من الوحش أو بِنَضاً بَمِثْأَ مَحَلَالِ
ليالى سُلَيْمى إذ تريكَ مُنَضاً وجيداً كجيد الرثم ليس بمعطالِ
ولكن بعض تلك الأنواع أتبع فيها امرؤ القيس غيره ، كما احتذى
فى الغلو على قول مهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور
وهو الذى قالوا فيه إنه أكذب بيت قاله العرب ، لأن بين حجر
— وهى قسبة اليمامة — وبين مكان الواقعة عشرة أيام ، فقال امرؤ القيس
يصف النار :

تَنورُتها من أذرعَات وأهلها يثرب أدنى دارها نَظَرُ عالِ
وفاضلوا بين البيتين فقالوا إن مهلهلاً أشدُّ غلواً من امرئ القيس ، لأن
حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشدُّ إدراكاً ، ثم أتبع امرؤ القيس
النابغة فى قوله يصف السيف :

تقد السلوقى المضاعف نسجه وتوقدن بالصقاح نار الحباحب
قالوا : وهو دون بيت امرئ القيس فى تنور صاحبة النار لإفراطاً ،
ودون بيت النابغة قولُ النمر بن تولب فى صفة السيف أيضاً :

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادى
إذ ليس خارجاً عن طباع السيف أن يقطع الشيء العظيم ثم يغوص بعد
ذلك فى الأرض ؛ فالغلو فيه ضعيف ؛ وقد كدنا نخرج عما نحن بصدده منه ؛

والآن فقد تبينت أن هذا الشاعر بصير بصنعة الكلام: [وأن] فضله إنما هو في طريقة إيراد المعنى مما يلتحق بتأليف اللفظ وتصريف الأسلوب: وانظر إلى قوله:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَأْ الزَّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِحَبْلِي كُرِّي كُرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
فقد اعترض في هذين البيتين وقيل: خالف وأفسد ولو جمع الشيء وشكله، فذكر الجواد والكر في بيت، والنساء والخمر في بيت، لكان أصوب، وإنما غفلوا عما قصد إليه من هذا الترتيب، وذلك أن اللذة التي ذكرها في البيت الأول إنما هي الصيد، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء، فجمع المعنيين للتضايق بينهما، ولو نظم البيت كما قالوا لنقص فائدة تدل عندهم على الملك والسلطان، وكذلك لو فعل في البيت الثاني لكان ذكره اللذة زائداً في المعنى، لأن الزق لا يسبأ إلا للذة، وإنما وصّف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتك والرفاهية. وقد أتبعه المتنبي في قوله:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكُّ لَوَاقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلَمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسْمِ
وذكر الواحدى في شرحهما اعتراض سيف الدولة عليه وعلى امرئ القيس وتخلص المتنبي لنفسه وله، غير أن ترتيب امرئ القيس أبداع وفيه من الفائدة ما ليس في بيتي أبي الطيب.

بقي أن نذكر بعض المآخذ التي أصبناها في شعر هذا الشاعر، فمن ذلك أنه له استعانة ضعيفة بالحروف والكلمات، كقوله:

هـ. أَلَا رَبِّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ *

وأن له تكراراً قبيحاً في الألفاظ والمعاني يجيء بها على وجه واحد في مواضع مختلفة من غير أن يتصرف في ذلك بما يجنب قبح هذا التكرار وينفي عنه الظنة .

ومنها دخوله في وجوه المناقضة والإحالة في بعض الكلام ، وذلك بما يدل على أنه يرسله إرسالاً كما اتفق ، لا يدغمي به إلا لذة المنطق ، وإلا مواتاة ما في نفسه من الميل إلى القول ؛ وبهذا كان ختام قصائده مقتضياً ، وقلما قطع الشعر على كلمة بدیعة إلا في القليل كخاتم قصيدته السينية :

ألا إن بعد العدم لله رم قنوةً وبعد المشيب طول عمرٍ وملبساً

فكان الشعر يُقترَحُ عليه اقتراحاً فتى فرغ من المعنى الذي يريده سكت

دون أن ينظر إلى موضع السكوت وأن الإصابة فيه كأحسن الكلام .

ومنها استعمال الكلام المؤنث في شعره ، كقوله لك الويلاتُ إنك مُرجلي ،

ونحوه ، دون أن يوطئ لذلك بما يحسن التضمين ويخرج الكلمة المؤنثة مخرجا لا يكفي فيه أن يكون حلقياً فقط . . .

أما ما وقع له غير ذلك من اضطراب بعض القوافي وثقل الألفاظ بما

يكدر لسان الناطق المتحفظ ، فذلك متجاوزاً عنه بعذر البداوة ، والغريب عندنا مألوف عند أهله .

المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة

لما نزل امرؤ القيس في طيئ تزوج امرأة منهم تسمى أم جندب ،

وكان مُفَرَّقا وكانت تكرهه ، فنزل به علقمة بن عبدة فنذاكرا الشعر وادعاه

كلُّ واحد منهما على صاحبه ، فقال علقمة : فقل شعراً تمدح فيه فرسك

والصيد ، وأقول في مثل ذلك ، وهذا الحكم بيني وبينك - يعني تلك المرأة -
فبدأ امرؤ القيس يقول :

خليلي مُرّاً بي على أمّ جندب نُقِضَ لُبَانَاتِ الْفَوَادِ الْمَعْدَبِ
ففعت فرسه والصيد حتى فرغ ، وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حَقّاً كل هذا التجنب

ففعت فرسه والصيد حتى فرغ ، وكان في قول امرئ القيس :

فلمساق ألحوب وللسوطِ دَرّة وللزجر منه وقع أهوج مُنْعَب

وفي قول علقمة :

فأقبل يهوى ثانياً من عنانه يَمُرُّ كَمُرِّ الرَّاحِ الْمُتَحَلِّبِ

فتحا كما إليها ، فقالت : هو أشعر منك ، لأنك ضربت فرسك بسوطك

وامتريته بسانك وزجرته بصوتك وأذرك فرسُ علقمة ثانياً من عنانه .

(ص ٧٧ : ديوان امرئ القيس) .

وفي رواية أخرى أنهما احتكما إلى أم جندب لتحكم بينهما ، فقالت :

قولا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة ، فأنشدها

جميعاً ، فلما حكمت لعلقمة قال امرؤ القيس : ماهو بأشعر مني ولكنك له

وامقة ؛ فطلقها خلفه عليها علقمة (ابن قتيبة)

وما رأيت أحداً من أهل النقد وازن بين القصيدتين ، بل كلهم

متبعون كلمة هذه المرأة ، وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرئ القيس

فيقول إنهما تحكما إليها في المفاضلة بينهما لأنها من ذوات العقل والمعرفة .

مع أن علقمة معدود من الشعراء المغلبيين وامرؤ القيس يقول في قصيدته :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلب

وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلمها ، فقرعت
أنفه على حمية ونخوة وهي تعلم أنها لا بد مُسرحة في زمام هذه الكلمة ،
والإقالبية الذي توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن في قصيدة
امرئ القيس ما هو أبلغ في هذه الصنعة من بيت علقمة ، وهو قوله :

إذا ماجرى شأوين وابتلَّ عطفُهُ تقولُ هزيرُ الريحِ مرَّتْ بأثابِ

وقد مرَّ شرحه وبيان وجه البلاغة فيه ، ولكن من التمس عيباً وجده ،
ومن تدبر صنعة امرئ القيس للخيل في شعره وجد السوط لا يفارقه ،
فلعلها كانت عادته .

وقصيدة علقمة بجملتها ليست بشيء ، لأن كل ما فيها من الألفاظ
البارعة والمعاني الحسنة مأخوذ من قصيدة امرئ القيس ، حتى ليأخذ البيت
برمته والشطر بحاله ، ومع ذلك فقد أبرَّ عليه امرؤ القيس في الصنعة ،
وما أدرى كيف هذا ، فلولا أن الرواة يجمعون على أن قصيدة علقمة مما
صح له لقلت إنها مصنوعة ، ثم إن الذين رووا خبر هذه المنازعة منهم ،
وهم عمرو بن العلاء ؛ وأبو عبيدة ، والأصمعي ، لم يزيدوا شيئاً على ما سبق ،
وكان طبيعياً أن يتكلم امرؤ القيس في ذلك كلمة ، لأن علقمة إنما رد إليه
بضاعته ، ولن يبلغ التوارد بين الشعارين هذا المبلغ وأحدهما يسمع من
الآخر ، إلا أن يكون الاثنان قد اتفقا في الأخذ عن ثالث ، وهو أغرب ؛
وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك هو السبب في تعفف امرئ القيس
على الشعراء وإدلاله بشعره وذهابه إلى الظنة فيه ، لأنه رأى من استخدام
علقمة واستجدائه ما ينفخ مثله إلى حد الورم ، وما زال على ضلاله حتى
لقى التومم البشكري فقال له : إن كنت شاعراً كما تقول فلنط لي أنصاف

ما أقول فأجزها ، قال نعم ، فقال امرؤ القيس :

أحارِ ترى بريقاً هَبَّ وهناً

فقال التوهم : كئنا مجوس تستعرا

وهي أبيات ستجىء في بحث الصناعات ، فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ولم يكن في ذلك العصر من يطاوله ، آلى أن لا ينازع الشعر أحداً آخر الدهر . كذا رواه أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء (ص ١٣٥ ج ١ : العمدة) وعلى ذلك يكون علقمة إنما غلب امرأ القيس بكلمة امرأته لا بقصيدته .

وقد رأينا أن زوى القصيدتين هنا ليكون وجه المقابلة فيهما بيننا ، ولا بد أن ننبه على أن أكثر ما في قصيدة امرئ القيس مفرق بالفاظه ومعانيه في قصائد أخرى له ، ومنها أبيات لم يغير منها إلا القافية ، وذلك بعض ما أخذناه على شعره (انظر الوسيلة الأدبية ص ٥٠٤ ، والجزء الأول من شعراء النصرانية ص ٢٣ ، وديوان امرئ القيس) .

وقد رأينا أن نقف من الكلام على امرئ القيس عند هذا الحد ؛ ففي بعض الكفاية كفاية ؛ وما يكون دون غاية من الغايات فربما كان في نفسه غاية .

قصيدة امرئ القيس^(*)

خاليليُّ مُرايَ على أمِّ جُنْدَبِ لَتُقَضَى لُبَاناتُ الفُوادِ المَعْدَبِ
 فَإِنِ كَمَا إِنِ تُنْظِرَانِي سَاعَةً مِنْ الدَّهْرِ تَنْفَعُنِي لَدَى أُمِّ جُنْدَبِ
 أَلَمْ تَرِيَانِي كَلِمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنِ لَمْ تَطَيِّبِ
 عَقِيلَةُ أَتْرَابِ لَهَا لَا دَمِيمَةَ وَلَا ذَاتُ خُلُقٍ إِنِ تَأَمَّلْتَ جَانِبِ
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَادِثُ وَصَلِهَا وَكَيْفَ تُرَاعَى وَصَلَةُ المَنْغِيْبِ
 أَقَامْتَ عَلَى مَا يَمْلِنَا مِنْ مَوَدَّةٍ أَمِيمَةُ أُمِّ صَارَتْ لِقَوْلِ المُنْجَبِ
 فَإِنِ تَنَأً عَنْهَا حِقْبَةٌ لَا تُلَاقِهَا فَإِنَّكَ مِمَّا أَحْدَثَتْ بِالْمَجْرَبِ
 تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَانِ سَوَالِكِ نَقَبًا بَيْنَ حَزْمِي شَعْبَعِبِ
 عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَوْقَ عِقْمَةِ بِجَرْمَةٍ نَحْلٍ أَوْ بَكْتَنَةٍ يَثْرِبِ
 فَتَلَهُ عَيْنًا مِنْ رَأْيٍ مِنْ تَفَرُّقِ أَشْتِ وَأَنَايَ مِنْ فِرَاقِ المَحْصَبِ
 فَرِيقَانِ مِنْهُمُ جَازِعٌ بَطْنُ نَخْلَةٍ وَآخَرُ مِنْهُمُ قَاطِعٌ يَجْدُ كَبْكَبِ
 فَعِيَاكَ غَرْبًا جَدُولٍ فِي مُفَاضَةٍ كَرَّ الخَلِيجِ فِي صَفِيحِ المَصُوبِ
 وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرِ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغْلَبِ
 وَمَرْقَبَةٌ لَا يُرْفَعُ الصَّوْتُ عِنْدَهَا مَضْمٌ جِيوشِ غَانِمِينَ وَخُيِّبِ
 غَزَرْتَ عَلَى أَهْوَالِ أَرْضِ أَخَافِهَا بِجَانِبِ مَنفُوحٍ مِنَ الخَشْوِ شَرْحَبِ
 وَدَوِيَّةٍ لَا يُهْتَدَى لِغَلَاتِهَا بِعِرْفَانِ أَعْلَامٍ وَلَا ضَوْءِ كَوَكَبِ

(*) قلت: لم تكن هاتان القصيدتان مكتوبتين فيما تحت يدنا من (الأصل) ولكننا أثبتناهما على ما أشار المؤلف رحمه الله. وتروى هاتان القصيدتان على أوجه أخرى.

تَلَا فَيْتُهَا وَالْبَوْمُ يُدْعُو بِهَا الصَّدَى
بِمُجَهَّرَةٍ حَرْفٍ كَأَنَّ قَتُودَهَا
يُغْتَرَدُ بِالْأَسْحَارِ فِي كُلِّ سَدَقَةٍ
أَقْبَّ رِبَاعٍ مِنْ حَمِيرٍ عَمَامَةٍ
بِمَحْنِيَةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَّ نَبْتُهَا
وَقَدْ أَغْنَدِي قَبْلَ الشُّرُوعِ بِسَاحِ
بِذِي مَيْعَةٍ كَأَنَّ أَدْنَى سِقَاطِهِ
عَظِيمٍ طَوِيلٍ مَطْمَئِنِّ كَأَنَّهُ
يُبَارِي التَّخَوُّفَ الْمُسْتَقِلَّ زِمَاعُهُ
لَهُ أَيُّطَلَا ظَنِّي وَسَاقَا نِعَامَةٍ
كَبِيرٍ سَوَادِ اللَّحْمِ مَادَامَ بَادِنَا
لَهُ جُؤْجُؤُ حَشْرٍ كَأَنَّ لِحَامَهُ
وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ وَمَحْجَرٍ
وَيَخْطُو عَلَى صُمِّ صِلَابِ كَأَنَّهَا
لَهُ كَفَلٌ كَالدَّعْصِ لِبَدَةِ النَّدَى
وَمُسْتَفْلِكُ الذَّفَرَى كَأَنَّ عِنَانَهُ
وَأَسْمَمُ رِيَّانُ الْعَسِيدِ كَأَنَّهُ
وَبَهْوٌ هَوَائِهِ تَحْتَ صُلْبِ كَأَنَّهُ
يَدِيرُ قَطَاةَ كَالْمَحَالَةِ أُشْرَفْتُ
إِذَا مَا جَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُهُ

وقد ألبست أقرانها ثني غيب
على أبلق الكشحين ليس بمغرب
تغرّد مياح الندامى المطرب
يمج لعاع البقل في كل مشرب
بجتر جيوش غامين وخيب
أقب كيعفور الفلاة مجنب
وتقريبه هوناً دأليل ثعلب
بأسفل ذي ماوان سرحة مرّقب
ترى شخصه كأنه عود مشجب
وصهوة غير قائم فوق مرّقب
وفي الضمر بمشوق القوائم شوذب
يعالى به في رأس جذع مُشدّب
إلى سندٍ مثل الصفيح المنصب
حجارة غيل وإرسات بطحّاب
إلى حاركٍ مثل الغبيط المذّاب
ومشاته في رأس جذع مُشدّب
عناكيل قنوي من سُميحة مرّطب
من الهضبة الخلقاء زخلق ملعب
إلى سندٍ مثل الغبيط المذّاب
تقول هزير الرياح مرت بأناّب

إذا ماركبنا قال وُلدان أهلنا
 فيوما على سرب نقي جلودها
 ويخضد في الأري حتى كأنما
 خرجنا نريغ الوحش حول ذمالة
 فآنست سرباً من بعيد كأنه
 فكان تناديننا وعقد عذاره
 فلأياً بلأى ما حملنا غلامنا
 ففقى على آثارهن بحاصب
 وولى كشؤبوب العشى بوابل
 فللساق ألُوبُ وللوسط ذرة
 فأذرك لم يجهد ولم يثن شأوه
 ترى الفأر في مُستنقع القاع لاجباً
 خفاهن من أنفاقهن كأنما
 وظل لصيران الصريم غماغم
 فكاب على حز الجبين ومتمق
 ففئنا إلى بيت بعلياء مُردح
 وقلنا لفتيان كرام ألا انزلوا
 وأوتاده مازية وعماده
 وأطنا به أشطان خوص نجائب
 فلما دخلناه أضفنا ظهورنا
 تعالوا إلى أن يأتي الصيد تحطب
 ويوما على بيدانة أم تواب
 به عزة أو طائف غير مُعقب
 وبين رحيات إلى فجع أخرب
 رواهب عيد في ملاء مُهذب
 وقال صحابي قد شأونك فأطلب
 على ظهر محبوبك السراة مُحخب
 وغيبة سُؤبوب من الشد مُلهب
 ويخرجن من جعد ثراه مُنصب
 وللزجر منه وقع أهورج منعب
 يمز كحذروف الوليد المثقب
 على جدد الصحراء من شد مُلهب
 خفاهن ودق من عشي مجلب
 يداعسها بالسهمري المقلب
 بمدرية كأنها ذلق مشعب
 سماوته من أنحمي مُعصب
 فغالوا علينا فضل ثوب مطب
 ردينية فيها أسنة قعصب
 وصهوته من أنحمي مُشرب
 إلى كل حاري جديد مُشطب

فَظَلَّ لَنَا يَوْمَ لَذِيذِ بِنِعْمَةٍ فَقَلَّ فِي مَيْلِ تَحْسُهُ مَتَغِيَّبٌ
كَأَنَّ عَيُونََ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الْجَزَعِ الَّذِي لَمْ يُتَقَبْ
رَرَحْنَا كَأَنَّا مِنْ جُؤَائِي عَشِيَّةً نُعَالِي النَّعَاجِ بَيْنَ عِدْلٍ وَمُخَقَّبِ
نَمَشُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ أَكْفِنَا إِذَا نَحْنُ قَمْنَا عَنْ سُؤَاءِ مَضْهَبِ
إِلَى أَنْ تَرَوْحْنَا بِلَا مَتَعَتَّبِ عَلَيْهِ كَسِيْدِ الرَّدْهَةِ الْمُنَاوَبِ
وَرَا حَ كَتَيْسِ الرَّبْلِ يَنْغِضُ رَأْسَهُ إِذَاءَةً بِهِ مِنْ صَائِكَ مَتَحَلَبِ
حَبِيبِ إِلَى الْأَصْحَابِ غَيْرِ مُلْعَنِ يَفْدُونَهُ بِالْأَمْهَاتِ وَبِالْأَبِ
فِيوَمَا عَلَى بُقْعِ دِقَاقِ صَدُورِهِ وَيَوْمَا عَلَى سُفْعِ الْمُدَافِعِ رَبْرِبِ
كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عَصَارَةَ حِنَاءِ بَشِيْبِ مَخْضَبِ
وَأَنْتَ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ بِضَافٍ فَوَيْقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَصْهَبِ

قصيدة علقمة بن عبدة

ذَهَبْتَ مِنَ الْهَجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ
لِيَسَالِي لَا تَبْسِي نَصِيحَةَ بَيْنِنَا لِيَسَالِي حَلُوهَا بِالسُّتَارِ فَعَرَبِ
مَبْتَلَةٌ كَأَنَّ أَنْضَاءَ حَلِيهَا عَلَى شَادِنٍ مِنْ صَاحَةِ مَتْرِبِ
مَحَالٌ كَأَجْوَازِ الْجِرَادِ وَلُؤَاؤِ مِنَ الْقَلَمْعِيِّ وَالْكَيْسِيِّ الْمَلُوبِ
إِذَا الْحَمُّ الْوَاشُونَ بِالشَّرِّ بَيْنَنَا تَبْلُغُ رَاسِي الْحَبِّ غَيْرَ الْمَكْذَبِ
وَمَا أَنْتَ أُمَّ مَا ذَكَرُهَا رَبْعِيَّةٌ نَحْلُ بَايِرٍ أَوْ بِأَكْنَافِ شَرِبِ
أَطَعْتَ الْوَشَاةَ وَالْمَشَاةَ بِصَرْمِهَا فَقَدْ أَنْهَجْتَ حِيَالَهَا لِلتَّقْضِبِ
وَقَدْ وَعَدْتِكِ مَوْعِدًا لَوْ وَفَّتْ بِهِ كَمَا وَعَدَ عُرْقُوبٌ أَخَاهُ يَثْرِبِ

وقالت متى يبخل عليك ويعتدل
فقلت لها فيئى فما تستفزنى
فقامت كما فاءت من الأدم مغزل
فعيشنا بها من الشباب ملاوة
فإنك لم تقطع ألبانة عاشق
بمحفرة الجنين حرف شيملة
إذا ما ضربت الدف أوصلت صولة
بعين كمرآة الصنّاع تديرها
كأن بحاذيها إذا ما تشذرت
تذب به طوراً وطوراً تُمره
وقد أعتدى والطير في وكناتها
بمنجرد قيد الأوابد لآحه
بعوج لسانه يُتم برمه
كُميت كلون الارجوان فشرته
تمز كعقد الأندرى يزبسه
له حرتان تعرف العتق فيهما
وجوف هوائه تحت متن كأنه
قطاة ككر دوس المحالة أشرفت
وغلب كأعناق الضباع مُضيفها
وسمر يُفلقن الطراب كأنها
تشك وإن يكشف غرامك تدرّب
ذوات العيون والبنان المخضب
بيدشة ترعى في أراك وحلب
فأنجح آيات الرسول المحب
بمثل بكور أو رواح مؤوب
كهمك مرقال على الأبن ذعلب
ترقب منى غير أدنى ترقب
لمحجرها من النصف المثقب
عنا كيل قنو من سميحة مرطب
كذبّ البشير بالرداء المهذب
وما الندى يجرى على كل مذنب
طراد الهوادى كل شأو مغرب
على نفت راق خشية العين مجلب
لبيع الرواء فى الصوان المسكعب
مع العتق خلق مُفعم غير جانب
كسامعتى مذعورة وسط ربرب
من الهضبة الخلقاء زحلق ملعب
إلى كاهل مثل الغييط المذاب
سلام الشظى يغشى بها كل مركب
حجارة غيل وإرسات بطحلب

إذا ما اقتنصنا لم نُخاتلُ بِجُنَّة

ولكن نُنادي من بعيد : ألا اركب

أخا ثقة لا يلعن الحمى شخصه صبورا على العلات غير مسبب

إذا أنفدوا زاداً فإن عِناهُ وأكرعهُ مستعملا خير مكسب

رأينا شياها يرتعين خيالة كمشى العذارى في الملاء المهذب

فبيننا تمارينا وعقد عذاره خرجن علينا كالجمان المثقب

فأتبع أديار الشياهِ بصادق حثيث كغيث الراجح المتحلب

ترى الفأر عن مُسترغِبِ القدر لا تحا

على جدِّد الصحراء من شدِّ مُلهب

خفا الفأر من أنفاقه فكأنما تجلله سُؤبوب غيث مشقب

فظل لثيران الصريم غماممٌ يُداعِسُهِن بالنّضى المقلب

فهاو على حُر الجبين ومثق بمدراته كأنها ذلقُ مشعب

طرفة بن العبد^(١)

هو طرفة بن العبد بن سفيان ، نسبه المفضل إلى معد بن عدنان ، ويقولون إنه أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ، وإنما نظروا إلى مرتبة قصيدته في الطوال على الترتيب المشهور ؛ وإلا فامرؤ القيس مختلف في تقديمه عندهم ، وقد أورد صاحب الجهرة قصيدة طرفة آخر السبع ؛ فقد هم عليه جميعاً ، وهو على رأى المفضل من أن أصحاب السبع هم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولييد ، وعمرو ، وطرفة ؛ ولما كانت مثل هذه الأقوال المتضاربة لانعدو الآراء المرتجلة التي لا ثبت لها ، فقد اخترنا إهمالها ، لأن الرأى لا يزال يعارضه مثله إلى أن ينقطع عند البرهان .

كان طرفة ابن أخت الشاعر المتلمس ، وابن أخى الشاعر المعروف بالمرقش الأصغر ، فالتقى إليه الشعر من طرفيه ؛ وكان في حسب من قومه ، جريئاً على هجائهم وهجاء غيرهم ، ولا يُعرف من تاريخ نشأته إلا القليل مما لا يتبهاً به الحكم على مبلغ تأثير نشأته في شعره ، غير أن جملة ما يؤخذ من ذلك أنه كان أياً معتداً بنفسه ، مدلاً على قومه ، واثقاً بمنزلة منهم ، جريئاً بمقدار ما تدفع هذه الثقة مترفعاً إلا عن الملوك ، يرجوهم ويهجوهم ؛ فهو يذهب إليهم

(١) ذكر الآمدى في المؤلف والمختلف : من اسمه طرفة من الشعراء أربعة : أولهم هذا . والثاني طرفة بن الألاء بن نضلة . والثالث طرفة الجذمى أحد بني جذيمة العبسى (*). والرابع طرفة أخو بني عامر بن ربيعة (ص ٤١٧ ج ١ : الخزانة) .

(*) قلت : وهذا الثالث ذكره صاحب القاموس في مادة (طرف) وسماه طرفة الخزيمى من بني خزيمه بن رواحة . . وأحسبه خطأ والصواب ما نقله الرافعى .

بنفسه ولكنه يمثل لديهم وكان في برديه حاشيتي قومه . ولا يعمل ذلك إلا
بأنه كان غزاً لم تسلم به السن بعد إلى مذهب عن نزق الحدائنة وسكرة الشباب
لأنه مات وله خمس وعشرون سنة . بدليل قول أخته الخريتق في رثائه :

عددنا له خمساً وعشرين حجةً فلما توفّاها استوى سيّداً ضخمًا

جُفينا به لما استتمّ تمامه على خير حال لا وليداً ولا قحماً

القحم : المتناهي في السن . ويروى : ستاً وعشرين حجة وقال بعضهم :

إنما بلغ عمره نيّفاً وعشرين سنة ، فلا يبعد أن تكون ثمّ رواية : لإحدى

وعشرين حجة ، وعلى أي هذه الأقوال فقد خبّ هذا الشاعر وركض بسنيه

القليلة في مثل الأعمار الطوال ، وكان منصبا على اللهو ، يعاقر الخمر ويتلف

بها ماله ، فأورثته جنون الكبرياء وقتلته بلسانه الذي انتضى منه سيف الهجاء

روى الجاحظ (البيان : الجزء الأول) : قيل لامرئ القيس ابن حجر : ما أطيب

عيش الدنيا ؟ قال بيضاء رعبوبة ، بالطيب مشبوبة ، بالشعم مكروبة ١ وسئل

الأعشى فقال : صهباء صافية تمزجها ساقية ؛ من صوب غادية ١ وقيل مثل ذلك

لطرفه فقال : مطعم شهبي . ومركب وطى ١ .

وفي سيب قتله أقوال متقاربة : أمثلها مارواه يعقوب بن السكيت في شرح

ديوانه : قال^(١) : إن طرفه لما هجا عمرو بن هند (ص ١٥٤ ج ١ : خزانة

الأدب) بأبياته التي أولها :

فليت لنا مكان الملك عمرو رُغوثاً حول قبتنا تخور^(٢)

لم يسمعها عمرو بن هند ؛ حتى خرج يوماً إلى الصيد فأمعن في الطلب ،

(١) ذكر البغدادي في خزانة الأدب أن لديوان طرفه شرحاً آخر للأعلم الشنتمري .

(٢) الرغوث : النعجة المرضع .

قانتقطع في نفر من أصحابه حتى أصاب طريدته ؛ فنزل وقال لأصحابه : اجمعوا
حطبا ، وفيهم ابن عم طرفة ، فقال لهم : أوقدوا ، فأوقدوا نارا وشوى ،
فبينما عمر يأكل من شوائمه وعبد عمرو يقدم إليه ، إذ نظر إلى خصر قبيصه
منخرقا فأبصر كشحه وكان من أحسن أهل زمانه جسما ، وقد كان بينه وبين
طرفة أمر وقع بينهما منه شرٌّ فهجاه طرفة بأبيات فقال له عمرو بن هند ،
وكان سمع تلك الآيات : يا عبد عمرو ، لقد أبصر طرفة حسن كشحك ، ثم
تمثل فقال :

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحا إذا قام أهضما
ففضب عبد عمرو مما قاله وأنف فقال : لقد قال للملك أقبح من هذا !
قال عمرو : وما الذي قال ؟ فندم عبد عمرو وأبى أن يُسمعه ، فقال : أسمعني
وطرفة آمن ، فأسمعه القصيدة التي هجاه بها . . . فسكت عمرو بن هند على
ما قرر في نفسه ، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه فأضرب عنه — وبلغ
ذلك طرفة — وطلب غرته والاستمكان منه ، حتى أمن طرفة ولم يخفّه على
نفسه ، فظن أنه قد رضى عنه ، وقد كان المتلمس — وهو جرير بن عبد المسيح —
هجا عمرو بن هند ، وكان قد غضب عليه ، فقدم المتلمس وطرفة على عمرو
ابن هند يتعرضان لفضله ، فكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر . . . وقال
لهما انطلقا إليه فاقبضا جوازكما ، فخرجا ، فزعموا أنهما لما هبطا النجف قال
المتلمس : يا طرفة ، إنك غلام غر حديث السن ، والملك من قد عرفت حقه
وغدره ، وكلانا قد هجاه ، فلست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهلم ننظر
في كتابنا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضينا فيه ، وإن يكن أمر فينا بغير ذلك
لم نُهلك أنفسنا ، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك ، وحرص المتلمس على طرفة

فأبى [ثم كان من أمرهما أن قتل طرفه، قتله عامل عمرو بن هند على البحرين (*)]
ويقال إنه لما قرأ العامل الصحيفة عرض عليه فقال: اختر قتلة أقتلك بها،
فقال: اسقني نحرأ، فإذا ثملت فافصد أكلى، ففعل حتى مات، وذكر ذلك
البحترى بقوله:

وكذلك طرفه حين أوجس خيفةً في الرأس، هان عليه فصد الأكل
قال المرتضى في أماليه (ص ١٣١ ج ١): ويقال إن صاحب هذه القصة
هو النعمان بن المنذر، وذلك أشبه بقول طرفه:

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتي ولم أعظم بالطوع مالى ولا عرضي
أبا منذرٍ أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعضُ الشراهُون من بعض
وأبو المنذر هو النعمان بن المنذر، وكان النعمان بعد عمرو بن هند،
وقد مدح طرفه المتلمس في النعمان، فلا يجوز أن يكون عمرو قتله، فيشبهه
أن تكون القصة مع النعمان.

وقالوا إن طرفه نطق بهذين البيتين (أبا منذر...) لما أيقن بالموت،
وقد عدوه بهما فيمن شعره في رويته وبديته سوائه عند الأمن والخوف،
لقدرته وسكون جأشه وقوة غريزته، كهديبة بن الخشرم ومرة بن محكان
السعدى (ص ١٢٩ ج ١: العمدة).

ويقال إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد، وقيل سنة ٥٦٤.

شعره

لم ينص أحد على مقدار ما صححت به الرواية عند طرفه، إلا أن بعضهم
(*) زيادة على الأصل.

ذكر أن ما يصح من ذلك أحد عشر شعراً ، فلا يميز من المنحول في شعره إلا القليل ، وإلا ما جاءت بسببه رواية من الروايات ، كبعض القصائد التي نسبتها له حماد ، وستعرف شيئاً منها في بحث الرواية والرواة* ، غير أن طولته من شعره الذي لا خلاف في نسبته ، وإن كانت لا تخلو من تهذيب الرواة وزيادتهم فيها ، وهي التي [فضله] الناس بها وجعلوها واحده وقالوا فيه من أجلها إنه أجودهم طويلاً ؛ وتكاد هذه القصيدة تكون ديوانه ؛ لأنها جمعت محاسن صنعه وضمت أطراف معانيه واطردت اطراد الماء ، وهي التي جعلت صاحبها أضرب شعراء الجاهلية مثلاً عند قتيبة فيما أجاب به الحجاج حين كتب إليه يسأله عن أشعر الجاهلية وأشعر أهل زمنه ، وقد عدت العلماء أكثر مخترعات طرفه منها كقوله فيها (ص ١٧٦ ج ١ : العمدة) :

ولولا ثلاث هن من لذة الفتي وجدك ، لم أحفل متى قام عودي
فمن سبقي العاذلات بشرية كبت متى ما تفل بالماء زبدي
وكررى إذا نادى المضاف مجنبا كسيد الغضا ذى الطخية المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن مُعجِب
بِهَكْنَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ المَعْمَدِ

ولم يجدوا له مخترا في غيرها إلا قليلا .

وروى بعضهم في سبب قولها ، أنه كان لطرفة أخ اسمه معبد ، وكان لها لبيل يريعيانها يوما ويوما ، فلما أغتبتها طرفة قال أخوه معبد : لم [لا تسرح] في إبلك ؟ ترى أنها إن أخذت تردّها بشعرك هذا ؟ قال : فإني لا أخرج فيها أبدا ، حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت ! فتركها وأخذها ناس من مضر .

وقيل : بل إن الإبل التي ضلت هي إبل معبد فسأل طرفة ابن عمه مالكا أن يعينه في طلبها فلامه وقال : فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها ! فقال قصيدته : وهي تربي على مائة بيت ، وتختلف بعد المائة باختلاف الروايات ، ذكر فيها الأطلال واستوقف بها ثم شبه قباب النساء بسفين الماء ، ووصف ذات هواه في الحمى فبسط من ذلك صورة رائعة من صور الطبيعة ، ثم التفت إلى ناقته فأمضى بها الهم عند احتضاره ، واستأن بها على وضع الطريق من عثاره ، ووصف من توثيق خَلَقها وطيب مرعاها وكرم العتق فيها وتراصف عظامها وتداخل أعضائها ؛ فبنى على ذلك بناء يحسن أن يكون بابا من علم التشريح البيطري في الجاهلية . . . ثم ذكر نشاطها وإسراعها وسهولتها ، ونقل من ذلك إلى نفسه فوصف نفاذه ومضيئه على الهول وأنه يتقلب على جنبي السيادة واللهور ، ونسج من ذلك حاشيته ، ثم كأنما سكر كلامه فوصف من سفهه ماتحامته من أجله العشيرة حتى أفرد أفراد البعير الأجر المذلل . . . وبعد أن انتهى إلى المذلة صحا على لأمه وأخذ يعد لذاته بما يصفه بالمخيلة والفتوة ونضرة العيش ، ثم خرج من ذلك بالسوداء ، فذكر الموت ووازن بينه وبين الحياة ، ليدل على أن ربح الحياة هو الربح وصار كلامه من ذكر الموت إلى النزاع ، غير أنه هجم بهذا الموت يعاتب ابن عمه مالكا الذي ضيع إبله ، فكأنه يذكره أن ضياع إبله خطب يسير ، إذ يحمم القضاء فضيع روحه في الوادي الذي لا يتقدم فيه بطلبها ولا تنشد فيه عند ربها ، ثم جعل يذكره بالقربى ورعايتها كأنه يستعطف ، ولكنه اتخذ من ذلك وسيلة تخلص بها إلى عمرو بن مرثد أحد سادات العرب ، فقال :
فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

وكان عمرو هذا كثير الولد ، فقالوا إنه لما بلغه قولُ طرفة وجه إليه وقال : أما الولد فالله يرزقك ، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا ، فأمر سبعةً من ولده فدفع إليه كل واحد عشرًا من الإبل ، وأمر ثلاثة من بني بنيه فدفع إليه كل واحد عشرًا .

ثم عاد طرفة فنفض غبار الذلة ، واستكثر بعد القلة ، وتميَّح في شعره وهدرت هذه الكلماتُ في أشداقه ، حتى قطع القصيدة على حكمة بالغة لا تزال تدور في الناس فهو بها على الفناء يتجدد ، وكأنها كانت نفساً من أنفاس الخلود فقرنت باسمه من هذه القوافي الدالية قافية «المخلد» .

ومن مختار تلك القصيدة قوله :

إذا القومُ قالوا من فتي؟ خِلْتُ أني
عُنيتُ ، فلم أكسلْ ولم أتبلِّدْ
وإن يلتقِ القومُ الجميعُ تُلاقني
إلى ذروة البيت الرفيع المصمَّد
أرى قبر نحامٍ بخيلٍ بماله
كقبر غويٍّ في البطالة مفسد
أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطنى
عقيلة مالٍ الفاحشِ المتشدد
لعمرك إن الموتَ ما أخطأ الفتى
لكالطَّولِ المرخى وثنياه في اليد
وقوله مفتخرًا فيها :

أنا الرجل الضربُ الذي تعرفونه
خَشَّاشُ كرأس الحية المتوقد
فأليتُ لا ينفكُ كسحى بطانةً
لعضبٍ رقيقِ الشفرتين مُهتدٍ
إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتي
منيما إذا بَلَّتْ بقائمهِ يدي
وختامها :

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا
ويأتيك بالأنباء من لم تبع له
ويأتيك بالأنباء من لم تبع له
بتاتا ولم تضربْ له حين موعد

مذاهبه في الشعر

ليس فيما وقع إلينا من شعر الجاهلية ما ينطق بأن صاحبه شاعر قبيلة بمجموع هذا المعنى ، غير شعر طرفه ؛ فهو إذا نخر رأيته يتكلم بلسان ملك قد ضمن طاعة قومه واستمسك بميثاقهم ؛ وما [كان] أحق امرئ القيس بمثل هذا الفخر فيقيم به جهة من شعره قد تركها وهي تريد أن تنقض .

وقد وصف طرفه النوق وصفاً شعرياً ، ولكنه قصر في صفة الخيل وجاءت في كلبه متفرقات من الحكم والأمثال ، وهي أبدع ما في شعره ، ثم هو قد ضرب في الهجاء بالسهم الصائب ورجم فيه بالشهاب الثاقب ، ولكنه قليل المديح نازل الطبقة فيه ؛ ولم يؤثر له من ذلك إلا ما يرد على قومه ، وهو مدحه لقتادة بن سلمة الخنفي حين أصاب قومه سنة فأتوه فبذل لهم ؛ وثم أبيات قالوا إنه مدح فيها سعد بن مالك حين أطرده فصار في غير قومه وقد ذكرهم فيها بقوله :

وليس امرؤ أفتى الشباب مجاوراً سوى حية إلا كآخر هالك

ولعل مديحها منحول إذ يقول فيه :

رأيت (سعوداً) من شعوب كثيرة فلم تر عيني مثل سعد بن مالك

وليس مثل هذا مما يقوله طرفه .

ويمتاز شعر هذا الرجل بالمبالغة والإغراق ، فكأنه ينظر إلى دقائق

الوصف بعين من البلور ... وذلك كقوله في وصف الناقة :

كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَجِي تَكْتَنِفَا حَفَافِيهِ سُكَا فِي الْعَسِيبِ بِمِسْرَدٍ^(١)

(١) المضرجي : النسب . وتكتنفا : أحاطا . وحفافاه : جانباه . والعسيب : عظم

الذنب . والمسرد : [الخصف] الإشقي .

- فَطَوَّرَ بِهِ خَلْفَ الزَّمِيلِ ، وَتَارَةً عَلَى حَشْفٍ كَالشَّنِّ ذَاوُ مُجَدِّدٍ^(١)
 لَهَا نَخْدَانٌ عُولَى النَّحْضِ فِيهِمَا كَأَنَّهُمَا بَابَا مَنِيْفٍ مُرْمِدٍ^(٢)
 كَأَنَّ كِنَاسِيَّ ضَالَّةً يَكْتَفَانِهَا وَأَطْرَقَسِيَّ تَحْتَ صَلْبِ مُؤَيِّدٍ^(٣)
 لَهَا مَرْفِقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَمَّا أَمْرًا بِسَلْمِي دَالِجٍ مُتَشَدِّدٍ^(٤)
 كَقَنْطَرَةِ الرَّومِيِّ أَقْسَمَ رِبَهَا لَتُسَكَّتَنْفَنَ حَتَّى تُشَادَّ بِقِرْمِدٍ^(٥)

فقد أراد أن يصف ذنب الناقة بكثرة ألهب ، وهو الشعر الكثير ، فشبهه
 بجناحي الدر ، وجعل نخديها كباني الصرح الممرد ، وشبه تباعد ما بين مرفقيها
 وزورها بكناس الظبي حول الشجر ، ثم شبه الناقة في ارتفاعها بقنطرة الرومي
 الذي جعله يقسم على قنطرة ته لتُحاطنَّ بالبناء ولتُشادنَّ بالقرمد ؛ ولعمري ليس
 هذا القسَمُ بأكثر من اللغو . وقد مر في مثل هذه التشبيهات حتى وصل إلى عيني
 الناقة فجعلها من حجاجيهما في مثل غارين من الجبل ، ولو أنه مد في عنق هذه
 الناقة فشبهه بأطول من خراطيم السحاب . . .

ولنما تحسن المبالغة إذا لم يكن التشبيه منكشفاً هذا الانكشاف

- (١) الزميل : الرديف ، والحشف : الضرع الذي لا لبن فيه . والشن : القربة
 الخلقة . والذاوي : اليابس . ومجدد : أي لالين فيه ولا لبن .
 (٢) عولى : رفع بعضه على بعض . والنحض : اللحم . والمنيف : المشرف .
 والمرد : الممس .
 (٣) الكناس بيت الأطباء . والضال : الصدر البري . وأطر القسي : عطفها وانحناؤها .
 والمؤيد : الموثق ، من الأيد ، أي القوة .
 (٤) أمرا : أي فتلا . والسلم : الدلو لها عروة . والدالج : الذي يمسى بالدلو من
 البئر إلى الحوض . والمتشدد : المتكلف للشدة .
 (٥) القنطرة : الجسر . وتشاد بقرمد : أي ترفع بخص ... (ص ٨٥ : الجمهرة)

فيكون في إحدى جهاته سبب من الأسباب التي يصح أن تتعلق عليه المبالغة ؛
وسياتيك هذا في موضعه مفصلاً .

ومن نوع قسم الرومي في شعر طرفة قوله متغزلاً يصف الأبقوان :
وتبسم عن ألعى كأن منوراً تَحَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدَى^(١)
سَقَّتُهُ إِبَاءُ الشَّمْسِ إِلَّا لِنَاتِهِ أُسِفَّ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِأَيْمِدِ^(٢)
فخاصل البيتين أنه يشبه ثغر التي يتغزل فيها بالأبقوان الندى ، ويقول إنها
قد ذرت الإيتمد على لثاتها (وسائر العرب يفعلن ذلك في الشفاهِ واللثات
ليكون أشد للمعان الأسنان) غير أن تحلل الدعص الندى من الأبقوان
المنور لحز الرمل ، والوصول من ذلك كله إلى تشبيه الثغر بالرفيف واللحان
لا يعدُّ فلاحاً في الغزل وأولى به أن يكون فلاحاً ...

والصنعة في شعر طرفة قليلة إلا أنها جيدة ، وأرى شعر هذا الرجل
كالشباب : حقيقة جماله في القوة والمتانة ؛ فإن اتفق معه شيء من ظواهر
الجمال كان ذلك بمجموعه كالا ، فن مشهور استعاراته قوله :

فإذا ما شربوها وانقشوا وهبوا كل أمون وطِمرٌ
ثم راحوا عَبَقُ المسكِ بهم يلحفون الأرض هُدَابَ الأزرُ
وهي غاية من غايات هذا الجواد : فإن البيت يصور الجمال والقوة
والكبرياء ، ويكاد يربك الناس مطرقين قد تعلقت أعينهم بهُدَابِ تلك

(١) اللبي : سواد في الشفة ، والمنور : الأبقوان ، وحر الرمل : النقي منه ،
والدعص : الكثيب الصغير من الرمل .

(٢) الإيابة : ضوء الشمس . واللثة : مغرز الأسنان . يقول : أسنانها بيض ،
ولثاتها زرق . وأسف : أي ذر عليه . ولم تكدم : أي لم تعص فتختلف نبتته وأصوله :
والإيتمد : الكحل .

الأزر . ومن هذه القصيدة بيت دأثر في كتب اللغة والأدب ، وهو قوله :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا نرى الآدبَ فينا ينتقر

غير أن حياة هذا البيت تاريخية لا شعرية ، لأنه إنما سار وبقى للاستشهاد بألفاظه ؛ ومن كلماته الجميلة قوله : (وعامت بضبعيها) . إذ يصف الناقة بأنها تمد يديها كهيئة الساجح ، وقوله : (طُراد الغرام) في صفة قومه بالبذل والسفَه ، وقوله في صفة الحرب يذكر قومه :

لا ترى إلا أبا رجل آخذاً قرنا فلنزمه

فهذه الكلمة (أبا رجل) في موضعها من أبلغ الكلم ، بل هي من جوامعها ، لأنها تدل على كثرة قومه وإقدامهم ، وتوزعهم في الحرب توزع الأجمال واستغراقهم أعداءهم ، إلى نحو ذلك ؛ ومن هذه القصيدة الحكمة السائرة :

للفتى عقل يعيش به حيث تهدى ساقه قدمه

ومما أختاره له في الحماسة قوله :

وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وأن لسان المرء ما لم يكن له حصاة على عوراته لدليل

ولا يزال الكتاب لعهدنا يكتبون «علم ليس بالظن» وهم يظنون أنها معربة ... وقد جاءت في شعر إسلامي من شعر المائة الأولى : وأعلم غير الظن ، وهي أبلغ وأوجز .

زهير

هو زهير بن أبي سُلمى — قال فيه الصحاح : ليس في العرب سُلمى
(بالضم) غيره — ابن رباح ، يرتفع نسبه إلى نزار ، كان ورعا حكيما
يعدونه من مترهبة العرب ، قالوا : وهو أحد الثلاثة المتقدمين على سائر
الشعراء ، وإنما اختلف في تقديم أحدهم على صاحبه ، فأما الثلاثة
فلا اختلاف فيهم ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة الذبياني ، وما أرى
ذلك عن جماعة ، فإن الأقوال مختلفة في التفضيل بين الشعراء ، وقد جاءت
روايات بتقديم أوس بن حجر ، وعلقمة بن عبدة ، وغيرهما ، ولكن
أصل ذلك الخبر فيما أراه ما أتت به الرواية عن يونس بن حبيب النحوى
أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الكوفة كانوا
يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة ،
وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون
بزهير أحداً (ص ٦٢ ج ١ : العمدة) .

وإلى هذه الرواية يرجع كل ما ورد عن ابن عباس وعمر بن الخطاب
وغيرهما من الحجازيين في تقديم زهير وأنه أشعر الشعراء .

وقد ورث زهير الشعر عن أبيه وخاله ، ووژته ولده ، قال ابن
الأعرابي : كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ؛ كان أبوه شاعرا ،
وخاله شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وأخته
الخنساء شاعرة ، وابن ابنه المضرب بن كعب شاعرا .

وفي رواية حماد وابن الكلبي عن أبيه قال : كان بسامة بن الغدير خال

أبي سلمي ، وكان زهير منقطعاً إليه معجبا بشعره . . وكان بسامة أحزم الناس رأيا ، فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثر ماله ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بني إخوته فأتاه زهير فقال : يا خاله ، لو قسمت لي من مالك ! فقال : والله يا ابن أختي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله . قال : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه ؛ وقد كان زهير قبل ذلك قال الشعر ، وكان أول ما قاله ، فقال له زهير : الشعر شيء ما قلته فكيف تعتد به علي ؟ فقال له بسامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ؟ لعلك ترى أنك جئت به من مزينة ؟ — هي قبيلة من مضر ينسبونه إليها ، قال ابن قتيبة : وإنما نسبة في غطفان ، ورده ابن عبد البر في الاستيعاب — وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحى من غطفان ، ثم لي منهم ، وقد رويته عنى .

غير أن الثابت الذى لا يُدفع ، أن زهيراً كان راوية أوس بن حجر ، وطفيل الغنوى جميعا (ص ١٣٢ ج ١ : العمدة) وكان أوس زوج أم زهير (ص ٥٥ ج ١ : العمدة) فإذا صح أنه روى شعر بسامة أيضا ، وأن بسامة كان بالمنزلة التى وصفوا من أصالة الرأى ، فيكون زهير قد احتذاه فى حكمه وأمثاله ؛ لأنه لا يُعرف لشاعر جاهلى ما عُرف من ذلك لزهير .

وكان زهير يمدح هرم بن سنان سيد غطفان وأحد أجواد العرب المشهورين ، وهو الذى وقع به إلى صميم المدبح وأراه من جوده موضع الاختراع ، حتى قالوا إنه حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه — عبداً أوليدة أو فرسا ، فاستحيا زهير

مما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في ملا قال : عموا صباحا غير هرم
وخيركم استنيت ؛ وقد سلف لنا الكلام في الارتجال والبديهة عن حوليات
هذا الشاعر والأسباب التي بعثته على الصنعة والتنقيح حتى صار مثلاً في
ذلك للمتأخرين ، وخرج شعره مُصنِّفٍ مستويا ؛ إذ كان لا يعاقل بين
الكلام ، ولا يقتنع الوحشي منه ^(١) .

حتى قال أبو عبيدة : إن لشعره ديباجة إن شئت قلت شهد إن مسسته
ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رذيت به الجبال لأزالها .

وعمر زهير طويلاً ، وتوفي قبل البعثة بسنة ، وديوان شعره معروف
وعليه شروح طبع منها في « ليدن » شرحه للأعلم الشنتمرى سنة ١٨٨٩ للميلاد .

مختاراته وسببها

كان ورد بن حابس العبسي قتل هرم بن ضمضم المري الذي يقول فيه
عنتره وفي أخيه :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تَدُرْ للحرب دائرة على ابني ضمضم ا

فتشاجر عبس وذبيان قبل الصلح ، وحلف حصين بن ضمضم أن لا يغسل
رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجلاً من بني عبس ؛ ثم من بني غالب [ولم
يطلع على ذلك أحد ؛ وقد حمل الجمالة الحارث بن عوف بن أبي حارثة ،
فأقبل ... حتى نزل بخصين بن ضمضم ، فقال له حصين : من أنت أيها
الرجل ؟ قال عبسي ، قال : من أي عبس ؟ فلم يزل ينتسب حتى انتسب إلى

(١) قالوا : المعاظلة ترديد الكلام في قافية بمعنى واحد ، وقال صاحب المثل
الساثر : هي مأخوذة من قولهم تعاظلت الجرادتان ، إذا ركبت إحداهما الأخرى ،
فسمى الكلام المتركب في ألفاظه وفي معانيه بالمعاظلة ، وله في تقسيمها كلام حسن
فالتسه هناك .

بنى غالب ، فقتله حصين ، وبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان فاشتد عليهما ؛ وبلغ بنى عبس فركبوا نحو الحارث ، فلما بلغه ركبهم إليه وما قد اشتد عليهم من قتل صاحبهم وأنهم يريدون قتل الحارث ، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه ، وقال للرسول : قل لهم : آيبل أحب إليكم أم أنفسكم ؟ فأقبل الرسول حتى قال لهم ذلك ، فقال لهم الربيع بن زياد : يا قوم إن أخاكم قد أرسل إليكم : آيبل أحب إليكم أم ابني تقتلونه مكان قتلكم ؟ فقالوا : نأخذ الإبل ونصالح قومنا وتم الصلح (*) .

فقال زهير هذه القصيدة يمدح الحارث وهرما ، وتلك منقبة ليس لها إلا المديح من شاعر ورع حكيم كزهير ، وقد ذكرهما بها في قصيدته الأخرى التي مطلعها :

هـ صحا القلب عن سلسى وقد كاد لا يسلو هـ

وكانت تلك أول قصيدة مدح بها هرما ، ثم تابع بعد ذلك . والرواة يختلفون في عدد أبياتها ؛ ولكنهم لا يزيدون [منها] على أربعة وستين بيتاً ، ولا ينقصون عن تسعة وخمسين ؛ وقد استهلها بكلام عن الديار والآثار كان شائعاً في العرب ، ولم يُحسن فيه إحسان غيره ، ثم وصف الطعائن في الهوادج وما طرحن عليها من الأنماط العتاق والكلل التي تشبه حواشها لون الدم ، وذكر بكورهن وأنهن لا يخطئن الوادى كما لا تخطئ اليد الفم ... واستمر يصف رحيلهن ، ثم اقتضب المديح في الحارث وهرم ، فذكر مساعيهما ومداركهما عبساً وذيبيان ، وما احتملا من غرامة لم يجزما لها ، ثم أقبل على الأحلاف : أسد وغطفان وطبي ، ينذرهم أن يحشوا فيما تحالفوا عليه من السلم

(هـ) ما بين العلامتين [] زيادة على الأصل .

أو يكتموا الله ما في صدورهم ويذكرهم بالحرب ما عملوا وذاقوا ، وبصفتها لهم
وقد لقيت وأنتجت كل غلام أشام ، وأغلّت ما لا تُغَلِّ قري العراق من
قفيز ودرهم ، ثم ذكر ما جره عليهم حصين ؛ وتخلص من ذلك إلى الذين
تحملوا الديات ووطنوا أكناف المكارم لهذه المغارم ، فوصف كرمهم
وعزم ، ثم خرج إلى ما يشبه كلام الأنبياء : فاستخلص مما قصه حكماً يصف
بها الحياة السياسية والاجتماعية ؛ ولقد أرزها في موضعها سياسة في الشعر
وفلسفة في السياسة ؛ وهي جملة المختار من هذه القصيدة ؛ ومنها :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يُضَرِّسُ بأنياب ويوطأ بمنسِم
ومن يجعل المعروف من دون عِرْضِهِ يَفِرُّهُ ومن لا يتقِ الشتمَ يَشْتَمُ
ومن يك ذا فضلٍ فيبخلُ بفضله على قومه يُسْتغْنَى عنه ويذمُّ

إلى أن يقول :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمُ
وكائن ترى من صامت لك مُعْجِبِ زيادته أو نقصه في النكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وهذان البيتان من الروحانيات التي لا تزال تطير بين السماء والأرض .

شعره

قد تقدم أن زهيراً أشهر من عُرف من العرب باستثبات اللفظ وتخيُّر
الكلمة وتنقيح العبارة ؛ فلا جرم كان أحصفتهم شعراً ، وأفصحهم لفظاً ؛
ولا يزال قد رمى في شعره بالحكمة الرائعة ، والمثل السائر ، والمعنى اللطيف ،
واللفظ الفخم الجليل ، والقول المنسق النبيل ، وقد سلس له النظام ، وأطاعه

عصى الكلام، فلا تتبين في ألفاظه ذلة الاستكراه، ولا هوان الاعتساف، بل تراها من الروعة والفخامة وحسن الاستواء كأنما كانت تهدير في قلبه لاني شذقه، ولكأنى أرى أبياته موازين، فلا تكاد اللفظة تميل في الكفة حتى تقع أختها في الكفة الأخرى فتساويا، ومن أجل ذلك قل المنحول في شعره لأنه ديباجة غير ممزقة، ونسيج غير مخزق، ولا يأخذ نظر الناقد حتى ينفيه، وقد نخلوه أبياتاً يقال إنها لصرمة الأنصارى يقول في أولها:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
(ص ٥٨٢: شعراء النصرانية)

فنفاها الأصمعي لأنها لا تشبه كلامه؛ إذ كانت ألفاظ زهير طريقة بيته، وكان شعره نفساً لافتور فيه ولا تلبث، وحسبه بمثل هذا الدليل؛ إذا كان الدخيل في القوم لا يُستدل بغير انقطاع نسبه على أنه دخيل.

ويظهر لمن تدبر شعر زهير أنه ضعيف الابتكار والاختراع، لا يعارض في ذلك الفحول المعدودين كامرئ القيس وغيره، ولكن ألفاظه وصنعتة غطت على هذا النقص؛ فقلما ينكشف إلا لمن عارض وتتبع؛ وقد تراه يأخذ في صفة من الصفات كعبت الناقة أو حمر الوحش أو طراد الصيد، فلا يزال ينحتها من ألفاظه حتى تتمثل كأنها دمية مصور [إن لم تكن فيها حياة فإن الحسن في تماثلها حتى].

وترى الرأى يغلب شعر هذا الرجل، فسكانه شعر سيد لاشعر شاعر، وأكثر ما يظهر ذلك في أبياته الحمزية التي يقال إنه هجا بها آل بيت من كلب من بنى عليم بن حبان وذلك حيث يقول فيها (ص ٥٦٢: شعراء النصرانية):
وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء؟

فإن قالوا النساء محبّاتٌ مُحقّ لكل محصنة هداة
ولما أن يقول بنو مَصَادٍ إليكم ، إننا قوم برّاء
ولما أن يقولوا قد وفينا بدمتنا فعادتنا الوفاء
ولما أن يقولوا قد أيننا فشر مواطن الحسب الإباء
وإن الحق مقطعه ثلاث : يمين ، أو نفار ، أو جلاء

وبهذا البيت الأخير سُمي زهير قاضي الشعر . أما قوله وما أدري . الخ
فهو الذي اختاره علماء البلاغة مثالا في باب التشكك ، وهو من مَلَح الشعر
وطرف الكلام ، وله في النفس حلاوة وحسن موقع ، بخلاف ما للخلو
والإغراق ؛ لأنه يدل على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ؛ فقد أظهر زهير
أنه لم يعلم أهم رجال أم نساء ؛ وهذا أملح من أن يقول هم نساء ؛ وأقرب إلى
التصديق ، وأبلغ في التهمك والازدراء والتنقص (ص ٥٣ ج ٢ : العمدة) ومن
هذه القصيدة :

ولولا أن ينال أبا طريف إيسار من مليك أو لحاء^(١)
لقد زارت بيوت بني عُلَيْم من الكلمات آنية ملاء
ولعمري إن هذه الآنية الملاء لطرفة من طرف الاستعارة ، وإن حسنها
إنما تم بذكر البيوت في صدر الشعر . وفيها أيضاً :
وإني لو لقيتك فاجتمعنا لكان لكل مُندية لقاء
ويروى : لكل منكرا كفاء ، وهي لحة دالة أشار بها لقبح ما كان يصنع
به لو لقيه ، وهذا البيت عند قدامة أفضل بيت في الإشارة التي لا يأتي بها
إلا الشاعر المبرز والحاظق الماهر .

(١) أبو طريف : كان مأسورا عندهم ، والإيسار : سوء الأسروشدته ، والمليك :
الأمير لأنه يملكهم ، واللحاء : الملاحاة واللوم .

ولا بأس أن ننسحب على هذا الأثر من البديع ، فإن ذلك من متممات
زهير ، ولولاه لما كان لصنعتة شأن ، وقد كان يتوكأ في هذه الطريقة على من
تقدمه من الفحول ويلوذ بهم : كامرئ القيس وأوس بن حجر وأبي دؤاد
الأيادي ، كما أتبع في صفتة امرأ القيس قوله :

كأن فئات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم
فإنه أوغل في التشبيه إبعالا ؛ بتشبيهه ما يقناثر من فئات الأرجوان بحب
الفنا الذي لم يحطم لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن ، فإذا لم يحطم لم يظهر فيه
بياض البتة ، وكان خالص الحمرة ، وقد أتبع بيت امرئ القيس :

كأن عيون الطير حول خباثنا وأرحلنا الجزع الذي يشق
وكذلك أتبع في نفي الشيء بإيجابه حيث يقول :

بأرض خلاء لا يستد وصيدها على ومعروفي بها غير مُنكسر
فأثبت لها في اللفظ وصيداً ، وإنما أراد ليس لها وصيداً فيستد ، وله في
المبالغة والتتميم العجيب قوله :

من يلقَ يوماً على علاته هرما يلق الساحة منه والندی خُلِقاً
فإنه يريد بقوله (على علاته) ما يكون من قلة المال والعُدْم ، أي فسكيف
به وهو على خير تلك الحال ، وقد جاء له في هذه القصيدة :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب ، حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا
قالوا إنه أتى بجميع ما استعمل في وقت الهياج وزاد بمدوحه رتبة وتقدم
به خطوة على أقرانه ، وهو نوع من التقسيم تأتي فيه الزيادة تدريجاً وترتيباً ،
ولذلك يصعب على متعاطيه ويقل جدا حتى إنهم لم يجدوا من الشعر عدل
هذا البيت (ص ٢٠ ج ٢ : العمدة) .

ذلك بعض صنيعته ، أما معانيه فإن أكثر ما أقدم به زهير المديح ، وهو الذى أتى عن المادحين فضول الكلام ، وله فى ذلك أبيات لم يسبق إليها ، كأبياته القافية التى يقول فيها :

* من يلقى يوماً على علاته هرما *

ونحو قوله :

من ضربته التقوى ، ويعصمه من سيئ العثرات الله والرحم^(١)
مورث المجد لا يغتال همته عن الرياسة لا عجز ولا سأم
وقصبته اللامية التى مطلعها :

• صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو •

وفى يقول :

على مكثريهم رزق من يعترهم وعند المقلين السباحة والبذل
وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آباءهم قبل
وهل يذبت الخطى إلا وشيجة وتغرس إلا فى منابتها النخل ؟
كذلك أبياته التى استجمع فيها ضروب المديح من العقل والعفة والعدل
والشجاعة ، وهى التى يقول فيها ، وهى من المديح المنصوص عليه ، وقد
عدوها شرفاً لمن قيلت فيهم :

أخى ثقة لا تلتف الخر ما له ولكن قد يهلك المال نامله
تراه إذا ماجتته مهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
وقد اختارها قدامة فى نقد الشعر وشرحها على ذلك التقسيم .

(١) الضريبة : الخليفة .

ونحن لسنا في سبيل الاختيار ، وإنما نسوق ما لا يزيلنا عن طريق البحث ؛ ولزهير طريقة في تقريب المبالغة والبلوغ إلى الإفراط والإغراق من طريق الحقيقة ، كراهيةً للكذب الثقيل ، وبغضة لسوء التأليف الذي يجيء من ناحية الإغراب ، فتراه يداور المعاني حتى يبصر لها طريقاً إلى الحقيقة ، ويجد لها مخلصاً إلى الواقع كقوله :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور ليلة البدر

وقوله أيضاً :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
وعلى هذه الطريقة يُحمل قول عمر : إنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ،
ولا ترى زهيراً يشذ عنها في شيء ، حتى لقد بلغ من معرفتهم ذلك له أنهم
حملوا عليه الجواب المروي عن أوس بن حجر حين سأله رجل وقد
سمعه يقول :

ولانت أشجع من أسامة إذ دُعيت تَزَالِ وِجِ في الذعر

فقال له : أنت لا تكذب في شعرك ، فكيف جعلته أشجع من الأسد ؟
فقال أوس : إنى رأيت فتح مدينة وحده ، ومارأيت أسداً فتحها قط —
وذلك لتخصص زهير بتلك الطريقة والتزامه إياها .

على أن سبب هذا الالتزام قد يكون من ضعف الخيال ، لأنه لم تستقل
له طريقة فيه ، ولا هو كان من المنبسطين في فنون المجاز ، كما قد يكون
أنفة وزوعاً إلى مذاهب السيادة ، وتورعاً عن أمثال تلك التكاذيب ، وهو
الأرجح عندنا لما قدمنا من أن هذا الرجل حُلِقَ سيِّداً قبل أن يُخْلَقَ
شاعراً ؛ ولذلك قصر مديحه ولم يجعله تجارة كما جعله الأعشى ، ولا انحط فيه

إلى تساقط الهمة كما فعل النابغة ، ولا زين باطلا ، ولا اختلق موضوعا ،
بل كان مديحه تاريخا صحيحا .

ومن أجل هذا كان لا يحتمل إلى التخلص في قصائده ، بل يقتضب
المدح ، أو يتخلص بمثل قوله :

• دع ذا وعد القول في هرم •

ولو شاء ذلك تفتقت له الحيلة ؛ ثم كان يتناول البسيط من معاني
المدح وما لا يُمدح به عادة ، فتدفعه سلامة النية إلى إقحامه في شعر كقوله :

لعمر أيبك ما هرم بن سلمي بملحى إذا اللؤماء ليوا
فهذا البيت لا يرضى أحق العرب أن يُمدح به ، ولكن زهيراً يعرف
أن هرما يرضاه ، بل يعرف كيف يرضيه به ، ومثله قوله في معناه :
إن البخيل ملومٌ حيث كان ولو سكن الجواد على علاته هرم
وكلمة «على علاته» هذه لا تزال تدور في الناس إلى اليوم ، وكذلك
كلمته في قوله :

• لدى حيث ألفت رحلها أم قشعم •

يعنى المنية ، فقد أجزاها الظرفاء على الحذف ، فيقولون إلى حيث
ألفت ... لمن يودعون وجهه ويستقبلون قفاه ...

خشونة الشعر الجاهلي

ليس الذي نجده نحن في شعر الجاهلية من جفاء المعنى وخشونة اللفظ و [وعثرة] بعض الأساليب - مما كانوا يجدونه هم أو يأخذونه على أنفسهم ، فإن الألفاظ صورة معنوية من الاجتماع ، وإن الزمن يفعل في إحالة هذه الألفاظ عن مدلولاتها ما تفعل أطوار العمر في معاني النشأة فالشباب فالكهولة ؛ إذ لا يكون ما يسرك وأنت طفل مثلا بالذي يسرك وأنت شاب نفس ذلك السرور الأول في معناه وموقعه .

ولما كانت ألفاظ اللغة لا تؤدي أكثر من الصور ، ومعان منتزعة من حياة أهل تلك اللغة المبنية على مصطلحات ومواصفات مألوفة بينهم ، كان تبدل هذه الحياة بما يصور الاجتماع من الأسباب الكثيرة ذاهبا بحقائق تلك الألفاظ ، إذ يعطيها صوراً ومعاني معدومة أو معلومة علماً تأريخياً لا سبيل معه إلى تحقيق الوصف بالمشاهدة أو بالعادة والألفة ونحو ذلك ؛ فن ثم تنزل الألفاظ منزلة الغريب ، ويفرق بعضها في الغرابة إذا اهدمت صورته الذهنية من الاجتماع ، فيجري مجرى الألفاظ المماتة :

والعرب يذكرون في أشعارهم أسماء كثير من الحشرات ومن صفات الدواب وأشهرها الخيل والإبل على جهتي المدح والذم ، وكثير مما يعد من مألوف اجتماعهم ، وكل ذلك عندنا منسكراً قد لا يعرفه منا علماء الحيوان وأهل البيطرة ، ثم هم لا يرون فيه مانزاه نحن ومارآه أهل الدول من بعدهم ، وذلك شأن كل الأمم على السواء فيما يختلفون فيه جميعاً وما تختلف فيه أطوار الأمة الواحدة من الاجتماع ، فتلك الخشونة في شعر الجاهلية

بأسبابها هي جماع خصائصه المميزة له عن سائر أطوار الشعر العربي ، وقد مرّ شيء من تفصيل ذلك في تاريخ الأنواع التي بوبنا لها .

وقد يتعاطى الشعراء من البلدين وأهل الحضارة تقليد أهل البادية في بعض خصائص شعرهم فيخطئون ، قال العجاج في السميت والطرماح ...
..... (ج ٤ ص ١٨ : الأغاني) .

وضحك أبو كلدة الأعرابي حين أنشد شعر ابن النطاح الذي يقول فيه :
• والذئب يلعب بالنعام الشارد •

قال : وكيف يلعب بالنعام ... الخ (ج ٢ ص ١٠٩ : الحيوان) ؛
وكذلك عابوا على أبي نواس وهو المقدم في المحدثين صفته لعين الأسد
بالجحوظ في قوله :

كأن عينه إذا التهبت بارزة الجفن عينٌ مخنوق

ولعله لم يكن رآه فقام عنده أن هذا أشنع وأشبه [بشناعة] وجه
الأسد وهم يصفون عينه بالغشور كقول أبي زهير :

وعينان كالوقبين في ملء صخرة ترى فيهما كالجمرتين تسعر

وكان الأصمعي يخطئ قوما من المخضرمين والمحدثين في تعسفهم مثل هذه
الطرق المجهولة مما لا يعرفونه عياناً ولا يخاطون صفته بالحقيقة التي
تعرفها المشاهدة . وقد أسلفنا أن العرب كانوا علباء في أشعارهم ، فسبيل
هذه الأشعار عندنا سبيل كل علم يحتاج إلى درس وتلقين ، وإلى الأخذ عن
أهله أو القوام عليه . قال الجاحظ : قلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان
من الفلاسفة وقرآناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدنا قريباً
منه في أشعار العرب والأعراب .

وعلى مارواه من تلك الأشعار بنى أكثر ما في كتابه الحيوان ، وإن كان قد ترك فيه تفسير شواهد كثيرة مما لا يعرفه إلا الرواة ، للتحرز من خوف التطويل كما قال (١) .

وحق ذكر في الجزء السادس من هذا الكتاب أنه لم يجعل لما تسكن المملح والعدوبة والأنهار والأودية والمنافع من السمك وما يعيش معه — باباً مجرداً ؛ لأنه لم يجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ويوثق منه بحسن الوصف (ص ٦ ج ٦) ومما نبه عليه في ذلك الكتاب مما يعد فيما نحن بسبيله ، أن شعراء العرب قد تواضعوا في صفتهم قتال الكلاب وبقر الوحش على أنه إذا كان الشعر مرثية وموعظة ، جعلوا الكلاب هي التي تقتل البقر ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا ، أن تكون الكلاب هي المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية عن قصته بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ؛ وأما في أكثر من ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة . نبه على ذلك الجاحظ (ص ٨ ج ٢ : الحيوان)

ثم إن شعر العرب إنما بقي من بعدهم للحاجة إلى ألفاظه لا إلى معانيه ، إذ هو مادة الشاهد والمثل في العلوم الدينية واللسانية ، وكان

(١) قرأنا في شرح بغية الوعاة للسيوطي في ترجمة أبي بكر الخياط الأصبهاني النحوي أوحد أهل زمانه في النحو ورواية الشعر : أن أبا الفضل بن العميد قدم له يوماً فعله فاستشرف منه ذلك فقال أبو الفضل : ألام على تعظيم رجل ما قرأت عليه شيئاً من الطبائع للجاحظ إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها حتى ينتهي إليه (ص ٣٢١ بغية : الوعاة) .

الرواة لا يطلبون منه أكثر من ذلك ، كما لا يطلبون من الخبر إلا الأيام
والمقامات ، فهم من أجل هذا يروونه على ما هو لا يبالون وافقت ألفاظه
المعاني المألوفة في عصورهم أو خالفت ، فتلك في جانب بعيد من الغرض
الذي يستهدفونه ؛ وهذا معنى قول ابن فارس : قد يكون شاعر أشعر وشعر
أحلى وأظرف ، فأما أن تتفاوت الأشعار القديمة حتى يتباعد ما بينها في
الجودة فلا ، وبكل يُحتج وإلى كل يُحتاج (ص ٢٣٥ ج ٢ : المزهر) .
هذا سبب ما تجده من خشونة الشعر الجاهلي .

أما السبب في أن العرب لم ينظروا في تصفية معانيهم ونحت ألفاظهم
الشعرية حتى تخرج رقيقة تهالك ونحيفة لا تهالك ، فذلك راجع إلى فطرة
الاستقلال وحالة البداوة ، فإن شئت قلت إن ألفاظهم إنما تقطر من
سيوفهم أو تسيل من رماحهم أو تجذب في رمالهم أو تخصب في أوديتهم
أو تدب في حشراتهم أو تسعى مع دوابهم أو تعذب في أمطارهم أو تأسن
في غدرانهم ، ولكنك لا تستطيع أن تقول إنها تتردد الحاظا مذعورة
أو تتمثل وهي معبودة ، أو تهالك رقة دينية ونحو ذلك مما لا يلائم
نشاط البداوة ولا يكون إلا وهناً من هرم الحضارة وتماوت الحياة
الاستقلالية بما يفسو في أطرافها من جرائم الانقراض ، وأظهر
ما تجده في الشعر العبراني ؛ فإن الذلة والمسكنة والرعدة الدينية
أخص ميزاتة .

الباب السابع

أدب الأندلس إلى سقوطها ومصرع العربية فيها

الأدب الأندلسي

هنا مشرَعُ القلم ومصرعُه ، والمورد الذي يُرويه ماؤه تُظْمِئُهُ أدمغته ،
فلو كان القلم سحَاباً لا حترق من أسى البكاء بما فيه من البرق ، ولو كانت
الصحيفة صحيفة الشمس وهي تندب مجد المغرب لاظلم بها الشرق . أيام أدب
مرت كنور النهار أصبح به حيناً وبات ، بل كانت خفقات قلب الزمان عاش
بها دهرأ ومات ؛ فنَضَرَ الله سعداً لا عيب له إلا أنه من الزمن وآخر الزمن
شقي ، ورحمه الله عهداً لا نقص فيه إلا قول المؤرخ بعده لو بقي !

الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي

لما قرأنا تاريخ الأندلس وأخذنا في درس أدبها واستخلاصه من جملة
التاريخ ، رأينا ما أذهلنا من إغفال المؤلفين في الأدب والعلوم وتراجم رجالها
لهذا الفرع الفينان من الحضارة العربية ، فإنك إن جهدت أن تتمثل صورة
بجملة لأدب الأندلسيين ، فكأنما تجهد أن ترجع إلى خيالك شباباً أُخْلِقَتْ
عَهْدَهُ ، وكأنك خُلِقْتَ بعَدَهُ ؛ فهما تأتٍ من ذلك لا تزيد على الذكرى التي
يبلغ من ضعفها أن لا يكون فيها إلا بعض أنقاض التاريخ ، وأنت تريد
الإنقاض كلها ، بل صورة البناء قبل أن ينقض .

لذلك رأينا أن نضع هذه الصفحة جديدة في تاريخ الأدب العربي؛ ولما شرعنا في ذلك رأينا أن لا بد من أن يأخذ الكلام في طريقه : فالأول في ظاهر الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي ، والثاني في حقيقته وتأثر التاريخ السياسي به ؛ وهذا مما انفرد به الأدب الأندلسي ، لأنه بدأ عربيا وانتهى أعجميا - كما سترى - ومن أجل ذلك قسمنا الكلام إلى قسمين .

القسم الأول : الأندلس من العراق

إن الأدب الأندلسي لا يبرزه في التاريخ إلا الأدب العراقي ؛ ولقد يكون في الأندلس ما ليس في العراق من بعض فروع الحضارة والصناعة ، غير الفرق ما بين المواطنين في زينة الطبيعة ونضارة الإقليم ، إلا أن الأدب العراقي ممتاز بمتانة اللغة ، لقربه من البادية ، ولاستفحال الرواية هناك ، وبكونه أصلا ؛ حتى إن الأندلسيين أنفسهم كانوا يلقبون نابغهم بأسماء المشارقة ، فيقولون في الرصافي : إنه ابن رومي الأندلس ، ومروان بن عبد الرحمن : ابن معتز الأندلس ، وابن خفاجة : صنوبري الأندلس ، وابن زيدون : بحتري الأندلس ، وابن دراج : متبلي الأندلس ، ومحمد بن سعيد الزجاجي الأديب الحافظ : أصمعي الأندلس ، لحفظه وذكائه ؛ وأبي بكر الزبيدي الشاعر اللغوي : ابن دريد الأندلس ؛ كما يقولون في الفيلسوف ابن باجة الشاعر الموسيقي : إنه فارابي المغرب^(١) ، وحمة بنت زياد الشاعرة الأدبية : خنساء المغرب ؛ وكان منشأ ذلك أن العلماء والأدباء من أهل ذلك الصقع كانوا يرحلون إلى المشرق

(١) هو أبو بكر بن الصائغ يعرف بابن باجة ، وإليه تنسب الألحان المطربة التي كان عليها الاعتماد في الأندلس ، توفي سنة ٥٣٣ .

فيلقون الأئمة وبأخذون عنهم ، ثم ينقلون إلى الأندلس برواية مأخوذة
فيثونه في أهلها مسنداً إلى أديب العراق ، كسوار بن طارق القرطبي مولى
عبد الرحمن بن معاوية ، فإنه حج ودخل البصرة ولقى الأصمعي ونظر أمره ،
ثم انقلب إلى الأندلس وأدب الحكم ؛ ومن ولده محمد بن عبد الله بن سوار ،
حج أيضاً ولقى أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما ، وأدخل الأندلس
علماً كثيراً ، وقاسم بن أصبغ البياضي (نسبة إلى بيانة من أعمال قرطبة) فقد سمع
بالأندلس ممن كان بها ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٢٧٤ فسمع بمكة والكوفة
وبغداد من أئمة الفقه والحديث ، وكتب عن ابن أبي خيثمة تاريخه ، وسمع
من ابن قتيبة كثيراً من كتبه ، ومن المبرد وثلعب وابن الجهم ، في آخرين ،
وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمري ، ومطلب بن شعيب ، وبالقيروان من
أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر ، وانصرف إلى الأندلس
بعلم كثير ، فقال الناس إليه في تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة وأخذوا
ذلك عنه (ص ٣٤٥ ج ١ : نفع الطيب) : ومحمد بن عبد الله بن يحيى من قضاة
الناصر (توفي سنة ٣٣٧) وكان شاعراً مطبوعاً ، فقد رحل إلى المشرق وسمع
من ابن الأعرابي وغيره ، ثم حدث عنه بالأندلس ؛ وسيأتي ذكر آخرين
في الكلام على علماء الأندلس .

وكانت أمهات كتب الأدب التي تُولف بالعراق تُروى في الأندلس
بالسند إلى مؤلفيها ، على تفاوت بين الأسانيد قوة وضعفاً ، ومن ذلك قول
الأمير الحكم المستنصر : لم يصح كتاب الكامل عندنا من رواية إلا من قبل
ابن أبي قلاعة^(١) ، وكان ابن جابر الأشبيلي قد رواه قبلُ بمصر ، وما علمتُ أحداً

(١) هو محمد بن أبي قلاعة البواب ، سمع من أبي الحسن علي بن سليمان الاخفش =

رواه غيرهما ، وكان ابن الأحمر القرشي يذكر أنه رواه ، وكان صدوقا ،
ولكن كتابه ضاع ، ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين هـ (ص ٣٩٢ ج ١ :
نفع الطيب) .

وقد يكون دخول العراق عند بعض العلماء من قبيل قولهم « من حفظ
حجة على من لم يحفظ ، لأنه عندهم زيادة في الاطلاع وَتَحَقُّقُ بِالثِقَةِ فِي
الرواية ، ولما قدم عليهم أبو علي القالى سنة ٣٣٠ في زمن الناصر ، أمر
ابنه الحكيم وكان يتصرف عن أمر أبيه ، أن يجئ مع أبي علي إلى قرطبة ،
ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكريماً
له ، وباسم الحكيم طرز أبو علي كتاب الأملى المشهور ، وكان قبل ولاية
الأمر وبعدها ينشطه ويعينه على التأليف بوسع العطاء ويشرح صدره
بالإفراط في الإكرام ، وقد اعتنى الأندلسيون بكتساب [الأملى] فشرحوه
وألفوا على منزعه ، كما فعل الشَّقُورِيُّ رئيس كتاب الأندلس في كتابه
سراج الأدب ، وحفظه كثير منهم حتى في النساء - كاسيمر بك - ومن أجله
جعلوا أبا علي أندلسيا بالموطن دون المنشأ ، ليصح لهم الاختصاص به ، مع
أن القالى لم يكن في قرطبة أعرابيا في أعاجم ، ولا كان وحده فيهم كالذهب
في تراب المناجم ، بل كان في قرطبة كثير منهم ، وحسبك بمحمد بن
القوطية ، وهو الذى كان يبائع القسالى في تعظيمه ، وشهد له بأنه أنبل أهل
الأندلس في اللغة ، وكان إمام الأدب في ذلك الزمن أبا بكر الزبيدى .

غير أن التاريخ قد فسر هذا التفاوت ، فإنه عدّ أبا عليّ حسنة من حسنات

= عن المبرد كتابه السكامل المشهور ، وأخذ أيضا عن أبي إسحاق الزجاجي ، وأبي بكر
الأنباري ، ونفطويه وغيرهم .

الدولة الأموية في الأندلس ، حتى وقع ذلك موقع المنافسة من المنصور ابن أبي عامر المتوفى سنة ٣٩٣ ، فإنه لما قدم عليه أبو العلاء صاعد ابن الحسين البغدادي اللاعوى عزم على أن يعنى به آثار أبي علي الوافد على بنى أمية ، ليفوز بإحدى الحسينيين ، ولكنه لم يجد عنده ما يرتضيه ، وكان الرجل يتفق بالكذب - وقد مر من ذلك شيء في بحث الرواية - فأعرض عنه أهل العلم ، وقدحوا في روايته وحفظه ، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلّة الثقة .

ولم يكن الشغف بالأسماء والألقاب المراقية مقصوراً على العلماء والأدباء وحدهم ، بل تجاوزهم إلى الخلفاء . فإن ألقاب الأول منهم كانت : الأمراء أبناء الخلفاء ، ثم الخلفاء وأمراء المؤمنين ، إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض ، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي ترتبت عليه ، فتوَّج ملوك الطوائف على الألقاب العباسية ، وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى ، بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والفخامة التي توزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنهض بهم للباهات ، وفي هذه الألقاب يقول ابن رشيقي :

* كالهز يحكى انتفاخاً صورة الأسد *

وكان بنو حمود الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاضمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس ، فكانوا إذا حضرهم منشد يمدح ، أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم ، تكلم من وراء حجاب والحاجب " واقف عند الستر يجابوب بما يقول له

(١) لم يكن الحاجب على المعنى المصطلح عليه اليوم ، بل كان هذا اللقب خاصاً =

الخليفة ؛ ولما حضر أبو يزيد عبد الرحمن بن مقان الأشبوني الشاعر أمام
حاجب إدريس بن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالقة وأنشده
قصيدته التونية المشهورة التى مطلعها :

ألبرقٍ لأنح من أندوينٍ ذرفتُ عينك بالماء المعينِ
وبلغ فيها إلى قوله :

انظرونا نقتبس من نوركم لأنه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الستر بنفسه وقال : انظر كيف شئت ؛ وكذلك انتحل
وزراء الأندلس لقب ذى الوزارتين امثالاً لاسم صاعد بن مخلد وزير
بنى العباس ببغداد ، وأول من تسمى به منهم وزير الناصر ، أبو عامر
ابن شهيد الكاتب الشاعر الكبير ، أول وزير فى الإسلام (ص ١١٩ ج ١ :
التمدن الإسلامى) .

ولما احتفل المأمون بن ذى النون ، من أعظم ملوك الطوائف فى
إعذاره المشهور الذى عمله بطليطلة وبالغ فى ذلك بما يناسب ما بلغت إليه
دولتهم من البذخ والترف ؛ وهو الإعذار الذنوتى - ضرب أهل المغرب
به المثل وفاخروا به المشاركة فى عرس بوران بنت الحسن بن سهل التى
بنى بها المأمون العباسى . وهو من أكبر الاحتفالات التى حفظها التاريخ .
ذلك طرف من تهافت الأندلسيين على تقليد مشاهير العراقيين ، وقد
بلغوا من ذلك أنهم لما وفد زرياب المغنى تلميذ إسحاق الموصلى على عبد الرحمن

= بكنار الوزراء ، فإن قاعدة الوزارة بالأندلس كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى
جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم
شخصاً ينوب عنه فيسميه بالحاجب ، وقد عظمت هذه السمة حتى كانت أعظم
ماتنوفس فيه .

ابن الحكم ورأوا من ظرفه وفنون أدبه مارأوا ، اتخذده خواصهم قدوة فيما
سنه لهم من آدابه في اللباس والفرش والطيب والطعام ، ثم امتثلهم عامة الناس .
وقد ذكر من ذلك صاحب نفع الطيب أشياء قال إنها صارت إلى آخر أيام
أهل الأندلس منسوبةً إليه معلومة به ، فكان عريية الأندلسيين كانت صغيرة
في أنفسهم لنزولها عن العريية العراقية بالمنشأ فهم يحققونها دائماً بالتقليد ؛
ويتشبثون من بقاء قديمها بهذا الجديد ، ولا جرم فقد كان أصل حضارتهم
أمويًا لأن أول من سن سنن الآداب وأقام حالة الملك بالأندلس هو
عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ قُلُ بنى أمية بالشام ، وكان يسميه عدوه
أبو جعفر المنصور العباسي : صقر قريش ، لرقى همته وبعده مطمحه ، وقد
طرز ثوب ملكه حفيدُه الحكم بن هشام فخلُ بنى أمية المتوفى سنة ٢٠٦ ، فكان
أول من جند الأجناد واتخذ العدة ، وأول من جعل للملك بأرض الأندلس
أبهة واستعد بالمهاليك حتى بلغوا خمسة آلاف ، منهم ثلاثة آلاف فارس
والفاراجل .

عريية الأندلس

كان أول احتلال طارق بن زياد لأرض أندلسية في سنة ٩٢ ، وبعد
أن ضرب فيها قليلا رحل إليها مولاه موسى بن نصير فدخلها في سنة ٩٣
وافتح جانبا منها ثم قفل عنها سنة ٩٥ ، وتتابعت الولاة والفتوح بعد ذلك
نما ليس في هذا الكتاب موضع بسطه ؛ غير أنه لما استتم الفتح وعصفت
ريح الإسلام ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ،
فنزل بها من جرائم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، وهم بدء

تاريخ الأدب فيها ، فكان منهم القبائل المختلفة من العدنانية والقحطانية^(١) ولم يتركوا في الأندلس عاداتهم المشرقية من الغزو والحروب ، فطرات بذلك الفتن بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب من المضربة واليمانية ، حتى كان زمن الداخل في سنة ١٣٨ ، ولم يزل أولئك العرب يتميزون بالعمارة والقبائل والبطون والأغاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس سنة ٣٦٦ وقصد بذلك تشيبتهم وقطع التحامهم وتعصبتهم في الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل ، فانحسمت بما فعل مادة الفتن بالأندلس التي كانت تثيرها تلك الجاهلية الرقيقة ...

وقلما تجد في الأندلسيين شاعراً مطلقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه في قبيلة من تلك القبائل العربية ، فكان يحيى الغزال أول شعراء الأندلس الفلاسفة من بني بكر بن وائل ، وكان يوسف بن هارون الرمادي معاصر المنبهي من كندة ، وأبو بكر المخزومي هجاء الأندلس من بني مخزوم ، وكذلك أبو بكر بن زيدون ، وابنه أبو الوليد بن زيدون الشهير ، وكان أبو بكر بن عمار ينتسب إلى مهرة من قضاة ، وغير هؤلاء كثيرون ، فضلاً عن لم يُعرف سبيل اعتزائهم من الأدباء ، لأن الانتساب إلى العرب كان محفوظاً بالأكثر في العلماء والفقهاء والأعيان ، متميزاً فيهم ، كبنى سراج الأعيان من أهل قرطبة ، ينسبون إلى مذحج ، وبنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة ، إلى مرة بن أود بن زيد بن كهلان ، وبنو أسماك القضاة من أهل غرناطة أيضاً ، إلى عاملة ، وقيل هم من قضاة ، وبنو عباد أصحاب

(١) قد مر الكلام عن معنى هذين اللفظين وما يرادفهما في الجزء الأول .

أشبيلية ، إلى لحم بن عدى ، وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ؛ إلى غير هؤلاء ممن أفردت لهم كتب الأنساب الأندلسية ؛ وكان يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة : العربيات ، لمخافتهن على المعاني العربية (ص ٤٩٢ ج ٢ : نفح الطيب) فكانت الطبيعة بتلك الوراثة العربية قد تعاونت باطنها وظاهرها على إيجاد الأدب الأندلسي وإجادته .

أولية الأدب والعلوم

فن لدن فتح الأندلس إلى زمن الداخل - أى نحو ٤٦ سنة - لم يكن في الأندلس ضرورة شعراء ولا كتاب من أهلها ، بل كانوا من الطائرين ، وهم مع ذلك لم يتميزوا ولم يبلغوا مبلغ أدباء العراق والشام ، ومن هؤلاء أبو الخطار صاحب اليمانية ، والصميل بن حاتم شيخ المضربة ، وهما كبشا الفتنة العمياء ؛ غير أنه كان في تلك المدة أبو الأجرى جمعونة ابن الصمة السكلابي ، وكان معاصراً لجرير والفرزدق وشعره على مذهب الأوائل من جاهلية العرب لا على طريقة المحدثين ، وكذلك بكر الكنتاني ، وهذان وحدهما هما اللذان عرفا بالشعر في ذلك الزمن ؛ ولما توجه عباس ابن ناصح الشاعر من قرطبة إلى بغداد ولقي أبا نواس استنشدته من شعرهما (ص ١٥٦ ج ٢ : نفح الطيب) وهذا يدل على أن شهرتهما ترامت إلى العراق . واستمرت تلك الحال إلى منتصف القرن الثاني ، فعرف بالشعر حبيب بن الوليد الذي ينتهى نسبه إلى عبد الملك بن مروان ، وقد توفي بعد المائتين (ص ٥٧٤ ج ١ : نفح الطيب) وحوالى ذلك الزمن

كان من قضاة الداخل معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي ، وكان له أدب وشعر ، وكان عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء في أواخر هذا القرن يفد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها ، ومنهم يحيى الغزال أول المشاهير من شعراء الأندلس المفلقين ، وكان يومئذ حدثا (ص ٤٤٥ ج ١) وفي تلك الأيام عرف شاعر اسمه بكر بن عيسى .

هذه أولية الشعر في الأندلس ؛ أما الكتابة فلعل أول من اشتهر بها أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان ، وذلك لأنه لزم الكتابة لعبد الرحمن الداخل ، وكان يكتب قبله ليوسف الفهري ، وقد جعله الأمير عبد الرحمن في عديد من مشاوره ويفضل آراءه (ص ٧٢ ج ٢ : نفح الطيب) ولم يكتب أحد قبله لهذا الأمير إلا أبو عثمان النقيب وصاحبه عبد الله بن خالد ، إلا أن فضل الخصوصية والمشاورة كان لأمية دونهما .

أما أولية العلوم فإن أقدم ما اشتغلوا بمدارسته من العلوم إنما هو الفقه ، حتى كان الأمراء الذين ولوا الحكم في القرن الثاني ، وهم الداخل ، وهشام ابنه ، والحكم بن هشام — لا يعنون إلا بالقضاة ، ويقربونهم ، ولا يألون الناس جهداً في إقامتهم على الحق وحملهم بالسنة الواضحة ، ولهم في ذلك الأخبار العريضة .

وقد كانت حركة الحياة الأندلسية حركة غزو وحرب واضطراب فتن سياسية عليها صفة الدين إلى آخر تاريخها العربي - كما ستعرفه - فكان طبيعياً أن يكون من مقتضيات فطرة ذلك الشعب ، الحماس الديني ، ولا يدل عليه كإحساس الشديد باحترام الفقهاء ، ولذلك كانت سمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير المعظم منهم الذي يريدون التنويه به .

فقيها ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى : فقيه ، لأنها عندهم أرفع
السمات (ص ١٠٣ ج ١ : نفع الطيب) وفى تاريخ وزراءهم وشعرائهم
وأدبائهم ما يدل على ذلك ، وسنأخذ فى هذا المعنى فى موضع آخر . وقد كان
الأندلسيون يتفقهون على مذهب الأوزاعى حتى رحل زياد بن عبد الرحمن
ابن زياد اللخمي المعروف بشيطون المتوفى سنة ٢٠٤ إلى الحجاز فسمع من
الإمام مالك بن أنس كتاب الموطأ ، وهو أول من أدخل مذهب الأندلس ،
وكان ذلك زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٨٠ فى فجر
تلك الحضارة ، وذلك طبعى ؛ لأن الناس فى أدوار التاريخ الإسلامى لم
يتفرغوا لعلم الأدب إلا إذا استكملوا علوم الدين أو أهملوها والعياذ بالله ؛
وقد أجمع الأندلسيون قاطبة على مذهب مالك ، ولا يزال ذلك فى أهل
المغرب لمهدنا ؛ قال الحافظ بن حزم : « مذهبنا انتشرا فى بدء أمرها
بالرياسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة ، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف
كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان
لا يولى إلا أصحابه والمتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس ،
فإن يحيى بن يحيى - يعنى يحيى بن يحيى الليثى ، وقد روى الموطأ عن زياد
المذكور آنفاً قبل أن يدرك مالكا ، ثم أدركه فروى عنه - كان مكيناً عند
السلطان مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يبلى قاض فى أقطار الأندلس
إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس
سراع إلى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون أغراضهم به ، على أن يحيى لم يبل
قضاء قط ، ولا أجاز إليه ، وكان ذلك زائداً فى جلالته عندهم ، وداعياً

إلى قبول رأيه لديهم .

وابن حزم هذا هو أول من خالف مذهب مالك بالمغرب واستبدَّ بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به مثله أحد (ص ٣٣ : المعجب)

وليس اشتغال الأندلسيين بالفقه ورسائله بما نعلمهم أن يتدارسوا علوم اللغة والإعراب ؛ إلا أنهم لم يستقصوا هذه العلوم ولم يستغرقوها ، لأن ذلك إنما كان في الطارئين على الجزيرة وفي قليل من أهل البلاد كما مر بك بعضه ؛ وقد كان الأمير عبد الرحمن الداخل شاعراً محسناً ولَسْنَا فصيحا ، وكان ابنه الأمير هشام إذا حضر في مجلسه امتلأ أدبا وتاريخاً ؛ وفي زمن هشام هذا وقد تقدمت سنة [وودنت] وفاته ؛ كان بالجزيرة الخضراء منجم يعرف بالزنبى ؛ قال صاحب نفع الطيب عندما ذكر أن هشاما أشخصه من وطنه إلى قرطبة : « وكان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حدقا وإصابة » (ص ١٥٧ ج ١)

وكان في زمن الحكم بن هشام الذي ولى سنة ١٨٠ ؛ شاعر اسمه العباس معروف بالشعر ؛ أورد له صاحب نفع الطيب بعض أبيات غير جيدة (ص ١٦٠ ج ١)

فتلك جملة تاريخ الأدب الأندلسي في القرن الثاني وما أدركه الفتح من بقية القرن الأول ، وهي لاتعد شيئا في جنب ما كان يومئذ بالشام والعراق في الدولتين الأموية والعباسية ؛ حيث انتهى القرن الثاني بقيام المأمون العباسي الذي بويع سنة ١٩٨ ؛ ولكنها كالجاهلية للأدب الإسلامي ؛ ولم تزل سنة أن لا يتم آخرُ شيءٍ إلا إذا كان النقص في أوله !

الأدب في القرن الثالث

استهل القرن الثالث وحضارة العباسيين في أوجها ، وقد نفتح الأدب العربي بأنفاس الخلود الباقية من عصر المأمون إلى ماشاء الله أن تبقى ، ولكن هذا القرن كان في الأندلس نطاحاً ومغالبة في أكثر سنينه ، وليس فيه من أمراء الأدب المعدودين إلا الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط معاصر المأمون العباسي : وكان أندى الناس كفاً ، وأكرمهم عطفاً ، وأوسعهم فضلاً ، ملك من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ ، وكانت أيامه أيام هدوء وسكون ، واتخذ القصور والمنتزهات ، ولكن سواد الناس لم يهتموا إلا ببناء الجوامع بكور الأندلس ولم يبن إلا في أيامه ، وقد جازهم هو في ذلك فزاد في جامع قرطبة رواقين ، ويقول بعضهم إنه فعل ذلك لما اتهم بميله إلى الفلسفة ، ولما كان هذا الأمير مع علمه بعلوم الشريعة عالماً بالفلسفة (ص ١٦٢ ج ١ : نفتح الطيب) وكان محباً للسمع ، كثير الميل للنساء ، احتجب عن العامة ، وهو أول من فعل ذلك من أمراء الأندلس ليقنفس في الهواء الرقيق . . . ولولا هذا الأمير لرقد العصر الثالث من الأندلس في كفن الثاني ؛ إذ نبغ في أيامه يحيى بن حكم المعروف بالغزال الشاعر المفلق الفيلسوف ، وكان شاعره ، وهو من شعراء الأندلس كامرئ القيس من شعراء الجاهلية ، وبشار من شعراء المحدثين ، وله الأرجوزة المطولة التي نظمها في فتح الأندلس وذكر فيها السبب في غزوها وفصل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعداد الأمراء عليها ، وأسماءهم ، فأجاد وتقصى ، وكان للأندلسيين بها شغف إلى آخر عصورهم ، وقد قلده في ذلك أبو طالب المتنبي الشاعر من أهالي جزيرة شقر فنظم كتاباً في تاريخ الأندلس وأورد منه ابن بسام في كتابه الذخيرة .

وكان الغزال من كبار أهل الدولة حتى أرسله عبد الرحمن سفيراً إلى ملك القسطنطينية — حين بعث إليه هدية في سنة ٢٢٥ يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ماضيق به المأهون والمعتمصم — فأحكم الغزال بينهما الواصلة، وتوفي هذا الشاعر سنة ٢٥٠.

وكان من شعراء الأمير عبد الرحمن وندمائه عبد الله بن الشمر (ص ٣٤٥ ج ٢: نفع الطيب)، وكان يكتب له محمد بن سعيد الزجالي أصمعي الأندلس، وقد استوزره اشطرة من الشعر، وذلك أنه صنع في بعض غزواته قسيما، وهو:

• نرى الشيء مما يُتَقَى فنهابه •

ثم أرتج عليه وكان عبد الله بن الشمر نديمه وشاعره غائباً عن حضرته، فأراد من يجيزه، فأحضر له بعض قواده محمد بن سعيد هذا، فأنشده القسم، فقال:

• ومالا نرى مما يبقى الله أكثره •

فاستحسنه وأجازه، وحمله استحسانه على أن استوزره.

وامتاز عصر هذا الأمير بشيوع الغناء في الأندلس، بعد أن قدم عليه زرياب المغني تلميذ إسحاق الموصلي سنة ٢٠٦، وهو الذي أورث هذه الصناعة الأندلس — وسندكر أمره في تاريخ هذا الفن — وكان عبد الرحمن مولعاً بالسمع، مؤثراً له على جميع لذاته، حتى إنه كان يبتاع المحسنات من الآفاق، فاشترت له من المدينة فضل المدينة التي كانت لإحدى بنات هارون الرشيد، مع صاحبها علم، وصواحب غيرهما، فأنشأ لهن داراً بقصره سماها دار المدنيات، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدهن، وكان من جواربه أيضاً قلم، وهي ثالثة فضل وعلم في الخطوة عنده، وكانت أدبية ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظه للأخبار عالمة بضروب الآداب، وهي

أندلسية الأصل حُملت صبيحةً إلى المشرق وتعلت بالمدينة (ص ١١٨ ج ٢ :
نفع الطيب) ومن الجوارى اللاتي كن يتصرفن بين يديه منقعة جارية زرياب
التي عليها أحسن أغانيه ثم أهداها له؛ وكان في زمنه أيضاً من الحاذقات بالغناء
حمدونة وعليه ابتنا زرياب ، ومصايح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن فلهيل
(ص ١١٤ ج ٢ : نفع الطيب) وغيرهن ؛ حتى ليكاد يكون زمن هذا الأمير
نسائياً ومن استهتر بهن من جواريه ، مدثرة ، والشفاء ، وطروب ، وقد بنى
الباب على هذه الذخيرة مرة بيدر الأموال ، وكانت غاضبة ثم استرضاهما
على أن لها جميع ماسد به الباب (ص ١٦٣ ج ١ : نفع الطيب).

وتولى بعد الأمير عبد الرحمن محمد ابنه من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣ ،
وكان كثير الغزوات فلم يُعرف في عهده تاريخ الأدب على حقيقة بينة ،
بل استمر أهل الأندلس على ما اعتادوا زمن أبيه ، ولكن كان من أخص
شعرائه مؤمن بن سعيد ؛ وكان من أعظم الفلاسفة لعهدده عباس بن فرناس
الحكيم - وسنذكره في موضع آخر - وله فيه شعر أوردده صاحب العقد الفريد ؛
ثم اهتز جبل الفتن بعده في ولاية ابنه المنذر ، وكانت سنتين إلا نصف شهر
سنة ٢٧٥ ؛ وفي زمن عبدالله أخى المنذر اضطربت نواحي الأندلس بالشوار
والمتغلبين في تلك السنين ، وكان عبدالله شاعراً محسناً إلا أنه زاهد تقي صحيح
الإيمان ، وفي زمنه نشأ الفقيه الأديب ابن عبدربه صاحب العقد الفريد ،
وهو ويحيى الغزال طرفاً للأدب في القرن الثالث ، وتوفي عبدالله سنة ٣٠٠ ،
وكان وزيره النضر بن سلمة الكاتب المحسن .

وبما أمتاز به هذا القرن دخول رسائل المحدثين وأشعارهم في أواخره
إلى إفريقية ثم الأندلس على يد أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني المعروف

بالرياضي من أهل بغداد وسكن القيروان وكتب لأمير أفريقية إبراهيم بن أحمد الأغب ، ثم لابنه أبي العباس عبد الله ، وقد لقي الجاحظ والمبرد وعلب وابن قتيبة الأدباء ، وأبائهم والبحري ودعبلا وابن الجهم الشعراء ، وسعيد ابن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبي طاهر الكتاب ، وغيرهم . وتوفي بالقيروان سنة ٢٩٨ .

وكذلك دخول كثير من كتب اللغة ودواوين شعر الجاهلية على يد محمد ابن عبد السلام بن ثعلبة المتوفى سنة ٢٨٦ فقد دخل البصرة ولقي بها أبا حاتم السجستاني والعباس بن الفرغ والرياشي وأبا اسحاق الزيادي ، فأخذ عنهم رواية عن الأصمعي وغيره ، ودخل بغداد وسمع من أئمتها ، ثم انقلب إلى قرطبة (ص ٦٧ : بغية الوعاة) .

ثم اختراع التوشيح - وقد استوفينا الكلام عنه في موضعه -

الحضارة الأندلسية

الأندلس إقليم في جنوب إسبانيا، وقد أُطلق اسمه على البلاد كلها مجازاً، وهذه البلاد (إسبانيا) في تاريخ الحضارة أربعة أعصر: الأول عصر الفينيقيين الذين اكتشفوها، والثاني عصر الرومانيين، والثالث عصر القوطيين . . . والرابع العصر الإسلامي. وكانت إسبانيا قبل أن يكتشفها الفينيقيون ما بين القرن الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد، معمورة بقبائل يسمونهم «الايبيريين»، وقد وقع الخلاف في أصلهم، قالوا: ومن هذا الاسم اشتق اسم «هباريا» الذي كان الاسم الأول لتلك البلاد، ثم صار إسبانيا بعد ذلك.

فلم تكن حضارة العرب في الأندلس ابتداءً، وإنما كانت ترمياً، ولولا ذلك لتبين النقص الطبيعي في أدب تلك البلاد، وبلغ الكبير قبل أن يشب شبابه الذي بهر التاريخ، لأن الأدب لا يتبع الحضارة لنفسها، ولكن لفلسفتها وحواشها الرقيقة، فليس الشأن في بناء يُقام وبلد يعمر ونهر يبتق وأرض تفلح، ولكن الشأن في فلسفة ذلك جميعه، من جمال الشكل وإحكام الهندسة وجلاء الطبيعة وحسن التنسيق؛ وأنت مع استفحال الحضارة الإسلامية واستبحار عمرانها وسموق مبانيها ودقة فنونها، خصوصاً في الأندلس، لا تكاد تجد لأفراد الشعراء المعدودين في وصف المباني إلا ما كان للبحر في وصف قصور المتوكل كالجعفرى وغيره، ولشريف الرضى في وصف ما كان في الخيرة من منازل النعمان، والصابي في وصف قصر روح بالبصرة، وشعراء الداريات، وهم الذين انظمو في وصف دار

الصاحب ابن عباد كأبي سعيد الرستمي والخوارزمي وغيرهما، وقد ذكرهم صاحب اليتيمة وأورد قصائدهم، وابن حمديس في مباني المعتمد على الله وما شاده المنصور بن أعلى الناس وهو أشهر الشعراء في ذلك، وأبي الصلت أمية الأندلسي في مباني على بن تميم بن المعز العبيدي بمصر، وأبي محمد المصري في وصف قصر المأمون بن ذى النون بطليطلة، وقطع متفرقة لغير هؤلاء، وهم مع ذلك لا يذكرون مادة البناء ولا يصورون هندسته، لأن الشعر ليس مادة جامدة يأتلف مع الجوامد، وإنما هو يتبع زخرف الحضارة وفلسفتها.

وقد وجد العرب في الأندلس حضارة مبهدة وسديلا مطروقة إلى الفنون الدقيقة والجمال الطبيعي، وجاءهم بعد ذلك من بني أمية أمراء الحضارة المشرقية ومنافسو العباسيين فيها. فخلوا شباباً كاديون في علي الهرم؛ وكان رأسهم في ذلك عبد الرحمن الداخل الذي بدأ في بناء جامع قرطبة الأعظم والقصر الكبير الذي كان في الأبنية كأنه قصيدة في الشعر، إذ كان من قصوره التي يحتويها: الكامل، والمجدد، والحائر، والروضة، والزاهر والمعشوق، والمبارك، والرستق، وقصر السرور، والتاج، والبديع، وغيرها، وهي المعاهد التي كانت مذكورة في ألسن الشعراء وفرسان الأدب، وكان عبد الرحمن بن معاوية صاحب قصر الرصافة ينقل لجنانه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأرسل إلى الشام رسولييه: يزيد وسفر، في جلب النوى المختارة والحبوب الغريبة، ولسنا الآن في شرح مواد هذه الحضارة من أنواع النقش والحيل الصناعية ووصف القصور والمنتزهات وسرد أسمائها، ومجالس الخلفاء وأنواع زينتهم ولطوهم وما سفهوا فيه من السرف والبذخ ونحوها، فليس في كتابنا موضع يسع مثل هذا، وقد تكفل بذلك الشرح جميعه كتاب

نفع الطيب للمقرى ، فضلا عن أن فيه أشياء أمسكناها لبحث الصناعة العربية تجيء في موضعها من هذا الكتاب ؛ وإنما غرضنا هنا أن نضع أساس البحث في الحضارة الأدبية لأنها تابعة للحضارة الفنية ، تغتذى بمبادئها وتشرق بجهاها ؛ وإنما الأدباء أقلام التاريخ التي تتخذ حضارة الدول وتصف زينة الملك وتراسل عن الملوك بالثناء وحسن الذكر وطيب الأحادثة ؛ فيد الدولة التي لا تكون لها هذه الأقلام يد شلاء ييتها التاريخ ولا يصفها إلا بالعجز وسوء التعلق والمغاللة على الوجود بغير حق .

وأساس الحضارة الأدبية في الأندلس تلك الطبيعة التي كانت ترسل النسائم أنفاساً موسيقية تؤخذ شعراً وتلفظ أحانا ، وبذلك حجب إلى أهلها الأدب وطبعوا على هذه الشيمة ، حتى كان ذلك ظاهراً في مثل وادي الأشات من أعمال غرناطة ، وهي مدينة خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر ، لما أحرقها من المواضع الفرجة والبساتين الغناء ؛ وما زالوا يضربون المثل بأهل أشبيلية بلد المنزهات في الخلاعة والمجون والتهاك على الشعر والغناء ، وإعما كان يعينهم على ذلك واديا البهيج ؛ وبنت أشبيلية هذه مدينة شريش ، وواديا ابن واديا ، وقد قالوا فيها : ما أشبه سعدى بسعيدا وهي مدينة وصفوها بأنه لا يكاد يرى فيها إلا عاشق أو معشوق ...

ومما حُصت به غرناطة التي تسمى دمشق الأندلس : نبوغ النساء الشواعر منها ، كنزهون القلعية و [حفصة] الركونية وغيرهما ، وناهيك [بهما] من شاعرتين ظرفا وأدبا ، فإذا كانت أنوثة تلك الطبيعة قد انطقت النساء فكيف بالرجال ؟ .

أدباء ملوك الأندلس

قال الجاحظ في موضع من كتابه البيان : زعم رجال من مشيختنا أنه لم يقم أحد من بني العباس بالملك - أي إلى زمنه - إلا وهو جامع لأسباب الفروسية . فلو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أسراء الأندلس وخلفائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع أسباب الأدب لكان حقيقاً في زعمه بالتصديق ، ولولا أدبهم لما نفق الأدب عندهم ولا بلغ مبلغه ذلك ، فإن نفاق السوق جلاب ، ولم يعرف فيهم من أهل الركافة والسخف إلى ذلك إلا القليل ، كمحمد بن عبد الرحمن المستكني بالله الذي وزر له حائك يعرف بأحمد بن خالد ، وكان صاحب رأيه وتدييره ، وقد رأينا أن نذكر أسماء الشعراء وأهل الأدب من أولئك الأمراء والخلفاء : فمنهم : عبد الرحمن الداخل ، وابنه هشام ، وعبد الرحمن بن هشام ، وعبد الله بن محمد المتوفى سنة ٣٠٠ : وله شعر جيد ، والمنصور ، والمستعين ، وعبد الرحمن بن هشام من خلفاء دولة بني أمية الثانية ، والمستظهر الشاعر الشاب المجيد ، وأولاد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وهم المنذر ، والمطرف وهشام ، ويعقوب ، ومحمد ، وأبان ، كلهم شعراء ، ولمحمد هذا ثلاثة أولاد شعراء أيضاً ، وهم : القاسم ، والمطرف - المعروف بابن غزلان وهي أمه ، كانت قينة مغنية عوادة أدبية - ومسلم ، ومن أولاد الناصر عبد الله بن الناصر ، وأخوه أبو الأصبع عبد العزيز ، ومحمد بن الناصر ، ومحمد بن عبد الملك بن الناصر . أما أخوهم الحكم المستنصر فهو للعلم والأدب ، ولم يكن في ولد الناصر أشعر من محمد بن عبد الملك ومن ابن أخيه مروان بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن الناصر ، وهو في

بنى أمية شبيهه عبد الله بن المعتز في بنى العباس ، لنفاسة شعره وحسن تشبيهه ، وقد خرج منهم بعد القرن الرابع شعراء كثيرون يتفاوتون في الإحسان ، وهي ذرية بعضها من بعض ؛ ومن حسناتهم عبيد الله بن محمد المهدي المعروف بالأقرع ، والأصم المرواني الذي مدح أمير المؤمنين عبد المؤمن ؛ وقد ألف القاضي يونس بن عبد الله بن مغيث بطلب الحكم المستنصر كتاباً في أشعار خلفاء بنى مروان بالمشرق والأندلس ، معارضاً للصولي في تأليفه كتاب أشعار بنى العباس بالعراق . وكتاب الصولي محفوظ بالمكتبة الخديوية .

أما ملوك الطوائف فحسبك بالمعتصم بن صمادح ملك المزية وأولاده الواثق عز الدولة ، ورفيع الدولة أبو زكريا يحيى بن المعتصم . وأبو جعفر ، وأم الكرام ؛ وكذلك المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ملك الشعراء ، وأولاده : الرشيد ، والراضي ، وبثينة ؛ ثم ملوك بنى الألفس أصحاب بطليوس وما إليها ، ومنهم المظفر صاحب الكتاب المظفرى في التاريخ والأدب ، - وسيأتى ذكره - وبنو هود أصحاب سرقسطة ، وكان منهم القائمون على الرياضيات والفلسفة ، وأشهرهم المقتدر بن هود الذي كان آية في علم النجوم والهندسة والفلسفة ؛ فقل في زمن كان يقوم بأمره أمثال هؤلاء : وإنما الأمر بالأمير .

مبلغ عنايتهم بالعلم والأدب

يخلص مما استوفيناه إلى الآن أن أمراء الأندلس وخلفاءها كانوا فيها كمواطني القلب التي تتحرك إلى المنافسة ، فهم من جهة يازاء العباسيين

وأمراتهم في المشرق ، ومن جهة أخرى بإزاء الطبيعة التي أنشأت الأندلسيين
نشأة عقلية غير النشأة الأولى التي يساهم فيها كل أفراد النوع ، وهي النشأة
القلبية ، فلم يكن مد لاولئك الأمراء من أن يكونوا على الحقيقة رهوس
هذا الشعب الطروب ، وهي لا توفق بين اندفاعه وكبحه إلا إذا كان منها
حيزٌ للسياسة الحكيمة والعزيمة الرحيمة ، وهذا لا يتأتى مع جهل ولا
جاهلية ، وكذلك ليس العلم المحض بتافع فيه على الإطلاق ، وإنما لا بد من
علم متنوع وافتنان يوافق به الأمير أو الخليفة معظم السواد من حاشيته
وقومه ، فالأمير الفيلسوف لا يصلح الرعية الفقهاء ، وحينئذ لا بد أن يكون
الفقه في الكفة الراجحة من ميزان سياسته ، فتكون له الفلسفة في خاصة نفسه ؛
والفقه وما يستعان به على تجميل الملك وسياسته كالكتابة والشعر وغيرهما .
فيما ظهر منه للناس .

ولما كانت السيادة لعلم الفقه في أول أمر الأندلس كان الأمراء من
بنى أمية يعنون بشأن الفقهاء والتودد إليهم والانصياع لمشورتهم ، ليتألفوا
الناس بذلك ويديروا بهم الرحي الطاحنة التي هي الحرب ؛ حتى إن الحكم بن
هشام بات يتململ على فراشه وبعده عنه نومُه حين مرض قاضيه وسمع النائحة
عليه ؛ لأن هذا القاضى كان يكفيه أمور رعيته بعدله وورعه وزهده

ثم أقبل الأمراء على أهل الأدب واشتغلوا بالفلسفة ، وليكنهم لم
يظروا في ذلك إلا في القرن الرابع ، بعد زمن عبد الرحمن الناصر
(٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وهو الذي تجرأ على لقب الخلافة فكان أول من انتحلها
بالأندلس ، وذلك عندما التأت أمرُ الخلافة ، بالمشرق واستبدت موالى الترك
على نبي العباس وقد تعاور الدولة العباسية في زمن هذا الخليفة المقتدر

والقاهر بالله والراضى بالله ، وهو الخليفة الشاعر ، والمتقى لله والمستكفي والمطيع الذى غلب على أمره معزّ الدولة بن بويه ولم يكن له أمر ولا نهي ولا خلافة تعرف ، فكان هذا الاضطراب فى المشرق علة فى تحريك المدينة والحضارة إلى المغرب ، حتى استفحل أمرهما هناك ، لأن الخلافة التى تقوم بعد أن بلغت الحضارة العباسية إلى منقطعها لا تكون خلافة بلا شيء ، بل لا يكفي فيها أن تضاهى الحضارة العباسية ، وقد كان اندفاع هذا التيار سبباً فى ظهور الفلاسفة من مغاصتها وجريانها على أعين الناس ، وقد أرسل الخليفة عبد الرحمن إلى القسطنطينية ، وكان عاقلها القيصر رومانوس . وإلى العراق والحجاز والشام ومصر وإفريقية - من يشتري له الكتب ويحصل له من ذخاها وأصولها المهمة ، حتى قيل إن عاقل القسطنطينية وجد من أسباب الحظوة لدى هذا الخليفة أن يهدى إليه نسخة بديعة من كتاب الحشائش الذى ألفه ديسفوريدس العالم النباتى المشهور ، وقد كانت مكتوبة بالخط الإغريقى مصورة فيها الحشائش كلها بالذهب ، وأهداه كتاباً آخر لهرشيوس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم فى أخبار الدهور وقصص الملوك وطبقات الأطباء فى كتب أخرى ، وكان ذلك سنة ٣٣٧ .

ولكتاب ديسفوريدس هذا شأن عند العرب ، وقد نقله عن اليونانية اصطفان بن باسيل أيام المتوكل العباسى وترك أسماء كثيرة من العقاقير على لفظها اليونانى ، إذ لم يحسن تعريبها ، ووقعت هذه النسخة العربية إلى الأدلس ، فلما أهدى الكتاب إلى الناصر أرسل إلى ملك القسطنطينية فى أن يبعث إليه براهب يعرف اليونانية واللاتينية ، وكان فى الأندلسيين من يحسن هذه اللغة ، فبعث إليه راهباً اسمه نقولا وصل إلى قرطجة سنة ٣٤٠

فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل ، ثم جاء ابن جلجل الطبيب الأندلسي في آخر القرن الرابع فألف كتابا فيما فات ديسفوريدس من أسماء العقاقير والأدوية ، جمعه ذيلًا على ذلك الكتاب .

وبذلك صار من مفاخر الأندلسيين يومئذ اتخاذ المكاتب للنبعة والزينة معا ، حتى إن الكتاب ربما عُولِيَ فيه لجلده ونقشه وحُسن خطه ، لأنها مظاهر الزينة ، وقد كان الناصر أندى الناس كفا على الشعراء والكتاب وأهل الموسيقى وغيرهم ، وتولى حماية من يشتغل بعلوم الفلسفة ، حتى طارت شهرة قرطبة في أوروبا فأماها الناس أفواجا في زمنه وزمن ابنه الحكم ، واختلطوا بالأندلسيين في حلقات العلم ، ولا يتم ذلك إلا في عصر تكون شجرة الفلسفة قد مدت عليه ظلها الوارف ، ومن أشهر أولئك الراهب جوربرت (٩٣٠ - ١٠٠٤ م) الذي ارتقى بعد ذلك إلى العرش البابوي باسم البابا سليفسترس الثاني وقد وفد في زمن الحكم (ص ٩٨ ج ١ : تاريخ الأدب عند الإفرنج والعرب) .

ولسنا نفيض في وصف زمن الناصر وإقبال الوفود عليه من ملوك أوروبا والملوك المتآخمين له ومخاطبته في أمر الهدنة والسلام والتماس رضاه وتقديره ، ولا في وصف المجلس التاريخي العظيم الذي أعده لاستقبال تلك الوفود ، فإن حواشي التاريخ ليست من شرطنا في هذا الكتاب ، وإنما نقول إن زمن هذا الخليفة كان شباب الأدب ، ولغلبة العلوم عليه من اللغة والنحو والحديث والفلسفة لم يكثر شعراؤه كثرتهم في أواخر هذا القرن وفي القرنين الخامس والسادس ، وقد كان من تأثير ذلك أن صار أكثر الفقهاء وسائر أصناف العلماء رواة للشعر والأخبار ، واستفاض ذلك إلى آخر عصور الأندلس ، فنشأ من مشاهيرهم مثل أبي مروان عبد الملك الطيبي ، وأبي الوليد الباجي ؛

وإبن أمية إبراهيم بن عصام ، وأبن حزم الظاهري ، وأبن بكر الطرطوشي ،
والحافظ الحميدي ، وابن الفرضي ، وغيرهم ، حتى إن من لم يكن فيه هذا
الأدب من العلماء كانوا يعدونه غفلاً مستثقلاً ، ولم يكن يشتهر بذلك قبلهم
إلا القليل من الفقهاء ، كعبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ ، والقاضي
منذر بن سعيد المتوفى سنة ٣٣٥ وكانوا يقولون في عبد الملك إنه عالم
الاندلس وإن عيسى بن دينار فقيها ؛ وأشهر شعراء الناصر : إبن عبد ربه
صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨ ، وهو الذي نظم بعض غزواته في
أرجوزته المشهورة ، وحاجبه أحمد بن عبد الملك بن عمر بن أشهب ، ووزيره
عبد الملك ابن جهور ، وآخرون .

ولما ولي بعد الناصر إبنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) جرى في
طريق أبيه وأبن علي الغاية ، فكان جماعاً للكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد
قبله من الملوك ، حتى بلغ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة
وأربعين ، في كل واحدة عشرون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين ،
وكان يبعث إلى الأقطار في شراء الكتب أناساً من التجار ، وبعث في
كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج ، وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل
إليه فيه بألف دينار ذهباً ، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق ،
وله من أمثاله أشياء ؛ وجمع بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط
والإجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالاندلس خزائن
من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، وقد حققوا أنها بلغت
سبعين مكتبة إلا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء . قال
بن خلدون : ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار

البربر ، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن
أبي عامر ، ونهب ما بقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم لها عنوة ،
وقد آثر ذلك الحكم على لذات الملوك ، فاستوسع عليه ، ودق نظره ، وجمت
استفادته ، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوزيا نسيج
وحده ؛ وكان ثقة فيما ينقله ، وقلبا يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة
أو نظر في أى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته وغرائب
أخرى لا تكاد توجد إلا عنده . لعنايته بهذا الشأن . وإذا كان الحكم قدامتاز
بشدة النظر في علم الحدثنان - التنجيم (ص ٩٣ ج ٢ : نفع الطيب) وهو من
اللهو الشبيهه بالباطل ، فما ظنك به في غيره من علوم القوم ؟ وإن مبلغ العلم
لا يكون دائما إلا مبدأ العناية بالعلم ، فعلى قدر ما يستوفى العالم يكون شرهه
إلى الزيادة ، وعلى مقدار هذا الشره تكون العناية بمن عنده شىء مما يوفى
حق الرغبة ويغنى من حاجة الطلب ؛ فإذا كانت خزائن الحكم تحفل بأربعمائة
ألف مجلد . كما قيل ، (ص ١٨٤ ج ١ : نفع الطيب) حتى إنهم لما نقلوها أقاموا
في ذلك ستة أشهر ؛ فهل يكون عصره إلا عصر العلماء والأدباء الذين هم
مصانع الكتب على الحقيقة ؟ .

أما الشعر في زمنه فإننا إذا ذهبنا نقلب كتب التاريخ التي بين أيدينا لم
نكدر نعرف من مشاهير عصره [غير] حاجبه جعفر بن محمد المصحفي رب القلم
والبيان ؛ وهو في الطبقة الثانية من شعراء الأندلس ، وغير الرمادى الشاعر
المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ويعدونه في الطبقة الثالثة (ص ١٦ : المعجب في تلخيص
أخبار المغرب) .

وإذا كان التاريخ قد ذهب بكثير من أسمائهم ، فقد رأينا في بعض أبنائه

أن من الكتب التي ألفت للحكم المستنصر كتباً في شعراء الأندلس، منها أخبار شعراء البيرة في عشرة أجزاء؛ وقد وقف عليه الوزير أبو محمد بن حزم؛ وهو الذي ذكره في بعض رسائله ولم يذكر اسم مؤلفه (ص ١٢٣ ج ٢) ولكننا وقفنا في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي على اسم هذا الكتاب في ترجمة مطرف بن عيسى الألبيري المتوفى سنة ٣٥٧؛ وقال إن له كتاباً آخر في فقهاءها؛ وكتاباً في أنساب العرب النازلين بها وأخبارهم (ص ٣٩٢)

ورأينا أيضاً في هذه الطبقات في ترجمة محمد بن عبد الرءوف القرطبي المعروف بابن خنيس المتوفى سنة ٣٤٣ أنه ألف كتاباً في شعراء الأندلس بلغ فيه الغاية؛ فيكون من ذكرهم فيه إلى ما قبل انتهاء زمن الناصر؛ والبيرة لم تكن إلا مدينة من مدن الأندلس فكيف بسائرهما؟ إلا أن الشعر كان كثيراً في علماء اللغة والنحو وغيرهما - كما سيجيء في موضعه - وفي أيام هذا الأمير نبغ محمد بن هاني الشاعر الشهير بأشبيلية، ولكنه انفصل عنها إلى إفريقية ومدح المعز صاحب مصر وغيره، وتوفى سنة ٣٦٨؛ وقد توفى الحكم سنة ٣٦٦ وولى بعده ابنه هشام فغلب على أمره ابن عامر المنصور وتولى حجابته، وجرت أحوال علت قدمه فيها حتى صار صاحب التدبير، فدانت له الأندلس كلها ولم يضطرب عليه شيء من نواحيها، وكان محباً للعلوم مؤثراً للأدب مفرطاً في إكرام من ينسب إلى شيء من ذلك ويفد عليه متوسلاً به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه، وقد أفرط في الإحسان على أبي العلام صاعد اللغوي البغدادي حين قدم عليه سنة ٣٨٠ حتى اتخذ له مرة قبيصاً من رقاع الخرائط التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه، وجعل ذلك حيلة إلى إبلوغ الغاية من كرمه، وقد ألف له كتباً غريبة،

منها كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربى مع الخنوت بنت مخزومة ، وكتابا آخر فى معناه سماه كتاب الجواس بن قطعل المذحجى مع ابنة عمه عفراء ، قال صاحب المعجب : وهو كتاب مليح جدا انخرم أيام الفتن بالاندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ، وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب — أعنى الجواس — حتى رتب له من يخرج له أمامه كل ليلة (ص ٢٠ : المعجب) .

ولعل هذه الكتب مما يساق فيه القصص الموضوع على غرض من أغراض السياسة والأدب ، ويقول صاحب المعجب : إن كتاب الهجفجف وضعه على نحو كتاب أبى السرى سهل بن أبى غالب ، فبأسفا على كتب أصبحت أسماؤها تحتاج إلى تفسير ... وقد ذكر الفتح بن خاقان فى المطمع فى ترجمة الوزير حسان بن مالك بن أبى عبدة أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب ابن السرى وهو به كلف وعليه معتكف ، فخرج وعمل على مثاله كتابا سماه رية وعقيل ، وأتى به منتسخاً مصوراً فى ذلك اليوم من الجملة الأخرى (ص ٣١٤ ج ٢) فهذا يفيد أن هذه الكتب جميعها على مثال كلية ودمنة المشهور .

وكان للمنصور مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والمناظرة بحضوره ما كان مقبياً بقرطبة ، لأنه كان مواصلاً لغزو الروم مفرطاً فى ذلك لا يشغله عنه شىء ، حتى إنه أربما خرج للمصلى يوم العيد فحدث له نية فى ذلك فلا يرجع إلى قصره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً ؛ وقد غزا فى أيام ملكة التى دامت إلى السنة ٣٩٣ نيفا وخمسين غزوة .

ورأس الشعراء فى أيامه عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ وقيل

سنة ٤١٩ ، وهو أول من أتقن الموشحات بالأندلس حتى كأنها لم تسمع إلا منه ، وللرمادى فى ذلك يدٌ أيضاً

ومن مشاهيرهم الرمادى وابن دراج القسطلى ومحمد بن مسعود الغسانى البجالى (ص ٢٣٨ ج ٢ : نفع الطيب) وكان يكتب له هو ومحمد بن إسماعيل

... .. وله لطائف فى الشعر فكان يخاطب

المنصور بلسان النبات التى يوافق أسماء عقائله ومحاطيه ، كاسم بهار وزرجس وغيرهما ، والوزير محمد بن حفص بن جابر ، وأبو بكر محمد بن نهور ، وغيرهم وكان المنصور معروفاً بالحمامة عن أهل الشعر والأدب حتى لا يتنقصهم فى مجلسه أحد إلا رد عليه وسفهه ؛ وقد وقع بعضهم فى الرمادى عنده فكلمه كلاماً كان يغوص دونه فى الأرض لو وجد لشدة ما حل به منه ؛ غير أنه لما كان المنصور غزاه موالياً للجهاد ، فقد كان غبار حروبه يثور بين العلماء تشدداً فى الدين ، حتى فشا فى العامة اتهام كل من يشتغل بالفلسفة أو يعرف بمذهب من مذاهبها حتى فى الشعراء أنفسهم ، وكان قليل من ذلك فى زمن الحكم وأبيه ، فاتهموا ابن هانىء فى أشيلية ، وأسأموا المقالة فيه حتى انفصل عنها ، ولما وفد الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الغسانى البجالى على المنصور ، اتهم كذلك برهق فى دينه ، فسجنه المنصور فى المطبق زمناً . وقد بقيت الفلسفة مضطهدة فى الأندلس بعد ذلك من عامتها ، حتى ظهرت فى بر العدو - كما سيجىء - وفشا الأدب فى زمن المنصور حتى صار حلية الشباب وزينة النشأة الأندلسية ، ومثل ذلك يكون مبدأ عصر عظيم ، وقيل إن الخانيث

بقرطبة يومئذ كانوا يشتغلون به ، فكان منهم فتيان أخذوا بنصيب وافر منه ، ومن هؤلاء غلام للمنصور اسمه فاتن توفي سنة ٤٠٢ هـ ، قالوا : كان لانظير له في علم كلام العرب (ص ٩٠ ج ٢ : نفح الطيب)

وبعد المنصور بزمن قليل ابتدأت الفتن في الأندلس واستجار بعضهم الإفرنج ، ولبثوا على ذلك إلى أن انقضت دولة بني أمية سنة ٤٢٨ هـ ، فكانت دولة المنصور آخر دول العلم والأدب في القرن الرابع ، وقد وضع ابن الفرضي الحافظ المشهور المتوفى سنة ٤٠٣ هـ كتاباً في أخبار شعراء الأندلس إلى ذلك الزمن (ص ٣٨٣ ج ١ : نفح الطيب)

وسار الأدب في وجهته غير مبال بقيام الملوك وسقوطهم ؛ لأنه لا يقوم بهم ولا يسقط معهم إلا في أوائل نشأته ، إذ يحوطونه ويكفلون نموه ؛ وإلى أن انقرضت دولة بني أمية وانتثر سلك الخلافة في المغرب كان الأمرام لا ينفكون يتعاهدونه ؛ فكان الناصر على بن حمود من البربر - وهو الذي ملك مُلك قرطبة بعد الأربعمائة وقيل سنة ٤٠٨ هـ - على عجمته وبعده من فضائل اللسان ؛ يُصغى إلى الأمداح ويثيب عليها ، مظهرًا في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ؛ ومن مشاهير الذين امتدحوه ابن الخياط القرطبي ، وعبادة بن ماء السماء (ص ٢٢٥ ج ١ : نفح الطيب) ولما ولي المستظهر سنة ٤١٤ (من خلفاء الدولة الأموية الثانية) عكف على الأدب ، وكان شاعراً مصنّعاً بديع الشعر ، فاشتغل عن تدبير المملكة بالمباحثة مع أبي عامر بن شهيد الشاعر الكبير ؛ وأبي محمد بن حزم العالم الشهير ؛ وعبد الوهاب بن حزم الغزل المترف ؛ فكانوا يتباحثون في الآداب ويتجادون أهداب الشعر ؛ حتى أحقد بذلك مشايخ الوزراء والكبراء ؛

فأثاروا عليه العامة وهم يومئذ أجهل ما يكون ؛ فقتلوه لأدبه وشعره ؛ وهذا وحده دليل على أن العامة لا يكرهون الفلسفة ولا يضطهدون القائمين عليها لذاتها ؛ ولكنهم مع كل ربح ؛ وأتباع كل ناعق ؛ وكما تابعوا في إحراق كتب الفلسفة ، تابعوا كذلك في إحراق كتب المذهب المالكي في المغرب - كما سنشير إليه فيما يأتي -

القرن الخامس

وملوك الطوائف

بعد أن انقطعت خلافة بني أمية ولم يبق من عقبهم من يصلح للملك ، استبد بالأندلس أفراد غلب كل واحد منهم على ما يليه ؛ وهم المسمون بملوك الطوائف فضبطوا نواحيها ، وجعلوها عواصم الحضارة ، وتنافسوا في أهبة الملك ونخامة الشأن ، فكان منهم بنو ذى النون ملوك طليطلة ، وبنو هرد ملوك طرطوشة وسرقسطة وغيرهما ، وملوك بني الألفطس أصحاب بطليوس وجهانها ، وبنو صمادح أصحاب المرية ، والفتيان العامرية: مجاهد ومنذر وخيران ملوك دانية (ص ١٣٩ ج ٢: نفح الطيب) وما منهم إلا أديب أو عالم ، فنفتت بهم سوق الأدب ، وصار الأديب أينما دار استند إلى ركن وتوجه إلى قبلة ، حتى صارت الأندلس كعبة ، لهذه العادة ، لا للعبادة ؛ لاجرم كان هذا العهد حافلا بالشعراء والأدباء والقائمين على أنواع العلوم من كل من أغلته قيمته المنافسة ، وقد وجدوا الزمن رخاء والعصر حضارة والنفوس متهيئة ، فلم يبق لهم وراء ذلك مقترح لقريحة ، ثم إن أولئك الملوك لم يخوضوا في أول أمرهم [الفتن] ، ولم تعصف بهم ريح السياسة ، فانصرفوا جهودهم إلى استجماع لذة الملك وأخذوا بأحلام المباحة التي يهذى بها مرضى الترف اللين وضعفاء العصب السياسى ، إلا قليلا منهم ، فصار المدح لغذاء أرواحهم كالمالح لطعام أجسامهم ؛ وثبتت العادة بذلك ، حتى إن يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراء ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه مع أنه دخل في نجدة لهم على الإفرنج وكان على يده النصر المبين .

وتبع ذلك من فنون الآداب ما يخلق لهم اللذة في كل صورة ويبدلها في كل خلقه حتى يتداووا بهذه الجدة من سأم القديم وضجر التكرار ، فكانت لهم المجالس العجيبة ، والأوصاف البارعة ، والفنون المستظرفة من صور التشبيهات ، إلا أن ذلك جميعه قد كان أعوَدَ على الآداب بالفائدة وأردَّ عليه بالمنفعة ، فنبت في أيامهم من لوخلاً الأدبُ الأندلسيُّ إلا منهم لكانوا زينتة ورواه ، وقد كاد يكون بهم القرن الخامس تاريخاً على حدة .

كان من أعظم مباهاة ملوك الطوائف أن فلانا العالم عند فلان الملك ، وفلانا الشاعر مخصص بفلان الملك (ص ١٣٩ ج ٢ : نفتح الطيب) ؛ وقد بذل مجاهد العامري ملك دانية لأبي غالب اللغوي ألف دينار ومركوباً وكساء على أن يضع اسمه في صدر [كتاب ألفه] فأبى ذلك أبو غالب وقال : كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتي ، أجعل في صدره اسم غيري ؟ فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن أنفته وأضعف له العطاء . وكان من ملوك بني هود : المقتدرين هود ، وهو آية في علم النجوم والهندسة والفلسفة ، وكان يباهى بالفقيه الأديب العالم الشاعر أبي الوليد الباجي وأنحياشه إلى سلطانه ؛ ومن ملوك بني الألفطس ، المظفر ، وكان أحرص الناس على جمع علوم الآداب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الأخبار وعيون التاريخ ، وقد [انتخب] بما جمع من ذلك كتابه المشهور بالمظفرى في خمسين جزءاً على نحو كتاب الاختيارات للروحي وعيون الأخبار لابن قتيبة (ص ٤٩ : المعجب) توفي سنة ٤٦٠ ، وكان أديب ملوك عصره ؛ أما ملوك بني عباد فقد كانوا هم وبنوهم ووزاؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر ، مشاركين في فنون العلم ، وكانت دولتهم العبادية بالمغرب كالدولة العباسية بالمشرق ، وكان المعتمد منهم

لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات ، وكان من شعراء أبيه المعتضد ، أبو جعفر بن الأبار ... وأبو الوليد وابنه الوزير ابن زيدون واليماني ، وابن جاح البطليوسي الذي يعد من أعاجيب الدنيا لأنه كان أمياً ، وقد بلغ من حسن شعره أن ولاة المعتضد رياسة الشعراء ؛ إذ كانت له دار مخصوصة بهم وديوان تقيده فيه أسماؤهم ، وقد جعل لهم يوماً يفرغ لهم فيه فلا يدخل فيه على الملك غيرهم ، وربما كان يوم الاثنين . (ص ٤٦٨ ج ٢ : نفح الطيب) .

فتأمل ما عسى أن يبلغ عدد قوم يُفرد لأسمائهم ديوان وتخصص بهم داراً؟ وكان المعتضد داهية يشبهه أبا جعفر المنصور ، وقد اتخذ خُشْباً في ساحة قصره جملها برءوس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور ، وكان يقول : في مثل هذا البستان فليتنزه ! (ص ٥٩ : المعجب) .

وهذا الخبر ينقله كتبة الأورويين إلى الشعر المحض فيقولون إنه كان يزرع الورد في جماجم أعدائه ، ولابنه المعتمد شيء من مثل هذا ، فقد اتخذ في بعض وقائمه ... من جماجم الإفرنج مثذنة ثوب عليها المؤذنون ؛ ولم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام يباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع يباب الرشيد والصاحب بن عباد والمعتمد هذا فكان يباب الرشيد مثل أبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والنمري وأشجع السلمي ومسلم بن الوليد وأبي الشيص ومروان بن أبي حفصة ومحمد بن منذر وغيرهم ؛ وكان يباب الصاحب بأصبهان وجرجان والري مثل أبي الحسين السلمي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأمون وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي محمد الخازن وأبي الحسن

ابن عبد العزيز الجرجاني وبني المنجم وابن بابك وابن القاشاني وبديع الزمان
والشاشي وكثيرين غيرهم (ص ٢٢ ج ٣: قيمة الدهر). وكان بحضرة المعتمد
مثل ابن زيدون وابن اللبابة وابن عمار وعبد الجليل بن وهبون وأبو تمام
غالب بن رباح الحجام وابن جامع الصباغ؛ وغيرهم، ولا أحدث بالمعتمد
وأولاده وأمه العبادية، فكلمهم شعراء، وكان ينظر المعتمد المتوكل بن
الأفطس، وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بأشبيلية، يتردد أهل الفضائل
بينهما كتردد التواسم بين جنتين، وينظر الأدب منهما عن مقلتين، والمعتمد
أشعر والمتوكل أكتب (ص ٥٨٣ ج ٢: نفع الطيب) وكان وزيره ووزير أبيه
ابن عبدون الكاتب الشاعر الشهير، وهو الذي سير فيهم القصيدة الخالدة
التي أولها:

* الدهر يفجع بعد العين بالآثر *

وذكر فيها مصارع الملوك إلى زمنهم، وتوفي سنة ٥٢٠
وكذلك كان بالمرية يومئذ المعتصم بن صماح، ومن شعرائه ابن الحداد
شاعر الأندلس وعمر بن الشهيد وأبو جعفر الخراز البطرني وأبو الوليد
النجلي ومحمد بن عبادة الوشاح والأسعد بن بليطة والحكيم القياسوف
أبو الفضل بن شرف القائل في دولته:

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حور
وقد قصر أمداحه عليه بعد أن مدح المتوكل بن المظفر وأقطعه المعتصم
قرية بأحوازها لهذا البيت - وسنتكلم عن الشعراء الفلاسفة في موضع آخر -
وما امتاز [به] القرن الخامس شيوخ الأدب في النساء، حتى كانت مريم

بنت أبي يعقوب الأنصارى التى اشتهرت بأشيلية بعد الأربعمائة تدارس
النساء الأدب (ص ٤٩٣ ج ٢ : نفتح الطيب) .

وامتاز أيضاً باختراع الزجل كما امتاز القرن الرابع باختراع التوشيح ،
والذى اخترع الزجل هو الوزير أبو بكر بن قزمان ، وكان ممن اشتمل عليهم
المتوكل بن المظفر .

وفى آخر هذا القرن نكب ملوك الطوائف وانقرض ملكهم على يد
يوسف بن تاشفين الملقب أمير المسلمين ولم يكن على شىء من الأدب العربى ؛
ولذلك كان أكثر الشعراء فى بر العدو أيام نكبة ملوك الطوائف من
الزائفة ومُخجق أهل الكدية ، حتى إنه لما أخذ المعتمد إلى طنجة تعرض له
أولئك الصعاليك والخفوا فى استجدائه ، وكان هو أولى منهم بالكدية لولا
أنه المعتمد الذى يقول فى ذلك :

لولا الحياء وعزة حَمِيَّة طى الحشا ساوهم فى المطلب
ومن مشاهيرهم الحصرى الأعمى ، وكانت له عادة سيئة من قبح الكدية
وإفراط الإلحاف (ص ٩٠ : المعجب) .

عصر الوزراء

غير أن ملوك الطوائف قد تركوا له إرثاً من الأدب اتصل به بعضه بعد
أن استوسق له الأمر ، إذ خلفوا من الشعراء والكتاب كالوزراء بنى
القطرنة من أهل بطليوس أبى بكر وأبى محمد وأبى الحسن ، وذى الوزارتين
أبى بكر محمد بن رحيم الشاعر ، وأخيه الوزير أبى الحسين بن رحيم . والوزراء
أبى بكر الطائى ، وأبى الحسن جعفر بن الحاج ، وأبى محمد بن القاسم ، وأبى عامر

ابن أرقم ، وأبي جعفر بن مسعدة ، وأبي محمد بن [...] ، وأبي القاسم
ابن السقاط ، وأبي عبد الله بن أبي الخصال ، وأبي الحسين بن سراج ،
وأبي القاسم بن الجد ، وأبي محمد بن مالك ، وعبد الله بن سماك ، وعبد الحق
ابن عطية ، وأبي الحسن بن أضحى ، والكاتب أبي عبد الله اللوشى ؛ [...]]
وأبي الحسن بن زنباع ، وأبي محمد بن سارة ، ويحيى بن تقي ، وأبي الحسن
غلام البكرى ، وأبي القاسم المنفي وأبي الحسن بن [...]] وأبي عبد الله
محمد بن عائشة ، وأبي عامر بن عقال ، وعبد المعطى بن مجد ، وغيرهم ،
وما منهم إلا عَلمٌ في دولة القلم .

وهذا القرن الخامس يصح أن [يلقب] بزمن الوزراء ، لأنهم كثروا
فيه كثرة لم تكن فيما قبله ولم تمهد فيما بعده ، وإنما كانوا يستوزرون
لأدهم من الكتابة والشعر - وبذلك عرفوا - فكان الوزارة كانت كالشعر
منافسة ، ثم كانوا يوزعون عليهم الخطط كالمظالم والأحكام [والإنشاء] وغيرها
وربما يتهدى الوزير الواحد ملوك عدة ؛ ولذهاب هؤلاء الوزراء
بجيد الشعر قل في زمنهم من عُرف بالشعر وحده ، لأنه لا يتميز به إلا من
ميزته مواهبه وتخطت به جلالة الوزارة ، وقد مر بك أسماء بعضهم ، أما
الوزراء ممن لم نذكرهم فمنهم أحمد بن عباس وزير زهير الصقلى ملك المرية ،
وكانت له عناية خاصة بجميع الكتب حتى بلغت دفتاره ٥٠٠ ألف مجلد غير
الدفاتر المخرومة ، وأبو مروان بن سراج جاحظ الأندلس ، وأبو محمد
ابن عبد البر ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وأبو مغيرة بن حزم ، ومحمد
ابن عبد الله بن مسلم ، وأبو المطرف بن الدباغ ، وأبو حفص بن برد ،
وأبو عبد الله البكرى ، وأبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو عبد الملك

ابن عبد العزيز ، وأبو جعفر البتي ، وأبو جعفر بن سعدون ، والحاجب
أبو مروان عبد الملك بن رزين ، و... محمد بن طاهر ، وأبو عامر بن
سنون ، وأبو بكر بن القصيرة ، وأبو الحسن بن اليسع ، وأبو الفضل
ابن حداد ، وذو الوزارتين أبو عيسى بن لبون ، وأبو محمد بن سفيان ،
وأبو محمد بن القاسم ، وأبو الحسن بن الحاج ، وأبو الأصمغ بن الأرقم ،
وابن الحضرمي ، وأبو طالب بن غانم ، وأبو بكر بن قزمان ؛ وربما كان
لكل واحد جمع من هؤلاء ، كتاب وشعراء ، يتجمل بهم موكب الوزارة ،
وينطق بهم لسان المجلس ؛ فتأمل عظمة هذا العصر ، وتدبر مقدار ما فيه
مع ذلك من الأدب وفنونه .

ونحن نستوفي هذه الكلمة بذكر من اشتهروا قبل من ذكرناهم من
وزراء الأندلس ؛ ومنهم حاجب الناصر أحمد بن عبد الملك بن عمر بن
أشهب ، ووزيره عبد الملك بن جهور ، ثم حاجب ابنه الحكيم جعفر بن
محمد المصحفي ؛ وكان في زمنه وزمن أبيه من بيوت الوزراء آل أبي عبيدة
وينتهي بنهم في الوزارة إلى زمن الداخل ، وآل شهيد ، وآل فطيس ؛
وفي زمن المنصور بن أبي عامر : محمد بن حفص بن جابر ، وأبو بكر محمد
ابن نهور ، وأبو عبيدة حسن بن مالك صاحب كتاب ربيعة وعقيل الذي
سلفت الإشارة إليه .

القرن السادس

بعد أن انقرض ملك الطوائف واستوسق أمرها لابن تاشفين بما أظهر من النكاية في العدو والدفاع عن المسلمين وحماية ثغورهم ، بلفّ الجيوش إلى الجيوش ، وصدّم الخيل بالخيّل ، عدّ من يومئذ في جملة الملوك وُسّمى هو وأصحابه بالمرابطين . ولم يختلف عليه شيء من الأندلس ، فانقطع إليه من أهل كل علمٍ فخرُهُ حتى ماجت [٤٣٣] حضرته ، ولم يجد بداً من أن يتبع سنن من قبله في تجميل الملك بهم ؛ وبذلك اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور الأندلس ، فكان من كتابه كاتب المعتمد على الله الوزير أبو بكر بن القصير وكان على طريقة القدماء ، من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى السجع ، إلا ما جاء من ذلك عفواً ، وكتب له أيضاً الوزير عبد المجيد بن عبدون ، وهو من أبلغ الكتاب قاطبة إلى غيرهما من الفحول الذين لم يجدوا لهم ركناً بالأندلس ، وقد ذكرنا بعضهم ، فإنه لم يشتهر بها بعد نكبة ملوك الطوائف من تفضل على أهل الأدب ، غير الوزير أبي محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري ، وكان شاعراً بليغاً — فإنه جرى على سنن عظماء الملوك في ذلك حتى لم يُرَ بعده مثله ، وتوفي سنة ٥١٨ — وكان إبراهيم ابن الأمير يوسف المذكور قد عقد في هذه الدرة سماءً ، ، ولما قام بالأمر على بن يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ — وكان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعدّ في الملوك والمغلبين — اشتد إثاره لأهل الفقه ، فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة

الفقهاء ، وإذا ولى أحداً من قضائه كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبيت
حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء
(ص ١١٠ : المعجب) فبلغوا في أيامه ما لم يبلغوه في الصدر الأول من فتح
الاندلس ، ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا من أتقن علم الفروع ، أى
فروع مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ونبت ما سواها ،
وكرر ذلك حتى نسي النظر في الكتاب والسنة ، ودان أهل ذلك الزمان
بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء
عند أمير المسلمين تقييح هذا العلم وكراهة السلف له وأنه بدعة في الدين ،
في أشباه لهذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بغض الفلسفة وأهلها ، فكان
يكتب في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبت الخوض في شيء من علم
الكلام وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ؛ ولما دخلت كتب الغزالي
إلى المغرب أمر هذا الأمير بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك
الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شيء منها ؛ واشتد الأمر في
ذلك ؛ فهذه أعظم نكبات الفلسفة ، وهذا هو سببها : مغالبة على الرزق
وتهالك على السلطة ؛ وإذا كانوا قد نسوا النظر في كتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم ، فلقد هان بعد ذلك أن تحرق كتب الفلسفة وأن
يُمثّل بها كل تمثيل ؛ ولما دخل محمد بن تومرت إلى مراکش ؛ وهو أصل
دولة الموحدين ، أحضر بين يدي هذا الأمير وجمع له الفقهاء للمناظرة ، فلم
يكن فيهم من يعرف ما يقول ، إلا رجلا أندلسيا اسمه مالك بن وهيب ،
وكان متحققا بأجزاء الفلسفة ؛ وقد شارك في جميع العلوم ، غير أنه لم يكن
يظهر إلا ما ينفق في ذلك الزمان .

وقد كان من وراء ذلك وتشعب هذه الفروع [واستبحار] هذا العلم أن الأمير يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٥٩٥ من أمراء الموحدين - لما نظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله ووجد في المسئلة الواحدة أربعة أقوال وأكثر لا يُعرف في أيها يكون الحق - حَمَلَ الناس على الظاهر من القرآن والحديث [وأراد] نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، فأمر بإحراق كتبه بعد أن يجرد ما فيها من الحديث والقرآن ؛ حتى لقد كان يؤتى منها بالأحمال فتوضع وتطلق فيها النار ، وتقدم كذلك إلى الناس بترك الاشتغال في علم الرأى والخوض في شيء منه ، وتَوَعَّد على ذلك بالعقوبة الشديدة ؛ وأمر من عنده من المحدثين باستخراج مجموع من مصنفات الحديث العشرة ، كالصحيحين والترمذى والموطأ وغيرها ، فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ، وجعل لمن حفظه الجمل السَّيِّ من الكسَاء والمال ؛ فحفظه الخواص والعوام (ص ١٨٤ : المعجب) وكان ذلك في سنة ٥٨٤ .

غير أن الأمير على بن يوسف لم يكن منصرفاً عن الأدب ؛ إذ لا عداوة بينه وبين الفقه ، فكان يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وكان عنده من مشاهيرهم أبو القاسم المعروف بالأحذب ، وأبو بكر محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله محمد بن أبي الحضال وكان صاحب المكناة لديه ، لمشاركته في علوم الفقه ، وأخوه أبو مروان ، وعبد المجيد بن عبدون وغيرهم .

وكذلك كان أخوه إبراهيم بن يوسف بن تاشفين قد عقد للأدب في ذلك الجو سماء أدار فلكها واستوى على عرشها فكان ملكها ، وهو الذى

ألف له الفتح بن خاقان كتابه الشهير الموسوم بقلائد العقيان ، وكان يتوحد في أوائل القرن السادس من خلفتهم ملوك الطوائف ومن تركهم أبوه من العلماء والشعراء والكتّاب ، وقد ذكر كثير منهم .

ولم يزل [أمر] الأدب [يتردد] بين الأندلس وبر العدو ، حتى أعاد أمراء الموحدين مجده وعزه ، وكان أولهم عبد المؤمن الذي ولى سنة ٣٤٤ هـ ؛ وكان من أشهر شعراء الأندلس في هذا الزمن : ابن حديس ، وابن الزقاق ، وابن خفاجة ، وابن بقي ، والفيلسوف أبو بكر بن الصائغ وأبو الحسن جعفر بن الحاج الميورقي الشاعر الشهير ، وابن الصفار القرطبي ، وغيرهم .

الأدب ودولة الموحدين

لما تفرق أهل الأندلس بعد الفتن التي [كانت] في أواخر القرن الخامس ، كان منهم الكتّاب الوزراء والشعراء الأدباء ، فكان لا يُستعمل في بر العدو بلديٌّ ما وجد أندلسي (ص ١٢٤ ج ٢ : نفح الطيب) ؛ ومن أجل ذلك كان الأمراء يبعثون في طلبهم ويرغبون فيهم أشد الرغبة ، إن لم يكن لإحياء ملك الأدب فزينة لأدب الملك ، وقد مر شيء من ذلك في دولة المرابطين ، ولما ولى عبد المؤمن - من الموحدين - جرى على هذه السنة ، فبعث يستدعي أهل العلم من البلاد إلى السكون عنده والجوار بحضرتة ؛ وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وأظهر التنويه بهم والإعظام لهم إلا أنه لم يكن من شعرائه الخواص به من تلقى له أزمة القول ، حتى إنه لما تغير على وزيره الكتّاب البليغ أبي جعفر بن عطية ، امتحن من عنده من الشعراء بهجوه ، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال : ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه ! (ص ١٠١ ج ٣ : نفح الطيب) .

ولما خرج بمجموعه يقصد الأندلس ، وكانت قد اختلّت أحوالها ، نزل مدينة سبته ، فبهر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق ، وسماه هو جبل الفتح - وفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة ، فكان له هناك يوم عظيم ، استدعى فيه الشعراء ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ؛ إنما كانوا يستأذنون فيؤذّن لهم ، وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون (ص ١٣٧ : المعجب) فأنشده أبو عبد الله محمد بن جبوس من مدينة فاس ، وهو الذى كان في دولة لتونة مقدّما في الشعراء ، والطلاقُ المروانى ؛ وابنُ سيد اللّص ؛ وهو نحوى كان يُغير على أشعار الناس فتُبز بهذا اللقب (انظر بغية الوعاة : ص ١٥٠) ، والرصافي ، وكان يومئذ حدثا وغيرهم ؛ وقد ولى عبد المؤمن بعض أولاده على جهات من الأندلس ، فولى غرناطة وأعمالها ابنه عثمان ؛ ويكنى أباسعيد ، وكان محبا للآداب مؤثرا لأهلها ، يهتز للشعر ويثيب عليه ، فاجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة كانت البقية الباقية من ضوء ذلك النهار ؛ ثم صارت الدولة إلى يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ وكان في حياة أبيه قد ولى أشبيلية وأعمالها ، نزل منها محل المعتمد ووقف على آثار دولته ، فاختلف هناك بعلماؤها ، كالاستاذ اللغوى ابن ملكون وغيره ، وجعل يأخذ عنهم ، وصرف عنايته إلى كلام العرب وحفظ أيامهم ومآثرهم وأخبارهم في الجاهلية والإسلام ، حتى صار أسرع الناس نفوذ خاطر في غرامض النحو ومسائل العربية ، مع مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة ، ثم طمع به شرف نفسه وعلوّ هيمته إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيرا من أجزاءها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، ثم تحطاه إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر ، وما كان

ينتهي إليه خبر كتاب منها عند أحد إلا أخذه وعرض عليه ما هو خير له ؛
ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء
وخاصة أهل العلوم النظرية ، إلى أن صارت حضرته بذلك أشبه بحاضرة
خلافة عليية ، وكان ممن صحبه من فلاسفة الإسلام ، أبو بكر محمد بن طفيل ،
تلميذ أبي بكر بن الصائغ ، وقد كان أمير المؤمنين أبو يعقوب هذا شديد
الشغف به والحب له حتى كان يقيم عنده في القصر أياما ليلا ونهاراً لا يظهر ،
وهو الذي تولى جلب العلماء إليه من جميع الأقطار ، ونبه على أقدارهم ،
ولولاه ما كان ابن رشد أعظم فلاسفة الأندلس شيئاً مذكوراً ؛ إذ هو
الذي نوه به حتى عظم قدره ، وتقدم إليه في تلخيص كتب أرسطوطاليس
وتقريب أغراضها . وكان من كتاب أبي يعقوب أبو [عبد الله] محمد [بن]
عياش بن عبد الملك ، وهو الذي جرى على طريقة خاصة في الإنشاء توافق
طريقة هؤلاء الأمراء وتصيب ما في أنفسهم ، ثم جرى الكتاب من أهل
ذلك المصر بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه ، لما رأوا من استحسانهم
لتلك الطريقة (ص ١٧٤ : المعجب) وكان أشهر شعرائه وشاعر المغرب في
وقته أبو بكر بن مجير الأندلسي المتوفى سنة ٥٨٧ ؛ ومن شعراء زمنه وزمن
أبيه الرصافي ، والكندي ، وأبو جعفر بن سعيد ، وابن الصابوني شاعر
أشبيلية وشاحها ، وابن إدريس الرندي .

وتوفى أبو يعقوب سنة ٥٨٠ فقام بعده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ،
وكان قد وزر لآبائه [فبالغ غاية] بعيدة من مطالعة الأمور وتقدير الرجال ،
فكأنما استوفى حظه من إكرام الفلسفة ووقاها قسطها في ذلك الزمن ،
لأنه ما كاد يتصل به الأمر حتى أراد أن يرجعها بدوية ساذجة يجرى فيها

على سنن الخلفاء الراشدين ، فكان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس ثم كان يقعد للناس عامة لا يجيب عنه أحد ، حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم ! (ص ١٨٩ : المعجب) ، وقد سلف ما كان من نظره في كتب الرأي وتقدمه بإحراقها ، وحكوا عنه أنه لما أزمع الخروج إلى بعض غزواته سنة ٥٩٢ كتب إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه ، فحصل على جماعة كبيرة منهم كان يجعلهم كلما سار بين يديه ، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء المشيراء إلى العسكر ؛ ولعله يحكى في ذلك قتيبة بن مسلم الفاتح الشهير ، فإنه حين لقي الترك وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، جعل يكثر السؤال عنه ، فأخبر أنه في ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً إصبعه إلى السماء ينضنض بها ، فقال قتيبة : لتلك الإصبع ... أحب إلى من عشرة آلاف سيف .

نكبة الفيلسوف ابن رشد

وفي أيام يعقوب هذا نالت أبا الوليد بن رشد فيلسوف الأندلس المحنة الشديدة التي أظلمت أسبابها على الأقلام ظلمة المداد ، وأقام لها الكتاب من كلامهم مناخاة وألبسوها من صحفهم ثياب الحداد ؛ وقد تكلم عنها [الكتبة] من العرب ، كالذهبي والأنصاري وابن أبي أصيبعة وعبد الواحد ابن علي التيمي صاحب كتاب المعجب ، وكان يومئذ حياً ، ثم تناولها كذلك المؤرخون من الإفرنج وبسطوا فيها العبارة ، كالفيلسوف رينان وغيره ، وهم إنما حاروا في أسبابها ، لأن ابن رشد كان قاضي القضاة ، وكان مقرباً عند يعقوب وأبيه حتى [إن يعقوب] جاوز به مجلس أخصائه وأدناه فوق ما يؤمل ، ولكن أكثر أولئك لم يرجعوا في سبب هذه المحنة

إلى سيرة يعقوب هذا ، لأنها لا تخرج عن أن تكون خلقاً من أخلاقه
أو نزوة لبعض هذه الأخلاق ، وإنما أعمال المرء بخيرها وشرها ميزان ،
وسيرته موضع اللسان منه ، فهي تنطق بصواب التميل بين الكفتين وتدل
[على] حقيقة الترجيح ؛ وقد أسلفنا من أمر هذه السيرة ما يتعين معه الحكم
بأن الأمير يعقوب لا يبغض الفلسفة مستقيمة في كتبها ، ولكنه يبغضها
معوّجة في الألسنة ، إذ تزيع بها القلوب الخفيفة ، وتضل العقول الطائشة
فلما نتأ رأس الفتنة ، وأصبح الكلام على أن يشيع في العامة ويتقلب على
الألسن ويختلط بالأهواء ووجوه التأويل ، لم يكن بدّ من أن يحسم الأمير
مادة الفتنة ويتقى الله في عامته ، وهو الرجل الذي يحكمهم بالقلب المطمئن
ويحوظهم بالنظرات المحسكة ، فلا يزال يتحرى العدل بحسب طاقته
وما يقتضيه إقليمه والأمة التي هو فيها ، ولذلك نستبعد نحن أن يكون سبب
هذه المحنة غضباً من المنصور لمن يناوئ الفيلسوف ، أو موجدة عليه
لأنه ذكر في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس أنه رأى الزرافة عند ملك
البربر - يعنى المنصور - فغفل عما يتعاطاه خدّمة الملوك ومتجولو الكتاب
من الإطراء والتقريظ ، ولا أن ابن رشد كان يؤثر أبا يحيى على أخيه يعقوب
ولا ما أشبه ذلك مما لا يلتئم مع سيرة المنصور بتهّة ؛ إذ هو لا يخرج من
جلده ويترك فضلات روحه ويخلق رجلاً جديداً يحب التمليق والمداهنة
ويؤثر الكبرياء ويفسح من صدره للغيبة والنميمة من أجل ابن رشد ولكي
يشد عليه هذه الشدة ؛ ولولا ذلك ما جمع فقهاء قرطبة وأخذهم بأن ينظروا
في كتب الفيلسوف فيما التحريم وإما التحليل .

وقد كان الأمير أتقى لله من [أن يهين شعبة مسلم] ويلعن رجلاً يقول ربّي

الله ، أو يغمض في رأى من يشير بذلك ؛ ولكنه أراد أن يبرأ من هذه
التبعة ، ويتحلل من عهدة ما عسى أن يكون خطأ ، فجمع الفقهاء لتكون
كلمتهم الحكم على العاقبة بالسكوت ، فإنهم إذا خاضوا في ذلك وترك الأمر
على ما هو ، فثمت لهم فاشية من الضلال ووجد الناس السبيل إلى خذلان
هذا الأمير في غزواته ، وهو الذى كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من
المناكر والبدع ويقول : نحن إن شاء الله مطهروها ! ولم يزل هذا عزمه
إلى أن مات (ص ١٨٨ : المعجب) .

هذا ما زاه من سبب المحنة ، وهو الحق لا ريب فيه ، أما تفصيلها فهو قار
في موضعه من كتب من ذكرناهم في صدر هذا الفصل فلا يفوت من يلتمسه ؛
وقد أبعده الفيلسوف بعد ذلك إلى [...] بلدة قريبة من قرطبة يسكنها
اليهود ، وأبعد من يقول بقوله أو يتكلم في علوم الفلسفة ، ومنهم القاضى
أبو عبد الله بن إبراهيم الأصولى الذى يقال إنه خرج كلمة (ملك البربر) ونبه
على أنها محرقة عن (ملك البرين) ، وأبو جعفر الذهبى ، ومحمد بن إبراهيم قاضى
بجاية ، وأبو الربيع الكفيف ، وأبو العباس الشاعر ؛ ثم كتبت الكتب عن
المنصور إلى البلاد بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة ،
ويحرق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل
به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة . فأشبع
الناس من كتب الفلسفة هذه النار التى بقيت فى الأندلس إلى زمن ديوان
التفتيش تقول هل من مزيد ؟ ولكن المنصور لما رجع إلى مراکش نزع
عن ذلك كله وجنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس
إلى مراکش للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر ولكنه مرض بها مرضه

الذي مات فيه سنة ٥٩٤ ، وتوفي بعده يعقوب صدر سنة ٥٩٥
وكان في زمنه من أمراء الكتاب والشعر : أبو عبد الله بن وزير الشلبي
المشهور من أمراء كتاب أشبيلية ، وشعره يشبه شعر أبي فراس الحمداني ،
وكان أحد فرسان الأندلس ، وابنه أبو محمد غير مقصر عنه فروسية وأدبا
وشعرا (ص ٥٨٢ ج ٢ : نفع الطيب) ، وقد كثرت الشعر في زمنه وجمَّ أهله
ولكنه شعر أتباع لا شعر ابتداء : إذ لم ينشأ في الأندلس بعد القرن الخامس
من يعد في أوائل شعرائها ؛ ومن كثرة الشعر يومئذ أن المنصور لما قفل
من غزوة الأراكة الشهيرة سنة ٥٩١ ورَدَّ عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه
فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته ، بل كان يختص منها بالإنشاد
البيتين والثلاثة المختارة ، فدخل أحد الشعراء فأنشده :

ما أنت في أمراء الناس كلهم إلا كصاحب هذا الدين في الرسل
أحييت بالسيف دين الهاشمي كما أحياه جدك عبد المؤمن بن علي
فأمر له بالني دينار ولم يصل أحداً غيره ، لكثرة الشعراء ، وأخذاً بالمثل :
« منع الجميع إرضاء للجميع ، وقد انتهت رقاع الفصائد إلى أن حالت بينه وبين
من كان أمامه (ص ٤٣٠ ج ٢ : نفع الطيب) وهذا وحده ينهض دليلاً على أن
الشعر يومئذ كان متجرراً حقيقياً لا يتأدَّبُ به ، فلا يخرج من روح الشاعر إلى
قلبه حتى يبقى أدبا ، ولكنه يخرج من لسانه إلى يده فينقلب مادة . وقد كان
ذلك قبل زمن عبد المؤمن ، لأنه لما مدحه الحسين أبو القاسم بن سعدة
الأوسي ، وكان جده ملك وادي الحجارة ، كتب اسمه وزيرُ عبد المؤمن في
جملة الشعراء ، فلما وقف الأمير على ذلك ضرب على اسمه وقال : إنما يُكْتَبُ
اسمُ هذا في جملة الحساب (أصحاب الحسب) لا تدنسوه بهذه النسبة ؛ فلسنا من

يتغاضى على غمط حسبه (ص ٢٥٣ ج ٢ : نفح الطيب) إلا أن ذلك لم يمنع أن يكون بينهم نفر قليلون يقومون على الأدب .

ومن ختم بهم القرن السادس من أولئك : محمد بن سفر الشاعر الكبير ، وأبو بحر صفوان بن إدريس المتوفى سنة ٥٩٨ ، وأبو جعفر الحميري الحافظ أديب الأندلس المتوفى سنة ٦١٠ ، وغيرهم وإن كانوا قليلين .

بعد القرن السادس

ابتدأت الفتن بعد هذا القرن تتقلب حتى ذل الأندلسيون سنة ٧٤١ حين اتحد ملوك الأيبانول وملك البرتغال على العرب فهزموهم ، ثم عادوا ثانية مع ملوك إيطاليا واستولوا على الجزيرة الخضراء سنة ٧٤٣ ولم يبق في حوزة الأندلسيين إلا غرناطة ، وكان بعد ذلك الزمن الذي انتهى بجلاء الأندلسيين في أوائل القرن العاشر ؛ وفي كل هذه المدة كان ينبغ الشعراء والكتاب وأهل العلوم ، إلا أن المشاهير منهم كانوا يعدون بالنسبة إلى ضعف الزمن وسفاهة التصرف في إرث تلك الحضارة القديمة — على قاعدة المثل السائر : واحد بالمائة ، ورجل يفي بالفئة ؛ وكانوا مع ذلك في الأغلب إنما يقلدون المعاصرين من أدباء المشرق ، كالصفدي وغيره ، فيتبعونهم في الصناعات اللفظية ونحوها ، وكان لاكثرهم رحلة إلى هؤلاء ، يجتمعون بهم ويأخذون عنهم ، كما فعل ابن جابر صاحب بديعة العميان ، ورفيقه الألبيري ؛ وابن سعيد المغربي ، وغيرهم ، خصوصا وقد كانت دولة الشعر قائمة يومئذ — في القرن السابع — بحضرة الناصر ملك الشام الذي ألبسها من عزه تاجا ، وأحلها من سنامه أبراجا .

ومن نبغ في القرن السابع أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب الذي كتب عن ولادة من بنى عبد المؤمن ، ثم استكتبه السلطان بن هود وقتل سنة ٦٣١ وهو مبدع في نثره وشعره معا ، وكان يرى نفسه فوق أبي تمام والبحترى والمنتبى ؛ لأن أكثر مدارس الشعر يومئذ كانت منصرفة إلى دواوين هؤلاء الثلاثة كما هي إلى اليوم ، وكما تكون بعد اليوم إلى ماشاء الله ؛ وابن سهل الإسرائيلي الشاعر الشهير المتوفى سنة ٦٤٩ ، وأبو المطرف بن عميرة الإمام الكاتب المتوفى سنة ٦٥٨ وابن مرج الكحل الشاعر المتوفى سنة ٦٣٤ .

وكان من نابغى القرن الثامن ابن الجياب المتوفى سنة ٧٤٩ . وأبو يحيى ابن هذيل المتوفى سنة ٧٥٣ - وسيأتى ذكره في فلاسفة الشعراء ، [وأبو القاسم] ابن جزى المتوفى سنة ٧٥٠ وكلهم من أشياخ لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر ، وهو أشهر أدباء هذا القرن شعراً وكتابة وتفنتنا في العلوم ، وقد وضع في شعراء هذا القرن كتاباً سماه الكتبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة ، إلا أنه على ما أرجح عد فيه طبقات العلماء ، إذ كان لا يخلو أحدهم من أن يكون على شيء من الأدب يحمله [على شيء] من الشعر ، وكذلك فعل في الإحاطة ، ثم كان شاعرٌ مابقي من الأندلس بعد لسان الدين ، هو العربي العقبلي الشاعر الوشاح ، واشتهر بعده أيضاً تليذه ابن زمرك وزير الغنى بالله .

أما القرن التاسع وهو الذي مرّ على أطلال الأندلس ، فكان في نصفه الأول الوزير الكاتب القاضي أبو يحيى بن عاصم الذي يقول عنه الأندلسيون إنه ابن الخطيب الثاني ، وكان في نصفه الأخير قاضي الجماعة بن الأزرق الشاعر المنثى الفقيه المتوفى سنة ٨٩٥ ، وصارت الأندلس بعد ذلك أرضاً صماء لا ترجع الصدى ، واستعجم تاريخها فكانما بدأ غريباً وعاد كما بدأ .

الشعر الأندلسي والتلحين

لقد يخطئ من يزعم أن شعر الأندلسيين يغيب في سواد غيره من شعر الأقاليم الأخرى كالعراق والشام والحجاز ، بحيث يشبهه النسيج وتلتحم الديباجة ، وذلك زعم من لا يعرف الشعر إلا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره ؛ ولكن للشعر روحا كروح الإنسان : تستوى مع الجنس كله في جملة الأخلاق وتختلف في مفرداتها ، حتى لقد يجد اللبيب الخاذق من التفاوت بين أنواع الأشعار إذا هو استقرأها وتقصص تواريخ أصحابها ما يصح أن يخرج منه علم يسمى علم الفراسة الشعرية .

ومن هذا القبيل يمتاز شعر فنون الأندلس بتجسيم الخيال النحيف وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحى بها الحضارة ، والتصرف في أرق فنون القول واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي ، بل هي تحمل على التلحين بما فيها من الرقة والرنين ، ولا يشاركونهم في ذلك إلا من ينزع هذا المنزع ويتكلف ذلك الأسلوب ؛ لأن جزالة اللفظ في شعرهم إنما هي روعة موقعة وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة ؛ وتلك فلسفة الجزالة ، ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه وبرعوا في الوصف ، لأنهما عنصران لازمان في تركيب هذه الفلسفة الروحية التي هي الشعر الطبيعي .

وقد يشاركونهم في كثير من ذلك شعراء الشام ، ولكن رقة هؤلاء عربية مصفاة ؛ وبذلك امتازوا على عرب الحجاز والعراق ؛ فهم لا يهلون بالألفاظ المقعقة ؛ ولا يغالون في نخامة التركيب ؛ ولكن لا يستقبلك في شعرهم ما يستقبلك في شعر الأندلسيين من الشعور الروحي الذي لا سبيل إلى [تصوره]

بالالفاظ ؛ والذي تدبّر معه أن الفرق بين الخياليين كأنه الفرق بين البلايين في التبعية والاستقلال . وليس يدل ما قدمناه على أن شعر فحول الأندلسيين ممتاز على إطلاقه وأن غيره لا يمتاز عليه ؛ بل الأمر في ذلك كالجمال : كل أنواعه حسن رائع ؛ ولكن النحافة اللينة منه تستدعى مع الإعجاب رقة هي بعينها التي يجدها من يتدبر ذلك الشعر .

وقد كان التلمحين ضروريا عند شعراء الأندلس ؛ وما اخترعوا الموشحات إلا لأن أوزانها أحفل به من أوزان الشعر ؛ ولذلك لا يقع التوشيح موقعه من السمع إلا إذا خرج ألقانا ؛ وقد كان منهم من ينظم ويغني ويلحن ؛ وأكثر ما يكون ذلك في فلاسفتهم ؛ كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى سنة ٥٢٣ ، وكانوا يكتونه بالأديب الحكيم ، وهو الذي لحن الأغانى الأفریقیة (ص ٣٧٢ ج ١ : نفح الطيب) ، وكالفيلسوف أبي بكر بن باجة الغرناطى ؛ وله عندهم الألحان المطربة التي عليها الاعتماد ، وهو صاحب كتاب الموسيقى الذي يعدونه السكفاية من هذا العلم ، وأعجب شيء في ذلك أن لأبي عبد الله بن الحداد الذي مر ذكره في شعراء المعتصم بن صمادح ، مؤلفا في العروض مزج فيه بين الموسيقى وآراء الخليل ، وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على التوشيح (ص ٢٩٣ ج ٢ : نفح الطيب) فهذه كانت عنايتهم بالألحان ، وهي التي جعلت شعرهم كأنه نفوس تقطر أو تسيل .

الشعراء الفلاسفة

ولم ينشأ من الفلاسفة شعراء مجيدون قدر من نشأ منهم بالأندلس وحدها ، ولم يكن للفلسفة تأثير على شعرهم إلا من جهة معانيه الشعرية ، فإنها

صارت من سمو الخيال رقة التصور وبراعة الابتكار بحيث تدل على عقل صاحبها دلالة المطابقة ، وبذلك زادوا في محاسن الشعر ، ولكن غيرهم يخلط بين معاني الفلسفة الفنية وبين معاني الشعر ، فيجئ به فلسفة ركيكة ساقطة ، أو يجعل فلسفته التزام نوع واحد من مذاهب الشعر ، كالحكمة مثلاً ، وبذلك يبرد شعره ويثقل ، ولا تكاد تجد في غير الأندلسيين من يتحقق بأجزاء الفلسفة فيكون فيلسوفاً ، ويبرز في الشعر فيكون شاعراً ، ويجمع في شعره الجمال الروحي في المعنيين فيكون شاعراً وفيلسوفاً معاً ، ومن هؤلاء يحيى الغزال ، وأبو الأفضل بن شرف - وكان عند المعتصم وابنه - وابن باجة ، ومالك بن وهب ، وكان عند يوسف بن تاشفين ، وأبو الحسن الأنصاري الجياني المتوفى سنة ٥٩٣ المعدود من مفاخر الأندلسيين ، ويلقبونه بشاعر الحكماء وحكيم الشعراء ، وله كتاب شذور الذهب ، منظوم في الكيمياء ، وقيل في بلاغته التي خضعت لها مادة الفن : إن لم يملك صناعة الذهب عليك الأدب (٣٤٢ ج ٢ : نفتح الطيب) وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى سنة ٥٢٣ وجهه صاحب المهديّة إلى ملك مصر فحبس بها عشرين سنة في خزانة الكتب ، فخرج إماماً في العلوم وأتقن علوم الفلسفة والطب والتلحين وقد مرّ آنفاً ؛ وأبو الحكم العربي المتبحر في الفلسفة والأدب ، وهو الشاعر الهزلي ، سنة ٥٤٩ ، وأبو بكر بن زهير المتوفى سنة ٥٩٦ صاحب الموشحات التي امتاز بها ، وأبو زكريا يحيى بن هذيل المتوفى سنة ٧٥٣ ، وكان أعجوبة في الاطلاع على علوم الأوائل ، وأبو الحسين علي بن الحمارة الغرناطي ، وقد برع خاصة في التلحين ويقولون فيه إنه آخر فلاسفة الأندلس (ص ٤١٤ ج ٢ : نفتح الطيب) .

ولكل واحد من هؤلاء وأمثالهم النظم المرقص المطرب الذي يقرب

النفس على جانبي الطرب من الفلسفة والشعر ، ولو اتسع لنا المقام لجئنا بالكثير منه ، ولكن الاختيار ليس من شرطنا في هذا الكتاب ، وقد اختار الأندلسيون أنفسهم من شعر شعرائهم كتباً ممتعة ، منها كتاب الحدائق لأبي عمر أحمد بن فرج ، عارض به كتاب الزهرة لأبي بكر بن داود ، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكثر اسمه لأبي بكر ، ولم يُورد فيه لغير أندلسي شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء ، وأجاد فبلغ الغاية وأتى الكتابُ فرداً في معناه ، وهذه الأبواب جميعها إنما هي في الرقائق وأنواع الوصف ، كما يدل على ذلك كتاب الزهرة الموجود قسم منه في المكتبة الخديوية بمصر .

ولأبي الحسن علي بن محمد الكاتب من أهل القرن الخامس كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ولم تسمُ همةُ أحد إلى جمع مثله من شعر قومٍ بعينهم وإنما يجمعون من كل شعر وقع إليهم ، كما فعل أبو سعيد نصر بن يعقوب في كتابه روائع التوجيهات في بدائع التشبيهات (ص ١٢٣ ج ٣ : بئيمة الدهر) فقد ضمنه ما اتفق من ذلك لشعراء الشام والعراق والرى وأصبهان وغيرها .

وقد جاء كتاب الدخيرة لابن بسّام كالذيل على كتاب الحدائق لابن فرج ، وهي موجودة ؛ وفي عصرها صنف الفتح بن خاقان كتاب القلائد ، ذكر فيه المعاصرين من الوزراء والكتاب والشعراء ، ثم ألف المطمح ، وهو نسختان : كبير وصغير ، وهذا الأخير هو المطبوع في الآستانة ومصر ، وقلما تنبه قارئوه إلى ذلك فلا يزالون يرمونه بالتقصير عن القلائد . ولم يلتزم الفتح في المطمح ما التزم في القلائد ، بل أورد فيه مشاهير الأندلس من كل طبقة في كل عصر ؛

ثم جاء أبو عمرو بن الإمام من أهل المائة السادسة ، فوضع كتابه سمط
الجمان وسفط المرجان ، ذكر فيه من أخلت القلائد والذخيرة بتوفية حقه
من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة ، ثم ذيل
عليه أبو بحر بن صفوان البرسي بكتاب زاد المسافر ، ذكر فيه جماعة ممن
أدرك المائة السابعة ؛ ولابن هانئ اللخمي المتوفى سنة ٧٣٣ كتاب الغرة
الطالعة في شعراء المائة السابعة ، وقد مر بنا ذكر كتاب ابن خنيس ، وكتاب
شعراء ألبيرة الذي ألف للحكم المستنصر ، وكتاب السكتيبة الكامنة في أهل
المائة الثامنة لسان الدين بن الخطيب ؛ وقد رأينا في طبقات اللغويين
والنحاة للسيوطي في ترجمة ابن خنيس القرطبي المتوفى سنة ٣٤٣ ، أنه ألف
كتابا في شعراء الأندلس - إلى عهده - بلغ فيه الغاية (ص ٦٧) ؛ هذا
إلى كتب أخرى لم تقيد بالتراجم ولا بالاختيار ، وإنما استوعبت فنونا
كثيرة مما يحاضر به من الأدب والتاريخ ككتاب المسهب^(١) في فضائل
المغرب ، ألفه ستة أشخاص في ١١٥ سنة ، آخرها سنة ٦٤٥ ، وكتاب فلك
الأدب لابن سعيد ، من شعراء القرن السابع ، وكان رحالة إلى المشرق ،
وهو صاحب كتاب عنوان المرقصات المطبوع في مصر ؛ وقد ألف يحيى
الخدج المرسي ، وقد أدرك المائة السابعة ، كتاب الأغاني الأندلسية ، على
منزعه كتاب أغاني أبي الفرج الأصبهاني ؛ فلا بد أن يكون قد ألم فيه بتراجم
طائفة كبيرة من مشهورى أدبائهم ؛ ولمحمد بن عاصم النحوي ، من علماء
القرن الرابع ، كتاب في طبقات الكتاب بالأندلس . ولو بقيت هذه الكتب

(١) قالوا في صحة هذا الضبط إنه خاص بحالة الإكثار في صواب ، وأما المسهب
(بالفتح) على ما يقتضيه نصهم فهو على المكثر إطلاقه في لغو أو صواب .

جميعها لا يمكن استخراج تاريخ واسع للأدب الأندلسي يشرق على الدنيا
بذلك النور الذي أسدلت عليه حجب الغيب وترك مكانه في التاريخ
فراغا مظلما .

والأندلسيون يختارون من شعرائهم من يقابلون بهم طبقة بشار وحبيب
والمتنبي ، أى الطبقة العالية من شعر الشام والعراق ، ويعدون من هؤلاء
الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ،
وابن دراج القسطلي ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ،
وعبد الملك بن سعيد المرادي (ص ١٣٥ ج ٢ : نفتح الطيب) فهذه هى الطبقة
الثانية عندهم ، والطبقة الأولى يقابلون بها جريراً والفرزدق والأخطل ومن
معهم ، ويعدون منها أبا الأجر جعونة بن الصمة ، ويحيى الغزال وغيرهما ؛
والطبقة الثالثة يقابلون بها سائر المولدين ممن لم يبلغ مبلغ أولئك فى الاشتهار
وبعد الصيت ، وقد ذكرنا أسماء الكثيرين من فحولهم .

أدبيات الأندلس

سبقت لنا كلمات خفيفة عن الأدب النسائي في الأندلس ، وعددنا أسماء بعض جواري عبد الرحمن الأوسط ، وسنعد الآن المشهورات من سائر أولئك الأدبيات ، فأولاهن وأولاهن بالتقديم ، لبني كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله — أي ناسخة — كانت تكتب الخط الجيد ، نحوية شاعرة عروضية بصيرة بالحساب مشاركة في العلم لم يكن في [مصرهم] أنبل منها ، وتوفيت سنة ٣٧٤ ، وقد عدها السيوطي في طبقات اللغويين والنحاة ، وكانت تعاصرها حسانة التيمية بنت أبي الحسين الشاعر ، والشاعرة الغسانية ، وحفصة بنت حمدون ، واشتهرت بعدهن عائشة القرطبية المتوفاة سنة ٤٠٠ ، لم يكن في زمانها من [حرائر] الأندلس من يعدلها علما وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة ، تمدح ملوك الأندلس وتخطبهم بما يعرض لها من حاجة ، ثم اشتهرت في آخر القرن الخامس مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الشاعرة المشهورة ، وهي التي كانت تعلم النساء الأدب ، وقد كثر ... الأدبيات في هذه المائة فكان فيها أم العلاء بنت يوسف الحجارية ، والعروضية مولاة أبي المطرف بن غلبون اللغوي ، وقد أخذت عن مولاها النحو واللغة وفاقته في ذلك وبرعت في العروض ، وكانت تحفظ الكامل للبرد والنوادر للقالي وشرحهما (ص ٤٣٠ ج ٢ : نفح الطيب) ويؤخذ عنها الأدب ، وتوفيت سنة ٤٥٠ ، وولادة الأدبية الشهيرة المتوفاة سنة ٤٨٤ ، ومهجة القرطبية صاحبها وتلميذتها ، ونزهون الغرناطية البارعة ، وحمدونة بنت زياد المؤدب التي يلقبونها بخنساء المغرب لقوة شعرها

وسمو لإبداعها ، ولها شعر مطرب (ص ٤٩١ ج ٢ : نفع الطيب) .
والعبادية والدة المعتمد ، واعتماد حظيته ، وبثينة بنته ، وأم الكرام بنت
المعتصم بن صمادح ، وغاية المنى جاريتته ، وغيرهن ؛ ثم اشتهر في أوائل
القرن السادس الادبية الشلمية ، وأسماء العامرية ، وحفصة الركونية وهي
أديبة الأندلس في هذه المائة .

وانقطاع النساء عن آداب اللغة بعد القرن السادس على ما رجع يكتفي
وحده دليلاً على أنهن إنما يشتهرن بذلك ويظهرن به حيث يكون الزمن
ترفاً ونعمة ، لأنهن بعض الترف والنعمة ، فتن خشنت الأيام واضطرب
حبل الفتن كان الأدب أول ما ينصرف عن تلك الخدور ، كما أن أول
ما يجف من أنواع الشجر الزهر !

علوم الأندلسيين

ليس من الممكن أن يقلب العلم الواحد على أنواع متغايرة إلا ما يكون متسماً بطبيعته لمسابقة الخواطر واستئنان القرائح ، وهذا شأن أكثر العلوم قبل أن تقرر قواعدها وتمهد طرقها ؛ إذ ليس العلم بخصوصه إلا نوعاً من التاريخ يضبط أعمال القرائح ويرتب نتائجها ؛ فإذا بلغ أن يكون في حكم المفروغ منه لبعض الاعتبارات . كمفردات اللغة مثلاً متى ذهب أهلها المسأخوذة عنهم ، فذلك هو العلم الذي لا فضل فيه لأحد إلا بإتقانه وحسن القيام عليه والاستنباط منه إذا قبل الاشتقاق والتفريع ؛ ولكن من أنواع العلوم ما يتصل بأجزاء الطبيعة ؛ فهو أبداً مادة الاكتشاف ، وقد يكون هذا الاتصال عاماً كالشعر ونحوه مما لا يقيد بموضوع محدود ، وقد يكون خاصاً كعلم النبات مثلاً ، وهذه الأنواع هي التي يتفاضل فيها الأقسام وتمتاز القرائح والأفهام ؛ فالعلم منها أشبه بالتاريخ السنوي لآمة لا تزال باقية معدوداً لها في أجل العمران والحضارة .

وقد رز الأندلسيون في جميع الأنواع التي تناولوها وأحسنوا القيام عليها واضطلعوا بها ؛ غير أن أكثر تلك العلوم إنما وقع إليهم تاماً أو هو في حكم الذي تم ، لأن العراقيين سبقوهم إلى الاشتغال به ، كعلوم اللغة والفلسفة بأنواعها ، فلم يتركوا لهم إلا فضل التحقيق وما كانت تساعد عليه أحوال تلك الأزمنة من الاكتشافات وما اقتضته طبيعة أرضهم من الاختراعات الهندسية . وكان هذا الشعب كان من فطرته وحكم الطبيعة له أن يكون متفضلاً ، فعوضه التاريخ من الفضل على المشرق فضله على أوروبا ،

وعلى ذلك فلا يكون بحثنا في علوم الأندلسيين عليا ، إذ هم لم يبتدئوها ولم يتمموها ، ولكنه تاريخي يبسط حقيقة التاريخ لاحقيقة العلم ذاته . ولقد يصح أن يكون الأندلس بحث في يذهب برأسه في تاريخ الفنون والصناعات عامة - وسنلم بشيء منه في موضع آخر من هذا الكتاب -

اشتغل الأندلسيون بعلوم الفلسفة جميعها المعروفة في تمدن العربي ، وهو علم النجوم والأفلاك ، والمقادير - الهندسة - والرياضيات ، وآثار الطبيعة ، والطب ، والموسيقى ، والمنطق ، والفلسفة الإلهية ، والسياسات المنزلية والمدنية ، وعلوم اللغة والأدب ، من النحو والتصريف والتاريخ والرواية والمحاضرة ، وبسائر العلوم الدينية ؛ وسنقسم الكلام في ذلك إلى قسمين : العلوم الفلسفية ، والأدبية :

العلوم الفلسفية

سبق لنا فيما أسلفناه من هذا البحث كلام متفرق عن التنجيم وبعض من عرفوا به وعناية الملوك بعلوم الفلسفة وذكر الفلاسفة والشعراء ؛ فلا نعيد شيئا من ذلك هنا ، وإنما نستوفي ما يتم به هذا الموضوع ، تفاديا من الملل والسآمة .

نقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد المغربي ، أن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء ، إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم ولا يُتظاهر [بهما] خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زلّ في شبهة رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ،

أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ؛ وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدت ؛ وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أولَ نهوضه ، وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجارى (ص ١٠٢ ج ١ . نفع الطيب) .

قلنا : وهذا هو السبب في أن أولية الفلسفة تكاد تكون مجهولة في الأندلس لا يُعرف منها إلا القليل ، وقد ذكر صاحب نفع الطيب في موضع آخر أن أول من اشتهر في الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم ، أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة - توفي في آخر القرن الثالث - لأنه كان يشرق في صلاته ، وكان عالماً بمحركات الكواكب وأحكامها وكان صاحب فقه وحديث - زمن المزني - (ص ٢٣٢ ج ٢ : نفع الطيب) .

وقال في ترجمة يحيى الغزال الشاعر المتوفى سنة ٢٥٠ : إنه حكيم المغرب وشاعرها وعزافها ، لحق أعصار خمسة من الخلفاء (ص ٤٤١ ج ١ : نفع الطيب) وفي موضع آخر أن أبا القاسم عباس بن فرناس حكيم الأندلس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وأول من فك بها كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى ؛ وصنع الآلة المعروفة بالمشقال ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة ؛ ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخره ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنباً ... وصنع في بيته هيئة السماء وخيّل للناسظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود (ص ٢٣١ ج ٢ : نفع الطيب) وكان عباس هذا زمن الأمير محمد المتوفى سنة ٢٧٣ .

غير أن كل أولئك على ما نرجح لم يشتغلوا بالفلسفة الإلهية ولم ينتحلوا مذهباً من المذاهب اليونانية ، ولعل أول من عرف بذلك في الأندلس محمد ابن عبد الله بن مسرة الباطني من أهل قرطبة (٢٦٩ - ٣١٩) فإنه أكثر من النظر في فلسفة ابندقليس الذي يعده العرب أحد حكماء اليونان الخمسة الذين هم أساطين الحكمة (ص ١٢ : القفطى) .

وشاع مذهب ابن مسرة بعده بالأندلس واشتهر به محمد بن أحمد الخولاني المعروف بابن الإمام ، توفي سنة ٣٨٠ ، وهو أديب بليغ ، والظاهر أنه كان يُلاحى به ويعمل على نشره ، حتى حمل ذلك أبا بكر الزبيدي واحد عصره في النحو المتوفى سنة ٣٧٩ على وضع كتاب في الرد عليه (ص ٣٤ : بغية الوعاة) .

وذكر ابن القفطى في ترجمة يحيى بن إسحاق الطيب الأندلسي ، أن أباه إسحاق كان طبيباً صانعاً بيده مشهوراً في أيام الأمير عبد الله ، وكان يحيى هذا بصيراً ذكياً في العلاج صانعاً بيده ، واستوزره عبد الرحمن الناصر وولاه الولاية الجليلة بعد إسلامه ، ونال عنده حظوة ؛ وألف في الطب كناًشاً في خمسة أسفار ذهب فيه مذهب الروم بحكم أن هذا النوع لم يكن استقر بالأندلس ولا اشتهر شهرته الآن - أى في القرن السابع - (ص ٢٣٦ : القفطى) فإذا كان ذلك شأن الطب في أوائل القرن الرابع وما هو بموضع الظنة ولا بالذى يستغنى عنه ، فغيره من أنواع الفلسفة أولى بأن لا يكون مستقراً ولا مشتهراً .

وقبل هذين الطبيين رحل من المشرق، إلى الأندلس يونس الحرافى الطبيب في أيام الأمير محمد ، واشتهر هناك ؛ ثم انقلب ولداه أحمد

وعمر الأندلسيان إلى المشرق وأخذوا عن ثابت بن سنان وأمثاله ، وابن وصيف
الكحال (ص ٢٥٩ : القفطى)

ولكن الأندلس كانت مشهورة في زمن الحكم المستنصر ، أى فى أواخر
القرن الرابع ، بالرياضيات ، حتى كان يتقاطر إليها طالبو هذا العلم من
أوربا ، وفى ذلك العهد نبغ مسلمة بن أحمد المجريطى المتوفى سنة ٣٩٨ وهو
إمام الرياضيين بتلك البلاد ، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات
النجوم ، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بفهم كتاب المجسطى ،
وهو الذى عنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى ونقل تاريخه الفارسى إلى
التاريخ العربى ، ووضع أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه
جداول حسنة (ص ٢١٤ : القفطى) وقد تخرج عليه من علماء هذا
الشان ، أشهرهم أصبغ بن السمح البارع فى النجوم والهندسة ، وأبو القاسم
ابن الصفار أستاذ الرياضيات فى قرطبة ، وأبو الحسن الزهراوى ؛ وكان
للحكم نفسه منجم مخصص به ، وهو ابن زيد الأسقف القرطبى ، وألف فى
ذلك كتاب تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان (ص ١٣٨ ج ٢ : نفتح الطيب)
ومن أشهر أئمة الفلك بالأندلس إبراهيم بن يحيى النفاش المعروف بولد
الزرقىال . قال ابن القفطى إنه أبصر أهل زمانه بأرصاد الكواكب وهيئة
الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ، وله صفيحة الزرقىال المشهورة فى
أيدى أهل هذا الفرع التى جمعت من علم الحركات الفلكية كل بديع مع
اختصارها ، ولما وردت على علماء هذا الشأن بأرض المشرق حاروا لها
وعجزوا عن فهمها إلا بعد التوقيف ، وله أرصاد قد رصدها ونقلت عنه .
واشتهرت علوم الحكمة بعد زمن الحكم ، وكان من أشهر الأطباء فى زمنه .

محمد بن عبدون العنزي القرطبي الذي اتصل به وبابنه المؤيد، وهو من علماء العدد والهندسة، ولم يكن بقرطبة من يلحقه في صناعة الطب ولا يجاريه في ضبطها وحسن درسته فيها وإحكامه لغوامضها (ص ٤٣٧ ج ١ : نفع الطيب) وكثر نبوغ الأندلسيين في القرن الخامس؛ وفي هذا القرن نبغ الكرماني القرطبي المتوفى سنة ٤٥٨ وكان فرداً في الهندسة والعدد، وهو الذي أدخل رسائل إخوان الصفا إلى تلك البلاد، ولم يعلم أن أحداً أدخلها الأندلس قبله (ص ١٦٣ : القفطى) وكان لها شأن مهم في تنويع الفلسفة الأندلسية.

وكما كان القرن الخامس أشهر عصور الأدب في الأندلس، كان القرن السادس أشهر عصور الفلسفة فيها، ظهر فيه الحكيم أبو بكر بن الصائغ الذي كان يحدث عن نفسه أنه يُحسِن اثني عشر علماً أيسرها النحو الذي هو أشهر علوم الأندلسيين؛ وابن طفيل، وابن رشد، وأبو العلاء بن زهر فيلسوف عصره وحكيمه المتوفى سنة ٥٣٥ وأميه بن عبدالعزيز بن أبي الصلت، وقد مر ذكره، وأبو بكر بن زهر الطبيب المتوفى سنة ٥٩٥، وقد كاد هذا الرجل يكون تاريخ القرن السادس كله، لأنه ولد سنة ٥٠٧؛ وهو مع طبّه اللغويّ الأديب الذي امتاز بالموشحات الطائفة بين المغرب والمشرق، وله أخت كانت هي وبنتها نابغتين في الطب. وأبو الحكم المغربي المتبحر في الفلسفة والأدب، وقد مر ذكره في الشعراء الفلاسفة، وتوفى سنة ٥٤٩، وإن الواحد من هؤلاء ليس كفى أن يكون نخر أمة، فكيف بهم مجتمعين في قرن من الزمن؟

وقد كان لكل منهم تلامذة جلة، ولم تنجب الأندلس بعدهم من يضاهيهم إلا أفراداً قليلاين، كمحمد بن الحسن المدحجي، وابن عياش الزهراوي

ومطرف الأشبيلي في القرن السابع .

على أن من الأندلسيين أفراداً آخرين اشتهروا بفنون أخرى كالنبات
والفلاحة وخواص العقاقير والسموم وعلم الحيوان وغيرها فضلاً عن
نبغوا من أصحاب المنطق والموسيقى ، ومن كانوا هناك من أئمة الفنون ومهرة
الصناعات ، فلم نر أن نصلهم بهذا الفصل ؛ إذ استقصاء ذلك كله مما [يقتضى
كتاباً] برأسه ، وهو فرع إن كان مهماً في بسط تاريخ الحضارة فليس كذلك
في تاريخ الأدب .

مقاومة الفلسفة العربية الطبيعية في أوروبا وانتشارها

وهنا موضع هذه الكلمة ، لأن الأوربيين لم يعرفوا الفلسفة العربية إلا من طريق الأندلس أولاً ، وسنأتى على أمر النقل والترجمة إليهم في فصل آخر من هذا البحث .

أول ما دخل إلى أوروبا من الفلسفة العربية كتبُ ابن سينا وبعض كتب الفارابي والكندي ثم دخلت كتب الغزالي وابن رشد ، وكانت فلسفة أوروبا يومئذ بعض تعاليم لاهوتية مستخرجة من كتب مختلفة لأصحاب المذاهب اللاتينية ؛ فلما دخلت إليها فلسفة العرب في القرن الثاني عشر لليلاد وما بعده لم تلبث أن انتشرت في المدارس والمجتمعات وأقبل عليها الناس ، فرأى المجمع الأكليريكي الذي عقد في باريس سنة ١٢٠٩ م أنها ستذهب بالتقاليد الدينية المعروفة التي لاقرار لها على مذاهب العلم الطبيعي فحكيم على المشتغلين بها يومئذ من الأوربيين وهم أموري وديدوى دينان وتلامذتهما ، وفي سنة ١٢١٥ حرم الأكليروس تعاليم أرسطو وخصوصاً تلاخيص ابن سينا ، وفي سنة ١٢٣١ م حرم البابا غريغوريوس التاسع كل من يشتغل بفلسفة العرب . كانوا يرمون بذلك إلى محو هذه الفلسفة ولكنهم لفتوا إليها الغافلين ونهوا إلى هذه الشكوك من يسمونهم أهل اليقين ، فاضطر علماء اللاهوت بعد ذلك إلى درسها ، ليتخذوا من الداء دواءً وليضربوا العلم في أرق مقاتله ؛ فقام منهم غيلوم دوفرن وحمل على فلسفة ابن سينا ثم خفف من حملته قليلاً وانعطف برفق ظنّه قاتلاً إلى فلسفة ابن رشد ، وقد كان يثنى عليه بمض الثناء ؛ وبعده قام اللاهوتي البير الكبير ، وهو من المعجبين بابن سينا والمزدرين

لابن رشد ، وله ردود كثيرة على الفلسفة العربية ، ثم قام بعدها الدأولئك الأعداء ، وهو القديس توما الشهير أعظم حكماء الكنيسة الغربية وأكبر فلاسفة اللاهوت في العصور المتوسطة . ولكن كل أولئك لم يقووا على نقض الفلسفة العربية ، فإنهم إنما كانوا يروون بالألسنة على القلوب ، والحجج اللسانية قد تخرج القلب في مبادئه التي يصبر إليها ولكنها لا تصرفه عن هذه المبادئ مادامت قوتها لفظية ؛ ومن أجل ذلك حاول بعد هؤلاء ريمون مارتيني أن يضرب اليقين بالشك ويدخل إلى تلك القلوب من بعض جوانبها ، فجعل ينشر كتب الغزالي للرد على فلسفة ابن سينا وابن رشد ، ثم تتابع جيل دي ليسين وبرناردى تريليا وهرفه نديليك ودانت الشاعر الإيطالي المشهور صاحب رواية الجحيم وجيل دي روم ، وهو الذي بلغ في ذلك قريباً من القديس توما ، وجاء بعدهم الأخرق ريمون لول الذي صرف عمره خصوصاً من سنة ١٣١٠ إلى سنة ١٣١٢ م في التجوال بين باريز وفيينا ومونبليه وجنوى ونابولى وبيزه ، محرّضاً الناس على ازدراء العرب ونبذ فلسفتهم ، حتى إنه لما اجتمع بجمع فيينا سنة ١٣١١ م رفع إلى البابا اكليمينضس الخامس كتابة يقترح فيها إنشاء مجتمع يخول من السلطة مايساعد على إسقاط الإسلام وإقامة كليات لدرس اللغة العربية وحرّم المسيحيين الذين ينتصرون لفلسفة ابن رشد وطرح كنبه من المدارس الأوروبية ا

وفي هذا القرن الرابع عشر كانت كتب ابن رشد قد انتشرت في أوروبا ، خصوصاً في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ، حتى غطت عندهم على ابن سينا وأخملت من شهرته بعد أن كان هو المنمىز في القرن الثالث عشر ، ثم أصبحت تلك الفلسفة في القرن الخامس عشر وهي روح العلم الطبيعي في

أوروبا ، وذلك بعد أن صارت من الدروس الحافلة في كلية بادو المشهورة بإيطاليا التي استتبعت حركة الفلسفة الأوروبية يومئذ ؛ وأول ناشري تعاليم ابن رشد فيها بطرس دانو الذي لم يجد ديوان التفتيش سييلا إلى عقابه إلا بحرق عظامه من بعده ...

وقد شرح أساتذة هذه الكلية فلسفة الحكيم القرطبي ، ونبغ فيها منهم كثيرون أكسبوها الاحترام وعلو الرأي ؛ لاجرم أنهم بذلك قد رفعوا أنفسهم أيضا .

ولما أراد لويس الحادي عشر ملك فرنسا إصلاح التعليم الفلسفي في سنة ١٤٧٣ م طلب من أساتذة المدارس تعليم فلسفة أرسطو وشرح ابن رشد عليها ؛ لأنه استتبت فائدة هذا الشرح وأيقن بصحته .

آخرة الفلسفة العربية

ثم حدثت مسألة خلود النفس في أواخر القرن الخامس عشر وخاض فيها علماء إيطاليا ، وكانوا يجحدون في شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو أن النفس خالدة بعد الموت ، ولكن « بومبونا » العالم المشهور أثبت من كتب « اسكندر دفروريزياس » الفيلسوف اليوناني الذي شرح أرسطو قبل ابن رشد ، أنه لا خلود غير الخلود الإنساني النوعي في الأرض ؛ فانشق العلماء وطار الجدل في هذه المنازلة حتى انعقد بجمع لاتران في سنة ١٥١٢ وحرّم كل من يقول بأن النفس غير خالدة ، وبعد هذا الانتصار للفلسفة العربية طُبعت كتب ابن رشد وطارت إلى أيدي طلابها والمعجبين بها من كل جهة ؛ غير أن ذلك كان مبدأ للرجوع إلى النص اليوناني في فلسفة أرسطو ، ثم انتبه العلماء إلى فائدة

ذلك ، ففي أبريل من سنة ١٤٩٧ م صعد الأستاذ « نقولا ليونيكوس
توموس » منبر التعليم في كلية بادو ، وألقى أول مرة فاسفة أرسطو باللغة
اليونانية ؛ وما كاد أمره يذيع حتى أخذوا ينهضون في ذلك ، ثم عادت
بادو والبندقية وشمال إيطاليا إلى نص أرسطو ، وعادت فلورنسا إلى
نص أفلاطون ؛ واستمر ذلك إلى أن ظهرت الفلسفة الطبيعية الحديثة
في أواخر القرن السادس عشر ، فأتت على الفلسفة العربية ، حتى لم تبقى
سنة ١٦٣١ م حتى انقلبت تاريخا يذكر بعد أن كانت علما يُنشر ، وذلك
بوفاة آخر القائمين عليها في أوروبا وهو « قيصر كرىمونتى » المتوفى
في تلك السنة .

العلوم الأدبية

رأس هذه العلوم عند الأندلسيين النحو والشعر ، ولا بد في كليهما من الحظ الصالح من اللغة والرواية ، قال ابن سعيد المغربي ، وقد نقل كلامه صاحب نفع الطيب : النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة ؛ حتى إنهم في هذا العصر (القرن السابع) فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه ، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جِدَّة ، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم في أى علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتميز ولا سالم من الازدراء ... وعلم الأدب المنشور — من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات — أنبل علم عندهم ، وبه يُتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم ، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستنقل ... وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لاحالة ويسخف ويظهر العُجْب ، عادة قد جبلوا عليها (ص ١٠٣ ج ١ : نفع الطيب) .

وقد سلف لنا كلام أسباب براعتهم في الشعر ، أما سبب ما ذكره ابن سعيد من حالهم في النحو وتميزهم به مع انحرافهم في اللغة العامة عن الأوضاع العربية ، فهو على ما نرى أن أولئك القوم كانت لهم فطرة عجيبة في قوة الذاكرة والحفظ ، ولو كانت الأندلس مكان العراق وفي جهة من البادية ما ضاع حرف من اللغة ولحفلت الكتب بفنون الأدب العربي ، وذلك دأبهم قديماً وحديثاً ، مما يرجح معه أن تلك الذاكرة أثر من جمال الطبيعة في أنفسهم ، ومن أجل ذلك قل أن تجد في علمائهم صاحب علم

واحد أو علمين ، بل فيهم من يعد في الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والشعراء والكتاب والمؤرخين واللغويين والنحاة والأدباء ، وقد يميّز في ذلك كله على اختلاف الفنون أو في أكثره ، وقد ذكرنا بعضهم فيما سلف ، وسنشير إلى آخرين . وإذا كان من مفاخر العراقيين أن الأصمعي يحفظ أربعة آلاف أرجوزة ، وهم يعدونه أذكي العرب وأجمعهم ، فقد كان من الأندلسيين في المائة الثالثة سعيد بن الفرّج مولى بني أمية المعروف بالرشاشي يحفظ مثل هذا العدد للعرب خاصة ، وكان يضرب به المثل في الفصاحة على كثرة ما يتقعر في كلامه (ص ٢٥٦ : بغية الوعاة) ، وأعجب من إنشاد حماد الراوية بين يدي الوليد ليلية كاملة (وقد مر ذلك في بحث الرواية والرواة) ماذكروا من أن أبا المنوكل الهيثم الأشبيلي حافظ الأندلس في عصره ، وكان في المائة السادسة ، حضر ليلة عند أحد رؤساء أشبيلية فجرى ذكر حفظه ، وكان ذلك في أول الليل ، فقال لهم إن شئتم أن نخبروني أحببتم ، فقالوا له :

بسم الله ، إننا نريد أن نحدث عن تحقيق ، فقال اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا ، فاختاروا القاف ، فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن « أرقّ على أرقٍ ومثلي يأرقُ ، وسُمّاره قد نام بعضٌ وضجّ بعضٌ وهو ماخرج عن قافية القاف (ص ٢٣٣ ج ٢ : نفع الطيب)

وكان من حفاظهم أبو الخطاب بن دحية المتوفى سنة ٦٣٣ ، بلغ من حفظه للغة أن صار حوشها مستعملا عنده غالباً ، ولا يحفظ الإنسان حوشى اللغة إلا وذلك زكاةً محفوظٍ من مستعملها ، ولأبي الخطاب هذا رسائل ومخاطبات كلها مغلقات مقفلات ، على أنه يرسلها عفو الساعة وفيض

البدئية ، ولما ارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب ، جمعوا له علماء الحديث فذكروا أحاديث بأسانيد حقلوا متونها ، فأعاد المتون المحقولة وعرف عن تغييرها ، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية (ص ٣٦٩ ج ١ : نفع الطيب) ، ولو شئنا أن نطيل في حفظ الأندلسيين لاينا بالكثير من الأدباء واللغويين والنحاة ، ولكننا نذكر من ذلك شيئاً مما نحن بسبيله ولا نظيره في غير الأندلس ، وذلك عنايتهم بكتاب سيبويه في النحو البصرى ، وهو أحد الكتب الثلاثة التي يقال إنه لا يُعرف كتاب ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزائه ذلك الفن غيرها ، وهي : كتاب سيبويه في علم النحو العربى ، وكتاب المجسطى في علم هيئة الفلك وحركات النجوم ، وكتاب أرسطو طاليس في علم صناعة المنطق (ص ٦٩ : القفطى) .

كتاب سيبويه عندهم

لأنعرف أول من أدخل هذا الكتاب الأندلس ، وقد عرفت أول من أدخل كتاب الكسائى ، وهو جودى بن عثمان العبسى الذى كان يؤدب أولاد الخلفاء بالعربية ، وقد رحل إلى المشرق وأخذ عن الرياشى والفراء والكسائى وأدخل كتابه إلى الأندلس (توفى سنة ١٩٨) ؛ ولكن أقدم من وقفنا عليه من حفظوا كتاب سيبويه ، هو حمدون النحوى المتوفى بعد المائتين ، ولعله أول من عرف به ثم كان من أشهر حفاظه في القرن الثالث الألفشين القرطبى المتوفى سنة ٣٠٩ ، وقد أخذه بمصر عن أبى جعفر الدينورى روايةً ، ولكن المهم لم تنصرف إلى استظهاره إلا في القرن الخامس كأنهم جعلوا ذلك

منافسة ، وقد ذكروا أن عبد الملك بن سراج إمام أهل قرطبة المتوفى سنة ٤٨٩ عكف عليه ثمانية عشر عاما لا يعرف سواه (ص ٣١٢: بغية الوعاة) ومن ذلك العهد ابتدأوا يقررونه ويشرحونه ويملون عليه التماليك ، ومن شراحه أبو بكر الحشني الجبائي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، وكان الناس يرحلون إليه لتقدمه في الكتاب ، وهو من مفاخر الأندلسيين (ص ١٠٥: البغية) ، ولا بن الطراوة النحوي الذي سيأتي ذكره في علماء القرن السادس كتاب سماه المقدمات على كتاب سيويه ، وشرحه ابن خروف المتوفى سنة ٦٠٩ وقد أملى إبراهيم ابن عيسى المعروف بابن المناصف المتوفى سنة ٦٢٧ على قول سيويه هذا باب علم الكلم من العربية ، وهو في بضعة أسطر — عشرين كراسا (ص ١٨٤: البغية) وكذلك كان لابن الحاج إملاء عليه ، وكان يقول : إذ امتّ يفعل ابن عصفور في كتاب سيويه ماشاء ، وابن عصفور توفى سنة ٦٦٩ ، وكثر حفاظ هذا الكتاب في القرن السادس ، فكان فيه غير من ذكرناهم : محمد بن عبد المنعم ، يسرده بلفظه ، وهو أحفظ أهل زمانه ؛ وجابر بن محمد الحضرمي الذي كان زعيم وقته بإقرائه والتقدم فيه ، وخلف بن يوسف الذي كان يحفظ مع هذا الكتاب كتبا أخرى كأدب الكاتب والمقتضب والكامل للبهرد وغيرها ؛ وأبو عامر بن عبد الله الأشبيلي المعروف بابن الجد الذي قال فيه ابن ملكون : من قرأ كتاب سيويه على ابن الجد فما عليه أن لا يقرأه على سيويه ، وفي هذا العصر كان أحمد بن عبد النور النحوي المتوفى سنة ٧٠٢ لا يقرأ الكتاب فكانوا يقولون لا يعرف شيئا (ص ١٤٢: البغية) وزادوا على ذلك في القرن السابع حتى انتهت الرياسة إلى أبي الحسن الأشبيلي المعروف بابن الصائغ المتوفى سنة ٦٨٠ وقد شرحه وكان له في مشكلاته مجائب ، قال

في بغية الوعاة : وأما فهمه وتصرفه في كتاب سيوييه فما أراه سبقه إلى ذلك أحد . وكان يعاصره إمام الأدب الأصبحي المتوفى سنة ٧٧٦ ، وله شرح على هذا الكتاب ؛ ثم كان في القرن الثامن جماعة أشهرهم أبو حيان ، - وسيأتي ذكره - وله تعاليق مهمة على هذا الكتاب وتجريد لأحكامه واختصار فيه للطلبة المبتدئين .

علماء العربية والأدب

بقي أن نذكر أسماء المشاهير من علماء العربية بالأندلس غير من ذكرناهم وقد أبقينا لهذا الموضوع أسماء الشعراء وأئمة الأدب ، لأننا إنما نتفادى من الإطالة بسرد الطائفة الواحدة ، ولا نعتمد إلا أن يكون وفاء البحث في جملة أجزائه لا في بعضها ، وهي طريقتنا التي نجرى عليها في هذا الكتاب : كان في القرن الثاني حمدون النحوي بعد المائتين - وقد سبق ذكره - وكان هو والمهدي متعاصرين ولهما زعامة النحو واللغة ، إلا أن المهدي امتاز باللغة وامتاز حمدون بالنحو ... فكان [فيه] الغاية التي لا بعدها ، وقد أخذ عن علماء ذلك العصر ابن وضاح والخشني ومطرف بن قيس . واشتهر في القرن الثالث الخشني القرطبي ، وهو نحوي لغوي شاعر لقي بالمشرق السجستاني والرياشي والزيادي ، وأدخل الأندلس كثيراً من اللغة والشعر الجاهلي ، وتوفي سنة ٢٨٦ عن ثمانين سنة . وكان يعاصره محمد بن عبد الله القرطبي وهو الذي أخذ عنه أهل الأندلس الأشعار المشروحة .

ومحمد بن عبد السلام بن ثعلبة ؛ وقد أدخل الأندلس أيضاً كثيراً من كتب اللغة والشعر الجاهلي .

- وجابر بن غيث اللبلي النحوى الشاعر الأديب المتوفى سنة ٢٩٩ .
ومحمد بن أصبغ المتوفى سنة ٣٠٦ وهو مولى الوليد بن عبد الملك .
وهشام بن الوليد النحوى العروضى الأديب ، وهو مؤدب أولاد
الناصر توفى سنة ٣١٧ .
ومحمد بن يحيى المعروف بالرياحى مؤدب المغيرة بن الناصر ، وهو إمام
فى العربية والآدب فقيه شاعر .
وأحمد بن إبراهيم بن أبى عاصم ، حافظ للعربية والغريب ، متقدم فى
النقد ، شاعر منفرد ، شرح أكثر دواوين العرب ، توفى سنة ٣١٨ .
وقاسم بن أصبغ (٢٤٧-٣٤٠) وهو فرد فى النحو والغريب والشعر ،
وكانت إليه الرحلة بالاندلس كما كانت بالمشرق يومئذ لأبى سعيد بن الأعرابى .
[ثم] أبو عبد الله المعروف بابن خنيس ، وكان كاتباً بليغاً عالماً باللغة
والغريب والأخبار والتاريخ توفى سنة ٣٤٣ .
ومحمد بن أصبغ المتفنن فى العلوم من النحو واللغة والحساب والفرائض
والشعر وغيرها ، وتوفى سنة ٣٤٤ .
[ومن] نبع فى القرن الرابع محمد بن أبان المتوفى سنة ٣٥٤ ، وكان فرداً
فى اللغة والعربية والأخبار والتواريخ ؛ فكان مكيثنا عند المستنصر .
وابن القوطية القرطبى إمام اللغة والعربية فى زمنه ، [توفى] سنة ٣٦٧ .
وأبو بكر القرطبى المعروف بابن العريف النحوى ، قيل إنه صنع لولد
المنصور بن أبى عامر مسألة فيها من العربية ٢٧٢٠٩ وجه ، وتوفى سنة ٣٦٧ .
والحسين بن الوليد من مؤدبى أولاد المنصور أيضا ، وهو شاعر أستاذ
فى الآدب إمام فى العربية .

وأبو بكر الزبيدي الأشبيلي واحد عصره في النحو واللغة ، وقد أذب
ولد المستنصر ، توفي سنة ٣٧٩ .

وأحمد بن أبان بن سعيد صاحب شرطة قرطبة ، الإمام في العربية واللغة
صنف كتاب السماء والعالم في اللغة ، مائة مجلد ، وقد رأينا هذا الاسم في كتب
أرسطاطاليس التي ذكرها ابن القفطي ، وقال : هو أربع مقالات في الطبيعة
نقله ابن البطريق (ص ٣٠) وتوفي ابن أبان سنة ٣٨٢ .

ومحمد بن عاصم النحوي من كبار الأدباء ، توفي سنة ٣٨٢ .

وقد أوردنا فيما سبق أسماء أكثر علماء القرن الخامس ، ولكننا نذكر
منهم هنا محمد بن سليمان المعروف بابن أخت غانم ، وهو من أحفظ أهل
زمانه للنحو واللغة ، لاسيما كتب أبي زيد والأصمعي وتمام بن غالب بقية
شيوخ اللغة الضابطين لحروفها الخاذقين بمقاييسها ، وكان إماماً فيها ثقة في
إيرادها توفي سنة ٤٣٣ .

وابن سيده صاحب كتاب المخصص وغيره ، وهو فرد في اللغة والنحو
متوفر على علوم الحكمة ، توفي سنة ٤٥٩ .

وغانم بن وليد المسالقي المتوفى سنة ٤٧٠ ، وكان أهل الأندلس يمدون
أئمة الأدب في ذلك الوقت ثلاثة : أبو مروان بن سراج بقرطبة ، والأعلم
الشتنمري بأشبيلية ، وغانم هذا بمالقة ، لكن زاد غانم عليهما بالفقه
والحديث والطب والكلام ، أما أبو مروان فهو الشاعر النحوي الإمام في
الأدب توفي سنة ٤٨٩ ، وكان الأعلم عالم اللغة والعربية والشعر ، وقد توفي
سنة ٤٧٦ .

ومن ختمت بهم هذه المسألة سراج بن عبد الملك بن سراج النحوي ،

كان يجتمع إليه أربعون وخمسون من مهرة النحاة، كابن أبي فرس، وابن الأرش، وكلهم إليه مفتقرون، لوفوفه على مواد النحو وأشعار العرب ولغاتها وأخبارها، وقد توفي سنة ٥٠٨.

المائة السادسة

ثم كان [من] مشاهير القرن السادس محمد بن عبد المنعم أبو عبد الله السبتي من صدور الحفاظ لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره، آية تتلى ومثالا يضرب، وقد امتاز عن سائرهم بأنه كان يعرب أبدأً كلامه وأبو محمد اللوشى البارع في الأدب والنحو واللغة والكتابة والشعر والخطابة، وقد أخذ أدياء عصرهم عن الثلاثة الذين مر ذكرهم، وتوفي سنة ٥١٨.

وأبو محمد البطليوسي المتبحر في اللغات والآداب، وله يد في العلوم القديمة، وهو شارح أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتابه الاقتضاب مشهور، توفي سنة ٥٣١ وقد رأينا في بغية الوعاة للسيوطي في ترجمة أبي العباس ابن بلال اللغوي المتوفى سنة ٤٦٠ أن ابن خلصة النحوي نسب إليه شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب، وذكر أن ابن السيد البطليوسي أثار عليه وانتحله (ص ١٧٥) وهذا عجيب، والله أعلم بحقيقته.

وجعفر بن محمد بن مكي، وكان عالماً باللغات والآداب، ذا كراً لهما، معتمداً بما قبله منهما، ضابطاً لذلك، وعنى بهما العناية التامة، وجمع من ذلك كتباً كثيرة كان له بها اليد الطولى الباسطة في علم اللسان.

وأبو الحسين بن الطراوة، نحوي ماهر وأديب بارع، يقرض الشعر

وينشئ الرسائل البليغة ، وله آراء في النحو تفرّد بها وخالف فيها جمهور النحاة ، وعلى الجملة كان مبرزاً في علوم اللسان كلها ، وتوفى سنة ٥٢٨ عن سن عالية .

ومحمد بن يوسف المعروف بابن الاشراف كوفى ، المتوفى سنة ٥٣٨ ، كان لغويا اديباً شاعراً معتمداً في الأدب فرداً في وقته ، وهو صاحب المقامات اللزومية الشهيرة - وسيأتى ذكرها في موضعها - وقد اعتمد عليه أبو العباس ابن مضاء في تفسير كامل المبرد لرسوخه في اللغة العربية .

والوزير ابن أبي الخصال (سنة ٤٦٥ - ٥٤٠) وكان على براعته في الفقه وصناعة الحديث والمعركة برجاله والتقييد لغريبه ، فرداً في اللغة والأدب والنسب والتاريخ ، إماماً متفقاً عليه ، متحكما إليه في الكتابة والشعر ، لم يكن في عصره مثله ، حتى قال بعضهم إنه كان آخر رجال الأندلس علماً وفهماً وذكاءً وتفناً في العلوم .

ومحمد بن أحمد أبو عامر الوزير الكاتب ، كان لغويا اديباً شاعراً عارفاً بالتاريخ والأخبار ، وهو من المؤلفين في ذلك كله ، وكان موجوداً بعد سنة ٥٥٠ .

وأبو العباس الجراوى المماق المتوفى سنة ٥٦١ ، وكان على بلاغته في الشعر والكتابة من كبار النحاة والأدباء بالأندلس ، درس هذين الفنين كثيراً وأدب في آخر أيامه بنى عبد المؤمن بمراكش .

وأبو بكر بن قبال الأديب اللغوى الكاتب الشاعر النحوى الطيب توفى سنة ٥٧٣ .

وأبو بكر الأشيبلى المعروف بالحيدبّ أستاذ ابن خروف قريبا من

سنة ٥٨٠ ، وكان من حُذّاق النحويين ، وإثمة المتأخرين يُرحل إليه في العربية ، واشتهر بكتاب سيبويه وطرره المدقونة عليه . والخدب : الرجل الطويل .

ومحمد بن جعفر المرسي الأديب الكاتب النحوي الذي كان إليه المرجع في إيضاح مبهم الكتب وفتح أقفالها ، توفي سنة ٥٨٧ .
وداود بن يزيد الغرناطي المتوفى سنة ٥٧٣ ، كان يقرئ العربية واللغة والأدب ، وهو عالي المرتبة في ذلك، رفيع الطبقة ، قيل فيه إنه كان آخر النحاة بغرناطة .

وعبد الرحمن بن محمد المعروف بالمكناسي ، المتفنن في ضروب الآداب واللغات ، الحافظ لأيام العرب وفرسانها ، الكاتب البارع الشاعر البليغ ، واشتهر بعمل المقامات خصوصاً اللزومية منها - وسيأتي ذكره في بحث الصناعات اللفظية - توفي سنة ٥٩١ .

وقاضي الجماعة أبو العباس الجياني القرطبي ، كان من أصحاب الآراء في العربية وخالف فيها جمهور أهلها ، وكان رحلة في الرواية وعقلا في الدراية ، عارفاً بالأصول والكلام والطب والحساب والهندسة ، شاعر بارع كاتب بليغ ، وتوفي سنة ٥٩٢ .

وأحمد القرطبي المشهور بالوزغى ، المبرز في العربية والآداب ، شاعر راوية مكثراً ، وتوفي سنة ٦١٠ .

وأبو الحسن بن خروف ، إمام العربية في زمنه ، وهو أحد [الذين] ملئت كتب العربية بأسمائهم ، وتوفي سنة ٦٠٩ ، وهو على التحقيق خاتمة هذا العصر .

المائة السابعة

كان في أول هذه المائة أبو بكر الأشبيلي المعروف بابن طلحة ، وهو شاعر أديب إمام في العربية والكلام ، توفي سنة ٦١٨ .

وأبو العباس الشريشي صاحب الشروح الثلاثة على مقامات الحريري ، وقد طبع منها الشرح الكبير ، وهو أديب مبرز في العربية ذا كبر للآداب ، كاتب بليغ فاضل ثقة ، توفي سنة ٦١٩ .

وأبو العباس الأشبيلي المعروف بابن الحاج ، وكان متحققا بالعربية حافظا للغات مقدما في العروض ، وقد برع في لسان العرب حتى لم يبق فيه من يفوقه أو يدانيه ، وهو الذي كان يقول : إذا مت يفعل ابن عصفور في كتاب سيبويه ماشاء ! كأنه يرى نفسه خلفا من سيبويه ، وقد مات سنة ٦٤٧ .

وأبو يحيى محمد بن رضوان الوادي آشي ، وكان مضطلعا بالعربية والفقهاء والنسب ، إماما في ذلك مشاركا في علوم أخرى من الحساب والهيئة والهندسة وغيرها ، وتوفي سنة ٦٥٧ .

وأبو علي الأشبيلي المعروف بالشلّوبين - ويخطئ النحاة المتأخرون كثيرا في ضبط هذا اللقب - إذ يلفظونه بضم اللام - وقد ضبطه السيوطي وقال إن معناه (بلغة الأندلس : الأبيض الأشقر) وإلى أبي علي هذا انتهت إمامة العربية بالشرق والمغرب ، فكان آخر أئمة هذا الشأن ، وكان مع ذلك نقادا للشعر بصيرا بعمانيه ، وقد أقرأ نحو ستين سنة ، حتى لم يتأدب بالأندلس أحد في وقته إلا وأسند إليه مباشرة أو بواسطة ، وتوفي سنة ٦٤٥ وكان مولده سنة ٥٦٢ .

وأبو المطرف المخزومي البلنسى وهو خزانة من خزائن العلوم، كان إماماً في الفقه عالماً بالمعقولات والنحو واللغة والأدب والطب، متبحراً في التاريخ والأخبار؛ بصيراً بالمديث، راوية أكثرأ حجة، ناظماً نائراً، يعدونه ثانی بدیع الزمان فی الكتابة، وتوفی سنة ٦٥٩

وعبد الله بن أبي عامر الكاتب الشاعر الأديب النحوي اللغوي الفقيه المشارك في العلوم، وقد توفى سنة ٦٦٦

وابن الدباغ الأشبيلي؛ وهو على انفراده في ذلك العصر يحفظ مذهب مالك؛ كان عالماً بالنحو واللغة كاتباً شاعراً مؤرخاً، توفى سنة ٦٦٨.

وأبو الحسن بن عصفور، وهو وإن كان لم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو إلا أنه كان فيه كوكب سمائه وحامل لوائه، ولا يزال اسمه خالداً في كتب هذا الفن، توفى سنة ٦٦٩.

وكان خاتمة أدباء هذا العصر حازم بن محمد القرطبي، شيخ البلاغة والأدب، وأوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض والبيان، لم يجمع أحد من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاهد البيان ما أحكم، وكانت له يد في العقلية؛ وذكروا أنه روى عن جماعة يقاربون ألفاً، بين أديب وعالم وحكيم، وقد حوى جملة التاريخ في هذه المائة، لأنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٨٤.

نكت الأندلسيين

وكان في هذه المائة الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي المؤرخ الشاعر الأديب، ولم نقف على سنة وفاته. وقد عنى أتم العناية بفرع لطيف

من العلم هو أدب التاريخ؛ فكان يحفظ نكت الأندلسيين قديماً وحديثاً إلى زمنه، ذاكرًا لفكاهاتهم؛ وهم أكثر الناس دعابة وأملحهم نادرة، خرجوا في ذلك صنائع إقليمهم فكأنهم أزهار طبيعتها الحساسة، تقابل أزهار الطبيعة الساكنة.

المائة الثامنة

وهي بقية مجد الأندلس، لأن القرن التاسع كان حشيرة ونزعا، وهذه المائة شجيحة بالأئمة عقيمة بالأفراد، وقد أخذنا من فحولها ثلاثة غير من ذكرناهم من قبل في أدبائها، وهم:

محمد بن علي بن هانئ اللخمي، كان أديباً إماماً في العربية لا يشق غباره في استحضار الحجج، وهو صاحب كتاب «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة»، وتوفي سنة ٧٣٣.

وأثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي نحوي عصره، ولغويّ ومفسّره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه، وكان الإمام المطلق في النحو والتصريف، خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض، وتوفي سنة ٧٤٥.

ومحمد بن علي المعروف بابن الفخار كان سيديويه عصره، وعده لسان الدين في الإحاطة آخر الطبقة من أهل هذا الفن، وقال فيه: إنه متبحر الحفظ يتفجر بالعربية تفجر البحر، قد خالطت لجه ودمه، لا يشكل عليه منها مشكل، ولا يعوزه توجيه، ولا تشذ عنه حجة... وقلّ في الأندلس من لم يأخذ عنه من الطلبة، وتوفي سنة ٧٥٤.

كلمة في تراجم هذا البحث

وبعد ؛ فإننا لم نورد هذه الأسماء لأنها أسماء فقط ؛ إذ ليس كتابنا هذا من سجلات الإحصاء ، وإنما أوردناها على أنها معاني ذلك التاريخ ، يظهر منها سير الفنون والعلوم إلى كمالها ، فإن قيمة العصر بمن يمتازون من أهله ، وعلى حسب كثرتهم وقلتهم يكون وزن اعتباره ومنزلته من المقارنة بينه وبين سائر العصور ، وإنما الدولة أمة ، والأمة على مقدار الروس التي تعمل لها ، وهذه الروس على مقدار العقول التي تضبطها ، وتلك العقول على مقدار الأرواح التي تتميز بالاستثثار والزعامة في أصول الحضارة وفروعها ، وما هذه الأرواح الكبيرة إلا أرواح النابغين .

من أجل ذلك أسقطنا من هذه الترجمة التي سقناها في هذا البحث كثيرين ممن لم يتحققوا بالفنون ، واقتصرنا على الأئمة والأقطاب ، وما منهم إلا من تكتب في ترجمته الأسطر الكثيرة على تحري الإيجاز ومعاناة الاختصار ، هذا إذا لم تبسط تلك الترجمة بسطا يتناول حالة النشأة العلمية وكهولتها في كل مترجم ، وذلك بدرس المذاهب والآراء ، وإيراد الشواهد عليها من مواد العلوم المختلفة ، وهو منزوع بعيد الشقة يحتاج إلى مصابرة ومطاولته ، ويخرج إلى أن يكون كتاباً برأسه .

ونحن إنما عنينا بما جئنا به في هذا البحث خاصة ، لأن أكثر العلماء والأدباء أهملوا الأندلسيين وخلطوا مشاهيرهم بغيرهم ، غير مميزين بين عصر وعصر ، ولا مفرقين بين طبقة وطبقة ؛ واقتصروا مع ذلك على أفراد منهم

لا تكافئ جملتهم حضارة تلك الأمة ، ولا يستدل بها على شيء من ذلك
المجد فأردنا أن نثير تلك الدفائن ؛ ونفتح من كنوز التاريخ تلك الخزائن ؛
وجملة من ذكرناهم تكشف أشعثهم عن ذلك النور الذي غطته ظلمات
التاريخ من الجو العربي فألقت عليه سحابة من النسيان ، وتركته قطعة مظلمة
كأنه من مهملات الزمان .

مصراع العربية في الأندلس

من قواعد الاجتماع أن الأفراد يموتون ولكن الأمة تبقى ، فكأنهم يموتهم يفسحون مكانا للسمو الذي يكون مظهره تجدد الحوادث وتبدل العقول ، ولكن ذلك شأن الأمة حين تكون أمة بالمعنى الاجتماعى أيضا ، فتكون بمنجاة من أسباب الانقراض ، بعيدة عن عفونة التاريخ القديم وجراثيمه التي تهب بها الفتن والنكبات ؛ وما أصيبت أمة بها إلا اضطربت أحوالها الاجتماعية وعم أجزاءها الخلل والفساد ، فلا تزال تتقلب حتى تصيب مصراع الخيب ، وتعرف العقوبة من قبل أن تعرف الذنب !

وكذلك كان شأن الأندلسيين : أخذتهم الفتن الأخيرة حتى كاد الفرد منهم يموت فيموت به جزء من الأمة ، حتى صاروا في آخرة أمرهم نسلا شاذًا وحثالة رديئة ، فلفظتهم تلك الأرض كما يُلفظ التيء ، وذهبوا بعد ذلك كما يذهب كل شيء .

ونحن نريد الآن أن نبين كيف صرعت العربية بعد أن صارعت طويلا ، فنأنى على تاريخها في تلك البلاد في الطفولة والكهولة ، لأننا لم نذكر في كل ما سبق إلا ظاهراً من حياتها ، وبقي تشریح باطنها لتعرف الأسباب والعلل في الحياة والموت :

دخلت العربية الأندلس ، وكانت هذه البلاد يومئذ زاهرة بأداب اللغة اللاتينية التي كان يقوم عليها رجال الدين ، حتى كانت أشبيلية يومئذ مركزاً عليها ثابت الدعائم بعناية أسقفها القديس إيزيدورس ، فصدمتها العربية صدمة فزع لها أولئك الأساقفة ؛ فكانوا يعملون على تقوية مادتها

والاحتفاظ بها ، فصارت بغيرتهم كأنها من الدين ، حتى أصبحت البيع
والأديار مدارس تلك الآداب ، ولا سيما طليطلة وقرطبة وأشبيلية ؛
فكانت تدرس فيها الآداب اللاتينية مع علم اللاهوت .

غير أن ذلك كله إنما كان عمل أفراد لا عمل أمة ؛ وقد غفل أولئك
المنتظعون عن هذه الحقيقة ، وتناسوا ما كانت تغلى به قلوب الشعب الإسباني
من النعمة على حكومته والخروج عليها ، وقد كان اليهود يومئذ وهم خزائن
الذهب وأقطاب التجارة في أشد الظلم إلى بريق سيوف العرب ، حيث كان
الملك ورجال الدين الكاثوليكي يسومونهم سوء العذاب ويبلونهم بالنعت
الشديد ؛ إذ خشوا امتداد سلطتهم وشوكة أموالهم ، خصوصا بعد أن دبر
الإسرائيليون مكيدة ظاهرهم عليها قبائل البربر واليهود من أهل أفريقية ،
فكادوا بها يضبطون زمام المملكة الإسبانية ، وذلك قبل فتح طارق بسبع
عشرة سنة (٦٩٤ للميلاد) . غير أن أمرهم انكشف وانكشفت معه
رقابهم للسيوف ، حتى كادوا ينقرضون ، لو لم يستخلصوا أرواح بقيتهم
بسيوف العرب ؛ ولذلك مالتهم واطمأنوا إليهم ونصبوا أنفسهم لحماية
المدن التي يفتحها الغزاة ؛ وكذلك شأن العبيد في النعمة على الإspanيين ،
حتى إن قرطبة سلها للعرب راهب منهم ، وقد غمسوا أيديهم في دماء وفن
كثيرة ، فكان كل ذلك مما حملهم على تلقف العربية وبثها في سواد الأمة
وتهبتهم للاستعراب .

ولما رأى المسيحيون الأحرار أناة العرب وتسامح الإسلام ، وأن
أعناقهم لا تحملها الأكتاف إلا بفضل هؤلاء القوم ، دخل أكثرهم فيما دخل
فيه العبيد واليهود استسلاما وإسلاما ، وحُببت إليهم الأخلاق العربية حتى

صار أشرافهم بمن أمسكوا عليهم دينهم يحجبون النساء ويقلدون المسلمين في الزي وكثير من العادات ؛ ثم اندفعوا في ذلك بعد أن صارت الدولة للحرب ، فلم تمض على الفتح ثلاثون سنة حتى أصبح الناس يخطون الكتب اللاتينية بأحرف عربية ، كما كان يفعل اليهود بكتبهم العبرية ، وما انقضى عمر رجل واحد حتى ألفتهم الحاجة إلى ترجمة التوراة وقوانين الكنيسة إلى العربية ، ليتمكن رجال الدين أنفسهم من فهمها .

وبعد أن ظهرت أمة الملك في زمن الأمويين وسما فرع الحضارة العربية في تلك البلاد ؛ تحول أهلها فيما تحول من طبيعتها ، حتى كانت الغيرة يومئذ على الآداب اللاتينية أسخف ما يُرمى به أهل السخف ؛ وقد نقل روزي في كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا أن بعض رؤساء الدين المسيحي كان يضطرم سخفاً على أدباء المسيحيين أنفسهم لأنهم بالغوا في تعصبهم للعربية حتى تناولوا الشعر والآداب والفلسفة تقويماً لآسنتهم وتهذيباً لملكاتهم بدلاً من أن يتذرعوا بذلك إلى تسفيه الآداب العربي ونقض المدينة الإسلامية ، قال : « وكيف السبيل إلى إيجاد رجل من العامة يقرأ التفاسير اللاتينية على الكتب المقدسة ، ومما يؤسف له أن نشأ المسيحيين الذين نبغت قرائحهم لا يعرفون غير العربية وآدابها فهم يتداولون الكتب العربية ويجمعونها بالأثمان الغالية يؤلفون بها الحزائن الممتعة ؛ وإذا حدثتهم بكتب دينهم وآداب لغتهم أعرضوا عنك أزوراراً وأفضوا رهوسهم استهزاء ؛ وهي أشد وأعظم من أن ينسى المسيحيون لغتهم وهي بقية الجنسية حتى لا تجد في الألف منهم واحداً يحسن أن يكتب كتاباً إلى صديق له بأبسط عبارات اللغة اللاتينية ؟ »

وما جاء القرن الخامس حتى كان المجاورون للعرب من أهالي فرنسا

وشمال إسبانيا يَنْكَبُونَ عن تناول الشعر اللاتيني ويكْبُونَ على التأديب بالشعر العربي ، حتى صار فقراؤهم بعد ذلك وأهل الكدية منهم يمدحون بالقصائد والموشحات العربية على الأبواب ويستعطون بها في الطرق ، فاعتبر كيف يكون وسط الأندلس إذا كانت هذه حال أقاصيها الأجمية ؟ ومنذ سقطت طليطلة سنة ٤٧٨ وكانت في يد يحيى بن ذى النون ودخلها الفونس السادس الذي كانوا يلقبونه بملك الدينيين ، أراد أن يستبق ذمء الحياة العربية في روح مملكته ، وساعده الفتن والنكبات فقذفت إليه من مضطهدى الفلاسفة وغيرهم ، وبهم نبغ رجاله ، كالسيد كامبودور الذي كان يجيد المنطق العرنى كأنه عريق فيه ؛ وكان يومئذ في طليطلة مدرسة عربية كان من أساتذتها محمد بن عيسى المقامى وأحمد بن عبد الرحمن الأنصارى وغيرهما ، وبهذه المدرسة تماسكت العربية حتى أنشأ ريمون رئيس الأساقفة مدرسة الترجمة بطليطلة ، وبها رجعت العربية إلى الحياة .

اليهود بالأندلس وترجمة كتب الفلسفة

ليهود الأندلس شأن مهم في تاريخ الفلسفة لأنهم حفظوها لأوروبا - كما ستعرف - وقد كان منهم في القرن السادس موسى بن ميمون الإسرائيلي الحكيم ، وهو رجل يتحقق بالفلسفة والرياضيات والهيئة والطب ، ويسميه اليهود ، موسى الثانى ، لأنه من كبار أحبارهم ؛ وقد نزع عن الأندلس بأهله فراراً من الاضطهاد بعد أن أظهر فيها الإسلام زمناً ، والتجأ إلى مصر ، فاشتمل عليه القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٠ ونظر إليه وقرر له رزقاً ؛ فتناول هذا الحكيم فلسفة ابن رشد وقابلها بلغة أرسطو اليونانية ، ثم

استخلص من مزيجهما فلسفة صنع بها الشريعة لقومه ، ولذلك أنكرها عليه
مقدمو اليهود ، وأشار المقرئ إلى ذلك بأنه يعلم قومه الكفر والتعطيل .
ولا محل هنا لبسط هذه الآراء ، ولكننا نقول إن هذا الرجل هو أول
من أذاع فلسفة ابن رشد بين اليهود بما بثه منها في كتبه . وأخذ عنه في قراءته ،
ولما بالغوا في اضطهاد اليهود التجأ أكثرهم إلى طليطلة وما وراها ،
ومنهم تلامذة الفلاسفة ، ومن بقى منهم كان يظهر الإسلام ويصلى في
المساجد ويقرى أولاده القرآن ، وما كان ذلك كله لينفعهم ، فأمر أبو يوسف
المتوفى سنة ٥٩٥ من ملوك الموحدون أن يتميزوا بلباس يختصون به . فظهروا
فيه بأشنع صورة إذ كانوا يتخذون بدلا من العمام ككوتات كأنها البراديع
تبلغ إلى تحت آذانهم (ص ٢٠٣ : المعجب) ، وذلك لأن أبا يوسف كان
يشك في إسلامهم ، ولو صح عنده إنركهم . ثم تناسى أكثرهم العربية
فشعروا بالحاجة إلى نقل كتب الفلسفة إلى لغتهم العبرانية ، وقد أخذوا في
ذلك ، وأول من شرع منهم فيه أسرة تدعى أسرة طيبون ، كان أصلها من
الآنديلس ثم هاجرت إلى لوندل في فرنسا ، فترجم اثنان من رجالها وهما
موسى بن طيبون وصموئيل بن طيبون بعض تلاخيص ابن رشد من فلسفة
أرسطو ، وهما أول من نقل فلسفة حكيم قرطبة إلى غير العربية .

ووافق ذلك عهد الإمبراطور فردريك الثاني عاهل ألمانيا ؛ وكان
يعرف العربية ، تلقاها من بعض أهلها في صقلية ، والعرب يومئذ منتشرون
فيها وفي نابولي .

وقد احتذى فردريك هذا مثال الإمبراطور شارلمان الذي كان
معاصراً لهارون الرشيد في بث المعارف وإنشاء المدارس ومحبة العلم وحماية

أهله فكانت حضرته غاصة بالترجمين والعلماء الوافدين حتى من بغداد، وهو الذي عهد إلى اليهود في ترجمة الفلسفة العربية إلى العبرانية واللاتينية، وقد ألف له يهوذا بن سليمان الطليطلي في سنة ١٢٤٧ م كتاب طلب الحكمة واعتمد فيه على فلسفة ابن رشد، وأخرج له يعقوب بن أبي مريم حوالى سنة ١٢٣٢ م عدة كتب من تأليف حكيم قرطبة، وتقدم إلى ميخائيل سكربت بترجمة فلسفة أرسطو عن العرب، فنقلها عن ابن رشد، ولذلك اعتبروه أول من أدخل فلسفته إلى أوروبا، وكذلك فعل هرمان الألماني في عهد هذا الامبراطور إلا أنه على ما يقال، اعتمد في ترجمة كتبه على بعض عرب الأندلس ممن يعرفون مصطلحات تلك الفنون.

ثم أخذ اليهود في إخراج هذه الكتب وغيرها إلى العبرانية واللاتينية، كما فعل كالوتيم في أوائل القرن الرابع عشر للبلاد، فقد ترجم كتباً لابن رشد إلى العبرانية، وترجم كتابه تهافت التهافت إلى اللاتينية سنة ١٣٢٨ م، وفي هذا القرن ظهر الفيلسوف اليهودى لاوى بن جرسون المعروف عند الإفرينج بلاون الإفريقي، وقد صنع بفلسفة ابن رشد ما صنعه ابن رشد بفلسفة أرسطو، فأخرجها شرحاً وتلخيصاً ثم كان آخر فلاسفتهم في القرن الخامس عشر إلياس دل مديجو الذى كان أستاذاً في كلية بادو - التى أو ماناً إليها في بعض ماسلف - وضعفت بعد ذلك فلسفة اليهود المستخرجة من فلسفة ابن رشد العربية، إذا قام أعداؤها في أوائل القرن السادس عشر يزيفونها، ومن أجل ذلك نشر موسى المتسينو كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي سنة ١٥٣٨ م

ترجمة الفلسفة العربية في أوروبا

كان مبدأ ذلك في طليطلة في القرن الثاني عشر للميلاد ، حين أنشأ دريموند رئيس الأساقفة مدرسة للترجمة ، وهي المدرسة الأولى من نوعها ، وذلك من سنة ١١٣٠ إلى ١١٥٠ م ، وقد جعل رئيس الترجمة فيها الأرشيدوق باكر دومينيك لتحقيق الألفاظ اللاتينية المترجم بها .

وكان أشهر ترجمة اليهود في هذه المدرسة يوحنا الأشيلبي ، فأخرجوا إلى اللاتينية كتباً كثيرة من مؤلفات ابن سينا ، ثم نقلوا بعض كتب لأبي نصر الفارابي والسكندي ؛ وقبل هذه المدرسة كان بعض الأفراد قد نقلوا كتباً من الرياضيات والطب والفلك ، مثل قسطنطين الإفريقي وجربرت وأفلاطون دي تريفولي وغيرهم .

وفي القرن الثالث عشر للميلاد كان اليهود في الأندلس أقدر الترجمة وذلك في عهد ألفونس العاشر خليفة القديس فرديناند الثالث ، إذ كان هذا الألفونس من أوفر الملوك عقلاً ، فأراد أن يصنع بأسبانيا مثل ما صنعه العرب ، فأسس سنة ١٢٥٤ للميلاد بأشبيلية مدرسة عربية لاتينية ، وترك مدينة مرسية على ما كانت عليه من الرواق العربي ، واستدعى إلى عاصمته العلماء والأدباء من العرب واليهود وغيرهم ، وأسس بهم مدرسة طليطلة الثانية التي كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية فنون الحضارة العربية والعلم العبراني ، وظل اليهود يترجمون كتب الفلسفة والتاريخ والفلك العربية بما عليها من الشروح ، وكان زان بن زاكب ، ويهوذا هاكون والربان زاك ، هم الذين نقلوا لألفونس جمهرة تلك الكتب العربية .

وقد نشأ من علماء المسلمين من يعلم بتلك الألسن المختلفة ؛ كحمد
ابن أحمد القرموطى المرسى وكان من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة :
المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب وغيرها ، آية الله فى المعرفة
بالأندلس ، يقرئ الأمام بالسنتهم فنوتهم التى يرغبون فيها وفى تعلّمها ،
وقد بنى له ألفونس فى مرسية مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود
(ص ٤٠٩ ج ٢ : نفع الطيب) ولم نذكره فى الفلاسفة لأن هذا الموضوع
أليق به .

وقد نشأ من اليهود بالأندلس شعراء وأدباء ، من أشهرهم نسيم الإسرائيلى ،
وابن سرى ، وابن الفخارى اليهودى (ص ٣٠٤ ج ٢ : نفع الطيب) ،
وإلياس بن المدور الطيب الرندى (ص ٣٠٥ ج ٢) ، وإسماعيل اليهودى
وبنته قسمونة (ص ٣٠٥ ج ٢) وغيرهم ، وكانوا يكتبون ، ولكن لم
ينبغ منهم أحد فى الكتابة على ما نعلم ، إلا أن يكون من ذكرناهم ،
وما كانت براعتهم فى الترجمة إلا من معرفتهم للسانين اللاتينى والعبرانى ،
وهو أمر انصرف عنه المسلمون حتى لم نكد نقف على اسم واحد منهم
غير القرموطى .

تنصر العربية

ليس يتم الغلب على أمة من الأمم بتسخير أفرادها واسترقاقهم ، ولا بقلب حكومتها من جنس إلى جنس ؛ فإن الأشخاص لا يتغيرون وهم هم بما فيهم من الطبائع والأخلاق الوراثية ، ولكن الغلب إنما يكون باندماج المغلوب في جنسية الغالب أو مذهبه استدراجاً لجنسيته ؛ ومن أجل ذلك تجهد الأمم الفاتحة والمستعمرة في نشر لغتها وآدابها ، فإن لم يكن لها من ذلك ما يوازن آداب المغلوبين عملت على تحويل قلوبهم بالدين ، وذلك ما فعله الأسبانيون في أواخر القرن السابع ، حيث عملوا على تنصير المسلمين ، ولكن بقيتهم يومئذ كانت إلى التماسك والشدة ، لأن الإسلام والملك لم يزل في جانب من الأندلس وعلى أبوابها ، فعمدوا إلى أخذهم بالإقناع والمجادلة ، ووكوا هذا الأمر إلى رهبانهم ، فأكب هؤلاء على العربية ، ووضع رامون مارتى أحد الرهبان الدومانيكيين أول معجم عربي باللغة الأسبانية سنة ١٢٣٠ م ، وفي أواخر القرن الثامن كان في سلامنكة مدرسة تضم خمساً وعشرين حلقة للدروس ، منها واحدة لليونانية ، وأخرى للبرانية ، وثالثة للعربية ؛ أقاموها لتلك الغاية ؛ ولم ينجل المسلمون عن أرض إسبانيا في القرن الحادى عشر حتى كان في هذه المدرسة سبعون حلقة للدروس ، وطارت شهرتها في أوروبا ، وكانت شهرة عربية ، لأنها بفضل علوم العرب استطاعت أن تقرر العلوم الطبيعية والطبية على القاعدة العملية التي كان العرب أول من جرى عليها ، وبينما كانت تلك العلوم في أوروبا لذلك العهد مبنية على التجارب البسيطة مستندة إلى أنواع من الشعوذة والحيل المضحكة . ثم تتابع إنشاء المدارس

في القرن الثامن لتعليم الرهبان من الدومينيكيين والفرنسيسكيين في جهات من إسبانيا للغاية عنها ، ولكن هذه اللغة العربية التي تشبه السحر أخذت أولئك الرهبان بأدائها حتى كانوا هم أنفسهم سبب حياتها والقائمين بالدعوة إليها إلى القرن الثاني عشر للهجرة .

وفي أوائل القرن العاشر (سنة ٩٠٤) بعد أن سقط ما بقي من الملك الإسلامي في الأندلس ووهنت تلك الجامعة بين المسلمين ، أخذ الأسبانون يحملونهم على التنصر كرها ، فن خافهم عمدوه ومن خالفهم طردوه ، ثم تكفل ديوان التفتيش بالمراقبة على عقائد المنتصرين وتطهير مسيحياتهم الحديثة ... وبذلك بطلت حاجة الرهبان إلى البرهان فسقطت الغاية الأولى الباعثة على تعلم العربية وبقيت العربية بلا غاية عند بعضهم إلا نفسها ؛ وبذلك انصرف عنها الطلبة ، حتى إن الكرديال اكسيمنس عندما أسس كلية (الكالادي همار سنة ١٤٩٩) استنكف أن يضيف إلى دروسها حلقة لتعليم العربية ، مع أنه احتذى في تأسيسها مثال مدرسة سالامنكا ، وجعل فيها حلقتين للعبرية واليونانية ، وبعد ذلك كان الأستاذ الأعظم في سالامنكا في القرن السادس عشر لليلاد ، وهو فرى لويس دى ليون شاعراً لاهوتياً وفيلسوفاً يحسن اللغة العبرانية كل الإحسان ولكنه يجهل العربية كل الجهل .

ديوان التفتيش

أنشئ هذا الديوان سنة ١٤٨١ م بطلب الراهب توركاندا ، للتفتيش بين الناس عن أهل العلم والفلسفة ، فإن لم يعثر على أحد منهم فالتفتيش بين الظنون والأوهام ، لأنهم اتقوا صولة العلوم العربية على المذهب الكاثوليكي .

وقد اتخذوا فيه من أنواع التعذيب والانتقام المريب ماترك في الكتب من بعدهم صفحة من تاريخ جهنم... وليس من حق كتابنا تفصيل ولا إجمال لتلك الفظائع والمنكرات التي اقترفها رجال محكمة التفتيش وملوك الكتلحة لذلك العهد، مثل شارل كان وفيليب الثاني وفيليب الثالث، ونالوا بها المسلمون واليهود والمستأمنين؛ فذلك مما خلد لهم الخزي في تاريخ قومهم أنفسهم؛ ولكننا نجتزئ بذكر ما نال العربية من أولئك المنتظمين، فإنهم بعد أن طردوا اليهود من الموت إلى الجوع والفقر سنة ١٤٩٢ وأباحوا أموالهم، وطردهم المسلمون من الموت إلى الموت سنة ١٥٠٢؛ إذ حرم عليهم أن يأخذوا في طريق تفضي إلى بلد إسلامي - قرر بجمع لاتران في هذه السنة (١٥٠٢) أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد - وهم يريدون بهذه التسمية كل ما لديهم من علوم الفلسفة العربية - وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه صفة من صفات الزلفي والعبادة؛ وبعد ذلك أحرق الكردنيال إكسيملس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب [خطي]، ثم صدر أمره سنة ١٥١١ أن تباد كتب العرب من عامة البلاد الأسبانية؛ فم ذلك في زهاء نصف قرن، وكأنما كانت حرارة تلك القلوب هي التي تحرق الكتب... ولولا المنقولات منها إلى العبرية واللاتينية لما بقي من أثر العلوم العربية مشيد ولا طلل.

وبقيت بعد ذلك كتب عربية في خزانة دير الأسكوريال فأراد ديوان التفتيش أن يزيد بها شعلة من شعل نغمته، لولا أن تلطّف الماركيز فيلادا فحال دون إحراقها، ولا يزال أكثرها باقيا إلى اليوم.

وكان المنتصرون من المغاربة في ذلك العهد يكتبون العربية بأحرف

إسبانية ، وهم أذلاء محترقون من أنفسهم ومن المسيحيين ، فحظر عليهم فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ استعمال العربية ، وأرادهم على أن ينزعوا من أسمائهم التراكيب العربية وأن يقلدوا المسيحيين في زيهم حتى لا يعلم بهم إلا أنفسهم ؛ ولبثوا يسومون المغاربة عذاب الهون حتى طردت آخر فئة منهم سنة ١٠١٧ هـ وقد فصل ذلك المقرئ في نفع الطيب ص ٦١٧ ج ٢ .

آخرة العربية

وبعد ذلك زهاء قرن من الزمن صار فيه تعلم العربية مظنة الإلحاد ولم تُبق مدرسة فريليك لطغمة الفرنسيين في أشبيلية من أساليب تعلمها إلا أثراً ضئيلاً وكثيراً أن يكون قليلاً ؛ فكان حسب الطالب منها أن يُحسن لفظ بعض الأسماء العربية حتى يخرج بذلك إلى أفريقية داعية للنصرانية ، وإن كان قد بقي من الإسبانيين من يشتغل من ذلك بشئ فهو يضيفه إلى الأعمال التي بيده وبين الله ولا يأخذ في ذلك إلا سرا .

جاء عصر شارل الثالث (١٧٥٩ - ١٧٨٨) ويلقبونه ملك الفلاسفة ؛ فأراد أن يصل آخرة العربية بأولها ويعيد زما رآه مريضاً لم يمُت ، فاستدعى لذلك رهبانا موارنة من سورية وبسط لهم يده في البذل والعطاء ، وتقدم إليهم في تعليم الإسبانيين لغتهم الدارسة ، ولكن ماعسى أن تكون تسع وعشرون سنة في تغيير الأفكار وتبديل الألسنة ؟ ولذلك لم يكد شارل يمضي لسيله حتى انقطع ذلك العمل ، غير أنه بت حياة وخصباً في تلك الأرض الميتة فلم يمض عمر كهل حتى كان في إسبانيا من يجيدون العربية ، أمثال القصير وكامبو مان والاب بلانكرى وغيرهم من الأساتذة المعدودين ، ثم انقطع جبل

العربية إلى أن اتصل بالمدارس القديمة منتسكنا على عهد إيزابيلا الثانية ، فكان على ضعفه ذلك حتى سنة ١٨٤٥ ، إذ شرعوا في إصلاح التعليم على يد المسيو جيل دي زارات ، وبإخلاص هذا الرجل عادت العربية تدرس في الكليات درسا مقررا .

ثم استلمت الحكومة الإسبانية سنة ١٨٥٧ زمام التعليم وتولت إصلاحه فزهت العربية وكثر طلبتها والمقبلون عليها ، خصوصا بعد أن فقدت إسبانيا مستعمراتها في أمريكا وآسيا وعلقت أمالها بمراكش في عصرنا هذا ، فنبغ فيها المستشرقون واحتفظوا بما خلفه التاريخ من كتب العرب ، ولا يزال ذلك في مكتبة الإسكوريال ، ومكتبة الأمة ، ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ، غير المكاتب الخاصة التي جمعها أهل العلم منهم ، وقد برز من متأخريهم أفراد مشهورون في فروع اللغة العربية ، وامتاز بعضهم بالبراعة في قراءة الخطوط وتأريخها ، ونبغوا كذلك في درس الحضارة الإسلامية والنظر في أصول الآداب العربية ، واعتنت فئة منهم بدرس اللغات العامية التي تفرعت من العربية الفصحى ، وهم بعد في حد التزايد إلى يومنا هذا ، وقد صار كثير من البلاد الإسبانية كمجريط (العاصمة) وغرناطة وبرشلونة وبلنسية وغيرها زاهيا [فيهم] بهذه الآداب ، مذكرا لهم بالمجد العربي القديم . وإنما يتذكر أولو الألباب

(هـ) قلت : قرأت بخط المؤلف العبارة الآتية ولم أعرف أين موضعها من هذا الفصل ، فرأيت إثباتها في هذا المكان ، وهي :

«... ولكن ذهبت آثارهم فلا أعرف أقدارهم ، وخلت سماؤهم ولم تبق إلا أسماؤهم ؛ ومن الأدباء من ينكر مزية الشعر الأندلسي لأنه لا يرى إلا أسماء لا آثار لها ...»

الباب العاشر^(*)

في التأليف وتاريخه عند العرب ونوادير الكتب العربية

كتب الشعر

من هذه الكتب ما يخصص فيه الكلام بالشعر نفسه ؛ فيبينون عن وجه المعنى ويكشفون عن طريقة الصنعة ؛ ككتاب نقد الشعر لقدماء بن جعفر الكاتب المتوفى سنة ٣٣٧ ، وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ، المتوفى سنة ٤٦٣ ، وهو أحسن ما وضع في صناعة الشعر ونقده وعيوبه ؛ وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن للأعلم الشنتمري المتوفى سنة ٤٤٩ كتابا في مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه (ص ٤٣٥ ج ١ : نفح الطيب) .

ومن هذا القبيل كتب البلاغة : كالصناعتين للعسكري وما كان قبله وما وضع من بعده - كما سنذكره عند الكلام على البدع - ومن كتب الشعر ما هو مخصوص بالطبقات والتراجم ، ومنها كتب المختارات والدواوين .

(هـ) قلت : كنت أحسب هذا الفصل والذي يليه بعض الباب العاشر من الكتاب ، (موضوعه التأليف . وتاريخه عند العرب ، ونوادير الكتب العربية) . وعلى هذا الظن تأخرت بنشر هذين الفصلين إلى هذا الموضع ، ثم بدا لي من بعد أن المؤلف لم يستوفِ البحث في شيء من موضوعات هذا الباب ، وأنه أعد هذين الفصلين ليكونا تماما لباب الشعر - تنهت لذلك من عبارة وردت في بعض حديثه عن كتب الشعر ، ، ولم أستطع أن أتدارك ما فات بنشر هذين الفصلين في موضعهما حيث أراد ، فرأيت إثباتهما هنا .

الطبقات والتراجم

وهذه هي الكتب التي يخبرون فيها عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم ، ويذكرون فيها ما يستحسن من أخبار الشاعر وما يستجد من شعره ، وما [أخذ عليه] من الغلط والخطأ [في ألفاظه] وما سبق إليه المتقدمون فأخذوه عنهم المتأخرون .

وعلى أن هذه هي أركان النقد فهم لا يفيضون فيها ولا يبسطون الكلام عنها ، وقليل ما يؤمنون إلى المهمّ منها وخصوصا المتأخرين ، لأنهم لا يريدون إلا جهة التاريخ فلا ينظرون إلى الموازنة والترجيح ، لأن هذا تاريخ عملي لا يكون إلا بين النظراء من طبقة واحدة في العصر ، أو استقراء الإجابة الغالبة على شعرهم ، وهم إنما يريدون بجمع العصور المختلفة ، وكل ما جاء من أقوالهم وكتبهم في الموازنة والتنظير لم يعد أفراداً معدودين ، هم جرير والفرزدق وبشار ومروان بن أبي حفصة ومسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو تمام والبحري ثم المتنبي .

ومما ننبه عليه أن الرواة لم يكونوا يتكلمون في الشعراء إلا بعد موتهم ، اتقاء لمعرة اللسان والوقوع فيه ؛ وقد جهدوا بأبي عبيدة أن يفضل بين مسلم والنواسب فكان يقول : أنا لا أحكم بين الأحياء . وهذا الأخفش قد طعن على بشار في كلمة [لم يسمع وزنها] عن العرب ، فهجاه [بشار] حتى استوهبوا منه عرضه ، فكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعره في كتبه ليبلغه (ص ٥٤ ج ٣ : الأغاني) ، وكذلك فعل بسيدويه حتى تَوَقَّاه واستكفَّ شره .

ولم يدون من ذلك شيء مقصود بالتأليف إلا كتاب الموازنة بين الطائنين
للأمدي المتوفى سنة ٦٠٨، وما كُتِبَ عن المتنبي كالرسالة الحاتمية للحاتمي، وذكر
مقدمتها ابن خلكان في تاريخه؛ ورسالة الصاحب بن عباد في إظهار مساوئ
المتنبي، وقد عمل بعدها القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كتاب
الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره، قال الثعالبي: إنه استولى بها على الأمد في
فصل الخطاب (ص ٢٣٩ ج ٢: يتيمة الدهر) وسنستوفى ذلك في ترجمة المتنبي.

أما كتب الطبقات فأشهرها طبقات أبي عبيدة الراوية المتوفى سنة ٢٠٩،
ومحمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١، ومحمد بن حبيب النحوي المتوفى
سنة ٢٤٥، وطبقات ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٩٦ (أو ٢٧٦) وهي المعتمد
عليها في هذا الباب، قصد فيها إلى المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلُّ
أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب والنحو، وعدت من
هؤلاء ١٨٠ شاعرا، وقد جرى في ناحيته السيوطي المتوفى سنة ٩١١،
فوضع كتابا جمع فيه الذين يحتج بكلامهم من شعراء العرب.

وأما كتب الأخبار فكتاب الباهر لابن المنجم نديم المكتفي بالله المتوفى
سنة ٣٠٠، وهو في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين، ابتداء فيه ببشار بن
برد؛ وآخر من أثبت فيه مروان بن أبي حفصة؛ ولم يتمه، وتممه ولده
أبو الحسن أحمد بن يحيى، وعزم على أن يضيف إلى كتاب أبيه سائر الشعراء
المحدثين، فذكر منهم أبا دلالة ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ومطبع
ابن إياس وأبا علي البصير (ص ٣١١ ج ٢: فوات الوفيات). وكتاب
الأغاني الشهير لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦، وهو نادرة الكتب
جمع فيه أخبار ٣٩٥ شاعرا بين جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث؛

وهو منقول عن كتب كثيرة وُضعت قبله .

وأما كتب التراجم التي تجمع من التاريخ والخبر وبعض المختارات ، فهي ما زالت تتصل مع الزمان ، لم تنقطع إلا في القرن الثالث عشر ، وأول ما وضع منها كتاب البارع في أخبار الشعراء المولدين ، لهرون بن علي المنجم البغدادي المتوفى سنة ٢٨٨ جمع فيه ١٦١ شاعراً ، وافتحه بذكر بشار بن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ، وسنشير إليه في كتب المختارات ؛ وهذا الكتاب هو الأصل الذي احتذاه من جاء بعده ، فذيل عليه أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ بكتابه قيمة الدهر الشهير ، وترجم فيه شعراء عصره من بلاد كثيرة وأورد من محاسنهم ؛ ثم ذيل على القيمة أبو الحسن الباخزري المتوفى سنة ٤٦٧ بكتابه دمية القصر وعصرة أهل العصر . ووضع عليه أبو الحسن بن زيد البهي كتابه وشاح الدمية ، ثم ذيل عليه أيضاً الوراق الخضيرى المتوفى سنة ٥٦٨ بكتابه زينة الدهر في لطائف شعراء العصر ، قال ابن خلكان جمع فيه كثيراً من أهل عصره ومن تقدمهم ، وأورد لكل واحد طرفاً من أحواله وشيئاً من شعره (ص ٥٢٤) ووضع معه أيضاً عماد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ؛ وترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٧٢ ؛ ثم صنع بعده كتاب السيل على الذيل ، جملة ذيلاً للخريدة . ثم جاء ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ ؛ فوضع كتابه معجم الشعراء ، وله أيضاً كتاب آخر هو إرشاد الألباء في معرفة الأدباء ، وهو المعروف بمعجم الأدباء ، وقد طبعت منه بعض أجزاء ، ثم وضع ابن خلكان كتابه وفيات الأعيان الشهير ، وعد فيه طائفة من الشعراء في كل عصر ، وذيل عليه أقوام ، حتى وضع الكتبي فوات الوفيات ؛ ثم وضع

صلاح الدين الصفدى كتابه الوافى بالوفيات، انتهى فيه إلى آخر سنة ٧٦٠
وذكره صاحب كشف الظنون وقال إنه جمع فيه أعيان كل فن. ولا نعرف
للمائة التاسعة كتباً مفردة إلى أن وُضع كتاب سلافة العصر؛ ووضع الخفاجى
كتاباً ربحانة الألباء؛ ووضع المحبى نفحة الريحانة وخلاصة الأثر، وكلها
ترجم أدباء القرنين العاشر والحادى عشر؛ ثم وضع المرادى سلك الدرر
فى أعيان القرن الثانى عشر، وهو ذيل على الخلاصة: وقد وضعت كتب
أخرى مقصورة على بعض الأمصار، ككتاب الأنموذج لابن رشيق
جمع فيه شعراء القيروان والكتب التى صنفها الأندلسيون وهى أبلغ
ما كتب من نوعها، وسنذكرها فى بحث الأدب الأندلسى إن شاء الله،
لأنها مقصورة عليهم لم تناول غيرهم؛ وكذلك صنفوا كتباً على الأسماء
ككتاب من نُسب إلى أمه من الشعراء لآبى هاشم السجستانى: وكتاب الموشح
فى أسماء الشعراء لغلام ثعلب المتوفى سنة ٣٤٥؛ وكتاب المختلف والمؤلف
فى أسماء الشعراء لحسن بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٧٣١.

وما يذكر فى هذا الموضع ما يستوفيه المؤرخون فى الكتب الخاصة
ببعض البلاد، إذ يستوعبون شعراء البلد الذى يؤرخونه بما لا يوجد فى غير
تلك الكتب، ككتاب بغداد لابن أبى طاهر، وقد وجد منه جزء واحد،
وهو غير تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣، وكتاب أصهبان
لآبى عبد الله حمزة بن الحسين الأصهبانى، فقد ذكر فيه شعراء أصهبان
والكرخ وساق عيون أشعارهم وملح أخبارهم (ص ١٢٥ ج ٣: بقيمة الدهر)
وغير ذلك مما يكون فى المعجمات المطولة، وهى كثيرة، أعجب ما وقفنا عليه
من أسمائها كتاب بجمع الآداب فى معجم الأسماء والألقاب لان القوطى البغدادى
المتوفى سنة ٧٢٣ ذكره وأنه فى خمسين مجلداً (ص ٣٨١ ج ٢: كشف الظنون)

كتب المختارات

وهي الكتب التي وضعت لانتقاء عيون الشعر أولا ، ثم دخلتها صناعة التبويب بعد ذلك ، وقد أطنبوا في صعوبة الاختيار [المرضى] الذي يوثاق الأذواق على رغائبها ، ويتابع النفوس بمطالبها ، حتى قالوا : دل على عاقل اختياره ، واختيار الرجل من وفور عقله . وقالوا : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنه قطعة من علمه ، واختياره قطعة من عقله ؛ وحتى أنكروا فيه معارضة المختارات المجمع عليها والأخذ في سيئها ، كما أنكر محمد بن سعيد الكاتب في القرن الرابع على محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وأعظم ذلك حتى رد عليه أبو الحسين بن فارس علامة همدان وأستاذ بديع الزمان برسالة أورد الثعالبي منها فصلا (ص ٢١٥ ج ٣ : بقيمة الدهر) .

ليس ذلك على أن الاختيار في نفسه محذور على أكثر الناس ، ولا هو صناعة من الصناعات القائمة بنفسها فيكون للعقل فيه عمل يلزمه التبعة ويأخذه بالهدد ، ولكن الشعر من عمل القرائح ، وهي متفاوتة ، فالاختيار منه لا يحسن إلا من ذى قريحة تشعر ، ثم يكون له من البصر بالنقد ما يكشف له مواضع هذا التفاوت ، حتى تكون قريحته التي تختار كأنها مجموع القرائح التي نظمت ؛ وليس من شاعر سميت به طبيعته إلا وهو يتوهم في نفسه أنواعا من القول قد لا يسمح بها الطبع إلا الفينة بعد الفينة ، فهو إذا أصاب صفتها في أقوال الشعراء استدل عليها بطبعه وأمضى فيها اختياره ومن هاهنا كان الاختيار على التحقيق من وفور العقل .

وأول اختيار مدون عند العرب القصائد المعروفة « بالمعلقات » اختارها

حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ ، ثم جبهة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن
أبي الخطاب القرشي المتوفى سنة ١٧٠ .

ثم المفضليات للفضل الضبي وهي مشهورة ، قال أبو علي القالي في
أماله إن المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة للهدى ، ثم قرئت على
الأصمعي فصارت مائة وعشرين ؛ وقال في أصحاب الأصمعي إنهم قرءوا
عليه المفضليات ثم استقرءوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره
وضموه إلى المفضليات وسألوه عما فيه مما أشكل عليه من معاني الشعر
وغريبه ، فكثرت جدا . (ص ١٣١ ج ٣ : الأمل) وكان المفضل يؤدب
المهدى فتقدم إليه أبو جعفر المنصور أن يعتمد على أشعار الشعراء المقلين
ويختار لفتاه لكل شاعر أجود ما قال ، فاختر هذه القصائد ، وهي مشهورة ،
وقد طبع منها [كذا] قصيدة .

ثم اختار الأصمعي القصائد المعروفة بالأصمعيات ، وكل هؤلاء لم يختاروا
في كتبهم شيئاً للمولدين ، حتى جاء هارون بن علي المنجم الذي أومأنا إليه
في الفصل السابق ووضع كتاب البارع في أخبار الشعراء المولدين ، وهو
الذي ينقل عنه صاحب الأغاني كثيراً ويشير إلى ذلك بقوله نقلت من كتاب
هارون بن علي ، ونحو هذا اللفظ ؛ قال ابن خلكان : وذكروا في أوله أن
هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبله في هذا الفن ، وأنه كان طويلاً
فحذف منه أشياء فاختصر على هذا القدر ، ثم قال : إنه يغني عن دواوين
الجماعة الذين ذكرهم ، فإنه اختصر أشعارهم وأثبت منها زبدتها وترك
زبدها . اهـ . وقد تابعه على ذلك من جاء بعده عن صنّفوا في الأخبار
والمختارات كما مر في موضعه .

ومما تنبه عليه أن الرواة إذا توافى اثنتان منهم على اختيار قصيدة واحدة ، ذهبت مثلاً في الجودة كقصيدة ...

• بكرت سمية غدوة فتمنعي •

فإن أبا عبيدة لم يجد في وصفها أبلغ من قوله : إنها من مختار الشعر :
أصمعية مفضلية (ص ٨٢ ج ٣ : الأغاني) .

الحماسة

ولكن الذي رزق حظ الشهرة في اختياره وجاء بما غطى على من سبقه ، أبو تمام الطائي المتوفى سنة ٢٣١ فيما جمعه من كتاب الحماسة الشهير الذي قالوا إنه في اختياره أشعر منه في شعره ، وتأويل ذلك ما قدمناه من معنى إصابة الاختيار ؛ قالوا : وسبب جمعه أنه قصد عبد الله بن طاهر وهو بخراسان فدحه فأجازه ، وعاد يريد العراق ، فلما دخل همدان اغتنم أبو الوفاء ابن سلم فأنزله وأكرمه ، وأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ، فغم ذلك أبا تمام وسرَّ أبا الوفاء ، فأحضره خزائنه كتبه فطالعها واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب في الشعر ، منها كتاب الحماسة ، والوحشيات ، وفحول الشعراء ، ومختار شعراء القبائل (الخزائن) فبقى الحماسة في خزائن آل سلم يضنون به ، حتى تغيرت أحوالهم وورد أبو العواذل همدان من دينور فظفر به وحمله إلى أصبهان ، فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه مما هو في معناه من الكتب ، ثم شاع حتى ملأ الدنيا .

وقد رتبه أبو تمام في عشرة أبواب هي فنون الشعر التي عدناها ، واقتصر فيه على شعر العظماء مما يخلص على السبك ، واحتال في تخليده بما جود

فيه من اختيار القطع والآيات القابلة التي لا تكفد المتحفظ ولا يداخلها سقط ،
على غير ما ذهب إليه الذين سبقوه ، فإنهم لم يختاروا إلا القصائد الطويلة ،
ولم يقصروا اختيارهم على المأنوس دون الغريب ؛ ولهذا السبب عينه سقط
الوحشيات ولم يكتب له البقاء مع الحماسة ، وإن كان كلامهما اختياراً
واحداً ، ولكن الوحشيات مبنية على اختيار القصائد والقطع الطويلة ،
وهي باقية إلى يومنا هذا ، وقد وجد منها بعض الفضلاء نسخة في إحدى
مكاتب الأستانة ورأى عليها أنها الحماسة الصغرى ، وهو اسم موضوع لم
يذكره أحد ممن دلوا عليه ، كالتبريزي في شرح الحماسة وغيره .

وقد انتقد كتاب الحماسة حمزة بن الحسين ، فزعم أن فيه تكريراً وتصحيفاً
وإبطاء وإقواء ونقلًا لآيات عن أبوابها إلى أبواب لا تليق بها ولا تصلح
لها ، إلى ما سوى ذلك من رايات مدخولة وأموور عليلة (ص ١٦٤ ج ٣ : يتيمة
الدهر) ولكن هذا ومثله لم يفض من الكتاب ولم يصرف المتأدبين عنه ،
فقد ذهبت حسناته بما دونها حتى اتخذوه أصلاً يحتذون عليه ، وجعلوا من
شهرة اسمه وسيلة لشهرة كتبهم ، فلما اختار الخالديان كتابهما المعروف بالأشباه
والنظائر ، سمياه حماسة الخالديين ، وألف البحترى قبلهما الحماسة الثانية
(وقد مر ذكر حماسة المعجلى) وفي تاريخ ابن خلكان أن ابن الشجري اللغوي
المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ضاهى الحماسة بكتاب غريب أحسن فيه .

ولعل بن الحسن المعروف بشميم الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ حماسة رتبها على
أربعة عشر باباً ؛ واللياسي الأندلسي المتوفى سنة ٦٥٣ حماسة عارض بها أبا تمام
ولكنه اختار فيها لكل الطبقات إلى زمنه ورتب كترتيب أبي تمام ، وهي
عند المغاربة في شهرة الحماسة عند المشاركة ؛ وألف قبله من الأندلسيين الأعلام

الشنتمرى وذكر حماسته البغدادى فى خزانة الأدب ؛ وآخر ما عُرِف من هذه الكتب ، الحماسة البصرية التى ألفها على بن أبى الفرج سنة ٦٤٧ برسم الملك الناصر صلاح الدين ، وفى المكتبة الخديوية الجزء الأول منها .

ولكن كل هذه الحماسات لم تنازع حماسة أبى تمام قليلا ولا كثيراً ، فلا يعرف لإحداها شرح واحد وقد وضع لتلك عشرون كتاباً سَمَّى أصحابها ملاحبى فى كشف الظنون ، فبعضهم عنى بذكر إعرابها ، ومنهم من عنى بالمعانى وشرح المغلفات ، وبعضهم تناول ذلك وأضاف إليه تراجم شعرائها وأخبارهم فى أشعارهم ، وأشهر هذه الكتب شرح الخطيب التبريزى ، وهو متداول مشهور .

وكان الكتاب يتصنعون فى نثر أبياتها ، وربما جعلوا ذلك مراناً على الكتابة ، ولكن على بن محمد الكاتب المتوفى سنة ١٤٤٤ نثرها فى كتاب سماه منشور البهائى ، لأنه نثره لبهاء الدولة بن بويه ، وذلك لم يتبها لكتاب فى الشعر غير الحماسة .

مختارات أخرى

ولا سبيل إلى حصر المختارات ، لأن التاريخ العربى ترك إلى اليوم شعراً كثيراً جداً ، لا يقل المأثور عنه فى الدواوين وغيرها عن بضعة ملايين من الأبيات ، وقد أتت روايات كثيرة بما لا يصدق عن استطالة الشعر الجاهلى وحده ، فكيف بغيره مما نظم ليدون واستغرق نظمه ثلاثة عشر قرناً ؟ ولكننا نعين أشهر كتب المختارات ، ثم لانعدو فى ذلك كتب المتقدمين من أئمة الأدب ، لأن المتأخرين قد ابتدلوا هذا النوع وقصروه

على حظ أنفسهم من الحفظ، ويسمون ما يجمعونه من ذلك بالتذكرة أو المجموع، ومن أشهرها تذكرة الصفدى؛ وهى فى عدة مجلدات لا يزال بعضها فى مكاتب الأستانة، ويقال إن فيها دواوين برمتها.

فن أشهر تلك الكتب، منتهى الطلب من أشعار العرب، لمحمد بن المبارك ابن الميمون البغدادي. وهو كتاب يشتمل على أكثر من ألف قصيدة خلا المقاطيع، قال صاحب كشف الظنون: وعدة ما فيه أربعون ألف بيت. وديوان المعاني للعسكري، وهو ديوان ضخم رتبه على اثني عشر باباً وجمعه من شعر الشعراء إلى زمنه، وقد أحسن الاختيار فى كثير منه، ولا يقل فيه عن عشرة آلاف بيت. وكتاب مختارات شعراء العرب لابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ جمع فيه خمسين قصيدة وقسمه ثلاثة أقسام: جعل فى القسم الأول ١٢ قصيدة لشعراء مختلفين، وفى الثانى ٣٥، منها ٧ لزهير، و٦ لبشر ابن أبى خازم، و ١٢ لعبيد بن الأبرص، قال: وهى مختار شعره ومعظمه... ولا يذهبن عنك ما ذكرناه عن شعر عبيد فى الكلام عن المقلتين؛ والقسم الثالث مختار أشعار الخطيئة وأخباره، وهو ١٣ قصيدة غير المقاطيع. وكل هذه الكتب موجودة فى المكتبة الخديوية، ولابن الشجرى هذا كتاب الأمالى على نحو الأمالى المعروفة ذكر ابن خلكان أنه فى ٨٤ مجلداً.

وكان للصاحب بن عباد كتاب سماه سفينة الملح، فكلما أنشد شعراً جيداً وقرأ آياتاً رائعة أثبتتها فيه، على كثرة ما يتهيا له من ذلك (ص ٢٠٧ ج ٣: يتيمة الدهر) وأعجب من هذا الكتاب المرزومة لابن سعيد المغربى فى القرن السابع؛ قال صاحب نفح الطيب: إنه وقر بعير من الرزم والكراريس

الباب الحادى عشر

فى الصناعات اللفظية التى أولع بها المتأخرون

فى النظم والنثر وتاريخ أنواعها

الصناعات

مر بك من أمر الصناعتين فى النظم والنثر ما تستخرج منه تاريخ الارتقاء فى الكلام وتعرف به مدلوله ؛ إذ يعطيك من حوادثه الأدبية ما تعطيك الحوادث المسادية من القياس الذى تُضَبِّط به النتائج وتجتمع الحدود ؛ ولا بد لمن أراد أن يستقرئ حوادث الانحطاط من معرفة تاريخ الارتقاء ، لأنه ضدُّ معلق على ضده ، فلا تنحط الأمة حتى تكون قد ارتقت .

والارتقاء فى كل شيء إنما هو تغير فى مادته على مقادير تعطيه من القوة بنسبة الزيادة فى ذلك التغير فى مجموعه ؛ فالطفل يرتقى بتغير مادة جسمه إلى مقادير القوة حتى يصير رجلا ، ولكن إذا أخذ جسمه فى النماء والزيادة وأخذت حاسة من حواسه فى النقص والانحطاط ؛ لم يكن ذلك النماء فى مجموعه ارتقاء مطلقا ، بل احتاج أن يفصل فيه .

وكذلك الشأن فى هذه الصناعات الأدبية ؛ فإنها ليست فى مجموع اللغة ارتقاء ولا انحطاطا ، وإنما يوصف كل جنس منها بأثره ؛ فإنك إذا نظرت إلى أن من أنواع البديع مايورث اللغة حسنا فى الألفاظ ، وحلاوة فى مخارج الكلام ، حتى تحول فى العيون عن مقادير صورها ، وتربى على حقائق أقدارها

بمقدار ما زينت وعلى حسب ما زخرفت ، وحتى تكون هذه الزيادة بعينها فيما لها من قوة الهوى والتعشق ، وأن تلك الأنواع تقتضى الكاتب أو الشاعر لطافة الحيلة وحسن التأني وتمكين الأسباب ونحو ذلك مما هو أدخل في باب التكلف — لم يجز لك أن تعدّها في اللغة إلا من أسباب الارتقاء ؛ لأن اللغة لم تقع لأهلها على الكفاية في كل شيء ، وإنما سبيلها تحوّل المادة وتغيّر القوة في كل عصر .

وإذا نظرت إلى أن من أنواع البديع أيضا ما يكسب اللغة هجنة ويلحقتها بضروب الصناعات والحرف ، ويصير بها إلى حال مضیعة وكلال ، وهو على ما يقتضيه من الكد والاستكراه وكثرة التكلف زينة عاطلة وفتنة باطلة ، وأن هذه الأنواع مصائد للأفلام وحصائد للألسنة — لم يجز لك أن تحتسبها في اللغة إلا من أسباب الانحطاط ؛ لأنها وإن كانت زيادة في المادة إلا أنها نقص في القوة ؛ فثلها مثل ما يزيد في الجسم من الأمراض كالسرطان وغيره .

ومن تدبّر تاريخ العلوم رأى أن لكل علم ثلاثة أدوار : فهو يبدأ بدرس حقائقه التي أفردته فاعتبر بها علما ، ثم يؤدي هذا الدرس إلى الاكتساب والاستنباط وما يتبعهما من تمحيص الحقائق الأولى ، ثم ينتهي الاكتساب إلى الدور الذي يبلغ فيه العلم أن يكون جزءا من أجزاء الوحدة العلمية ؛ فإن العلوم كلها دعامة للعمران يشد بعضها بعضا ، وليس ينزل فيها إلا ما يشترك في هذه الغاية ؛ وعلى هذا لا تكون الصناعات قد نشأت في علم الأدب إلا في الدور الثاني ، وهو دور الاكتساب والتزید ، غير أنها نشأت على قدر الحاجة إليها ؛ وكان يتولاها النقد ويحاسب عليها البيان ، فخرج أكثرها مهذبا غير ملتبس ولا معقد ؛ حتى جاء القرن الرابع فأخذوا يتوسعون في ذلك

لا يعدون مقدار التملح والظرف وما يجرى مجراها ؛ لأن معدة اللغة يومئذ كانت تسيغ ذلك وتمثله ، حتى إن أبا الفتح البستي لما شغف قريبا من ذلك العهد بالتجنيس : قالوا إنها الطريقة الأنيقة والتجنيس الأنيس ، واستظرفوها ولم ينكروا عليه ما ننكر نحن على أهل هذه الطريقة في المتأخرين ؛ فلما أخذت اللغة تضعف بعد ذلك فشت الصناعات فيها وضربت لها عروق الحياة ، ووجد الأدباء من جهل الخاصة وانصرفهم عن الأدب الصحيح ما صرفهم إلى أنفسهم وجعل بأهمهم بينهم ، فتنافسوا في الاكتساب والإغراب ، وصارت الصناعات مقصودة لذاتها ، فتبعها اللغة بعد أن كانت متبوعة ، وصار أول ما يجيد الشاعر أن يطرح مَعْمَى أو ينظم لغزاً أو يبرع في بعض أنواع الجناسات وغيرها مما يسمونه بالمعجز والعويص ؛ وكذلك كان شأن الكتاب ؛ وصار ذلك من حظ الأدباء وأهل البلاغة عند الخاصة والأمراء ، وقد ذكر ابن الطقطقي في كتاب الغزى (ص ١٥) أن عز الدين بن عبد العزيز بن جعفر النيسابوري — لمجالسة أهل الفضل وللكثرة معاشرتهم له — صار يتنبه على معان حسنة « ويحل الألغاز المشككة » أسرع منهم ، ولم يكن له حظ من علم . وكذلك قال في بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إنه لمثل ذلك كان يستنبط المعاني الحسنة ويتنبه على النكت اللطيفة مع أنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ .

وكان انتشار الصناعات من ابتداء القرن السادس ، وظلت إلى أواخر القرن التاسع — وهو زمن سقوط الأندلس — لا تستبد بالأدب وإن كان لها عليه في بعض ذلك سلطان ؛ لأن أفراد الكتاب والشعراء الذين نبغوا في تلك الأيام لم يكونوا يتناولون منها إلا على سنة التملح والظرف ، كأهل القرن الرابع ، فكانت فضلا من القوة ، ولا حساب على الفضل ، حتى إن

صفي الدين الحلي لما دخل إلى مصر في سنة ٧٢٦ أنشده الصاحب شمس الدين
ابن السندی أبيات سليم الهوى المصغرة ألفاظها التي أولها:
هـ بُرِّيقٌ بِالْأَبْرِيقِ فِي الْفُجَّيرِ هـ

وذكر له أن ناظمها نظمها لصاحب الديوان علاء الدين الجوشنى ولم
يمكنه نظم بيت واحد مديحاً؛ إذ شأن المديح التعظيم، فنظم الصفي قصيدته^(١)
التي أولها:

نَقِيطُ مِنْ مُسَيِّكٍ فِي وَرِيدِ خَوَيْكَ أَوْ وَسِيْمٍ فِي خُدَيْدِ

واحتال للبدح احتيالا لطيفاً، فلم يذكر صفات الممدوح ولكنه ذكر
عطفه عليه وصغر نفسه ووصف حساده وصغرهم، فكان هذا التصغير
مضمناً معنى التعظيم، وخلص بذلك إلى ما أراد؛ والقصيدة على عقدها لا تغض
من قدر الصفي، لأنها في سبيل ما وصفنا، والرجل مع ذلك أنبع المتأخرين في
جملة الصناعات بعد الحريرى.

ولكنهم ورثوها للخلف العاق فتجاوزوا إليها حقائق المعانى وتعبدوا
للألفاظ؛ وساعدتهم أحوال الزمان، فكان الواحد منهم إذا نظم قصيدة
أو كتب رسالة فتح بقلبه قبراً من قبور اللغة، ولم تزل تلك حالهم حتى انتصف
القرن الثالث عشر، فأخذت تلك الجرائم تضعف ثم تقل ثم تتلاشى، إلى
النهضة الحديثة، فماتت إلا في بعض زوايا المساجد وبقيت في الزوايا خبايا.
[وإنما حملنا على الاهتمام بهذا البحث والصبر على طاوله التعب في جمعه
والتفتيش عنه، أن هذه الصناعات قد طوى زمنها ومات شأنها أو دنف بعد

(١) وقد تابعوه عليها وسموا هذه القصائد بالمصغرة، ومنها قصيدة لابن حجة

هذه الآونة الأخيرة التي نهضت بها اللغة وآدابها ، وانصرف أهلها إلى غير هذا التسخير في القرائح ، فلا تكاد تجد في أدباء اليوم من يعرف تاريخ نوع واحد منها ؛ وإذا ابتعد الزمن بعصرنا هذا أصبحت في الأدب كالأثار المستعجمة ، إلا قليلا مما استوعبت الكتب بعض تاريخه * [

وقد برع أدباء اللسانين [الفارسي والتركي] في هذه الأنواع وفاقوا العرب في أشياء منها ؛ ومن أعجب ما قرأته أن علاء الدين بن شمس الدين الفقايزي من علماء الروم المتوفى سنة ٩٠٣ هـ كان يقرئ تلامذته شرح المطول في علوم البلاغة ، فلما انتهوا إلى فن البديع صار يورد لكل صنعة عدة آيات من الفارسية ، قالوا : وكانوا يقرءون كل يوم من الضحوة إلى العصر سطرأ أو سطرين ، فلما طال عليهم ذلك قال لهم : هذه قراءة الكتاب فاقروا الفن ، وصار يُقرئهم كل يوم ورقتين . وذلك علم كثير .

وسنأتى على شرح ما عثرنا عليه من الصناعات وتاريخه على مقدار ما وسعه الجهد وبلغ إليه الاطلاع ومكنت منه الفرصة ؛ وإن هذا المبحث لحقيق أن يكون كتاباً برأسه ، ولكنه فضلا عن ذلك لم يجتمع إلى الآن في كتاب .

وقد كان يقع في هذا الفصل كلام في مقارنة هذه الصناعات بعضها ببعض ونسبة أثرها في اللغة وأشياء نحو ذلك ، ولكنها سنفرقه على مواضعه ونجى به عند مقاطعه .

(٥) قلت : هذه العبارة التي بين العلامتين [] لم تكن في هذا الموضع مما تحت يدي من الأصل ، ولكنها كانت كالحاشية في ورقة منفصلة قرأت إثباتها هنا .

لزوم ما لا يلزم

هذا نوع في الصناعة يعدونه من البديع ، وقد سمي الالتزام والإعانات والتضيق والتشديد ، وبهذه الأسماء يدور في كتبهم ، والمراد بذلك عندهم أن يعنت الناظم أو الناثر نفسه في التزام حرف أو أكثر قبل حرف الروى ، وهو إنما يفعله صاحب الكلام لقوته ولو تركه لم يدخل عليه ضعف ؛ غير أنى أرى أن الحروف تتساقق وأن اللسان ميزان ، فربما كان موضع لا يجد فيه البليغ المطبوع بدأ من الالتزام فيفعل ذلك طبعاً لا صناعة لأنه يرى اللسان يثبت في الكلمات ، فإذا لم يقع من كل كلمة على الحرف الملتزم أخلى فلم يصب الرتبة ، وكان ذلك في الكلام شبيهاً بالعوائير التي تكون في الطرق ، ومن أجل ذلك لا يتم حسن هذا النوع إلا في الكلمات المتوازنة بالألفاظ ، كقوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُدْشِ ، الْجَوَارِ الْكُنْشِ﴾ وهو أكثر ما يتفق ، أو بالمقاطع ، لأن كلنا الكلمتين التي يلتزم فيها قد لا تكون وزان الأخرى بنفسها ولكنها توازنها مع بعض مقاطع الكلمة التي قبلها ، أو هما يتوازنان في بعض مقاطعهما لا في جملتها ، كقوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ فإن وَسَقَ لا توازن اتَّسَقَ ، ولكنهما يتوازنان إذا قلت «ماوسق» و«إذا اتسق» أو قلت «وسق وتسق» ؛ فإذا لم يتفق هذا التوازن ، كما ترى في مجنون ومفتونون مثلاً ، فهو حينئذ الإعانات والتضيق والتشديد إذا كان يحتسب التزاماً ، لأنه غير طبيعي في الكلام ، بل لو اطرده لكان ثقيلاً وخمماً تثب له السليقة وثبة أحشاء المتقي ، ولذلك السبب عينه كان الالتزام طبيعياً في الشعر ، لأنه أعاربض متوازنة ، وكان من كاله ذلك النوع الدقيق منه ، وهو التزام الحركة قبل الروى ، إلا أن هذه الحركة قد ينكر السمع تغيرها .

وذلك فيما يقع بعد ألفات التأسيس ، كسالم وظالم ، فإذا جاء فيها عالم (بالفتح) فذلك هو السناد ، وهو معيب لما بيناه ، وقد لا ينكر السمع تغير الحركة ، كما تقول : يرعد وأرعد ، وهو كثير في الشعر ؛ ولا يلتزم هذه الحركة إلا الفحول المبرزون ، كابن الرومي ، وهو أولع الناس بها ، حتى إن قصيدته التي يقول فيها :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بَكَاءَ الطِّفْلِ سَاعَةَ يَوْلَدُ

قد التزمه فيها ففتحها ما قبل الروي ، على طولها وامتداد النفس فيها ، وشيبه بذلك ما فضلوا به العجاج ؛ إذ زعم بعضهم أنه أشعر أهل الرجز والقصيد . وذكر أنه صنع أرجوزته :

* قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الْإِلَهَ فُجِبِرَ *

فيها نحو ماتني بيت وهي موقوفة مقيدة ، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها (ص ٥٦ ج ١ : العمدة) .

ولانعرف أول من نبه على الالتزام ، ولكن قدامة وابن المعتز والعسكري — وهذا توفي سنة ٣٩٥ — لم يشيروا إليه في كتبهم ولا ورد ذلك في كلام من نبه على البديع من قبلهم من الرواة ؛ لأن الالتزام في أكثر مواضعه المستحسنه طبعي - كما قدمنا - ولكن أبا العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ نظم على هذا النوع ديوانه المشهور باللزوميات ، وقال في مقدمته : «وجمعت ذلك كله في كتاب لقبته لزوم ما لا يلزم ، ومعنى هذا اللقب أن القافية تلتزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت ، ولها أسماء تعرف ، وسأذكر منها شيئاً مخافة أن يقع هذا الكتاب إلى قليل المعرفة بتلك الأسماء ... اهـ » ففي كلامه رائحة ضعيفة من الاختراع ؛ ولعله أول من نبه عليه ، فإن كان

ذلك فهو لم يقدعه ؛ لأنه نهج مطروق وشرعة مورودة ، والاختراع لا يكون فيما هذه سبيله بين أهله ؛ غير أنه لا مراء في أن المعرى أول من اتخذ هذا النوع صناعة احترفا شطراً من عمره ، فتكلف في تأليفه (كما قال) ثلاث كلف : الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها ، والثانية أن يجيء رويته بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ، والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف .

ولم نعرف بعد المعرى من تكلف تأليفاً مستقلاً في لزوم ما لا يلزم ، إلا ما وقفنا عليه في ترجمة عبد العزيز بن قاضي حماة ، من فوات الوفيات ، وقد توفي سنة ٦٦٢ ، فقد قال فيه الشيخ صلاح الدين الصفدى :

ولا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسة من نظم أحسن منه ولا أجزل ولا أفصح ولا أصنع ، ولا أكثر ، فإن له في لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً .
وقبل عبد العزيز هذا تكلف الوزير جمال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي المعروف بابن الاشتراكوا في المتوفى سنة ٥٣٨ - في مقاماته التي عارض بها الحريري . — أن يلتزم في نظمها ونثرها هذا النوع ؛ ولذلك تعرف بالمقامات اللزومية ، وقد اشتهر بأسلوبه هذا في الأندلس حتى احتذاه من مشاهيرهم عبد الرحمن بن محمد المعروف بالمكناسي المتوفى سنة ٥٩١ ، فقد كان رأساً في الكتابة ، وكان ينشئ الرسائل اللزومية ، وبلغ في اللزوم مبلغاً أعجز فيه غيره (ص ٣٠٣ : بغية الوعاة) .

الشيئية والسينية

أما الحريري فقد طبع أحض أصناف الإعنائات والتصنييق في رسالتين

له ، وهما المعروفتان بالشيافية والسيفية ، كتب بالأولى منهما إلى الشيخ الإمام شمس الشعراء طلحة بن أحمد بن طلحة النعماني ، والثانية وهي السينية على لسان الأمير أمين الملك أبي الحسن بن فطير المرادي ، وكان يتولى ديوان الاستيفاء بالبصرة ، إلى الأمير الأجل الحسام ، وكان قد دعاه الأسفهنسالار^(١) الأجل النفيس سيد الرؤساء سيف السلاطين ، وشرباً جميعاً في دار بالبصرة في المحلة المعروفة ببني حرام ، وهي محلة الشيخ الحريري ، وكان أمين الملك جاره وصديق الأسفهنسالار النفيس ، فلم يدعه ، فكتبها إليه يداعبه على لسانه .

وقد التزم أن لا يخلى كلمة من الشين في الأولى ومن السين في الثانية ؛ وأشار صاحب المثل السائر إلى هاتين الرسالتين في باب المعاظلة من كتابه ووصفهما ؛ ثم قال : جفاءتا كأنهما رُقي العقارب ! وهو من تحامله على الحريري ؛ لأن الصناعات كانت مشهورة لذلك العهد مرغوباً فيها ، ولأن مقام الرسالتين استدعى هذا الالتزام ، وليس ما ترسل فيه السجية ويستجيم له الطبع كالذي يكون من قبيل الشاذ والنادر ، ولم يأخذ الحريري في ذلك النمط إلا قصداً وهو لا يجهل ما فيه ، وإنما نهى إلى ذلك مراعاة النظر ؛ فإن الشيفية مكتوب بها « للشيخ الإمام شمس الشعراء ، والأخرى « للأسفهنسالار الأجل النفيس سيد الرؤساء الخ » فكان أولى بذلك أن يُعجب به لا أن يعجب منه ، لأن الكتابة لم تكن إلا على جهة التزلف والتلمح ؛ ومثل هذا لا يعاب إلا إذا بولغ في استكراهه والإلحاح بالكثير منه (انظر المجلد السابع من مجلة الضياء ص ٤٩٦ ، ٥٢٧) .

(١) الأسفهنسالار : لفظ فارسي . معناه رئيس الجيش . والنفيس : اسمه .

القوافي المشتركة

من الكلام ألفاظ تشترك في معان كثيرة ، وهي هي في الدلالة على كل تلك المعاني المختلفة ، وقد اختلف أهل اللغة في سبب ذلك ، ولكنهم اتفقوا على أنه « لا خلاف أن الاشتراك على خلاف الأصل » وهذا الموضوع مما لا سبيل إلى تحقيقه وبيان وجه الصواب فيه ؛ لأن الألفاظ المشتركة سماعية إلا ما استخرج منها بالقياس ، كالحال مصدر خال مثلا ، وقليل ما هو ، فلا يمكن ردها إلى لغة واحدة ولا إلى لغات مختلفة من لغات العرب ، لذهاب أصولها . وقد تناول المتأخرون تلك الألفاظ واستعملوها قوافي للشعر على طريقة الجنس التام ، وأشهرها الذي تخرج منه القصائد ، ألفاظ معدودة ، وهي العين ، والحال ، والغرب ، والهلل ، والعجوز ؛ ولم يرد للمتأخرين قصائد على غيرها ، وقد زاد بعضهم في معانيها ما لم يسمع ولم يحج به نص في اللغة ليلعب من ذلك مبلغ الكثرة ، ولكن الشأن إنما هو في سهولة انقياد القافية وتمكينها على غير تكلف .

وأول ما جاء من الشعر في ذلك ثلاثة أبيات للخليل ، وهي :

يا ويح قلبي من دواعي الهوى إن رحل الجيران عند الغروب
أتبعتهم طرقي وقد أزمعوا ودمع عيني كفيض الغروب
بانوا وفيهم طفلة حرة تفتر عن مثل أقاحي الغروب

فلفظ « الغروب » الأولى غروب الشمس ، والثاني جمع غرب ، وهو الدلو العظيمة المملوءة ، والثاني جمع غرب ، وهو الوهاد المنخفضة .

ثم نظم الحريري في إحدى مقاماته خمسة أبيات أولها :
سَلَّ الزمان على عَضْبَةٍ ليرُوعني وأحدَّ غَرْبَهُ

ولكن النظم على هذا النوع لم يشتهر إلا في القرن الحادي عشر ؛ قال
الزيدى فى تاج العروس وقد أورد أبيات الخليل : ثم إنى وجدت فى شرح
البديعة لبديع زمانه على بن تاج الدين القلعي المكي مانصه : فى ساحات
دمى القصر للعلامة درويش أفندى الطالوى رحمه الله : كتب لى الأخر
الفاضل داود بن عبيد خليفة نزيل دمشق عن بعض المدارس فى لفظ
مشترك الغرب طالباً منى أن أنسج على منوالها وأحدو على مثالها ، وهى
« أربعة أبيات ، قال :

فكتبت لى هذه الأبيات التى هى لاشرقية ولاغربية ... ونقل الزيدى
٢٧ بيتاً أولها :

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ كَادَ يَشْجِيكَ غَرْبُهُ نَزَحَتْ رُكْبَى الدَّمْعِ إِذْ فَاضَ غَرْبُهُ
ولكن الشهاب الخفاجى أورد هذه القصيدة فى آخر ريجانته - وهى
هناك ٢٩ بيتاً - وقال هناك : إن الطالوى عارض بها أبيات الحريرى ،
والطالوى هذا من أدباء القرن الحادى عشر ؛ وكذلك نقل الزيدى أيضاً
فى شرح مادة «عجز» عن شيخه أن الأدباء أكثروا فى جمع معانى العجوز
فى قصائد كثيرة لم يحضره منها وقت تقييد كلماته لإلا قصيدة واحدة للشيخ
يوسف بن عمران الحلبي وساقها هناك ، ومطلعها :

لحَاطِظِ دُونِهَا غَوْلَ الْعَجُوزِ وَشَكَّتْ ضِعْفَ أَعْضَافِ الْعَجُوزِ

[العجوز فى الأولى] : المنية ، [وفى الثانية] : الإبرة . وهى ستون بيتاً
ففىها تكلف كثير ، والشيخ يوسف هذا من المترجمين فى الريحانة ، ولكن

الشهاب لم يشر في ترجمته لهذه القصيدة . ثم قال الزبيدي بعد أن أورد هذه القصيدة : قال شيخنا : وكنت رأيت أولاً قصيدة أخرى كهذه للعلامة جمال الدين محمد بن عيسى بن أصبغ الأزدي اللغوي... وهي طويلة وأعظم انسجاماً وأكثر فوائد من هذه . . . وهناك قصائد غيرها لم تبلغ مبلغها اه وقال الشهاب الخفاجي في ترجمة السيد عبد الله الوفاي المصري : وقصيدته التي التزم فيها تجنيس قوافي الخال ، مشهورة . وأولها :

ياسلسلة الصدغ من لواءك على الخال (كذا)

ولم يذكر منها غير هذا الشطر ؛ فلعله أول من نظم في الخاليات ثم نظم نفر من أدباء القرن الثالث عشر في العينيّات والهلاليات وتابعوا من قبلهم في الخاليات والغريبات وأهملوا العجوزيات ، ولعل العجوز ماتت قبل أن تلد قرائحهم . . .

ومهما يكن فالنظم في هذه الأنواع مما يجوز أن يحاضر به في اللغة على وجه المعاياة ، وكان هذا من فائده قبل أن يشيع ، أما بعد ذلك فهو لغوي يحسبونه لهواً ، وعناء يظنونه غنماً ، وصناعة من الباطل يرون فيها صياغة لتحلية العاطل ؛ وإنما الفرق بين ذلك فرق بين الأضداد .

القصاصد المعرأة

يراد بهذا النوع من المنظوم أن تكون القصيدة بجملتها خالية من أحد حروف الهجاء ، فحيث التمسته كنت كطالب ما لا يوجد ، أو كملت مس حرف أجنبي في الحروف العربية .

والأصل في هذا على ما علم ما يروى من خبر واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٨١ قال الجاحظ : إنه لما علم أنه ألثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شفيح ، وأنه كان داعيةً مقالة ورئيس نحلة ، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب وريضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ؛ وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفضامة ، وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتنثنى إليه الأعناق وتزين به المعاني ، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة . . . رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقته ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لسره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل ، حتى صار لغرابته مثلاً ، ولظرافته معلماً . قال : ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال ، لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له . . . إلى آخر ما يتعلق بخبر واصل مما ليس هذا موضعه .

وكان هذا الأمر مقصوراً على المشور ولا يتعدى مع ذلك ما ينسب إلى

أبي حذيفة ، حتى جاء الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٣٥ فجعله في المنظوم .
قال الثعالبي في ترجمة أبي الحسين علي بن الحسين الحسنى الهمداني :
وكان الصاحب صاهره بكريمته التي هي واحدة ... ولما قال الصاحب
قصيدته المَعْرَاة من الألف التي هي أكثر الحروف دخولا في المنظوم
والمنثور ، وأولها :

قد ظلّ يجرح صدري من ليس يعدوه فكري

وهي في مدح أهل البيت « لأن الصاحب كان علويًا ، تبلغ سبعين بيتًا -
تعجب الناس منها وتداولتها الرواة :

فسارت مسير الشمس في كل بلدة وهبت هبوب الريح في البر والبحر
فاستمر الصاحب على تلك المطية ، وعمل قصائد كل واحدة خالية من
حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون مَعْرَاة من الواو ؛
فانبرى أبو الحسين لعمها ، وقال قصيدة فريدة ليس فيها واو ، مدح
الصاحب في عرضها ، وأولها :

برق ذكرت به الجبابر لما بدا فالدمع ساكب

أمدمعى منهلة هاتيك أم غُزُر السحاب

نثرت لآلئ أدمع لم تَفَرَّعْهَا كَفُّ ثاقب

وكلها من هذا النمط يتحامل بعضها على بعض ، ولعل قصائد الصاحب
لا تعدوه في التقدير ، لأنه لم يقع لنا منها شيء ، حتى إن الثعالبي نفسه
لم يذكرها في ترجمته .

ولم نعلم أن أحداً بعد الصاحب تعاطى هذا الشأو ، مع غلبة هذه الصناعات

محبوك الطرفين

ويريدون أيضا بهذا النوع من المنظوم أن تكون كل أبيات القصيدة أو القطعة مبتدأة ومختتمة بحرف واحد من حروف المعجم ، وأول من جاء بشيء من ذلك أبو بكر محمد بن دريد المتوفى سنة ٣٢١ ، وقد ذكر المسعودي أنه كان شاعراً كثيراً الشعر يذهب في كل مذهب ، غير أنه لم يشتهر من شعره إلا مقصورته التي مدح بها ابن ميكال ، وهي مشهورة ، وقد نظم ابن دريد المذكور قطعاً مربعة على عدد الحروف لم ياتزم فيها بحراً واحداً بل جعل كل قطعة منها مستقلة عن سائرهما في الوزن كما هي مستقلة في الزوى ، وأولها قوله في حرف الألف :

أبقيت لي سقما يمازج عبرتي من ذا يلذ مع السقام بقاء
أشمتني الأعداء حين هجرتني حاشاك مما يُشمتُ الأعداء
أبكيته حتى ظننت بأني سيصير عمري ما حيت بُكاء
أخفي وأعلن باضطرار إنني لا أستطيع لما أجنُّ خفاء

وفها أبيات جيدة لأن الشعر مع هذا القيد ولا جرم قريب من الانطلاق ، إلا حيث تكون الألفاظ المستكرهة في بعض الأحرف المعدودة كالحاء والظاء .

ثم جاء بعد ابن دريد أبو الحسن علي بن محمد الأندلسي البرزى فانسحب على آثاره ونسج على منواله ، ولكنه أبلغ أبيات كل قطعة إلى العشرة ، ولذلك تعرف منظومته بالقصائد المعشرة .

وتلاهما صفي الدين الحلي الشاعر الشهير المتوفى سنة ٧٥٠ فنظم من هذا

النوع تسعاً وعشرين قصيدة على عدد الأحرف الهجائية ، والتزم هذا العدد بعينه في نسق كل قصيدة ، فجاء من ذلك بالشئ العجيب ، ولو كان ابن دريد من المصنّعين ولم يكن حيث هو من العربية وفنون الأدب لأخمله الصفي . وقد مدح الخليل بقصائده تلك السلطان الأرتق المنصور نجم الدين

أبا الفتح ولذلك تعرف بالأرتقيات ومطلع القصيدة الأولى منها :

أبت الوصال مخافة الرُقباء وأنتك تحت مدارع الظلماء

أصفتك من بعد الصدود مودة وكذا الدواء يكون بعد الدواء

وهي مشهورة في ديوانه ، ثم ختمت به الإجادة في هذا النوع على ماأظن ، إذ لم يتفق لغيره من ذلك إلا القليل . كآيات أبي جعفر الألبيري الأندلسي — وكان معاصراً للصفي — فيما التزم في أوله حرف الدال ، وقد أوردها صاحب نفع الطيب (ص ٤٢ ج ٢) وكذلك جرى بعضهم على نمط ابن دريد في قصائد سدسة في المديح النبوي ، وذكر المقرئ من ذلك قصيدتين في آخر كتابه ، وساق هناك قصيدة أخرى للشيوخ أبي عبد الله بن عمران في المديح ، وهو يذكر في أول كل بيت حرفاً من حروف المعجم منطوقاً به على أن يكون جزءاً من عروضه ، ومطلعها :

ألف : أيا خير البرية هذى مدحى وما أنا في مقامى هاذى

باء بها أظهرتُ صدق محبتي وبذلك الجاه الكريم لياذى

ومن هذا النوع أخذ المتأخرون مايسمونه التطريز ، وذلك أنهم إذا أرادوا أن ينظموا في مدح أحمد مثلاً جعلوا أوائل الآيات على حسب حروف هذا الاسم فيبتدئون بالالف ، ثم بالحاء ، ثم بالميم ، الخ .

وهو نوع كان يعرف في القرن الحادى عشر بالمشجر وأورد منه

ابن معصوم في السلافة بعض مقاطع ، وربما جاءوا بالتشجير في المصراعين
فتكون أوائل الشطور الأولى على حروف الاسم المشجر به ، وكذلك
أوائل الشطور الثانية ؛ وليس في ذلك كله من البراعة إلا ما اصطلحوا عليه
من أنه صناعة .

وللصفي أيضاً آيات تقرأ طولاً وعرضاً فلا يتغير وضعها ، ولم أر غيرها
لغيره إلا ما سيجي . في القصائد التي تقلب على وجوه كثيرة ؛ لأن ذلك
يكون من قراءتها طولاً وعرضاً وطردها وعكسها ، والآيات هي :

ليت شعري	لَكَ عِلْمٌ	من سقاي	يا شفائي
لك علمٌ	من زفيري	ونحوي	وضنائي
من سقاي	ونحوي	داوني إذ	أنت دائي
يا شفائي	وضنائي	أنت دائي	ودوائي

ذوات القوافي

هذا نوع من النظم يعطيك أنواعاً من البحور والقوافي كلما قلبته على جهة من جهات الاستخراج نظم عليها . والأصل فيه النوع البديعي الذي سموه التشريع وسماه ابن أبي الإصبع في كتابه بالتوءم ، لأن شرطه عندهم أن يبنى الشاعر بيته على وزن من أوزان القريض وقافيتين . فإذا أسقط من أجزاء البيت جزءاً أو جزأين صار من وزن آخر غير وزنه الأول ، وعلى هذا النوع بنى الحريري قصيدته في المقامة الثالثة والعشرين ، وهي من ثاني الكامل ، وأولها :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شَرَكُ الرَدَى وقرارة الأكدار
دارٌ متى ما أضحكتُ في يومها أبكتُ غداً ، بُعداً لها من دار
وهي تنتقل بالإسقاط إلى ثامن الكامل فتصير :

يا خاطب الدنيا الدنيّة إنها شرك الردى
دارٌ متى ما أضحكتُ في يومها أبكت غدا

وقد تنبه الحريري إلى استخراج هذا النوع من قول بعض العرب :

وإذا الرياح مع العشيّ تناوحتُ هوج الرماح بكنهن شمالا
ألفيتنا نفرى الغيظ لضيفنا قبل القتال ونقل الأبطال
فإن هذا الشعر بعد الإسقاط يخرج منه :

وإذا الرياح مع العشيّ تناوحت هوج الرماح
ألفيتنا نفرى الغيظ لضيفنا قبل القتال

فالحريري هو أول من قصد له ، ثم وطئ عقبه فيه أصحابُ البديع والمتكلفون

لمثل ذلك ، وقد وجدوا الرجز أوسع البحور فيه ، فإنه يقع مستعملا تاما ،
ومجزوا ، ومشطورا ، ومنهوكا . فيمكن أن يعمل للبيت منه أربع قواف ،
فإذا أسقطت ما بعد القافية الأولى بقي البيت منهوكا ، وإذا أسقطت ما بعد
الثانية بقي مشطورا ، ويبقى إذا أسقطت ما بعد الثالثة مجزوا ، ثم هو تام إذا
كان على حاله من غير إسقاط ، وعلى ذلك قول أبي عبد الله محمد بن جابر
الضريّر الأندلسي « صاحب البديعية » .

يرنو بطرف فاترٍ مهما رنا فهو المنى لا أنتهى عن حُبه
يهفو بغصنٍ ناضرٍ حلوا الجنى يشقى الضنى لاصبرلى عن قره

وهي أربعة أبيات ، والأوجه الثلاثة التي تستخرج منها غير التام هي :

يرنو بطرف فاتر مهما رنا فهو المنى (وهو المجزق)

و يرنو بطرف فاتر مهما رنا (وهو المشطور)

و يرنو بطرف فاتر فهو المنى لا أنتهى عن حبه (وهو المهوك)

قالوا : ولكن القوة في ذلك والمكنة في ملكة الأديب أن يأتي
بالتشريع في بيت واحد ، والإعجاز فيه أن يخرج من البيت بيتان كقول
ابن حجة الحموي في بديعته مورياً بتسمية النوع :

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا على النقا فنعمنا في ظلالهمُ

فإنه يستخرج منه :

طاب اللقا على النقا

وهو من منهوك الرجز ، ويكون الباقي من البيت :

لذ تشريع الشعور لنا فنعمنا في ظلالهمُ

وهو من المديد ، والبيت كله من البسيط ، ثم تنبه المتأخرون حين بالغوا

في الصناعات وفتقت لهم منها حيلة المنافسة إلى أن يجيئوا بأبيات أو قصيدة من هذا النوع الذي قلد فيه ابن حجة الشيخ عز الدين صاحب البديعية المشهورة ، ويقصدرا في قوافيها المقصورة إلى نوع من الترتيب ، وبذلك تخرج القطعة أو القصيدة وهي تُقرأ طولا وعرضا وطرذا وعكسا ، ثم تقرأ بالسطرة الواحدة من القوافي الثلاث على وجوه كثيرة لا تحصر إذ لا فائدة في حصرها ... وأقدم ما وقفنا عليه من هذا النوع قطعة للشاعر الملقب بابن معتوق يمدح بها ، وهي مثبتة في ديوانه (ص ٥٦) وأولها :

نخر الوري حَيْدَرِيَّ عَمَّ نَاتَلُهُ	بجر الهدى ذوالمعالي الباهراتِ علي
نجم السها فلَكِيَّاتُ مراتبه	بادي السَّنا نَيْرٍ يسمو على زُحَلِ
ليث الشَّرَى إقبس تهمي أنامله	غيث الندى موردٌ أشهى من العسل
بَدَر اليها أفق تبدو كواكبُه	شمس الدُّنا صبح ليلِ الحادثِ الجلل

وهكذا زواج في ترتيب القوافي كما ترى ، وليس يخفى أن هذا التفكيك في أجزاء القصيدة هو علة تركيب القصائد الكثيرة من القصيدة الواحدة ، حتى إن بعضهم عمل قصيدة واشتغل بإحصاء الوجوه التي تنظر بها فبلغت في عينه مليون وجه ، وذلك عالم من الأرقام في قعر من الكلام .

وهذا التجزىء في الشعر ليس حديثا ، بل يرجع عهده إلى عصر سلم الخاسر ، فإنه أول من ابتدعه ، وذلك أنه رأى أن أقصر ما خصه القدماء من الرجز ما كان على جزئين ، كقول دريد بن الصمة :

ياليقنى فيها جَدَعُ أخبُّ فيها وأضعُ

فعمل قصيدة على جزء واحد مدح بها موسى الهادي ، وسمى الجوهري هذا النوع من النظم بالمقطع (ص ١٢٣ ج ١ : العمدة) ومن قصيدة سلم :

مرسى المطرُ غيثٌ بَكَرُ
ثم انهمرُ ألوى المررُ
كم اعسرُ ثم ايتسرُ
وكم قدرُ ثم عفرُ

ومن ذوات القوافي في نوع من الظم سماه أهل البديع التخيير، وقالوا هو أن يأتي الشاعر بيت يسوغ فيه أن يبقى بقوافٍ مختلفة فيتخير منها قافية يرجعها على سائرها ويرسل بها البيت، فيكون ذلك دليلاً على حسن اختياره، وهو تعليل لا معنى له، لأن تمكن القافية شرط في الشعر، وسواء بعد ذلك ساغ أن يبقى بقوافٍ أخرى أو كان أمره مقصوراً على القافية الواحدة.

وإذا تفقدت الشعر في أي عصوره لم تعدم أن تجد البيت أو الأبيات مما يقلب على القوافي، ولكن الحسن من ذلك قول ديك الجن، وأكثر من يرويه يسنده إلى أبي نواس، وهو:

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي عند المنام
فَعَسَى أَنَامُ فَتَنْطِقِي نَارًا تَأْجِجُ فِي الْعِظَامِ
جَسَدٌ تُقَلِّبُهُ الْأَكْفُفُ عَلَى فَرَاشٍ مِنْ سِقَامِ
أما أنا فكما علمت فهل لو صلك من دوام؟

فالقوافي التي يمكن أن يفشد بها هذا الشعر هي:

عند المنام الرقاد الهجوع المجهود الوسن
في العظام الفؤاد الضلوع الكبؤد البدن
من سقام قتاد دموع وقود حزن

من دوام مَعَاد رجوع وجود ثَمَن

ولست أشك في أن البيت الأخير مقحم وليس من نظم صاحب
الآيات ، وإنما الحقوه بها توسعا في الاحتمال ، وزيادة من البيان في المثال ؛
وقد وصلوا في هذا النوع إلى جعل البيت على سبع قواف ، واطراد ذلك
في قطعة واحدة ، وإنما يحسن هذا متى اتفق استخراجُه في شعر لا ما قصد
إليه ، فإن القصد هنا محمل التكاليف ، وهو يخرج الشعر إلى الصنعة فيسقط
بها عن درجته قليلا أو كثيرا كما مر بك في الصناعات .

القوافي الحسية

هذا نوع عجيب ، تنوب فيه الحركة أو الإشارة عن اللفظ في موضع القافية موقعة على عروضها ، وهو نهاية في الظرف والملاحة ، لأن من المعاني ما قد تكون الحركة أو الإشارة فيه أبلغ من اللفظ دلالة وأبداع موقعا وأحسن إطرابا ، وإنما يكون لها ذلك إذا كان فيها معنى من معاني القلب ، فكأن القلب هو الذي ينطق ؛ ولذلك لا يعدو أن يصيب مواقع الهوى ويحرك في النفوس العجب والاستحسان ؛ وذلك كقول بعضهم :

ظفرتُ بمعشوق له الحسن حُلَّةً فقَبَلته شفعاً وقلتُ له ...

فقال أهوانى ؟ فقلت له نعم فقال ومن غيرى ؟ فقلت له ..

البيتان من الطويل ، وقد جعل قافية البيت الأول صوت القبلة مكرراً مرتين كما يدل عليه قوله (شفعا) وقافية الثاني الصوت الدال على النفي مكرراً أيضا ، وهو ينشأ عن القرع بطرف اللسان على أطراف الثنيتين المتقدمين من أعلى الثغر ، وليس في البيتين من الحسن أكثر من هذه الحركة كما ترى ، ولما كانت مما لا سبيل إلى تصوير حروفه بالخط كانت إلى الطبيعة أقرب وكانت لذلك أملح .

وللعرب في بعض ذلك تعبير يؤدي معنى الإشارة اصطلاحا ، كتعبيرهم عن صوت النفي في البيت الثاني بقولهم مَضّ ، قال في لسان العرب : هو أن يقول الإنسان بطرف لسانه شبه لا ، وأنشد :

سألها الوصل فقالت مَضّ وحزكتُ لى رأسها بالنغض

ومن هذه القوافي قول الآخر :

ولقد قلت للمليحة قولي من بعيد لمن يجبك

فأشارت بمعصم وبنان : أيها العاشق المتيم
والبيتان من الخفيف ، وعجز كل منهما ينقص سبدين خفيفين ، فجعل
تمام الأول حركة اليد التي يُشار بها بمعنى (أقبل) مكررة ، وهي توازن
السبدين في امتداد الزمن ، وجعل تمام الثانى الحركة التي يُشار بها بمعنى
(اذهب) مكررة كذلك ، والقافيتان مما يُتناول بالبصر ومما لا سبيل إلى
تصويره بغير أدانه الطبيعية ، وقد روى البيتين وزاد فيهما ثالثا الحسن
ابن رشيق صاحب العمدة ، قال : وقد جاء أبو نواس بإشارات أخر لم
تجر العادة بمنثلها ، وذلك أن الأمين ابن زيدة قال له مرة : هل تصنع
شعرا لا قافية له ؟ قال : نعم ، وصنع من فوره ارتجالا :

ولقد قلت للمليحة قولى من بعيد لمن يحبك ... (إشارة 'قبلة)
فأشارت بمعصم ثم قالت من بعيد خلاف قولى ... (إشارة لالا)
فتنفست ساعة ثم إنى قلت للبغل عند ذلك ... (إشارة امش)

والإشارات فى هذه الآيات إما أن تكون باليد أو بحركات الشفة على نحو
ما سبق ، وعلى ذلك تكون الإشارة للبغل كما يفعل [المُكارُون] عندنا حين
يستحثون الدابة فيطبقون الفكين ويقرعون بطرف اللسان على الثنايا السفلى .
ولا بد لتمام الحسن فى هذا النوع أن يكون البيت موقوفا بمعناه على
الحركة أو الإشارة فى القافية ، وإلا انصرف عنه الذهن وجاءت الطبيعة
فيه تابعة فكان ذلك مما يكسبه معنى سخيفا ويحيله عن وجه الإبداع فيه ،
إذ تكون الإشارة فى مثل ذلك عيًّا لا بيانا .

ولا تبلغ مثل هذه القوافى أن تكون اختراعا فى الصناعة ، لأنها لا تتحسُن
فى كل حال ، وإنما يقضى بها سبب من الأسباب أيها كان ، وما لا يحسن أن

يجيء إلا بسبب يقبح إذا جاء من غير سبب ، على أنه شئ طبيعي مبذول
يتناوله كل من بُعث عليه فلا معنى فيه لحقيقة الاختراع ، ولعلك إذا
تبعته مواقع ذلك في الشعر رأيت كثيراً منه يصلح أن تكون قوافيه
حسية ، ولكن الصعوبة في أن تكون هذه القوافي الحسية موزونة حركاتها على
الأوزان التي تقابلها من العروض ، وهذا هو وجه الصنعة الغريبة فيما تقدم
وها هنا بدعة أخرى ، وهي ما يُروى من أن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك
الكامل كان إذا مُدِح لا ينظر إلى وجه مادحه ، فتلطف ابن مطروح صاحب
جمال الدين الشاعر المتوفى سنة ٦٤٩ وعمل قصيدة بنى قافيتها على الإشارة فكان
كلما انتهى إلى قافيته أشار بما يدل عليها فنظر إليه الملك ، ومن هذه القصيدة قوله :
تَعَشَّقْتُ ظَبِيًّا وَجِهَهُ مُشْرِقٌ كَذَا إِذَا مَأَسَ خَلِيعَ الْغَصْنِ مِنْ قَدِّهِ كَذَا
له مقالة كحلأ نجلأ إِب رَأَتْ رَمَتْ أَسْمَاءُ فِي قَلْبِ عَاشِقِهِ كَذَا
ومنها :

أيا نسيمات الروض بالله بلغى سلامي إلى من صرت من أجله كذا
وقولي له ذاك الغريب أملنى إليك سلاما من تحيته كذا
عساه إذا وافى تحية عبده يسائل عن حالى بأئمة كذا

وهذا النوع من الإشارة وارد بعضه في الحديث الشريف كقوله صلى الله
عليه وسلم : « بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَذَيْنِ » وهو كذلك شائع في كثير من الكلام ؛
ومن أعجبه أنه لما اجتمع الناس عند معاوية بن أبي سفيان وقامت الخطباء لبيعة
يزيد وأظهر قوم الكراهة ، قام رجل يقال له يزيد بن المقنع ، فاخترط من سيفه شبراً
ثم قال : هذا أمير المؤمنين (وأشار بيده إلى معاوية) فإن مات فهذا (وأشار بيده
إلى يزيد) فن أبى فهذا (وأشار بيده إلى سيفه) فقال معاوية : أنت سيد الخطباء ا

التاريخ الشعري

ويسمونه التاريخ الحرفي أيضا ، لأن المرجع فيه إلى حساب الأحرف الأبجدية ، ولا يعرف بالتعيين أول من استعمله في الشعر ، وقد ذكر بعضهم أنه كان مستعملا في الجاهلية الأولى عند شعرائها ، وهو وهم ، ولكن أقدم ما وقفت عليه من ذلك قول بعضهم في تاريخه لسنة ٨٢٢ :

تاريخه : خير بدا مع كمال العفة

ويريد بقوله (مع كمال العفة) حرف التاء الذي هو تمام لفظ العفة ، وحسابه في الجمل هاء ، وهذا النوع يسمونه المذيل ، وهو أن يكون جملة ناقصاً فيكمل بحرف أو أكثر مع التنبية على ذلك ، وهذا شبيه ببعض أنواع المعنى .

وأقدم من ذلك - ولكنه ليس على طريقة التاريخ ، بل على طريقة الإشارة والرمز - قول ابن الشيبان من أهل القرن السادس في الإمام المستنجد بالله وهو الخليفة الثاني والثلاثون من خلفاء العباسيين .

أنت الإمام الذي يحكى بسيرته من ناب بعد رسول الله أو خلفاً
أصبحت « لب » بني العباس كلهم إن عددت بحروف الجمل الخلقاً
وجمل حروف (لب) ٣٢ ، ولصلاح الدين الصفدي من أدباء القرن الثامن في قلم ممدوحه بدر الدين :

لصفات بدر الدين فضل شائع تصبو له الأفكار والأسماع
انظر إلى « القلم » الذي يحوى فقد صح الحساب بأنه « نفع » ،
وذلك أن جمل (القلم) ٢٠١ و (نفع) كذلك ، ومنتهى التنقطع قول بعضهم وهو من هذا القبيل :

من كان « آدم » ، جُملاً في سِنِّه هجرته « حواء » ، السنين من الدمى
وهو يعنى أن من كان عمره يكمل (آدم) أى ٤٥ سنة ، هجرته من كان
عمرها يكمل (حواء) وهو ١٥ .

وقد ذكر القرمانى فى تاريخه عند الكلام على فتح القسطنطينية سنة
٨٥٧ وأن السلطان محمداً فاتحها حباه الله هذا الفتح لكونه أعلم الملوك
وأعدلهم وأحسنهم سيرة وأخلصهم نية وطوية — قال : وضمن بعضهم هذا
المعنى فى تاريخ الفتح فقال :

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون
[وقعت] لفظه (آخرون) تاريخ فتح المدينة ، وقيل فى تاريخها أيضاً
(بلدة طيبة) اه .

وعندى أن هذا كان منشأ التاريخ فى الشعر ، وأن البيت الذى سبق
ذكر تاريخه لسنة ٨٢٢ مصنوع للشال لا غير . ويرجح ذلك أننا لم نجد
كتاباً ذكرت فيه التواريخ الشعرية القديمة فى الوفيات وأمثالها إلا كتاب
الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، وأقدم تاريخ ذكر فى هذا
الكتاب هو ما أرخوا به وفاة الشيخ تاج الدين بن إبراهيم المتوفى سنة ٧٨٢
وقد ذكر صاحب الشقائق هذه العبارة : « وقال المؤرخ فى تاريخ وفاته :

انتقل الشيخ وتاريخه « قدسك الله بسر رفيع »

وهو يذكر تراجم العلماء من سنة ٦٩٩ ؛ فلو كان التاريخ شائعاً قبل
ذلك لكان فيهم من لا تسقط به قيمته عن أن يستحق تأريخاً شعرباً وقد
مرت عليهم ٧٣ سنة وهى الفرق ما بين العهدين .

وقد أخذ العرب اصطلاح الدلالة بالأحرف على الأعداد قديماً عن

السريان ، فإنهم كانوا يعبرون عن الأعداد بالحروف ، كالعبرانيين واليونانيين ؛ والحروفُ عند السريانيين مرتبة ترتيب حروف (أبجد ...) غير أن العرب زادوا عليها كلمتي (نخذ وضظغ) وهي التي سموها الروادف ، وأعدادها من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ؛ لأن هذه الأحرف الستة لا توجد في لغة السريان ولا في لغة العبرانيين ؛ ولكن يوجد فيها ما يقابلها ، وهي ستة أحرف فرعية نوعوا بها الأحرف الأصلية التي هي : الباء والجيم والدال والكاف والفاء والثاء ، فهذه الأحرف عندهم إما جاسية جافية وإما مخففة لينة ، وتعرف باصطلاح السريانيين بالقساة والمركحة ، فإذا كانت جاسية تلفظ كما تلفظ في العربية وتعلم بنقطة فوقها عند السريانيين وفي وسطها عند العبرانيين ، وإذا كانت مخففة فإن الباء تلفظ كالفاء الفارسية والجيم كالغين العربية ، وتلفظ الدال ذالا ، والكاف خاء ، والفاء باء فارسية ، والثاء تاء .

وزعموا أن أبجد هوز الخ أسماء لبعض ملوك مدبن ، وقيل غير ذلك ، وهو خلاف لا فائدة في إيرادها ، لأنه مما لا ثبت له من التاريخ ولا من أقوال المحققين ، غير أن بعض المتأخرين يرجح أن هذه الأحرف جمعت كذلك بقصد حصرها في ألفاظ يسهل استظهارها ولو لم تكن ذات معان ، كما حصروا بعض أنواع الحروف مثل أحرف القلقة في قولهم (قُطْبُ جَدٍ) ونحوها .

وهو اصطلاح فاش في أكثر الفنون ، كالنحو والفقه والعروض وغيرها .

والأنواع التي اصطلح عليها في هذا التاريخ هي :

المستوفى وهو ما لا تحتاج كلماته ضميمه غيرها ، كما كثر التواريخ المتداولة .

والمذيل ، وقد مر مثاله ؛ وعكسه أن يكون التاريخ زائدا فينبه فيه على حرف إذا أسقط جملته من المجموع كان الباقي هو التاريخ ، كقول جمال الدين المصامى فى تاريخ وصول قاضى مكة وكان اسمه حسنا ، وذلك سنة ١٠٧٤ وهو : « حسن قاضينا حسن بلا كلام » فإذا أسقطت جمل « بلا كلام » من جمل « حسن قاضينا حسن » كان التاريخ ما بقى .

والمترج وهو ما تحسب أوائل كلماته دون باقىها ، كقول بعضهم لسنة ١١٠٢ :

قد جاء عام جديد لكل خير يحوز

أرّخ أوائل « قولى » بكل خير تفوز ،

والممثل وهو ما كان بالتمثيل ، كقولهم لتاريخ ٩٨٩ « إنه يحمل بين علمين » لأن صورة هذه الأرقام تماثل صورة المحمل بين العلمين ؛ ومثله « علم بين محملين » لسنة ٨٩٨ .

ومن عجيب هذا النوع قول بعضهم يؤرخ وفاة بعض العلماء سنة ٨٨٨ وهو « انقلب محراب الديانة والدين والزهد ، والمراد حروف الدال فى هذه الكلمات ، والدال كما لا يخفى رسم هكذا (د) فإذا انقلبت الدالات الثلاث ، صارت هكذا (٨٨٨) وهو عدد السنة المؤرخ بها ، وهذا النوع قل أن يتفق فى المنظوم إلا بتكلف سمج .

ومن أنواع التاريخ المقابلة ، وهو أن يقابل حساب جمل الشئ المؤرخ اسما أو نعما أو نحوهما بجمل جملة مناسبة للحال مع التصريح بالمقابلة ،

كما يقال في تاريخ مولود اسمه ضياء (تاريخه مقابل لاسمه) أى سنة ٨١٢ .
وبقيت أنواع أخرى قليلة لا طائل تحتها بل هى من التفنن المرذول ،
وقد استعمل التاريخ في بدعية الشيخ عبد الغنى النابلسى ؛ ثم جاء تلبذه
الشيخ شاكر النحلاوى ويقولون إنه ابتكر في التاريخ طريقة جديدة ،
وهى جعل كل شطرة من القصيدة تاريخا ، وأنه نظم في ذلك قصيدة في
مدح أستاذه تواريخها لسنة ١١٣٦ هـ .

ولكن صاحب الشقائق النعمانية ذكر في ترجمة المولى الشهير بان الشيخ
الشبسترى (ص ٦٠ ج ٢) وقد اشتهر بهذه الكنية ولم يعرف اسمه ، أنه
نظم قصيدة فارسية في ستين بيتا . صراع كل بيت تاريخ لسنة ٩٢٦ هـ ،
والقصيدة تهنته بجلوس السلطان سليمان بن السلطان سليم ، وكان المصراع
الأخير تاريخا لفتح قلعة رودس ؛ وهذا الأديب نفسه صنف أيضا
بالفارسية رسالة في المعنى وجعل أمثلة قواعده كلها على اسم السلطان
سليم خان اه .

... فيكون النحلاوى ناقلا لا مخترعا وإن كان أول من أدخل ذلك
في النظم العربى .

ثم اخترع بعده الشيخ أحمد البدير الشاعر طريقة المعجم والمهمل ،
فأرخ وفاة الأمير منصور الشهابى سنة ١١٨٨ في بيت حروفه المهمة تاريخ
وحروفه المعجمة كذلك .

وتفنن المتأخرون بعد ذلك فجمعوا في البيت الواحد تاريخين متفقين
أو مختلفين من الهجرى والميلادى ، وثلاثة وأربعة أيضا ، ووضعوا طريقة
يجمع بها في بيتين ثمانية وعشرون تاريخا ، وذلك أن تنصف السنة المؤرخ

بها ، ولا بد أن تكون زوجاً ليكون لها نصف صحيح ، ويجعل كل شطر من الأبيات نصفين يكون مجموع جمل معجمه نصفاً ومجموع المهمل نصفاً آخر ، فيكون [في] كل شطر من البيتين تاريخ ، ويضم معجمه أو مهمله إلى معجم أى شطر أو مهمله ، يخرج بقية العدد .

وقد زاد أدباء الترك في هذه الطريقة أن يكون كل شطر مهمله في الحساب على آحاد وعشرات ومئين ، وكذلك معجمه ، فيؤخذ أى عدد من هذه الأعداد ويضم له ما عدا مائله من أى شطر بعده ، فيكون المجموع تاريخاً ، وبهذه الطريقة تضمن الأبيات القليلة كثيراً من التواريخ ، وذلك لعمرى هو العناية الناصب والعلم الكاذب ، وما لا ينبغي أن يكون له طائل ولا طالب .

وهاهنا غريبة في التاريخ ، وهى القصيدة التى نظمها الشيخ محمد قيادو التونسى ، وهى مؤرخة لسنة ١٢٧٦ هـ ، ويستخرج منها تواريخ كثيرة جدا لتلك السنة ، ويتولد منها قصيدة ثانية يستخرج منها نفس التاريخ ، فى عدد كثير ، وعدة أبيات القصيدة (الأم) ستة وثلاثون بيتاً ، والمولدة منها ثمانية عشر ، فيخرج من كل بيتين من الأولى بيت من الثانية ، ومطلع الأولى :

خير حام مجيد مجير العبيد حاط خير الجرى لعبد المجيد
حاطه عن عشار جمعد برجف منتج جحد عرف ربق العهود

ومن هذين يستخرج مطلع المولدة وهو :

خير حام مجير عبد المجيد عن عشار برجف جحد عهود
فكل شطر برمته تاريخ ، ومهمل كل شطر مع مهمل غيره أو معجمه

تاريخ ، وكذا معجم كل شطر مع معجم غيره أو مهمله تاريخ ، وقس على ذلك اعتبار القصيدة بعضها ببعض مما يكون خيراً منه للشاعر أن يشتغل في (مصلحة الإحصاء) . . .

فإن هذا كما يقول صاحب في قول المتنبي :

أحاد أم سداس في أحاد ليلتنا المنسوفة بالتنادي

إنه من عنوان قصائده التي تحير الأفهام وتفوت الأوهام وتجمع من الحساب ما لا يدرك بالأرتياطبق . . .

وقد يظن أن المتأخرين هم الذين انفردوا بالتفنن في التاريخ الشعري على النحو الذي سلف ، وهم أهل لذلك في كثير ، ولكن هناك عجيبة أخرى ، وهي قصيدة لعبد القادر بن محمد الحسيني الطبري من أدباء الجليلين العاشر والحادي عشر ، وهي تسعة عشر بيتاً يستخرج منها سبعة أبيات تكون تواريخ لسنة ٩٩٨ بطريقة لم أر مثلها للمتأخرين على كثرة ما تكلفوا من ذلك أما القصيدة فهي مدح الحسن بن أبي نعي بن بركات . قال ناظمها - بعد أن أوردها في كتابه المسمى عيون المسائل من أعيان الرسائل (ص ٣٨) المطبوع بمصر - : وطريقة استخراج تلك التواريخ بضم الأحرف التي هي أوائل الأبيات مرة ، وبضم الأحرف التي هي أوائل بعض الأجزاء (أي التفاعيل) مرة أخرى ، وقد شرحها صاحبها في كتابه فتلمس هناك .

ثم نظم على هذه الطريقة شهاب الدين أحمد بن الفضل بن محمد المكي من أدباء القرن الحادي عشر ، ولكن قصيدته تستخرج منها تسعة تواريخ ، وقد ذكرها ابن معصوم في السلافة (ص ٢٠٤) وذكر أبيات التواريخ التي

تستخرج منها ، وقال هناك : إنه منى بعد نظمها لشدة الفكر بعملها وبقى
مرتها بها أربعة أهلة ، وأن علماء عصره قد قرظوا عليها ؛ ثم ذكر
منهم عبد القادر الطبري صاحب القصيدة الأولى (وانظر السلافة أيضا
ص ١٨٧) .

التخميس والتشطير وما إليهما

سلف لنا كلام في باب الأوزان العربية ومقدار وفائها بالحاجة الشعرية ومبلغ معونتها في ذلك ، وأن القوافي نقرات ونغمات ليس الغرض منها إلا استقامة اللحن واتفاقه مع اهتزازات الطرب ، وأن الشأن في ذلك أن لا يشدَّ بها اللحن عن قاعدة الذوق التي لا قيد لها إلا ما يشعر به الإنسان في خاصة نفسه ، فهي لذلك تابعة لا متبوعة ، ثم هي على ما يشاء الشاعر في تقلبيها ، والشاعرُ قِيمُ الصناعة ، فحظ القافية منه على مقدار حظ الغرض الشعري منها ، وقد بسطنا ذلك هناك وأمسكنا لهذا الموضوع كلاماً نجريه الآن ، وذلك في أصل التخميس والتشطير وما إليهما مما صرفه المتأخرون عن وجهه في الإمتاع ، وأحالوه عن حظه من الفائدة ، فجاءوا بالمشطَر والمربع والخمس والمستدس والمسبَّع والمثمن ، ولم يَنْزِلْ حقيقة الشعر من كل ذلك إلا هذا المسخ من صورة إلى صورة ، وهي جنابة الصناعة وكَم لها من جنابات .

أصل ذلك في الشعر العربي النوع الذي سموه قديماً بالمسَّمَط وقالوا فيه هو أن يبتدئ الشاعر بيت مصرع - ذى قافيتين - ثم يأتي بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسيماً واحداً من جنس ما ابتدأ به ، وهكذا إلى آخر القصيدة ، والقافية اللازمة في القصيدة التي تكرر في التسميط تسمى عمود القصيدة ، ويقال للقصيدة من ذلك النوع مسمَّطة وسمطية ، وهو نوع محدث لم يصح وروده عن أحد من العرب ، ولذلك يورد الرواة ما يسوقونه منه غير معزوق ، إلا ما حلوا امرأ القيس من ذلك ، ولعلمهم أرادوا به التمهيد والتوطئة للثقة - وذلك سبب من أسباب الوضع كما بسطنا في بحث الرواية والرواة -

قال الجوهري : لامرئ القيس بن حجر قصيدتان سمطيتان ، وقد ذكر
إحداهما - وهي التي سنأتى ببعضها - ولم يذكر الأخرى ؛ وقال الصاغاني
ليس هذا المسمط في شعر امرئ القيس بن حجر ، ولا في شعر من يقال له
امرئ القيس سواه ، وأول هذا المسمط (١١٨ ج ١ : العمدة) :

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرايح من هند خلقت وبصائفُ يصبح بمغناها صدى وعرازفُ
وغيرها هوجُ الرياح العواصفُ وكل مُسيفٍ ثم آخر رادفُ
بأنتم من نوء السماكين هطال

وهكذا يأتي بأربعة أقسمة على أى قافية شاء ، ثم يكرر قسيما على قافية
اللام : وكان التزام اللام في هذا المسمط استدراج للتصديق بأنه
لامرئ القيس حقيقة ؛ إذ يذكر بقصيدته الشهيرة التي أولها :

* ألا عم صباحا أيها الطلل البالي *

وبين النفس في الشعر بن ما بين ستين سنة قبل الهجرة ومائة وتسعين
بعدها ...

ولا يلتزم في التسميط هذا النوع الخمس ، بل قد يجاء به على ثلاثة
أقسامه ، كهذا الذي يروونه لغير مسمى :

خيالٌ هاج لي شجنا فبتُ مكابداً حزنا
عميد القلب مرهنا بذكرٍ اللهو والطرب
سببتني ظبيةً عطلُ كأن رضاها عسلُ
ينوء بخصرها كفلُ ثقبيل روادف الحقب

وهي أربعة قطع أوردها في تاج العروس . وربما جاءوا في مطلع القصيدة

بخمسة أبيات أو أربعة على قافية واحدة ، ثم يأتون بالأقسمة الأربعة بعد ذلك ويتبعونها بالقسيم الذي فيه عمود القصيدة ، كنعو الذي ينسب لامرئ القيس ، ولا فائدة من التمثيل لذلك ؛ إذ هي قطع معدودة تنفس قوافيها بشيء من الضعف ومرض الذوق ، ولم ينسحب على أذياها إلا المتأخرون ؛ ولكنهم خصوا التخميس بما كان على خمسة أجزاء ، وسموا ما كان على أربعة مربعا ، وما كان على ستة مسدسا ، وهكذا إلى الثمانية .

وقد نقل الزبيدي في تاجه عن أبي إسحاق أن كل ما اختلطت قوافيه فهو الخمس ، فالتأخرون إنما رتبوا الأسماء ، وكان ذلك لإكثارهم من هذه الأنواع ، حتى يكون كل نوع ميمزاً باسمه ؛ ولكنهم هجموا من ذلك على شناعة مرذولة ، وهي تناولهم أشعار الناس وتخصيصها بالتشطير والتخميس ؛ وما لذلك قصد الذين وضعوا هذه الأنواع ، ولا هو شيء في أصل الفطرة الشعرية ؛ ولكنها المنافسة في الصناعة جعلت النابغين منهم ينهجون هذا المنهج ، ليظهروا أن فيهم فضلا وبقية من المتقدمين ، بما يزيدون في معانيهم التي ربما يكون صاحبها قد أماتها ولم يترك فيها مطمعا ، ويلبسون ويشدون في ألفاظهم وتراكيبهم ، من أجل ذلك كانوا لا يقصدون إلا القصائد الشهيرة المجمع على بلاغتها ، والأبيات النادرة ، كما فعل الصنفي الحلبي وغيره .

ولكن الزمن طمس على هذا الأصل ، وصارت تلك الأنواع في الشعر الجيد أشبه بالزيادة في تراب الميت : لا يجدد موته ولكنه وسواس وعييث .

أما أصل التشطير فلم نقف على كلام فيه للمتقدمين ، ولا نظرهم تكلموا في ذلك ، إذ هو مقصور على تعلق الشاعر بكلام غيره ، وذلك من صنع المتأخرين ، أما المتقدمون فكانت لهم المعارضة ونحوها مما لا يضطلع به إلا

قوى جرىء، وهو أدل على حقيقة المقارنة والتنظير بين الكلامين - ولكننا نظن أن أصله ما يسميه العرب بالتمليط والمخالطة، وذلك كالذي رواه أبو عمرو ابن العلاء من أمر امرئ القيس، وكان يُدَلّ بشعره ويتعنت به على الشعراء، فلا يزال ينازع من قيل له إنه يقول الشعر، حتى نازع التوهم جد قتادة بن الحارث بن التوهم^(١). فقال له: إن كنت شاعراً فمأط لي أنصاف ما أقول فأجزها. فقال: نعم.

فقال امرؤ القيس: أَحَارِ تَرَى بَرِيقاً هَبَّ وَهَنًا

فقال التوهم: كَنَارِ مَجُوسٍ تَسْتَعِرُ اسْتَعَارَا

ولم يرد التشطير في شيء من المأثور عن الأدباء الذين نبغوا في الصناعات،

كالصفي ومن في وزنه إلى أواخر القرن [الثاني عشر]

والعجيب أن أصحاب البديع يعرفون التشطير البديعي، وهو أن يقسم

الشاعر بيته شطرين ثم يصدع كل شطر منهما، كقول أبي تمام:

تدبير معتصم، بالله منتقم لله مرتقب، في الله مرتغب

ثم لانجد أحداً من أصحاب الشروح والحواشي إلى الغباني الذي فرغ

من حاشيته سنة ١٢١١ يشير إلى هذا النوع، مع أنهم ابتدوا بديسطين التاليف

في أنواع البديع من القرن الثامن، ومع رغبة المتأخرين في الخلوص إلى

المناسبات والإفاضة فيما يكتبون، وهذا قطع في أن تسمية الطريقة المعروفة

في النظم بالتشطير لم تعرف إلا في القرن الثالث عشر، أما الطريقة نفسها

(١) في رواية العمدة لابن الرشيقي (ص ١٣٥ ج ١) أنه التوهم البشكري، واسمه

الحارث بن قتادة، والرواية التي أوردناها لصاحب تاج العروس، نقلها عن أبي عمرو،

ونقل صاحب العمدة عن أبي عبيدة عن أبي عمرو. والاختلاف بينهما عجيب كما ترى!

فكانت معروفة في أواخر القرن العاشر وما بعده ، ولكنهم كانوا يسمونها
« التصدير والتعجيز » ، وأورد ابن معصوم في السلافة أشياء من ذلك ، وذكر
في ترجمة القاضي تاج الدين بن إبراهيم المالكي (ص ١٣٣ > ٢) أنه كتب
تقريباً على تصدير وتعجيز الشيخ تقي الدين السنجاري لقصيدة المتنبي
التي مطلعها :

« أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل »

ومن هذا التقريظ قوله : لعمرى لقد نسق ذلك التصدير ، نسق
التسطير ، وسبك ذلك التعجيز ، سبك الإبريز ؛ فتراه إذا أخرج بيتاً عن
معناه ، تلاعب به فيما اخترعه من منبناه ، وإذا طبق المعنى بالمعنى وأبقاه على
أصله ، أوصله إلى غاية الإعجاب بفصله اه .

فإما أن يكون المتأخرون أخذوا لفظة التشطير من النوع البديعى ، أو
يحتمل أن يكون بعضهم وقف على هذا التقريظ وتحرفت عليه كلمة التسطير
بالتشطير ، أو نهته الأولى إلى الثانية . والله أعلم .

ما يقرأ نظماً ونثراً

ليس يخلو طبع أحد من أوزان القريض ، ولا ينفك متكلم من أن يعرض له ما قد يتزن بها في الكلمة الطويلة أو الفقرة القصيرة على غير اجتلاب ولا استكراه ، قال الجاحظ في نحو هذا رداً على من زعم أن قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ شعر لأنه في تقدير مُسْتَفْعِلُنْ مَفَاعِلُنْ - : إنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مفاعِلن كثيراً ، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً ، ولو أن رجلاً من الباعة صاح : من يشتري باذنجان ! لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولان ، فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهاى في جميع الكلام ؛ وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً . وسمعت غلاماً لصديق لي وكان قد سقى بطنه يقول لغلمان مولاه :

« اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكنوى ! »

وهذا الكلام يخرج وزنه فاعلاتن مفاعِلن مرتين ، وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر بباله قط أن يقول بيت شعر أبداً . فإذا تعمّل الكاتب لمثل ذلك في بعض كلامه فأخرجه على الصناعتين ، كان قد حذا على ما تقدم وقصد غير مقصود ، وليس يعسر ذلك فيما يخرج منه البيت والبيتان ، أما ما يكتب على أن يكون قصيدة في رسالة ورسالة في قصيدة ، فهو ما لم يتفق لأحد أن يجيده على حقيقته ولا يتفق ؛ لأن

شرط هذا النوع أن لا يُحذف من الرسالة حرف واحد ، بل تُقرأ كما هي على الإرسال والتقييد .

وشرط آخر : أن لا تتبين فيها ما يظهر على القصيد من إيقاع الوزن ونغم القافية وما يكون من شأنه أن يخصصها بالشعر ، لأنه هنا مقصود من حيث تنويع الصناعة لا من حيث استقلالها فهو وجه آخر للكلام ، وأنت لو تناولت إحدى القصائد وجهت أن تقلها منشورا على أن لا تحذف منها حرفا ولا تقدم ولا تؤخر ، وكانت هي في سردها ومعانيها موالية مطاوعة ، وهو مما يندر في الشعر ، لكنك مع ذلك مغلوبا لطبعك . وظهر في منطقتك الوزن والتقطيع ، فكيفما قلبت القصيدة جاءت شعرا خالصا لا مظهر للنثر في جملته ، ولا موضع فيها لاحتمال أن تكون من الصناعتين ، ولهذا السبب كان ما ورد مما يقرأ منظوما ومنشورا على ما ستعرف الوجه فيه .

أقدم ما عُرِف من هذا النوع ما أورده ابن خلكان في ترجمة الشاعر المصري مظفر - الملقب بموفق الدين المتوفى سنة ٤٤٤هـ - قال : أخبرني أحد أصحابه أن شخصا قال له رأيت في بعض تأليف أبي العلاء المعري ما صورته « أصلحك الله وأبقاك ... »

وليس بعجيب أن تصح نسبة تلك الجملة إلى المعري ، فإن له من هذه الغرائب أشياء ، ولم نعثر على غير جملته حتى تناول هذا النوع شيخ الإسلام إسماعيل المقرئ فكتب رسالة إلى الملك الأفضل . قال عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري من علماء القرن العاشر ومن استقبلوا القرن الحادي عشر أيضا : اتفق لنا في بعض المجالس أن الوزير جمال الدين الحريري قرأها علينا (أي رسالة المقرئ) مستعظما صنع الشيخ وصنيعه ، مادحا معانيه وبديعه ،

متحدياً الفقير وصاحبه الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد
بالإنشاء على منوالها والإتيان بمثلها ...

وقد عارض الشيخان رسالة المقرئ مترادفين في الإنشاء [مترادفين] في
العمل ، والتزاما في معارضتهما ، السجع في النثر والكثرة في النظم ، ؛ ولندرة
هذا النوع من الكلام رأينا إثبات الرسالتين على هيتى النثر والنظم فيهما *
وقد ذكر الثعالبي في ترجمة بديع الزمان من اليتيمة أنه « يوشح القصيدة
الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه ؛ فيقرأ من النظم النثر ومن
النثر النظم ، وهو يذهب إلى أن البديع كان شعره في سهولة نثره ، ونثره
في جزالة شعره ومعانيه ؛ فلعل المقرئ أو سواه ممن يكون اخترع هذا النوع
قد تنبه له من هنا ؛ لأن ذلك ممكن التحقيق .

ولم نعر على شيء من بعد [هاتين الرسالتين] إلى اليوم .

(٥) قلت : ليس نص هاتين الرسالتين فيما تحتي يدي من (الأصل) ، وكان التدبير
أن أنقلهما من حيث أشار المؤلف إلى مصدرهما (ص ٥٥ ؛ عيون المسائل من أعيان
الرسائل) كما فعلت في فصول سلفت ولكن لم يتهيأ لي الحصول على ذلك المصدر ،
فرايت الاكتفاء بهذه الإشارة هنا .

نوع من حل المنظوم

حل المنظوم نوع من الإنشاء يلتزمون فيه المعنى الشعري لا يزيدون عليه شيئا إلا ما هو من قبيله وفي سبيله، وقد يحلون الشعر بألفاظه وبعض ألفاظه وبغير ألفاظه؛ ولكن الصفي ذكر من ذلك نوعا غريبا لسنا نستطيع أن نزيد في شرحه وتاريخه شيئا على هذا الذي سنقله عنه، فهو بيان له؛ وأما بعد الصفي فلم نجد الأدباء يذكرون هذا النوع ولا يستعملونه.

قال: * مما اقترحه على الشيخ الإمام العالم القدرة المحقق الفاضل الكامل زين الدين قتي شيخ العينية الموصلى حين وقف على بعض مقامات أنشأتها كالتوهمية... فقال أيده الله: إن من أصنع ما أنشأه الشيخ شمس الدين معد بن نصر الجذرى في مقاماته الزينية حل المنظوم الذى فى المقامة الثانية، وهو أنه عمد إلى ثمانية أبيات من الحماسة فجمع حروفها وبسطها رسالته ثم أعادها وجمعها أبياتا على الوزن والروى من غير زيادة حرف ولا نقصان حرف. فاعتذرت له بأن الوقت يضيق عن المقام إلى حين لإنشائها؛ فلما رحلت من فنائه وحضرت بعض أندية الأدب جرى ذكر الإنشاء فشرحت لهم الحكاية وما اقترحه الشيخ العلامة الفاضل زين الدين المذكور رحمه الله تعالى، فقالوا جميعا هذه صنعة كبيرة، وهى غاية فى الإنشاء تحتاج إلى معرفة علم السياقة، لضبط الحروف والتصرف فى إبدالها، ونحن جميعا نقترح عليك ذلك، فإنه الغاية التى إن بلغتها لا يعجزك شىء من إنشاء المقامات، حيث قد سمعنا لك أشياء من ذلك؛ ولم أجد بدأ من إجابة دعوتهم لارتفاع مواع

ه قلت: نقلنا العبارة من هنا إلى آخر الفصل، من ديوان صفي الدين الحلى (ص ٤٨٤)، إذ لم تكن فيما تحت بدنا من الأصل.

الاعتذار : فقلت قد ملكتم زمام التخيير فاختراروا من الشعر ما تأمرون
ثره : فقالوا: إن حد القصيدة سبعة أبيات : ولذلك سوح بعدها في الإيطاء
وعد مادونها من الأخطاء ، ونحن مقتصرون على السبعة الأول من فاتحة
السيح الطول ، فقلت اسطروها ليسهل اعتبارها إذ تسبرونها ، فسطروها هكذا :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمائل
ترى بعرا الأرام في عرصاتها	وقيعانها كأنها حب فلفل
كأنى غداة البين لما تحملوا	لدى ثمرات الحى ناقف حنظل
وقوفا بها صحبي على مطيهم	يقولون لانهلك أسى وتحمل
وإن شفائي عبرة مَهْرَاقَة	فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها	وجارتها أم الرباب بمأسل

قال الشيخ : فقلت لهم : هذه الأبيات قد تبين تخييرها ولا يمكن تغييرها ،
فاختراروا الرسالة في أى معنى وعلى أى المقاصد تبني ، فقال أحدهم : تكون
في مخدوم له ، آثر يُعدى ومطل وعدى . والمعنى تعتب وأذكرنى سالف
ذنب ، وأوثر أن تخطب وده وتسفنجز وعده ، فكتبت :

« الكريم مرتجى ؛ وإن كان باب مرتجا ؛ والتدب يلتقى وإن كان بأسه
يتقى ؛ والسحب تؤمل بوارقها وإن رهبت صواعقها . ولحلم سيدنا أعظم
من العتب بسالف ذنب ، فمأحى شرف الله بلم كفوفا أفواه العباد ، يغفر
الخصية ، ويوفر العطفية . والمملوك مقر عرف أنه رب حق ، بل مالك رق ؛
ومقتض من جوده العميم ، نجاز وعده الكريم ، بسالف كرمه المقيم ؛
لا برح إحسانه شاملا مدى السنين . إن الله يحب المحسنين . »

فلما سطورها ونظروها ، وعدّوا حروفها واعتبروها ، فأوها وماقبلها
كفتى ميزان ، عرية من الزيادة والنقصان ، سألوا أن أجعل ربعا مأهولا ،
وأعيدها سيرتها الأولى ، فأجبت إلى ما طلبوا ، وأملت وكتبوا :

قفانك من أطلال ليلي ففسأل	دوارسها عن ركبها المتحمل
وننشد من أدراسها كل معلم	محاه هبوب الراسيات ومجهل
ونأخذ عن أترابها من ترابها	صحيح مقال كالجمان المفصل
معاني هوى أقوى بهاداب بينهم	كدأبي من تبريح قلب مقلقل
عفت غير سبع من رواكد جثم	تحف بشفع من رواكض جفل
ورسم أوارى بجبل مديدها	لملى سقاه حوال نوذى معطل
فرققا بها رفقا وإن هي لم تبع	بلفظ ولا تاوى لسائل منزل

ما لا يستحيل بالانعكاس

هذه تسمية الحريري لهذا النوع ، ويسميه غيره المقلوب ، والمستوى ؛ وهو ما يُقرأ طرداً وعكساً على وجه واحد ، وقد ورد منه في القرآن الكريم ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ ، و ﴿رَبِّكَ فَكْبَرٌ﴾ ولكن الحريري تصنع له في المقامة السادسة عشرة حتى أوصله إلى السمط السباعي ، فجاء به معقداً وأخرجه عن شرط الأدب إلى شرط الصنعة ، وذلك قوله : «لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل» .

قال ابن حجة الحموي - وقد أورد هذه الكلمات ونفث في عقدها - : «وذكروا أن العلامة القاضي فتح الدين بن الشهيد صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس وصل في تركيب هذا النوع إلى أكثر من هذه العدة ، وأن المولى محمد بن البارزي الجهني صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك المحروسة الإسلامية وقف على ماثره القاضي فتح الدين المشار إليه في هذا النوع قبل تيمورلنك وذكر أنه في غاية العقادة ، وأبلغ ما جاء من هذا النوع في الشعر قول القاضي الأرجاني .

مودته تدوم لكلّ هول وهل كلّ مودته تدوم ؟

ومن المستملح قول العماد الكاتب وقد مر على القاضي الفاضل راكبا : «سِرْ فَلَا كَسْبًا بَكَ الْفَرَسُ ، فَأَجَابَهُ الْفَاضِلُ عَلَى الْفُورِ وَقَدْ فَظُنَ لِقَصْدِهِ : «دام علا العماد ، وهي بديهة عجيبة إذا لم يكونا قد فكرا فيها قبل ذلك . وقد نظم الحريري في مقامته تلك أبياتا خمسة يقول في أولها :

أسي أرملا إذا عرّا وارزع إذا المره أسا

فغاية أهل هذه الصناعة بأنه «هرب إلى أبو القصير من العروض ،
ولذلك نظم الصفي أبياته التي أولها :

أنت ثناء ناضراً لك إنه هَنَّاكلٌ أرضٍ أن أنت ثناء

وكان الشعر كله خلا إلا من بيت الأراجاني ، فهو في هذه الصناعة
الشعر كله .

وطبيعة اللغة قابلة لهذا النوع ولكن بمقدار ، فإنك تجد في مفرداتها
منه أشياء ، كلفظ : باب وسلس وتحت ، وأمثالها ؛ ثم تراه يتألف غير مقصود
إليه بمقدار أيضا ، كقولك : أرض خضرا ، وهزم حمزه ، ويلعب على ،
وحمار راح ؛ وأمثال ذلك مما لا يكبر على العامة أن يجيئوا به ، ولكن
الفرق بينهم وبين الخاصة أنه في كلامهم صواب موجود غير مقصود ،
وفي أكثر ما يتكلف له الخاصة صواب مقصود غير موجود !

الملاحن

هي من اللحن الذي هو التعريض والإيماء ، تقول : لحننا له لحناً إذا قلت له قولاً يفهمه ويخفى على غيره ، لأنك تميله بالتورية أو التعمية عن الواضح المفهوم . وملاحنة الرجلين مفاطنة أحدهما للآخر باستخراج خجوى قوله وما في نيته وضميره ، وهو يشبه في اللغات الأوربية ما يسمونه بالكتابة الخفية أو الكتابة السرية ، وهو فن عندهم قديم ، غير أن العرب لم يعرفوه إلا في القول والإشارة ، فكانوا يتكلمون في ذلك بما يؤخذ على الرمز كما سيجيء ، فضلاً عن أن في لغتهم ألفاظاً تحتمل هذا النوع لدلالة اللفظ على معنيين ، كأن تقول ما رأيت ، أي ما ضربت رثته ، وما كلمته أي ما جرحت ، وهكذا ، وقد ورد بعضها في القرآن ، كالضحك بمعنى الحيض ؛ وألف ابن دريد في هذه الألفاظ كتاباً سماه الملاحن ، قال فيه : هذا كتاب ألفناه ليفزع إليه المُجَبِّرُ المضطهد على اليمين المكروه عليها ، فيعارض بما رسمناه ويضمر خلاف ما يظهر ليسلم من عادية الظالم ويتخلص من جَنَفِ الغاشم .

وللفقهاء كلف بهذه الألفاظ ، إذ تفتح لهم أبواباً كثيرة مما يعرفونه بالحيل الشرعية ، ولهم فيها ألغاز ومطارحات لا محل لبسطها هنا ، وأهل اللغة يسمونها : فُتْيَا فِتْيَةِ العرب ، أو طيب العرب ، أو مساجع العرب ، وعليها بنى الحريري المقامة الثانية والثلاثين .

ومما ورد عن العرب من لحن القول ما رواه القالي في أماليه عن ابن الأعرابي قال : أسرت طيبي رجلاً شاباً من العرب ، فقدم أبوه وعمه ليفدياه ، فاشتطوا عليهما في الفداء ، فأعطيا به عطية لم يرضوها ، فقال أبوه :

لا والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبلي طيبي لا أزيدكم على ما أعطيتكم ! ثم انصرف . فقال الأب للعم : لقد أقيتُ إلى ابني كليمه لأن كان فيه خير لينجون ؛ فما لبث أن نجا واضطرد قطعةً من إبلهم فكان أباه قال له : الزم الفرقدين على جبلي طيبي فإنهما طالعان عليهما ، وهما - أي هو وعمه - لا يغيبان عنه .

ويروون من مثل هذا أخباراً معدودة لا تدل على شيوعه فيهم ولا تواطؤهم عليه بما يقرب أن يكون به شبه علمٍ عندهم كما فعل المتأخرون في اشتقاق المعنى منه - على ما استعرفه - .

وأما مثل الإشارة من ذلك فما حكاها المدائني من أن رجلاً مرَّ بجيِّ الأحوص ، فلما دنا من القوم حيث يروونه نزل عن راحلته فأتى شجرةً فعلق عليها وطباً من لبن ، ووضع في بعض أغصانها حنظلة ، ووضع صرة من تراب وصرّة من شوك ، ثم أتى راحلته فاستوى عليها وذهب .

فنظر الأحوص والقوم في أمره فعَيَّ به ، فقال أرسلا في قبس بن زهير (١) ، فجاء ، فقال له الأحوص : ألم تخبرني أنه لا يرد عليك أمر إلا عرفتَ مآتاه ما لم تر نواصي الخيل ؟ قال : فما الخبر ؟ فأعلموه ، فقال : وضع الصبح لذي عينين ، فصار مثلاً يضرب في وضوح الشيء ، ثم قال : هذا رجل أسره جيشٌ قاصد لكم ، ثم أطلق بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق أن لا يُنذركم فعرض لكم بما فعل : أما الصرة من التراب فإنه يزعم أنه قد أتاكم عدد كثير ،

(١) هو قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ، صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس والغبراء . كان فارساً شاعراً داهياً ، يضرب به المثل فيقال : أدهى من قيس .

وأما الحنظلة فإنه يخبر أن بني حنظلة غَزَتكم ، وأما الشوك فإنه يخبر أن لهم شوكة ، وأما اللبن فهو دليل على قرب القوم أو بعدهم إن كان حُلُوءاً أو حامضاً ؛ فاستعد الاحوص . وورد الجيش كما ذكر قيس ١

هذا عند العرب في جاهليتها ، وأما بعد الإسلام فكان مثل هذا قليلا ، كالذي روى من أن معاوية بن أبي سفيان مازح الأحنف بن قيس ، فما روى مازحان أوفر منهما ، فقال له : يا أحنف ، ما الشيء الملقف في البجاد ؟ فقال : السخينة يا أمير المؤمنين . أراد معاوية قول الشاعر :^(١)

إذا مامات ميتٌ من تميم فسركَ أن يعيش فجئى بزاد
بخبز ، أو بتمر ، أو بسمين أو الشيء الملقف في البجاد
تراه يطوف الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

(انظر ص ١٠٠ ج ١ : الكامل للبرد ؛ في حب بني تميم للطعام) والملقف في البجاد وطب اللبن ؛ وأراد الأحنف أن قریشاً كانت تُعيرُ بأكل السخينة ، وهي حساء من دقيق يُتخذ عند غلاء السعر وعجف المال وكلب الزمان . وكان معاوية قرشياً والأحنف تميمياً .

ومثل هذا ما أورده الجاحظ في كتاب البيان (ص ٢١٤ ج ١) : دخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن زيد الهلالي وهو عامل على أرمينية وقد بات في موضع غدير قريب منه ضفادع ، فقال عبد الله للبحاربي : ما تركتنا

(١) تروى هذه الابيات ليزيد بن عمرو بن الصعق ، وذكر الجاحظ أنها لابن المهوش الاسدي ، وفي شرح الكامل : ذكر ابن حبيب أنها لابن المهوش الفقعسي ، وذكر دعبل أنها لابن الهوس الاسدي . ولتعبير قریش بالسخينة وتيمم بحب الطعام وشدة الشره - لكل ذلك أسباب ليس هذا موضع إيرادها (ص ١٤١ ج ٢ : الخزانة الكبرى)

أشياخ محارب تنام في هذه الليلة لشدة أصواتها | قال المحاربي : أصلح الله
الأمير ، إنها أضلَّت برقعاً لها فهي في ابتغائه | أراد الهلالي قول الأخطل :

تَنقُّ بلا شيء شيوخُ محاربٍ وما خلتها كانت تَريشُ ولا تَبْرِي
ضفادع في ظلماء ليلٍ تجاوزتُ فدل عليها صوتُها حَيَّةَ البحرِ
وأراد المحاربي قول الشاعر :

لكلِّ هلالٍ من اللؤمِ برقعٌ ولابن هلالٍ برقعٌ وقيصُ |

[ثم] فشت صنعة المعمرى فتلاحنوا بالإشارة والتصحيف وغيرهما - كما ذكر -

ودخل أبو القاسم القطان على الوزير الزينبي يهنيه بالوزارة ، فوقف بين يديه
ودعا له وأظهر الفرح ورقص ؛ فلما خرج قال الوزير لبعض أهل سره :

قبح الله هذا الشيخ ، إنه يشير برقصه إلى قولهم : ارقص للقرد في دولته |

ولما فشت صنعة المعمرى تلاحنوا ببعض أنواعها ، ومن ذلك ما ذكره

المقرى صاحب نفع الطيب في الملاحنة بالتصحيف ، من أن المعتمد مرّ مع

وزيره ابن عمار ببعض أرجاء أشبيلية ، فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط ،

فكشفت وجهها وتكلمت بغير حياء ، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون

الجلس ، والجيارين الذين يصنعون الجير بأشبيلية ، فالتفت المعتمد إلى موضع

الجيارين وقال : يا ابن عمار ، الجيارين ! فقطن إلى مراده وقال في الحال : يا مولاي ،

والجباسين ! فتحير الحاضرون في ذلك ، فسألو ابن عمار ، فقال له المعتمد لا تبعها

منهم إلا غالية ! وذلك أن المعتمد صحّف « الحياء : زَيْن » بقوله الجيارين ، إشارة إلى

أن تلك المرأة لو كان عندها حياء لازدانت ؛ فقال له : والجباسين ، يريد به على

النصحيف « والحنا : شَيْن » ، أى هي وإن كانت جميلة لكن الحنا شاتها .

والغاية التي لا يلحق شأوها ما حكاها بعض أهل البديع في مبحث

التصحيح عن بعض ملوك المغرب أنه طلب بنت أحد وزرائه فأبى ذلك ، فأحضره الملك في ديوانه فقال له : أندلسيّ يعني « أبذل شيء » فقال الوزير : أندلسيّ ! يعني « أبذل بيتي » فقال الملك : أندلسي ، يعني « أبذل شيء » أي أن البيت أحقر شيء فقال الوزير : أندلسي ، يعني « أبذل بيتي » فقال الملك أندلسي ، يعني « أبذل بيتي » أي أرجع عن بيتي لعزلك وظلمك !

ويقال إنها حكاية مخترعة . ذكر ذلك الصفي في ديوانه . ولكن اللحن الكتابي قليل في المروى عنهم ، وهو على غير قاعدة ولا تواطؤ بين المتلاحنين ، ولذلك لم يعد أن يكون كالمفوض به ، [ومنه] ماروي عن صاحب أن أديباً رفع إليه كتاباً يطلب عملاً وفي آخره : إن رأى مولانا فعل إن شاء الله !

فرد إليه الكتاب ، وتواتر الخبر بحصول التوقيع فيه ، ولكن الرجل أقبل عليه يراجعه فلم يرفه توقيعاً حتى عرضه على أبي العباس الضبي . فنفقده أحرفه حتى ظفر بألف وقع بها صاحب عند قوله (فعل إن شاء الله) فكانت بعد التوقيع (أفعل . . .) ونحو ذلك : إن الملاء يأترون بك . . .

وقد بسطنا جانباً من الكلام في هذا توطئة للبحث في الألفاظ والمعنى ، لأنهما بسببها ، ولأن الملاحن في هذه اللغة قليلة حتى إن ما لم نذكره منها لا يزيد على ما ذكرنا فيما نعلم ، وبعضه يكاد يظهر أنه مصنوع ، كهذا الخبر الذي يقولون فيه إن بعض الملوك عزم على قصد عدو له ، فقدم ربيته يتجسس أحواله ، فلما صار إلى أرض العدو ، شعروا به فقبضوا عليه وأمروه أن يكتب لصاحبه كتاباً يذكر له أنه وجد القوم ضعفاء ويطمعه فيهم ويزين له غزوهم ، فكتب :

« أما بعد فقد أحطت علماً بالقوم ، وأصبحت مستريحاً من السعي في

تعرف أحوالهم وإن قد استضعفتهم بالنسبة إليكم ، وقد كنت أعهد من أخلاق الملك المهلة في الأمور والنظر في العاقبة ، ولكن ليس هذا وقت النظر في العاقبة ، فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة بإذن الله ، وقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك : نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام ، فلما انتهى الكتاب إلى الملك قرأه على رجاله فقويت قلوبهم وصحت عزائمهم على الخروج ، ثم إن الملك خلا بخاصته من الكبراء وأهل الرأي وقال : أريد أن تتأملوا هذا الكتاب ، فإنني شعرت منه بأمر ، وإني غير سائر حتى أنظر في أمرى . فقال بعضهم : ما الذي لحظ الملك في الكتاب ؟ قال : إن فلانا من الرجال ذوى الحصافة والرأى ، وقد أنكرت ظاهر لفظه فتأملت خفواه فوجدت في باطنه خلاف ما يؤهم الظاهر ، وذلك في قوله : « أصبحت مستريحا من السعى ، فيريد أنه محبوس ، وقوله : « استضعفتهم بالنسبة إليكم ، يريد أنهم ضعفنا لكثرتهم ، وفوله « إنكم الفئة الغالبة بإذن الله ، يشير إلى قوله تعالى : « كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وقوله « رأيت من أحوال القوم ما يطيب به (قلب) الملك ، فإنني تأملت ما بعده فوجدت أنه يريد بالقلب : العكس ، لأن الجملة الآتية مما يؤم ذلك ، فقلبت الجملة وهي قوله « نصحت فدع ريبك ودع مهلك ، فإذا مقلوبها « كلهم عدو كبير . عُدَّ فَتَحَصَّنَ ، هـ .

الألغاز

هي جمع لغز ، وأصله الحفرة الملتوية يحفرها اليربوع والضب والفأر ، لأن هذه الدواب تحفر جحرها مستقيماً إلى أسفل ثم تحفر في جانب منه طريقاً وفي الجانب الآخر طريقاً ، وكذلك في الجانب الثالث والرابع ، فإذا طلب بعضها البدوي بعصاه من جانب نفق من الجانب الآخر . ثم استعملوه في الإتيان بالعبارة يدل ظاهرها على غير الموصوف بها ويدل باطنها عليه ، وهي من قبيل الملاحن ، وتشارك المعنى والأحاجي أيضاً من حيث التعمية في جميعها وإيرادها على ذلك الوجه المقصود ؛ إلا أن بينها فروقاً في الاعتبار والاصطلاح عند المتأخرين - كما تعرف ذلك فيما نسوقه منها وما نذكره من تاريخها - .

أما الألغاز فقد قال فيها السيوطي : هي أنواع ؛ ألغاز قصدها العرب ، وألغاز قصدها أئمة اللغة ، وأبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها وإنما قالتها فصادف أن تكون ألغازاً . وهي نوعان : فإنها تارة يقع الإلغاز بها من حيث معانيها ، وأكثر أبيات المعاني من هذا النوع ، وقد ألف ابن قتيبة في هذا النوع مجلداً حسناً ، وكذلك ألف غيره ؛ وإنما سماه هذا النوع أبيات المعاني لأنها تحتاج إلى أن يُسأل عن معانيها ولا تُفهم من أول وهلة ؛ وتارة يقع الإلغاز بها من حيث اللفظ والتركيب والإعراب ...

ثم أورد أمثلة من ذلك ، كالذي أنشده ابن سلام في كتاب الأضداد لابن دؤاد الإيادي :

رُبَّ كلب رأيتَه في وثاقٍ جعل الكلبَ للأمير جمالاً

رب ثور رأيت في جحر نمل وقطاة تحمل الأثقالا
والكلب : الحلقة التي تكون في السيف ، والثور : ذكر النمل ،
والقطاة [. . . .]

وكالذي أنشده الخليل لأبي مقدم الخزاعي :
وعجوز أتت تباع دجاجا لم يفرخن قدرأيت عضالا
ثم عاد الدجاج من عجب الدهر فراريج صبية أطفالا
وقال : يعنى دجاجة الغزل ، وهى الكبة أو ما يخرج عن المغزل ،
ويعنى بالفراريج : الأقيبة .

وكقول بعضهم من أبيات المعاني يصف نار القرى :
وشعناه غبراء الفروع منيفة بها توصف الحسناء أو هى أجمل
دعوتُ بها أبناء ليل كأنهم
وقد أبصروها مُعطشون قد أنهلوا^(١)

أنشدهما أبو عثمان الأشنادانى وقال : يصف ناراً جعلها شعناه لتفرق
أعالها ، كأنها شعناه الرأس ، وغبراء يعنى غبرة الدخان ، وقوله : بها
توصف الحسناء ، فإن العرب تصف الجارية فتقول : كأنها شعله نار
وقوله : دعوت بها أبناء ليل ، يعنى أضيافا دعاهم بضوئها فلما رأوها كأنهم من

(١) من أبلغ ما قيل فى وصف هذه النار وهو قريب مما نحن فيه ، قول الفرزدق :

ومستمع طاوى المصير كأنما يساوره من شدة الجوع أولق
دعوت بحمراء الفروع كأنها ذرا راية فى جانب الجو تخفق
ولانى سفية النار للبتغى القرى ولانى حلیم الكلب للضيف يطرق
وكان الجاحظ يكثر التعجب والاستحسان من قوله : سفية النار وحليم الكلب .

السرور بها معطشون قد أوردوا إبلهم .

وكذلك أورد [السيوطي] مما وقع به الإلغاز من حيث اللفظ والتركيب والإعراب كقول بعضهم :

أقول لعبد الله كما سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم
ومعناه : أقول لعبد الله لما سقاؤنا وهى ، أى ضعف ، ونحن بهذا الوادى :
شم ، أى شِم البرق عسى يعقبه المطر ، وقرينة هاشم لعبد شمس أبعدت فهم
المراد ، وكتبت (وهَا) بالألف للإلغاز .

ثم قال : وأما إلغاز أئمة اللغة فالأصل فيه ما قال أبو الطيب فى كتاب
مراتب النحويين عن الخليل ، قال : رأيت أعرابيا يسأل أعرابيا عن
البلصوص ماهو ؟ فقال طائر ، قال : فكيف تجمع ؟ قال : البَلْنَصَى ، قال
الخليل : فلو ألغز رجلٌ فقال : ما البلصوص يتبع البَلْنَصَى كان لغزاً .

وأورد السيوطى من هذا النوع قصيدة ضمنها أبو منصور بن الربيع
ألفاظاً من غريب اللغة وأحضرها أبا أسامة اللغوى حين نزل بمدينة واسط
على جهة الامتحان لمعرفته ، فكتب المستول جوابها لوقته مقتضياً ، وهو جواب
مطول يدل على اتساع فى الحفظ والرواية . وقد وقفت على قصيدة مثلها
أوردها الصلاح الكتبى فى فوات الوفيات لضياء الدين القوصى المتوفى سنة
٥٩٩هـ وقال إنه وسماها بالؤلؤة المسكونة واليتيمة المصونة فى الأسماء المنكرة
ثم ذكر أن شهاب الدين القوصى سرد شرحها فى معجمه عقب كل بيت ،
وهى قصيدة منكرة بما تحوى من اللفظ المنكر .

وقد ورد عن العرب الإلغاز بطريقة السؤال والجواب على النحو الذى
ذهب إليه المتأخرون ، بمثل ما ذكره على بن ظافر فى كتابه بدائع البداهة ،

وهو أن عبيد بن الأبرص لقي امراً القيس فقال له : كيف معرفتك بالأوابد ؟
قال : ألق ما أحبت ، فقال عبيد :

مَاجِبَةٌ مَيَّتَةٌ أَحِبْتُ بِمَيْتِهَا درداء ما أنبتت سنا وأضراسا ؟
فأجابه :

تلك الشعيرة تسقى في سنا بلها فأخرجت بعد طول المكث أكدا سا

إلى آخر المحاور في كتاب البدائع ، و صفحة ٥٨ من كتاب المعنى .
وقد ابتداء ولع المتأخرين بهذه الألفاظ من القرن السابع - وكانت
المحاجة بها قبل ذلك قليلة - وذهبوا فيها كل مذهب ، حتى إن أبا الحسن
ابن الجياب المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس كتاب الأندلس وأستاذ لسان الدين
ابن الخطيب قد أفرد لها في ديوان شعره باباً جاء فيه بأشياء بدیعة ؛ ولعل هذا
الباب من الشعر الذي سماه ابن أبي الأصبع في كتابه «تحرير التحبير» عند ما عد
المناحي التي يقول فيها الشعراء ، بباب السؤال والجواب ؛ وبلغ من ولعهم بها
أنها كانت ترد على دواوين الإنشاء من الأقطار ؛ وكانوا يجرون فيها على
طريقة العرب ، ويزيدون على ذلك الإشارة إلى الملغز به بالتصحيح والقلب
والحذف والتبديل وما أشبهها مما هو من صناعة المعنى ، وجملوا بالتورية
فزادوها إبداعاً حتى صارت من زينة الشعر ، كقول بعضهم في القلم .

وذى خضوعٍ راعٍ ساجدٍ ودمعهُ من جفنه جارى
مواظبٌ الخسيس ، لأوقاتها منقطعٌ فى خدمة البىارى
وقول القاضى صدر الدين بن الأدمى فى كشتوان (كسبان) :

مارفیق وصاحبٌ لك تلقا ه معینا على بلوغ المرام
هو للعین واضح وجلی وتراه فى غایة الإبهام ،

والأمثلة من أنواع الألغاز كثيرة في كتب الأدب ، ولكن من أبعدها غاية وأبدعها آية لغز الشيخ زين بن العجمي وقد كتبه نثرا ، وهو قوله :
سألتك أعزك الله عن سائل لاحظ له في الصدقة ... الخ (صفحة ٤٨٥
خزانة الأدب) .

ومن الألغاز نوع عجيب ، وهو أن تلغز في اسم ويأتي في اللغز بما يطابق صورة أحرفه في الرسم من الأشياء ، وهو نادر جدا في المأثور عنهم ؛ ومنه أن الوليد الوقشي وأبا مروان بن عبد الملك بن سراج القرطبي اجتمعا ، وكانا فريدي عصرهما ... الخ (ص ١٢٠ : المعجمي والألغاز) .
أما ألغاز النحاة والفقهاء وأهل الفرائض ومن ينتحلون الحكم والفلسفة فأكثرها مشهور ولا حاجة إلى البحث فيها ، لأن الفن أغلب عليها ، ولسنا في ذلك ؛ غير أنا نذكر عجيبة منه لم يتفق مثلها فيما وقفنا عليه من ذلك عينا أو أثرا ، وتلك أن المولى شمس الدين الغفاري من علماء دولة السلطان بايزيد في القرن الثامن وقفوا له على رسالة ضمها عشرين قطعة منظومة ، كل قطعة منها مسألة من فن مستقل ، وقد غير فيها أسماء تلك الفنون بطريق الإلغاز امتحانا لفضلاء دهره ، ولم يقدروا على تعيين فنونها فضلا عن حل مسألها . قال صاحب الشقائق النعمانية : وشرح هذه الرسالة ابنه محمد شاه وعين أسماء الفنون وبين المناسبة فيما ذكره من الألغاز وحل مشكلات مسألها . ووجه العجب في ذلك مسفر فانظروا فيه ...

الأحاجي

هي جمع أحمجية ، وهي اسم من الحاجة ، ويقال لها أدعية من المدعاة .
قال في الصحاح : ويقال : حجياك ما كذا وكذا ؟ وهي لعبة وأغلوطة
يتعاطاها الناس بينهم ، قال أبو عبيد : هو نحو قولهم : أخرج ما في يدي
ولك كذا ؛ وتقول أيضا : أنا حجياك في هذا الأمر ، أي من يحجياك .
وقال في تاج العروس : واحتجى : أصاب ما حوجى به ، قال :

فناصيتي وراحتي ورحلي ونسعا ناقتي لمن احتجها

فالأحاجي على ذلك تشبه الأغاليط التي يسميها عامة مصر « بالفوازير »
وهي بهذا المعنى أعم من الأغاز ، وإن كان الأصل في كلها واحدا .

وهذه الأحاجي غريزية في الفطرة على ما يظهر لي ، فإن الطفل الذي هو
دليل الطبيعة الأولى في الإنسان يسأل عن أشياء كثيرة بوصفها والإشارة
إليها ، فإذا سُئل هو بمثل ذلك كانت عنده أحاجي ؛ وما يؤيد ذلك ورود
بعض الأحاجي في أسفار العهد [القديم] كسيفر القضاة ، وشي مما يماثلها
في الخرافات القديمة أيضا (الميثولوجيا) ويكون تقرير هذه المعاني وإخراجها
مخرج الموضوعات النفيسة مما عمله الحكماء ملحقا بالرد والشرح وأمثالهما .
وأقدم ما وصل إلينا من أحاجي العرب نوع كان يستعمل في اختبار
البداهة وقوة العارضة ، فيلقى السائل الكلمة المفردة والمسئول يُتمها في
كل مرة حتى يحتبس لسانه أو يكمل بيانه ، كهذا الذي نقلوه عن هند بنت
الخنس وهي قديمة في الجاهلية أدركت المتلبس أحد حكام العرب الذي يقال
إنه أول من وصل الوصيلة وسيب السائبة — وهي امرأة ساجعة متبذلة

كانت تحاجي الرجال ، إلى أن مر بها رجل فسألته المحاجة ؛ فقال : كاد . .
فقلت : كاد العروس يكون الأمير ، فقال : كاد . . . قالت : كاد المتعل
يكون راكبا ، فقال : كاد . . . قالت : كاد البخيل يكون كلبا ، وانصرف ،
فقلت له : أحاجيك ، فقال قولي ، قالت : عجبت . . . قال : عجبت للسبخة
لايجف ثراها ولاينبت مرعاها ، فقلت عجبت . . . قال : عجبت للحجارة لايكبر
صغيرها ولايهرم كبيرها . . . ثم أخمها بكلمة بذئثة فحجملت وتركت المحاجة .
ولكن الحريري المتوفى سنة ٥١٦ وضع نوعاً من المعنى استعار له
اسم الأحجية ، وهو أول من اخترعه وسماه كذلك ، وقد نظم منه في المقامة
السادسة والثلاثين عشرين أحجية ، وقال : وضع الأحجية لامتحان الألمعية ،
واستخراج الخبيّة الخفية ، وشرطها أن تكون ذات مماثلة حقيقية وألفاظ
معنوية ولطيفة أدبية فتى نافت هذا النمط ضاهت السقط ولم تدخل السفط اه
وذلك النوع كلام مركب يستخرج منه لفظ بسيط لو جزئى انقسم إلى
مايعادل ذلك المركب في أجزائه ويرادفها في المعنى ، كقوله في أسكوب (*) :

يا من تبوأ ذروة في الفضل فاقت كل ذروه

ما مثل قولك : أعط إربى مآ يلوح بغير عروة ؟

لأن (أعط) يرادفها (أس) من الأوس [وهو الإعطاء] والإيريق

بغير عروة يرادفه الكوب .

وقول أبي الوفاء العرضى في صباه :

يا مفرداً فيما جمع وكاملاً فيما ابتدع

بين لنا أحجية حاصلها : اسكت رجّع ؟

(ه) قلت : الاسكوب : الإسكاف ، أو القين .

وقد فلا المتأخرون مركبات اللغة التي يُستخرج منها مثل هذه الألفاظ وجمعوا من ذلك كلمات كثيرة ، كقولهم : اطلب طريقا ، في «سلسبيل» ؛ وُتراب مُطْرَ ، في «البراغيث» لأن البرى هو التراب ، وقد أخذ بعض المعاصرين هذه الكلمة وجعلها هكذا «ابن عجب أمطرا» يريد : البرام بن عجب ، وهو صحابي .

[واقفان] الأحاجي ما عرفت من هذا النمط خروج بها عما ليس له حد إلى ما يُحد ، وبذلك تعسفوا بها في هذه [البواد] وركبوا من أمرها كآيات الثور بعد الجواد .

وقد ذكر عبد القادر البغدادي صاحب خزانة الأدب أن أجل التصانيف المؤلفة في الألفاظ والأحاجي كتاب الإيجاز في الأحاجي والألفاظ ، تأليف أبي المعالي سعد الوراق الخطيري ، قال : وهو كتاب تكل عن وصفه الألسن ، جمع فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين . اه .

المعمى

قدمنا أن هذا الفن هو الأصل من حيث الصنعة ، وأن الملاحن والألغاز
والأحاجى هى منه ، بعضها أعان عليه ، وبعضه أعان عليها ؛ ونحن موردون
هنا قولاً يشمل الجميع توفيةً للفائدة ، وإنما الاتساع مادة الإشباع .

نقل البغدادي في خزنة الأدب عن صاحب الإعجاز في الأحاجى والألغاز
في ذكر أسماء هذا الفن وعَوْدِها إلى معنى واحد ، أن هذا الفن وأشباهه
يسمى المعاياة ، والعويص ، واللغز ، والرمز ، والمحاجاة ، وأبيات المعانى ،
والملاحن ، والمرموس ، والتأويل ، والكناية ، والتعريض ، والإشارة ،
والتوجيه ، والمعمى ، والممثل . والمعنى في الجميع واحد ، وإنما اختلفت أسماءه
بحسب اختلاف وجوه اعتباراته ؛ فإنك إذا اعتبرته من حيث هو مغطى
عنك سميته مُعَمَّى ، مأخوذ من لفظ العمى ، وهو تغطية البصر عن إدراك
المعقول ، وكل شيء تغطى عنك فهو عمى عليك ؛ وإذا اعتبرته من حيث إنه
سُتر عنك ورُمس سميته مرموسا ، مأخوذ من الرمس ، وهو القبر ، كأنه قُبر
ودُفن ليخفى مكانه على ملتصقه ؛ وقد صنف بعض الناس في هذا كتاباً وسماه
المرموس ، وأكثره ركيبك عامى ؛ وإذا اعتبرته من حيث إن معناه يتول
إليك سميته التأويل ... الخ (ص ١١٦ ج ٣ : خزنة الأدب الكبرى) .

وقد ذكر جمال الدين بن نباتة في سرح العيون ، المتوفى سنة ٧٦٨ أن
المعمى سمى في عصره : المترجم ، وأن الخليل واضع العروض هو أول من
استخرجه ونظر فيه ، قال : وذلك أن بعض اليونان كتب بلغتهم كتاباً إلى
الخليل فخلا به شهراً حتى فهمه ، فقيل له في ذلك فقال : علمت أنه لا يقد

وأن يفتح باسم الله تعالى ، فبذيت على ذلك وقست وجعلته أصلاً ففتحته ،
ثم وضعت كتاب المعنى اه .

وهو خبر لانراه محتملاً إلا أن يكون ذلك اليوناني مستعرباً وافتح
كتابه حقيقة باسم الله على الطريقة العربية ، فلا يبقى ثمت إلا أن تُواتى الفطنة
ويُسعف الإلهام . ونظير ذلك ما فعله شامبليون في قراءة الخط الهيروغليفي
الذي كان على حجر رشيد بعد أن اعتمد ترجمة اليوناني في المقابلة ، وكان
ذلك مبدأ لما بعده إلى اليوم .

واستمر من المعنى بعد الخليل أمثلة متفرقة لا تُفرد بالتدوين ولا تنسب
في المعالجة ؛ حتى كان الجاحظ يقول : ليس المعنى بشيء ؛ قد كان كيسان
مستمى أبي عبيدة يسمع خلاف ما يقال ، ويكتب خلاف ما يسمع ويقرأ
خلاف ما يكتب . وكان أعلم الناس باستخراج المعنى ؛ وكان النظام على قدرته
على أصناف العلوم لا يقدر على استخراج أخف ما يكون من المعنى .

وفي كلمة الجاحظ تحاملٌ بين على الخليل ، وما كان النظام وهو ما هو
ليتفرغ لشيء كالمعنى حتى يكون عجزه خطأ من الفن ؛ ولا شك أن النظام
كان عن سائر الفنون التي لم يزاوها أعجز منه عن المعنى .

وتجد شيئاً من تلك الأمثلة المتفرقة في يتيمة الدهر للثعالبي ، وقد ذكر
في ترجمة أبي أحمد بن أبي بكر الكاتب ، أن أباطلحة قسورة بن محمد كان
من أولع الناس بالنصحيفات ، فقال له أبو أحمد يوماً : إن أخرجت مصحفاً
أسألك عنه وصلتك بمائة دينار ، قال : أرجو أن لا أقصر عن إخراجه ؛
فقال أبو أحمد « في قشور هيم جمد » فوقف حمار قسورة وتبلد طبعه ، فقال :
إن رأى الشيخ أن يمهلى يوماً فعل ؛ فقال : أمهلتك سنة ؛ فحال الجول

ولم يقطع شعرة ؛ فقال له أبو أحمد : هو اسمك : قسورة بن محمد ؛ فازداد
خجله وأسفه ...

وهذا تقين أن المعنى لم يكن قد بلغ شيئاً مما انتهى إليه عند المتأخرين ،
وأن المعروفين به كانوا على قلتهم إنما يُعرفون بفرط الرغبة وشدة الولوع ،
لا كما يُعرف المتميز بالفن على وجه الإحاطة به والاختصاص فيه .

وما زال ذلك أمره حتى وقع إلى الأعاجم فدونوه واستنبطوا قواعده ،
وأنزلوه في رتبة بين الفنون والعلوم ؛ وأول من فعل ذلك منهم شرف الدين
على اليزدي الفارسي صاحب تاريخ ظفر نامه في الفتوحات التيمورية ، وقد
أطلقوا عليه لقب الواضع له ، وتوفي سنة ٨٣٠ - قال قطب الدين المكي :
وما زال فضلاء العجم يقتفون أثره ويوسعون دائرة الفن ويتعمقون فيه إلى
أن أُلّف فيه المولى نور الدين عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة ٨٩٧ صاحب
شرح الكافية عشر مسائل ؛ فدوّنت وشرحت ، وكثر فيها التصنيف إلى أن
نبغ في عصره المولى مير حسين النيسابوري المتوفى سنة ٩١٢ فأتى فيه بالسحر
الحلال وفاق في تعمقه ودقة نظره سائر الأقران والأمثال ؛ كتب فيه رسالة
تكاد تباعج حدّ الإعجاز ... وارتفع شأن مير حسين بسبب علم المعنى مع
تعمقه في سائر العقليات ، فصار ملوك خراسان وأعيانها يرسلون أولادهم
إليه ليقرءوا رسالته عليه ... وظهر بعدهما فائقون في المعنى في كل قطر
بحيث لو جمعت تراجمهم لزادت على مجلد كبير .

وقطب الدين الموما إليه هو أول من ترجم طريقة المعنى عن الفارسية
إلى العربية في رسالة سماها كز الأسماء في كشف المعنى ؛ وتلاه تليذه
عبد المعين بن أحمد الشهير بابن البكاء البلخي ، فألف رسالة سماها الطراز

الاسمى على كثر الاسما .

وحد المعنى أنه قول يستخرج منه كلمة فأكثر بطريق الرمز والإيماء بحيث يقبله الذوق السليم ، ويشترط فيه أن يكون له في نفسه معنى وراء المعنى المقصود بالتعمية ؛ وقال القطب في الفرق بينه وبين اللغز : إن الكلام إذا دل على اسم شيء من الأشياء بذكر صفات له تميزه عما عداه كان ذلك لغزاً ، وإذا دل على اسم خاص بملاحظة كونه لفظاً بدلالة مرموزه سمي ذلك معمى ؛ فالكلام الدال على بعض الأسماء يكون معمى من حيث إن مدلوله اسم من الأسماء بملاحظة الرمز على حروفه ، ولغزاً من حيث إن مدلوله ذات من الذوات بملاحظة أوصافها ؛ فعلى هذا يكون قول القائل في كمون :

يا أيها العطار أعرب لنا عن اسم شيء قل في سؤمكا

تنظـره بالعين في يقظة كما ترى بالقلب في : نومكا

يصلح أن يكون لغزاً بملاحظة دلالاته على صفات الكمون ، ويصلح أن يكون في اصطلاحهم معمى باعتبار دلالاته على اسمه بطريق الرمز اه . ولاستخراج المعنى أعمال مدونة لا تتعلق بالجهة التاريخية منه ولا بالجهة العلية ، ولكنها تتعلق بالجهة العملية ، وإذا أخذنا في بسطها احتجنا أن نأتى بتأليف جديد في هذا الفن ؛ وهو ما لا يتسع له الغرض إلا إذا أحفينا في الطلب ، ولسنا نستطيع أن نحمل القلم على هذه السنة في سائر الفنون من علم الأدب .

البنود والمستزاد

هي جمع «بند» فارسية معربة ، وقد ذكر في التاج أنها تطلق على الألغاز والمعميات ، على أن المراد بها هنا هذا النوع من السجع الذي بُنيت جملة على التوقيع وقسمت إلى أجزاء قصيرة من العروض تنتظم أوزانا مختلفة فتكسبها شبا من الشعر وهي ليست منه .

وتلك صناعة في النثر لا يُعرف مخترعها ، ولكن الكلام كله لا يخلو من بعض جمل تتفق مع هذا النوع اتفاقا قريبا أو بعيدا ، ولا سيما بعض أسجاع العرب ، وأنت تعرف ذلك إذا تتبعت واستقصيت .

ولا جرم أن كلمة البند المطلقة على هذه الصناعة تدل على واحد من أمرين : إما أنها ملحقة في أصلها بالألغاز والمعميات ، وإما أنها من صنعة أحد أدباء المعجم ، سواء احتذاها على مثال أو ابتدأها ، وهذا أرجح الرأيين ؛ لأنه لم يعرف من هذه الطريقة شيء قبل البنود الخمسة التي رصفها الشاعر المعروف بابن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ وهي ملحقة بديوانه ، وقد جعل الأول في وصف الآيات السماوية ، والثاني في وصف الآيات الأرضية ، والثالث يتخلص فيه إلى ذكر فعمة إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ ثم ينتهي في الرابع والخامس إلى مدح شخص مُسمى ، وهذه المعاني كما ترى من أغراض الشعر ؛ فهي دليل على حقيقة الصنعة . ومن البند الأول قوله :
أيها الراقد في الظلمة ، نبه طرف الفكرة ، من رقدة الغفلة ، وانظر أثر القدرة ، وانجلُ غمَّس الخيرة ، في فجر سنى الخيرة . وارنُ إلى الفلك الأطلس والعرش ، وما فيه من النقش ، وهذا الأثر الأدكن ، في ذا الصنع المتقن ،

والسبع السماوات؛ ففي ذلك آيات، هدى تكشف عن صحة إثبات إله، كشفت قدرته عن غرر الصبح، وأرخت طرر النجج على نحر ضياه، فغدا يغسل من مبسمه الأشنب، في مضمضمى نور سناه، لَعَس الغهب، واستبدات الظلمة من عنبرها الأسود بالأشهب، وأعتاضت من مفرقها الحالك بالأشيب.

ومما يعجب له أن ابن معتوق ختم جميع بنوده الخمسة بالراء المفتوحة، ولم يلتزم فيها غير ذلك مما يطرد في الجميع، فكان ختام الأول « سرا وجهاراً »، والثاني « مساءً ونهاراً »، والثالث « بهاراً ونصاراً »، والرابع « عذاراً »، والخامس « مزاراً »، وقد خفي علينا وجه الحكمة في ذلك، إلا أن يكون من مقتضيات التوقيع، فتكون تلك القوافي قرارات للنغم.

ولم يضرب على قالب ابن معتوق إلا القليل، كالأديب المسمى بن خلفه البغدادي، وهو من أدباء القرن الثاني عشر، فقد عثر له بعضهم على بند من مثل ذلك أوله:

أيها اللائم في الحب، دع اللوم عن الصب فلو كنت ترى الحواجب
الزج، فوق الأعين الدُّعج... إلى أن يقول في ختامه: لو ترانا كل يبدى
لدى صاحبه العتب، ويسدى فرط شوق كامن أضمره القلب سحيراً، والتقى
قمصنا ثوب عفاف قط مادُّس بالائم سوى اللثم، لأصبحت من الغيرة
في حيرة، وأعلنت بحب الشادن الأهيف سرا وجهاراً...

قلت: وهذا عجيب أيضاً، فإن لم يكن ابن خلفه من ضعفاء المقلدين الذين يسقطون بكلمة ويطيرون بكلمة، فإن الراء المفتوحة، أو أى قافية مطلقة، تكون شرطاً في ختام هذه البنود، وهو غريب.

ولابد هنا أن نذكر نوعاً قريباً من البنود إلا أنه مستقل باسمه وصفاته ،
وهو النوع المعروف بالمستزاد ، وأظن أن مأخذ البند منه ؛ إلا أن الذي
أخذه أطلق الوزن وهو في المستزاد مقيد .

ولم يقع إلينا سبب هذه التسمية ولا أصلها ، غير أنى وقفت في الشقائق
النعمانية في ترجمة المولى حضريك بن جلال الدين ، وكان يلقب بجراب
العلم ، وهو من علماء السلطان محمد الفاتح ، على منظومة منه ، وهي :
يامن ملك الإنس بلطف الملكات ، في حسن صفات ... الخ (ص ١٥٤)
هامش الجزء الأول من ابن خلكان .

وكذلك أورد لأحمد باشا ابن المولى ولي الدين الحسيني المتوفى سنة
٩٠٢ قطعة أخرى في معارضة هذه ، وليس من عادة صاحب الشقائق أن
يورد لمن يترجمهم شيئاً من مثل هذه المختارات ؛ فخرصه على إيراد القطعة
الأولى ومعارضتها ، يدل على أن النوع غريبٌ عندهم .

المعجم والمهمل

تقدم في مبحث الخط معنى الإجمام واشتقاقه وتاريخه ، والمراد بالمعجم والمهمل فيما سنأتى عليه الآن ، هذا النوع من النثر والنظم الذى يلتزمون فيه إهمال بعض الأحرف وإجمام الأخرى ؛ وأردل من وضعه وبرز فيه الحريرى صاحب المقامات ، ولم يتكلفه أحد قبله فيما نعلم ، وإن كان كثيراً ما يتفق فى منظوم الكلام ومشوره ، لكن على غير اطراد ولغير قصد ، فالاطراد والقصد إذن هما معنى الاختراع فيه ؛ وليس يخلو الكلام بته من أحرف مهملة وأخرى معجمة ، لأن بالقسمين جماع مادته وقوام تركيبه .

والذى يدل على أن الحريرى هو أول [من] قصد إلى هذا النمط ، ما وُطِّأ له به فى المقامة السادسة ، إذ يقول عن لسان أبى زيد بعد أن تنقص القدماء لأنهم لم يؤثروا عنهم إلا لتقادم الموالد ، لا لتقادم الصادر على الوارد : « وإنى لأعرف الآن من إذا أنشأ وشئى ، وإذا عبّر حبر ، وإن أسهب أذهب ، وإذا أوجز أعجز ، وإن بدّه شده ، ومتى « اخترع خرع » .

ثم ذكر أن إنشاء رسالة حروف إحدى كليتها يعمها النقط ، وحروف الأخرى غير معجمة « غُضَلَةُ الْعُقْد ، وَتَحَكَّ الْمُنْتَقِد ، وأول هذه الرسالة : « الْكَرْمُ ثَبَتَ اللهُ جَيْشَ سُعُودِكَ يَزِين ، وَاللُّؤْمُ غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ يَشِين » .

ثم عاد إلى ذلك فى المقامة السادسة والعشرين ، فساق رسالة سماها الرقطاء ، لأن أحد حروفها مهمل والآخر معجم ، وأولها : « أخلاق سيدنا تحب ، ويعقوبه يلب ، إلا أنه اعتبر المدة فى (لا) حركة ، كما اعتبر

التاء المربوطة في الرسالة الأولى وما بعدها هاء

وكذلك ذكر في المقامتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين خطبتين عربيتين عن الإجماع؛ ثم عاود الكثرة في المقامة السادسة والأربعين، فجاء بأبيات مهملة الأحرف سماها العواطل، وأبيات معجمة سماها العرائس، وأبيات كلمة منها مهملة وأخرى معجمة وسماها الأخياف

فهذه المصطلحات التي أطلقها أسماء، وتقليبه هذا النوع على الأوجه المختلفة، والتوطئة التي استخرجناها من المقامة السادسة — كلها أدلة على أن الرجل واضع هذه الطريقة؛ لأنك لا تصيب هذه العناية في مقاماته لغير هذا النوع مما عرف لمن قبله وإن كان له فيه زيادة، كالنوع الذي لا يستحيل بالانعكاس.

وقد زاد الصني الحلي في تقسيم نوع المعجم والمهمل فأتى بأبيات صدورها معجمة وأبجأها مهملة، ولم يأت به الحريري في تقسيمه؛ ووضع بعض المتأخرين نوعاً جديداً سماه عاطل العاطل، واستخرج ذلك من أن بعض الحروف تكون مهملة ولكن أسماءها في المنطق ليست كذلك، كالعين والميم؛ وبعضها تكون مهملة الاسم والمسمى، وهي ثمانية أحرف: الحاء، والداد، والراء، والصاد، والطاء، واللام، والواو، والهاء؛ فنظم منها أبياتاً كأذنب الضباب. وإنما مدار هذه الصناعة على أن تكون في نسق الكلام لافي نسق العقد؛ ولولا ذلك لجاء الناس منها بالطم والرم، أما أن يخرج إلى التعقيد ويؤخذ بها مأخذ الرقي والطلاسم، فلذلك اسم آخر؛ والخمر إذا فسدت صار اسمها خلّاً

وبما أذكره بالإعجاب والاستحسان أن بعض علماء القرن الماضي،

وهو العلامة الشيخ عبد الغنى الرافعى صادف من بعض الرؤساء فتوراً ، ثم انقلب إغفالاً فإهمالاً ، فعاتبه برسالة مهملة الأحرف ضمنها نظماً ونثراً ، ووقع عليها بهذا التوقيع وداع محروم ،

فكان إهمال أحرفها عتاباً فوق العتاب ، وحظاً من البلاغة لا يُعد في سحر الألسنة ولكن في سحر الأبواب .

وقد وصل بعضهم بنوع المهمل إلى أن جعلوه كتباً فمنهم من فسر به قصيدة في التصوف ، ومنهم من فسر به القرآن الكريم ؛ وما أقيح الفكاهة ان تكون جذاً والفاكهة في بعض الطعام أن تكون كل الطعام ، وكذلك فعلوا ، ومثلهم في هذه المضیعة كثير .

المتائم

هذا نوع من الجناس اخترعه الحريري وذكر منه أبياتاً في المقامة السادسة والأربعين سماها الأبيات المتائم ، لأنها مبنية على الألفاظ المزدوجة ، فكأنها جمع متمم ، وهي من النساء التي من عاداتها أن تلد توأمين ، وهي خمسة أبيات ، أولها :

زُيِّنَتْ زَيْنَبٌ بِقَدِّ يُقَدُّ وتلاه وتلاه هَهُدٌ يَهُدُّ
جُنْدُهَا جِيدُهَا وَظَرْفُهَا تَاعِسُ تَاعِسٌ بِحَدِّ يَحْدُّ

وأخص صفات هذا النوع أنك إذا أصبته عاطلاً من النقط مُغفلاً من الضبط غمى عليك وجه قرامته فلا تبين من ذلك شيئاً ؛ وهو نفس الجناس الذي يسميه أهل البديع بالمصحف ويقولون في حده : إنه ما تماثل ركناه خطأ واختلفا لفظاً كقوله تعالى ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ إلا أن هذا النوع قد أضيف على التصحيف فيه التحريف باختلاف الحركة ، فهو مصحفٌ مُحرفٌ ؛ ولم يمثلوا له بغير قول الحريري .

وكنت وقفت على كلمات من هذا النوع لبعض الكتاب ولا أدري إذا كان متقدماً على الحريري أو هو متأخر عنه ، فلا بد أن يكون أحدهما أخذ عن الآخر ، وهذه عبارة ذلك الكاتب « غرَّكَ عَزَّكَ فَصَارَ قَصَارَ ذَلِكَ ذَلِكَ فَاحْشُ فَاحِشٌ فَمَلِكٌ فَمَلَكٌ بِهَذَا تَهْدَا ، ولكن ما لاشك فيه أن الحريري

أول من نظم في هذا النوع ثم وطئوا عقبه فيه ، وقد ذكر في كتاب السكز المدفون المنسوب للسيوطي بعض أبيات ركيكة على تلك الطريقة أفسدها التحريف ولم تنسب هناك لأحد ، ومنها :

دَلَّهَا دَلَّهَا فَضَلَّتْ قَضِيْبٌ وَاعْتَدَتْ وَاعْتَدَتْ بَعْتَبِ تَعِيْبِ

ولم يذلل هذه الطريقة كالصفي الحلبي ، فإنه جاء منها بأربعمائة فقرة نثراً وثمانين نظماً في عشرة أبيات ، وضمن ذلك جميعه رسالته التي سماها التوممية وذكرت في ديوانه التوممية خطأ ، وقد أنشأها سنة ٧٠٠ ، وقال في سبب ذلك : إنه أنشأها حين جرى - بحضرة المولى السلطان الملك المنصور نجم الدين أبي الفتح بن أرتق - ذكر أبيات الحريري وعجز المتأخرين عن هذه الصناعة نظماً ونثراً ، قال : وكنت أوثر من قبل أن أعرفه طرفاً من صورة واقعتنا بالعراق التي أوجبت انتزاحي ، وأعرض بطلب خدمة يبلده مدة مقامي عندهم في إنشاء بعض الرسائل المعجزة ، فعندها أنشأت هذه الرسالة في تلك الصناعة وضمنتها ذكر ذلك كله ولقب السلطان لزواله الشبهة عنها ... اه
وأول هذه الرسالة :

قَبْلَ قَبْلَ يَرَاكَ تَرَاكَ عَبْدٌ عِنْدَ رَخَاكَ رَجَاكَ

ولا ينظر في هذا النوع إلا إلى محض الصنعة ، فهو بعيد من التصفح والانتقاد فيما سوى ذلك ؛ وما أرى الكاتب يحمل منه إلا على مثل مشتبك الأسنه في ساحة الأوراق ، وهو إذا ظفر بعد ذلك كان الفتح الذي أقل ما يقال فيه إنه استغلاق .

ومادمنها في ذكر الصفي ومخترعاته ، فإن لهذا الأديب كتاباً سماه

الدر النفيس في أجناس التجنيس ، اخترع فيه نوعا مشكلا ، وذلك أن
يجعل أركان التجنيس ثلاثة في صدر البيت وثلاثة في عجزه ، وهو نوع لم
يأت به غيره ، لأنه ألفاظ معدودة ، وقد نظم في ذلك أبياتا مطلعها
(ص ٣٩٩ : ديوان الحلي) :

سَلَّ سَلْسَلَ الرِّيقِ لَمْ لَمْ يَرَوْ حَزْظًا بَلْ بَلْبَلِ الْقَلْبَ لَمَّا زَادَهُ أَلْمَا

صناعات مختلفة

لسنا نزعم أننا بما أتينا على بيانه من هذه الصناعات قد استوفينا هذا البحث وتركناه في حكم المفروغ منه ، ولكننا إنما جئنا بأشياء استخرجناها من زوايا النسيان ، ونفضنا عنها غبار القدم ، وأحصيناها من صحف التاريخ لإحصاء الحسنات والسيئات ؛ وزوايا النسيان مظلمة ، وغبار القدم متجحر ، وصحف التاريخ لا تُعدّ ؛ وما عسى أن يسمّى هذا العناية الناصب إلا بحثاً ؛ بل ما عسى أن يكون البحث غير ذلك ؛ فإذا كانت الأيام قد طوت بعض الصناعات في صدور أصحابها ، أو ذهبت النكبات بآثارهم ، أو قطع الإهمال عرق التاريخ في بعض هذه الآثار حتى أصبح لا يعرف أصله ، ولا كيف نشأ وتقلب - فليس ذلك مما يلحق المؤرخ تبعه التقصير فيه ؛ إذ هو إنما يستنطق الآثار ، ويتعلق بالأخبار ؛ فأما أن ينقب السماء ويدخل منها إلى الماضي ويبحث فيه عن الغيب ويحدس [ويتسكهن] ، فذلك شيء غير التاريخ .

ومن أجل هذا رأيت قلبي أصبح يطلب الوقوف بعد أن وصل إلى الصحيفة التي لا يجرى فيها إلا قلم الغيب . وسنشير فيما يلي إلى ما بقى من الصناعات التي انقطع دورها التاريخ وكانت دليلاً على غيرها مما انقطع عنا بتاريخه ، إن كان تمتّ من هذا شيء أو أشياء .

المشجر

هو نوع من النظم يُجعل في تفرعه على أمثال الشجرة - وتسمى مُشجراً لاشتجار بعض كلماته ببعض ، أي تداخلها ، وكل ما تداخل بعض أجزائه في بعض فقد تشاجر - وذلك أن يُنظم البيت الذي هو جذع القصيدة ،

ثم يُفَرَّع على كل كلمة منه تنمة له من نفس القافية التي نُظِمَ بها، وهكذا من جهتيه اليمنى واليسرى، حتى يخرج منه مثلُ الشجرة، وإنما يشترط فيه أن تكون القطع المكملة كلها من بحر البيت الذي هو جذع القصيدة، وأن تكون القوافي على روى قافيته أيضاً؛ وهو متأخر عن القرن الحادي عشر، إذ مر برك في مبحث القشطير أن أدباء ذلك القرن كانوا يسمونه بالمشجر هذا النوع المعروف اليوم بالمطرز، ولا نحضرنا في ذلك أمثلة جيدة رضاها للتمثيل.

ولعل أخذ هذه التسمية بما يسمونه بشجرة النسب؛ إذ هما متشابهان في الوضع متفقان على الجملة في الترتيب، وهذه الكلمة (شجرة النسب) كانت مستعملة في القرن الرابع وما بعده، بدليل وجود بعض كتب في الأنساب مُسمّاة بهذا الاسم (راجع فهرست المكتبة الخديوية).

غير أن لهذا النوع من الصناعة أصلاً قديماً؛ إذ عثر بعض أدباء البغداديين في كتاب نيل السعود في ترجمة الوزير داود، وهو مجموع خطي لم يذكر فيه اسم جامع كتب سنة ١٢٣٢ ويحتوي بعض قصائد في مدح هذا الوزير، ثم منتخبات أخرى لشعراء مختلفين، ومنها بيت شعر منسوب لبديع الزمان الهمداني، وهو من نوع المشجر بعينه، إلا أنه يتفرع من جهة واحدة لا من جهتين كما اصطلاح عليه المتأخرون... (ص ٣٨٦ ج ٧: المجلد الثاني من المقتبس)

المقطع والموصل

ومعنى الأول أن تكون كلمات المنظومة كلها منفصلة الأحرف رسماً، وهو بخلاف الثاني، فإن جميع أحرفه ينبغي أن تكون متصلة بعضها [ببعض]

في كل كلمة؛ ولم نر من ذلك شيئاً لغير الصفي الحلي، فربما كان أول من خصصه بالنظم وربما كان متابعاً، وعلى أيهما فذلك من عبث الصناعة؛ ومثال الموصل قول الصفي:

إذا زار داري زورٌ ودودٌ أودَّ وأورده ورد ودي
وهي ثلاثة أبيات تدور في جملتها على هذه الأحرف لأن الحروف التي ترسم منفصلة معدودة؛ ومثال الثاني قوله:

سَلْ مُتَلْفِي عَطْفًا عَسَى يَتَعَطَّفُ فَلَقَدْ قَسَا قَلْبًا فَمَا يَتَلَطَّفُ
وجميعها سبعة أبيات، وكل ذلك في ديوانه.

المصحفات

هذا نوع يلحق بالصناعات، لأن المدار فيه على القصد والتعمل، فتجىء بالألفاظ توهم المدح، فإذا صحّفت خرجت ذماً وقدحاً، كما تقول: هو كاتب أمين فإذا صحّفته قلت هو كاذب أفين، مثلاً؛ فذلك كالهجو في معرض المدح الذي يعرفه البديعيون، وهو من مستخرجات ابن أبي الإصبع، ولكن ذلك في الألفاظ بما يدل ظاهرها وباطنها باعتبار مواقعها في الكلام لا غير.

وقد ذكر صاحب الشقائق (ص ٣٢٨) في ترجمة المولى شمس الدين المتوفى في حدود التسعمائة، وهو من أفراد علماء الموسيقى، أنه كان ينظم القصائد العربية والفارسية والتركية ويمدح بها الأكارب ويرسلها إليهم، وكل قصيدة إذا صحّفت من أولها إلى آخرها يحصل منها هجو.

وقد ينظمون الأبيات إذا قرئت صدورها وأعجازها كانت مدحاً، فإذا أفردت الصدور خرجت منها أبيات في الذم؛ [وأحياناً] أخرى إذا قرئت

معكوسة الألفاظ كانت هجاء وهي في طردها مديح .

ولم نعثر من نوع المصحفات على شيء من النظم ، بل لم نهتد إلى أنه من الصناعات إلا بكلمة صاحب الشقائق التي أوردناها ، وهو رجل كان لا يحفل بحياة التاريخ فأماته في كتابه ؛ لأنه قلما ترجم إلا الأسماء والصفات الجامدة ، فكأن كتابه بعد عصره إنما يترجم الموتى للموتى ، فإنه لم يذكر في ترجمة شمس الدين - على أنه من أفراد الموسيقى ومن عجائب المصنّعين - إلا أسطرا ، وكذلك شأنه في غيره ، وأين من ذلك حقيقة التاريخ ؟

* * *

قلت :

إلى هنا انتهيت من ترتيب ما وجدت بخط المؤلف رحمه الله من كتاب « تاريخ آداب العرب » وكان التدبير أن يكون بعد هذا الفصل فصول وأبواب ، ولكنني لم أعتد بين ما خلف من أوراقه على غير ما قدمت ؛ فلعله وقف من تأليفه عند هذا الحد ، أو لعل ورقات منه قد أبلأها القدم وبعثرها الإهمال ؛ وقد انتهى تحقيقي إلى أن المؤلف - رحمه الله - قد نفّض يده من هذا البحث قبل وفاته بأكثر من ربع قرن ، ثم لم يرجع إليه ولم ينظر فيه بعد ذلك . وكان الفراغ منه في مساء السبت ١٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٥٩ - ٢٥ من مايو سنة ١٩٤٠ بعد انتقال مؤلفه إلى جوار ربه بثلاث سنين وخمسة عشر يوما . رحمه الله وأجزل ثوابه .

محمد سعيد العريان

فهرست

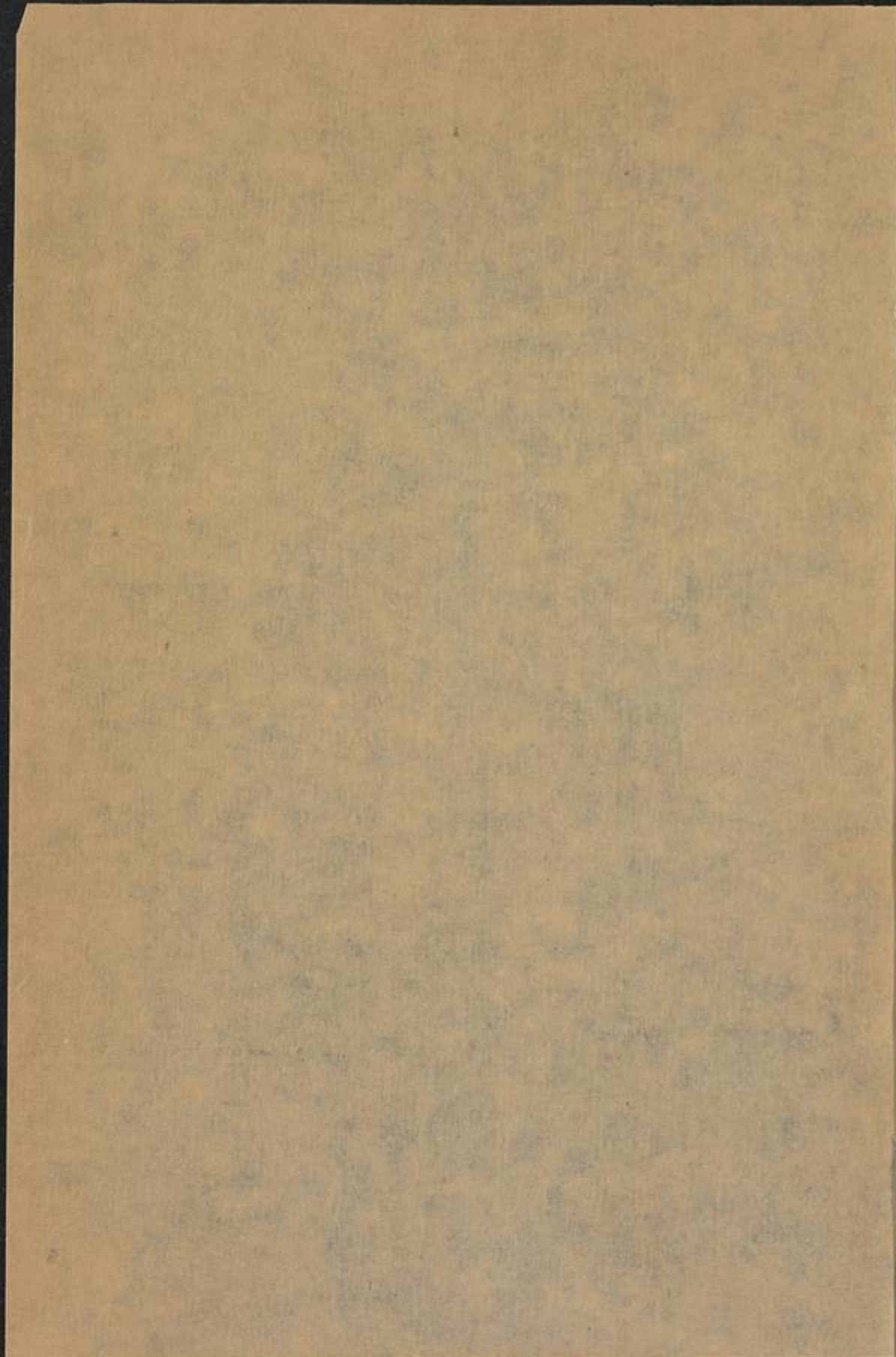
<p>الهجاء في القبائل ٧٧</p> <p>الهجاء في الشعراء ٨٣</p> <p>مشاهير الهجائين ٨٦</p> <p>المدح ٩٠</p> <p>شعراء الكندية أو الشعر الساساني ٩٦</p> <p>الفخر والحماة ٩٩</p> <p>الرناء ١٠٤</p> <p>الغزل والنسيب ١١٠</p> <p>الشعر الوصفي ١١٩</p> <p>الشعر الحكيم ١٢٧</p> <p>الشعر الإلهي ١٣٣</p> <p>الشعر الأخلاقي والمبادئ الاجتماعية ١٢٦</p> <p>الشعر الهزلي ١٤٠</p> <p>الشعر القصصي ١٤٦</p> <p>الشعر العلمي ١٥٥</p> <p>الفنون المحدثنة من الشعر ١٦٠</p> <p>الموشح . اختراعه ١٦٠</p> <p>سبب اختراعه ١٦٣</p> <p>الموشح الملاحون ١٦٥</p> <p>بعض أنواع الموشح ١٦٦</p> <p>نوايع الوشاحين ١٦٨</p> <p>كتب التوشيح ١٧٠</p> <p>أندوبيت ١٧٢</p> <p>الشعر العامي والمواليا ١٧٤</p> <p>الزجل ١٧٦</p>	<p>(هـ) مقدمة : محمد سعيد العربيان ١</p> <p>الباب الخامس في تاريخ الشعر العربي ومذاهبه والفنون المستحدثة منه وما يلتحق بذلك ١</p> <p>الاقوال في أولية الشعر العربي ٢</p> <p>تحقيق هذه الأولية ٥</p> <p>نشأة الشعر ٨</p> <p>الباعث على اختراع الشعر ١٠</p> <p>أول من قصد القصائد ١٤</p> <p>الرجز والقصيد ١٥</p> <p>الشعر في القبائل ١٧</p> <p>بيوتات الشعر والمعرقون فيه ٢١</p> <p>سبب الشعراء ٢٢</p> <p>حالة الإنشاد ٢٥</p> <p>ألقاب الشعراء ٢٧</p> <p>المقلون والمكثرون ٣٠</p> <p>الارتجال والبديهة والروبة ٣٥</p> <p>النبوغ وألقابه في الشعراء ٤١</p> <p>الاختراع والاتباع ٤٤</p> <p>الاتباع وأنواعه ٤٧</p> <p>شياطين الشعراء ٤٩</p> <p>طبقات الشعراء ٥٣</p> <p>الشاعرات ٥٥</p> <p>تنوع الشعر العربي وفنونه ٦٧</p> <p>الهجاء ٧٤</p>
---	---

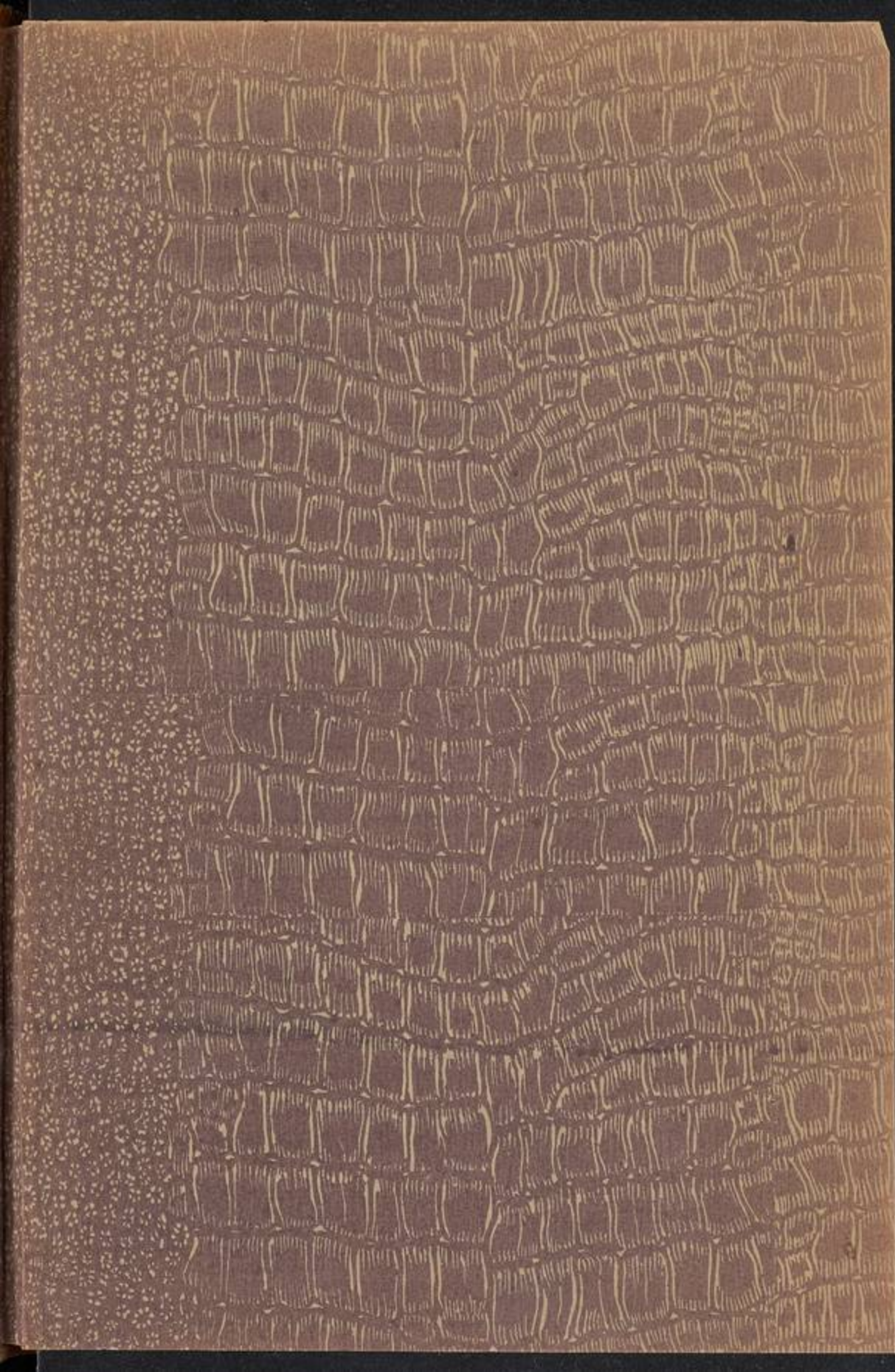
- ٢٦١ الباب السابع في أدب الأندلس
إلى سقوطها ومصرع العربية فيها
- ٢٦١ الأدب وتأثره بالتاريخ السياسي
٢٦٢ الأندلس من العراق
٢٦٧ عربية الأندلس
٢٦٩ أولية الأدب والعلوم
٢٧٣ الأدب في القرن الثالث
٢٧٧ الحضارة الأندلسية
٢٨٠ أدباء ملوك الأندلس
٢٨١ مبلغ عنايتهم بالعلم والأدب
٢٩٢ القرن الخامس وملوك الطوائف
٢٩٦ عصر الوزراء
٢٩٩ القرن السادس
٣٠٢ الأدب ودولة الموحدين
٣٠٥ نكبة الفيلسوف ابن رشد
٣٠٩ بعد القرن السادس
٣١١ الشعر الأندلسي والتلحين
٣١٢ الشعراء الفلاسفة
٣١٧ أدبيات الأندلس
٣١٩ علوم الأندلسيين
٣٢٠ العلوم الفلسفية
٣٢٦ مقاومة الفلاسفة العربية في
أوروبا وانتشارها
٣٢٨ آخرة الفلسفة العربية
٣٣٠ العلوم الأدبية
٣٣٢ كتاب سيوييه عندهم
٣٣٤ علماء العربية والأدب
- ١٨٢ فنون أخرى
١٨٢ الاصمعيات والبدوى
١٨٣ كان وكان، والقوما
١٨٣ الحماق
١٨٤ العامي الغريب
- ١٨٦ الباب السادس في حقيقة
القصائد المعلقة ودرس
شعراتها
- ١٨٦ السبع الطوال
١٩٤ امرئ القيس
١٩٨ طويلة امرئ القيس
٢٠١ شاعرية امرئ القيس وأسباب
شهرته
٢٠٨ شعر امرئ القيس
٢١٠ استعاراته
٢١٤ تشبيهاته
٢٢٠ تنمة الانتقاد
٢٢٥ المنازعة بين امرئ القيس وعلقمة
٢٢٨ قصيدة امرئ القيس
٢٣٢ قصيدة علقمة بن عبدة
٢٣٥ طرفة بن العبد
٢٣٨ شعره
٢٤٢ مذاهبه في الشعر
٢٤٦ زهير بن أبي سلى
٢٤٨ مختاراته وسببها
٢٥٠ شعره
٢٥٧ خشونة الشعر الجاهلي

٣٧٥ لزوم ما لا يلزم	٣٣٧ المائة السادسة
٣٧٧ الشيفية والسيفية : للحريري	٣٤٠ المائة السابعة
٣٧٩ القوافي المشتركة	٣٤١ نكت الاندلسيين
٣٨٢ القصائد المعراة	٣٤٢ المائة الثامنة
٣٨٥ محبوك الطرفين	٣٤٣ كلة في تراجم هذا البحث
٣٨٨ ذوات القوافي	٣٤٥ مصرع العربية في الاندلس
٣٩٣ القوافي الحسية	٣٤٨ اليهود بالاندلس وترجمة كتب الفلسفة
٣٩٦ التاريخ الشعري	٣٥١ ترجمة الفلسفة العربية في أوروبا
٤٠٤ التخميس والتشطير وما إليهما	٣٥٣ تنصر العربية
٤٠٩ ما يقرأ نظماً ونثراً	٣٥٤ ديوان التفتيش
٤١٢ نوع من حل المنظوم	٣٥٦ آخرة العربية
٤١٥ ما لا يستحيل بالانعكاس	٣٥٨ الباب العاشر في التأليف وتاريخه عند العرب ونوادر الكتب العربية - كتب الشعر
٤١٧ الملاحن	٣٥٩ الطبقات والتراجم
٤٢٣ الألفاظ	٣٦٣ كتب المختارات
٤٢٨ الأحاجي	٣٦٥ الحاسة
٤٣١ المعنى	٣٦٧ مختارات أخرى
٤٣٥ البنود والمستزاد	٣٧٠ الباب الحادي عشر في الصناعات اللفظية التي أولع بها المتأخرون في النظم والنثر وتاريخ أنواعها
٤٣٨ المعجم والمهمل	
٤٤١ المتائم	
٤٤٤ صناعات مختلفة	
٤٤٤ المشجر	
٤٤٥ المقطع والموصل	
٤٤٦ المصحفات	
٤٤٧ تذييل : محمد سعيد العريان	

1877 ...
1878 ...
1879 ...
1880 ...
1881 ...
1882 ...
1883 ...
1884 ...
1885 ...
1886 ...
1887 ...
1888 ...
1889 ...
1890 ...
1891 ...
1892 ...
1893 ...
1894 ...
1895 ...
1896 ...
1897 ...
1898 ...
1899 ...
1900 ...
1901 ...
1902 ...
1903 ...
1904 ...
1905 ...
1906 ...
1907 ...
1908 ...
1909 ...
1910 ...
1911 ...
1912 ...
1913 ...
1914 ...
1915 ...
1916 ...
1917 ...
1918 ...
1919 ...
1920 ...
1921 ...
1922 ...
1923 ...
1924 ...
1925 ...
1926 ...
1927 ...
1928 ...
1929 ...
1930 ...
1931 ...
1932 ...
1933 ...
1934 ...
1935 ...
1936 ...
1937 ...
1938 ...
1939 ...
1940 ...
1941 ...
1942 ...
1943 ...
1944 ...
1945 ...
1946 ...
1947 ...
1948 ...
1949 ...
1950 ...
1951 ...
1952 ...
1953 ...
1954 ...
1955 ...
1956 ...
1957 ...
1958 ...
1959 ...
1960 ...
1961 ...
1962 ...
1963 ...
1964 ...
1965 ...
1966 ...
1967 ...
1968 ...
1969 ...
1970 ...
1971 ...
1972 ...
1973 ...
1974 ...
1975 ...
1976 ...
1977 ...
1978 ...
1979 ...
1980 ...
1981 ...
1982 ...
1983 ...
1984 ...
1985 ...
1986 ...
1987 ...
1988 ...
1989 ...
1990 ...
1991 ...
1992 ...
1993 ...
1994 ...
1995 ...
1996 ...
1997 ...
1998 ...
1999 ...
2000 ...

1877 ...
1878 ...
1879 ...
1880 ...
1881 ...
1882 ...
1883 ...
1884 ...
1885 ...
1886 ...
1887 ...
1888 ...
1889 ...
1890 ...
1891 ...
1892 ...
1893 ...
1894 ...
1895 ...
1896 ...
1897 ...
1898 ...
1899 ...
1900 ...
1901 ...
1902 ...
1903 ...
1904 ...
1905 ...
1906 ...
1907 ...
1908 ...
1909 ...
1910 ...
1911 ...
1912 ...
1913 ...
1914 ...
1915 ...
1916 ...
1917 ...
1918 ...
1919 ...
1920 ...
1921 ...
1922 ...
1923 ...
1924 ...
1925 ...
1926 ...
1927 ...
1928 ...
1929 ...
1930 ...
1931 ...
1932 ...
1933 ...
1934 ...
1935 ...
1936 ...
1937 ...
1938 ...
1939 ...
1940 ...
1941 ...
1942 ...
1943 ...
1944 ...
1945 ...
1946 ...
1947 ...
1948 ...
1949 ...
1950 ...
1951 ...
1952 ...
1953 ...
1954 ...
1955 ...
1956 ...
1957 ...
1958 ...
1959 ...
1960 ...
1961 ...
1962 ...
1963 ...
1964 ...
1965 ...
1966 ...
1967 ...
1968 ...
1969 ...
1970 ...
1971 ...
1972 ...
1973 ...
1974 ...
1975 ...
1976 ...
1977 ...
1978 ...
1979 ...
1980 ...
1981 ...
1982 ...
1983 ...
1984 ...
1985 ...
1986 ...
1987 ...
1988 ...
1989 ...
1990 ...
1991 ...
1992 ...
1993 ...
1994 ...
1995 ...
1996 ...
1997 ...
1998 ...
1999 ...
2000 ...







Bookkeeper[®]

Decidification for Libraries and Archives

August 2009

